بدايات

أحمد البوزيدي

التاريخ الاجتماعي لدرعة

(مطلع القرن 17
مطلع القرن 20)

دراسة في الحياة السياسية
والاجتماعية والاقتصادية
من خلال الوثائق المحلية

آفاق
مطبعة النجاح الجديدة

أحمد البوزيدي

التاريخ الاجتماعي لدرعة

(مطلع القرن 17 ـ مطلع القرن 20)

دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية من خلال الوثائق المحلية

صدر هذا الكتاب بدعم من مؤسسة
الملك عبد العزيز بالدار البيضاء

ـ آفاق ـ
متوسطية

Dépôt légal : 336 /1994
ISBN : 9981 34 002 2

Impression SONIR

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــر وتقديـــر

لايسعني وأنا مقبل على نشر هذا العمل إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والإمتنان إلى ثلة من السادة الافاضل الذين أدين هم بالكثير في انجاز هذا البحث وأخص بالذكر العم السيد البصري المدني الذي ظل إلى جانبي طيلة مدة البحث يذلّل لي الصعاب خاصة في ميدان التنقيب عن الوثائق والوصول إلى مكامنها.

وإلى الاستاذ الجليل والعالم الفاضل السيد أحمد التوفيق أتقدم بالشكر والتقدير، لتضحيته بالكثير من وقته الثمين لتتبع مراحل هذا البحث، وصبره الجميل على عناد الباحث المبتدىء.

ولا يفوتني أن أنوه بالمساعدات المعنوية والمادية التي تلقيتها من الاخوين الدكتور مرزاق الحبيب بالرباط والدكتور مرزاق محمد بمراكش، وكذا الاستاذ العالم الشريف السيد الحاج عبد السلام الأزمي بصفرو، الذي كان يفتح لي أبواب منزله في كل وقت وحين للاطلاع على مخطوطاته وكتبه النادرة.

وأتقدم بالشكر إلى كل العائلات من سكان زوايا وقصور وادي درعة الذين كانوا لا يبخلون عليَّ بوثائقهم الخاصة.

بعض الاختزالات المستعملة

خ.ع ــ : الخزانة العامة بالرباط

خ.ح ــ : الخزانة الحسنية

A.M.: Archives Marocaines

R.G.M.: Revue de Géographie du Maroc

C.H.E.A.M.: Centre des Hautes Etudes d'Administrations Musulmanes.

B.E.S.M.: Bulletin Economique et Social du Maroc.

المدخل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

1 ـ أهمية موضوع الدراسة وإطارها العام

تتناول هذه الدراسة التاريخ الاجتماعي لواحات وادي درعة الشمالية والوسطى[1] وتمتد هذه المنطقة من أفلَّا نَدْرَى (أعلى درعة) بالمدخل الشمالي لواحة مزجيطة إلى واحة محاميد الغزلان على مشارف الصحراء الكبرى.

وقد هدفنا في اختيارنا بالمنطقة وادي درعة إلى المساهمة في إتمام الحلقات الناقصة في الإطار العام للتاريخ الوطني، خاصة بعد ظهور مجموعات من الدراسات المنوغرافية التي ركزت على تاريخ الجنوب المغربي[2].

أما الاعتبارات التي حدث بنا إلى التركيز على التاريخ الاجتماعي لدرعة فيمكن إجمالها في الملاحظات الآتية :

1. أن واحات وادي درعة بموقعها الجغرافي تعتبر صلة وصل بين بلاد سوس غربا وبلاد تافيلالت شرقا من جهة، وبين إفريقيا السوداء وجبال الأطلس الكبير وشمالي المغرب من جهة ثانية. وقد توفرت لهذه الواحات وبفضل هذا الموقع، الظروف المادية والموضوعية، لتصبح بؤرة تتفاعل داخلها التيارات الوافدة عليها من المناطق المجاورة، خاصة من بلاد سوس وبلاد تافيلالت وافريقيا السوداء. كما أتاح لها هذا الموقع القيام بدور تجاري وحضاري لا يقل أهمية عما قامت به سوس وتافيلالت.

---

(1) تكون المنطقة التي شملتها الدراسة من ست واحات وهي من الشمال إلى الجنوب : واحة مزجيطة، واحة تينزولين، واحة تزناتة، واحة فزواطة واحة لكتاوة وواحة محاميد الغزلان.

(2) من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر.

ـ اعفيف محمد : مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي (توات في القرن العشرين) د.د.ع ـ الرباط 1982

ـ علي المحمدي : مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن 19
(المجتمع الباعمراني وعلاقته بالمخزن) د.د.ع. الرباط 1985

LARBI MEZZINE : LE TAFILALT : Contribution à l'histoire du Maroc aux 17 et 18 siècles - Casablanca - 1987

2. أن تفتح هذه الواحات على المجالات الصحراوية، جعلها تتعرض باستمرار لهجومات القبائل الصحراوية المترحلة مثل قبائل بني معقل وقبائل أيت عطا، وقد كانت هجومات هذه القبائل تشتد إبان دورات الجفاف، وفي أوقات الفراغ السلطوي الأمر الذي كان ينعكس سلبا على السير الطبيعي للحياة الاجتماعية والاقتصادية بالمنطقة(3).

3. تتساكن بقصور واحات درعة عناصر بشرية متباينة الأعراق والأصول، تعتبر في الواقع من بقايا القبائل والمجموعات البشرية التي تعاقبت على تعمير بلاد درعة في عصور غابرة.

وقد فقدت هذه العناصر البشرية كل مفهوم لمعنى القبيلة في اطارها البدوي، كما تخلت عن كل احساس بالانتماء إلى مجموعة بشرية معينة عن طريق القرابة الدموية، أو الانتساب إلى جد مزعوم. وقد تحولت هذه العناصر إلى الاستقرار والارتباط بالأرض بعدما فقدت كل ما يذكرها بأصولها القديمة، وأصبحت تشكل ما يمكن تسميته «بقبيلة القصر»(4).

4. توافدت إلى واحات درعة في عصور قديمة جدا، عناصر مشرقية (اليهود مثلا)(5) وعناصر من افريقيا السوداء. وقد لعب هذان العنصران دورا أساسيا في الحياة الاقتصادية، حيث كان اليهود يعملون في التجارة والاعمال الحرفية، في حين كانت العناصر الإفريقية تشتغل في الاعمال الزراعية.

ويسود الاعتقاد بأن هذه العناصر الافريقية السوداء كانت تشكل المجموعات البشرية التي استطونت واحات درعة في العصور القديمة(6).

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن جذور العلاقات بين هذه العناصر التي يفترض أصلية وقديمة بواحات درعة وبين قبائل الرحل التي طرأت على الوادي منذ القرن السابع الهجري/13م إلى غاية نهاية القرن الثالث عشر الهجري /19 م. وتتشكل قبائل الرحل بالأساس من بني معقل ثم قبائل أيت عَطّا.

وقد كانت هذه العلاقات تتسم في كثير من الحالات بنوع من التأزم الحاد، الأمر الذي جعل سكان القصور بدرعة يلتجئون خلال الفترة التي حددتها الدراسة، إلى عقد سلسلة من الإتفاقيات

---

(3) ترددت كثيرا مسؤولية قبائل الرحل من بني معقل وأيت عَطّا في عرقلة النمو الطبيعي لواحات وادي درعة في كتابات بعض الباحثين الفرنسيين. انظر مثلا

— G. SPILLMANN : Districts et tribus de la haute vallée du Draa. A.M. Volume. .9 Tome 2. Paris 1931

— D.J. MEUNIE : Le Maroc Saharien des Origines au 16 siècle - Paris - 1982

(4) «قبيلة القصر» عبارة عن مجموعة بشرية تتساكن داخل أي قصر من قصور درعة، ولا رابطة بين أفرادها سوى رابطة المصالح المشتركة المتمثلة في الارض والماء والدفاع عنهما.

(5) كان اليهود في مطلع القرن يتساكنون مع أهل درعة في أكثر من ثمانين قصرا، رحل جلهم في عهد الحماية ورحل آخرهم مع بداية عهد الاستقلال.

(6) بني هذا الاعتقاد على ما ورد من ذكر للاثيوبيين الدرعيين في الكتابات الإغريقية واللاتينية القديمة انظر مثلا : G. Camps : Recherches sur les origines du cultivateur noir du Sahara. R.O.M.M., Tome 3 - 1970 - pp. 35-45

لتنظيم العلاقة بينهم وبين قبائل الرحل، التي كانت طبيعة تعاملها مع سكان الوادي تميل إلى الخشونة واستعمال العنف في بعض الأحيان.

إذا كان الموضوع قد تحدد في إطار جغرافي يتمثل في منطقة وادي درعة، فإن الاطار الزمني، يمتد من بداية القرن الحادي عشر الهجري /17 م إلى مطلع القرن الرابع عشر الهجري /20 م. ولا يعزى اختيارنا لهذه الفترة إلى سنة معينة أو حدث حاسم عرفته المنطقة، وإنما ربطنا ذلك بالظرفية العامة التي تلت وفاة السلطان أحمد المنصور السعدي سنة 1012 هـ/1603 م، وما صاحب ذلك من أحداث سقطت معها هيبة الدولة في المغرب عامة والجنوب خاصة. فتهافت متصوفة تافيلالت وسوس على السلطلة، ونازعوا أبناء أحمد المنصور وحفدته في ولاية درعة، وهكذا تعاقب على الاستبداد بدرعة طيلة النصف الاول من القرن الحادي عشر /17 م كل من أحمد بن أبي محلي الفيلالي وأبي زكريا الحاحي ثم أبي حسون السملالي(7) الذي لم يستطع الصمود أمام قوات مولاي مَحمد ابن الشريف العلوي الذي تمكن من إخضاع درعة لامارة العلويين الوليدة بصفة نهائية ابتداء من سنة 1041 هـ/1651 م.

كان لهذه الاحداث التي عرفتها واحات درعة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17 م عواقب سلبية على الأوضاع الإجتماعية والبنيات الاقتصادية التي استرجعت نشاطها بشكل خاص في عهد أحمد المنصور السعدي. كما ساهمت هذه الأحداث في تفكيك ما تبقى من تجمعات معقليةَ قوية بدرعة، مما أتاح الفرصة لتجمعات قبائل أيت عطًا من الظهور على مسرح الأحداث. وقد ظلت قبائل أيت عطًا تثير المتاعب في وجه الدولة العلوية الوليدة.

وبالرغم من الحرْكَات القوية التي كان سلاطين الدولة العلوية يوجهونها من حين لآخر إلى درعة لردع القبائل الصحراوية، فإن هذه الاخيرة ما كانت لتهدأ حتى تضطرب من جديد طيلة الفترة التي تغطيها هذه الدراسة.

2 ـــ الإمكانات المصدرية

من خلال قراءتنا الأولية، وتتبعنا لأخبار واحات وادي درعة في كتب الإخباريين وكتب الرِّحلات، لاحظنا أن الصنف الأول من الكتب لا يتعرض لواحات وادي درعة إلا في إطار زمني ضمن السرد العام لأخبار العمليات الردعية التي كان يقوم بها سلاطين الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، ضد قبائل الرحل ببلاد درعة وأطرافها، التي ما فتئت تثور وتشغب على السلطة المركزية.

كان الاخباريون عندما يتعرضون لذكر وَادي درعة يقتصرون فقط على طبيعة العمليات الحربية للسلاطين في المنطقة دون اهتمام بالجانب الاجتماعي أو العمراني لدرعة، الأمر الذي جعل هذه المصنفات التاريخية لا تخرج عن اطار العموميات التي لا تفيد كثيرا في كتابة التاريخ المحلي أو الجهوي لمنطقة مثل درعة.

(7) فيما يتعلق بأحداث هذه المرحلة انظر الفصل الذي خصصناه لأخبار درعة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17م.

أما كتب الرّحلات والاوصاف الجغرافية، فإنها تمدنا بإشارات جد هامة وقيمة عن أحوال سكان درعة وظروفهم الإجتماعية والإقتصادية، نلتمس فيها بعض الدقة والاستمرارية خاصة عندما يتعلق الأمر بالظروف المناخية ونمط عيش السكان الأمر الذي يجعلنا نؤكد على استقرار أحوال المنطقة على ما هي عليه لعدة قرون.

وحتى يتأتى لنا تتميم الإطار العام لمختلف جوانب تاريخ بلاد درعة ورسم صورة تقريبية للحياة الاجتماعية والتطورات الإقتصادية والسياسية التي عرفتها المنطقة، فقد اعتمدنا على الوثائق المحلية التي تعكس الكثير من عادات وتقاليد مجتمع الجنوب المغربي عامة ومجتمع الواحات بصفة خاصة.

وقد كشفت لنا التحريات الميدانية التي قمنا بها في عين المكان عن إمكانات وثائقية هائلة بزوايا وقصور درعة، فأصبح هاجسنا الأول ومنذ سنة **1979** وإلى غاية سنة **1984** العودة إلى وادي درعة والتجول عبر قصوره، لاستخراج الوثائق الدفينة في جعاب من قصب أو في صُرَرٍ من قماش، وكنا نقضي أوقاتا طويلة لنفض الغبار عنها، وتتبع محتوياتها والكشف عما يفيدنا منها

وقد سمحت لنا الحصيلة التي تجمعت بين أيدينا من هذه الوثائق على تحسس ومتابعة التطور الذي عرفته «قبيلة القصر»[8] ضمن «قُطَّتها»[9] المعترف لها بها داخل المنظومة القبلية التي تنتمي إليها قبيلة القصر[10].

ومن جهة ثانية سمحت لنا هذه الوثائق بملاحظات مختلف التطورات الإجتماعية والأنشطة الإقتصادية بالمنطقة والكشف عن الخيوط المتحكمة في نسيج البنى الداخلية لقبيلة القصر تبعا للضوابط التي تضعها جماعة القبيلة، فالجماعة تخطط وتقرر وتنفذ بنود الضوابط طبقا لما هو مسطور في رسم القبيلة وعقود الأسلاف.

وقناعة منا بمحاولة الإجابة على الاشكاليات التي تطرحها الدراسة، وتجنبا للسقوط في شرك الإفتراضات والتأويلات المبالغ فيها فقد حرصنا على أن تكون مصادرنا متنوعة.

---

(8) تحمل قبائل القصور بدرعة اسم القصر الذي تسكنه المجموعة البشرية التي تتساكن داخل أسوار هذا القصر، فنقول مثلا : قبيلة قصر بني صبيح، قبيلة تنسيطة، الخ.

(9) «القُطَّة» بضم وشد، كما ينطق بها محليا، اسم المجال التي تتصرف فيه وتتحرك داخله قبيلة القصر. وغالبا ما يبنى القصر في نقطة وسطى من النقطة لضمان مراقبة كاملة لها. وتضم القطة المجال الزراعي والرعوي الذي تتصرف فيه قبيلة القصر. ولعل الكلمة تنطوي على معنى الاقطاع الذي عرفته درعة على عهد بني مرين والسعديين ثم في العهد العلوي. حيث كانت هذه الدول تقطع بعض الاراضي الزراعية للقبائل المعقلية مقابل عملها بالجيش.

(10) كثيرا ما كانت بعض قبائل القصور تتحول من حلف إلى حلف ضمن المنظومات القبلية بواحات درعة حفاظا على مصالحها التي تكون مهددة من قبائل هذا الحلف أو ذاك.

1 — الـوثـائـق

توخينا أن تكون مستنداتنا متنوعة، ليس في طبيعتها وشكلها فقط، وإنما أيضا في مضمونها وموادها، وتشمل هذه الوثائق :

I — الإتفـاقيـات[11]

هذه الاتفاقيات عبارة عن رسوم تعاقدية التزامية بين طرفين أو بين أطراف متعددة يلتزم بمقتضاها شخص أو أكثر نحو شخص أو أكثر بإعطاء شيء أو عمل عمل أو بالامتناع عن فعل[12] ونهدف باستعارتنا لهذه القاعدة القانونية إلى تحديد تعريف شامل بمختلف الإتفاقيات، انطلاقا من الديباجة اللغوية الإتفاقيات في العادة بعد البسملة أو الحمدلة. ولعل نصوص هذه الاتفاقيات تعتبر مادة مهمة للباحث في التاريخ الإجتماعي لوادي درعة. ذلك أنها أكثر الوثائق تعبيرا عن السلوك النفسي والإجتماعي للمجموعات البشرية التي تتشكل منها القبيلة، سواء في إطارها التكافلي الضيق ضمن مؤسسة القصر[13] أو في إطارها التحالفي الواسع ضمن لف مّا لمواجهة المستجدات (دورات الجفاف على الخصوص) أو البشرية (هجومات قبائل الرحل، الصراعات المحلية) ومن جهة أخرى فإن هذه الاتفاقيات تكشف لنا عن فعالية الجماعة بالنسبة لقبيلة القصر، فالجماعة هي التي تسهر على الأمن الداخلي لأفراد القبيلة وعلى حل مشاكلهم اليومية[14] وتدل كل القرائن على أن هذه الاتفاقيات هي الثابت الحاضر في التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية بواحات درعة طيلة الفترة التي شملتها الدراسة.

إذا كانت الصيغ العامة للإتفاقيات بدرعة تجعلنا ندرجها ضمن العقود الالتزامية بين طرفين أو بين أطراف متعددة. كما أن تحديدها الوصفي الخارجي لا يخرج عن الإطار العام للعقود التعاملية ودورها في تنظيم العلاقات لأي تجمع بشري. فإن التحديد الوظيفي لهذه الاتفاقيات ووضعها ضمن حركية التاريخ القبلي على العكس من ذلك، يستلزم منا تحديدا نوعيا لأصنافها واستقراء لمضامينها، خاصة وأن لكل نوع من هذه الاتفاقيات دورها الخصوصي المميز في التأثير على البنى الداخلية للقبيلة سواء في إطارها التكافلي الضيق ضمن قطتها، أو في إطارها التحالفي الواسع، حفاظا على طبيعة التوازنات وفعاليتها في مجتمع مثل مجتمع وادي درعة، حيث تخضع أنساقه لتفاعلات بشرية وطبيعية حادة.

---

(11) فضلنا استعمال الاتفاقيات على التعريفات الاخرى التي أعطيت للأعراف القبلية في جهات أخرى من الجنوب المغربي، تبعا للاستعمالات المحلية عند سكان القصور بواحات درعة. وتعرف هذه الاتفاقيات بتعقيدين في تافيلالت، وبالألواح أو الأوفاق بسوس أو العرف بفكيك.

(12) مامون الكزبري : قانون العقود والالتزامات المغربية جزء أول ص 21آ

(13) يقوم القصر كمؤسسة اجتماعية بعدة أدوار في آن واحد فهو الى جانب كونه مؤسسة استقرارية تعتبر قبيلته مؤسسة سياسية قائمة الذات بين مختلف القصور والقبائل المحيطة بها.

(14) سنركز أكثر على دور الجماعة ضمن مؤسسة القصر في الفصل الذي سنخصصه للاتفاقيات التنظيمية.

وانطلاقا من الصيغ العامة للاتفاقيات، تمكنا من تحديدها في ثلاثة أصناف :

أ : الإتفاقيات التكفُلية[15]

الإتفاقيات التكفلية هي الإتفاقيات التي يتم عقدها بين إحدى القبائل القوية من قبائل الرحل وبين قصر من قصور دراوة[16]. أو بين إحدى هذه القبائل وبين زاوية من زوايا درعة. وقد يحدث أن يضطر أحد الشيوخ الزمنيين المحليين إلى عقد مثل هذه الإتفاقيات مع إحدى قبائل أيت عطا[17]

ب : الإتفاقيات التنظيمية

الإتفاقيات التنظيمية هي الإتفاقيات الداخلية التي تنظم الشؤون العامة لقبيلة القصر.

والإتفاقية التنظيمية عبارة عن مجموعة من الضوابط العرفية اتفقت جماعة قبيلة القصر على وضعها. وتعتبر هذه الضوابط قانونا داخليا يخضع إليه سكان القصر دون اعتبار لانتمائهم العرقي ووضعهم الإجتماعي[18]، وَيسري مفعوله داخل أسوار القصر وخارجه في حدود قُطّة القبيلة. وتتجدد ضوابط الاتفاقيات التنظيمية على رأس كل سنة أو على رأس كل سنتين مع تجديد اختيار الشيخ وأعيان القبيلة.

ج : اتفاقيات تَيَسَّى والاتفاقيات الصلحية

اتفاقيات تَيَسَّى[19] والإتفاقيات الصلحية هي الإتفاقيات التي كانت تعقد بين قبيلتين أو بين مجموعات من القبائل يجمعها لف واحد أو تنضوي تحت لفين متعارضين، لجعل حد لحالة من الحروب القبلية، وانهاء عمليات النهب والإغتصاب وكسر الأسواق الأسبوعية أو اليومية، وتهديم السواقي والآبار وغيرها.

II — وثائق متنوعة

التقطنا أثناء جولاتنا المتكررة بقصور وزوايا وادي درعة مجموعة من الوثائق المتنوعة، وتشمل بطائق المداينة وبيع السلم، ومزممّات الصوائر اليومية لبعض المساجد ورسوم استصلاح الأراضي واستغلالها

(15) اعرضنا عن ذكر وظائف هذه الاتفاقيات وأصنافها، لأننا سنتطرق لذلك بكيفية مفصلة ومدققة في الفصول التي خصصناها لكل صنف من هذه الاتفاقيات.

(16) تطلق كلمة دْرَاوة ومفردها دْرَاوي خارج وادي درعة على سكان درعة مطلقا، دون اعتبار لأصولهم العرقية ووضعيتهم الاجتماعية. وتطلق محليا على السمر من سكان درعة أي الحراطين. وقصور دراوة هي القصور التي تسكنها اغلبية حرطانية.

(17) من ذلك مثلا مَحمد بن الفاطمي المزواري، بالرغم من كونه خليفة للكَلاوي علي تينزولين، فقد اضطرَّ الى عقد اتفاقيتين تكفليتين سنة 1346هـ/1927م مع قبيلة أيتْ إسفول.

(18) تطبق ضوابط الاتفاقيات التنظيمية على الأشراف والمرابطين داخل القصر.

(19) سنوضح بتفصيل معنى كلمة تَيَسَّى في الفصل الذي خصصناه لهذه الاتفاقيات.

بالشركة، ولوائح تسجيلات النخيل لأغراض جبائية ورسائل التولية والعزل وظهائر التوقير والاحترام، والمراسلات الرسمية والخاصة. وتغطي هذه الوثائق الفترة الزمنية التي تمتد من سنة 1098 هـ/1686 م إلى سنة 1337هـ/1918م.

1 ـ بطائق المداينة وبيع السَّلم

إذا كانت هذه البطائق تظهر وكأنها عديمة الفائدة بالنسبة للتاريخ الحدَثِي، فإن أهميتها كبيرة في استجلاء ملامح الحياة اليومية بالنسبة لسكان واحات درعة، والكشف عن مختلف الأنشطة الاقتصادية وطرق المعاملات التجارية بالمنطقة منذ نهاية القرن العاشر الهجري / 16م إلى غاية مطلع القرن الرابع عشر الهجري /20م.

ويمكن اعتبار المعلومات المستقاة من هذه البطائق، مكملة وموضحة للمعلومات التي يمكن استخلاصها من رسوم الأملاك العقارية والرسوم الاسترعائية ـــ الاستحفاظية[20].

وقد سمحت لنا هذه الاتفاقيات برسم الاطار العام للمعاملات اليومية بين الفئات الفقيرة والفئات الغنية، إن على مستوى قبيلة القصر أو على مستوى الواحة.

كانت بطائق المداينة وبيع السَّلم تسمح للفلاحين إبان الأزمات الاجتماعية ودورات الجفاف الحادة، بالاستدانة وبيع منتوجاتهم قبل أوان نضجها. وقد كانت هذه الطريقة في التعامل بين فقراء القبائل وأغنيائها وكأنها نوع من التعاون أو التكافل. والواقع أن الكثير من البطائق التي بين أيدينا قد سمحت لنا بالكشف عن الجانب السلبي لهذه الطريقة، ذلك أن أصحاب الدين، كانوا لا يترددون في التضييق على المدانين والتشدد معهم حتى يخضعوا في نهاية الأمر للدخول في المساومات التي غالبا ما تنتهي بتنازل الفلاح الفقير عن أرضه وتفويتها لأرباب الديون[21].

وتدل كل القرائن على أن بعض أغنياء القبائل، وأصحاب الزوايا وبعض الفئات اليهودية، كانوا يستغلون مثل هذه الظروف لتجميع أكبر قدر ممكن من المساحة الأرضية وتجميعها تحت أيديهم ولا يخفى ما تشكله ملكية الأرض والماء في مجتمع واحات درعة. فملكية الأرض بالنسبة لأعيان القبائل، أداة

---

(20) نتوفر على النسخ الأصلية لثلاثة رسوم استرعائية ــ استحفاظية سجل فيها أصحابها كل ممتلكاتهم بعدما وجدوا أنفسهم مضطرين الى مغادرة درعة، لكون البلاد «خالية من الحكام وولاة الأمر» كما ورد في هذه الرسوم. وقد أكدت هذه الرسوم أنهم غير ملزمين بما قد يصدر عنهم من بيع أو تفويت للممتلكاتهم تحت أي ظرف من الظروف.
وقد كتبت هذه الرسوم في وقت أشتدت فيه الأزمة الاجتماعية بدرعة نتيجة الضغوط التي مارستها قبائل أيت عطا على المستقرين خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الثالث عشر الهجري/19م.

(21) جاء في إحدى بطائق المداينة ما يلي :
«الحمد لله ثبت ندمة ومال حدُّ بز المدني وربيبه لحسن بن حمُّ لِماسكه سعيد بن احمد بن عبد الله اثنا عشر بسيطة ثمن ثلاثة أمْدُدٍ من الشعير ستة ارباع لكل واحد منها. ووثقاله جنان أحَدِّ مَنْ، يحده ملك المسجد، وشهرته تكفي وأجّلهما الى الصيف» من وثائق قصر تيكيث.

فعالة لكسب الأنصار والفوز بسمة «الدار الكبيرة» التي تعتبر لبنة أساسية في بناء صرح الزعامة في مجتمع يتسم أصلا بالفقر وقلة الانتاج. أما بالنسبة لأصحاب الزوايا فإن الأرض تعتبر الخلفية الاقتصادية التي تسمح لهم باكتساب الأتباع، والمكانة الاجتماعية والجاه بين القبائل، ولن يتأتى لأي زاوية أن تفرض نفسها في المجتمع القروي بالمغرب عامة والجنوب خاصة، ما لم تكن لها أملاك عريضة تمكنها من القيام بوظائفها الاجتماعية، خاصة وظيفتي الضيافة ونشر العلم[22].

2 ــ مزممات الصوائر اليومية لبعض المساجد

لا يكاد أي قصر من قصور وزوايا وادي درعة، يخلو من أحباس خاصة بمسجد القبيلة، وتشمل هذه الأحباس عادة بعض الأراضي الزراعية وأشجار النخيل ونوبات الماء، ويتم استغلالها بالكراء. ويخصص ريعها للإنفاق على لوازم المسجد من حصر وزيت للإنارة وشراء الدِّلاء والحبال بالاضافة إلى أعمال الصيانة كما ينفق منها على المؤذن والفقيه المشارط بمسجد القصر. وكان نظار هذه المساجد يعينون من لدن قاضي درعة أو من ينوب عنه أو تختار جماعة القبيلة شخصا معروفا بأمانته وصدقه فتعهد إليه بالإشراف على ممتلكات المسجد.

وقد كان هؤلاء النظار يسجلون في مزممات خاصة الصوائر اليومية أو السنوية للادلاء بها عند كل محاسبة، وكانوا يحرصون على توضيح أثمان المواد بكيفية مدققة.

وقد سمحت لنا هذه المزممات بتحديد أسعار بعض المواد الأساسية بواحات درعة مثل التمور والشعير والقمح والزيت وغيرها. كما سمحت لنا بملاحظة التطور الذي كانت تعرفه هذه الأسعار إبان الأزمات الاجتماعية وأوقات الجفاف. وبصفة عامة فإن هذه المزممات قد سمحت لنا بإغناء المعلومات الخاصة بالحياة الاقتصادية التي استخلصناها من بطائق المداينة وبيع السَّلم.

(22) كانت الزوايا بواحات وادي درعة مع بداية عهد الحماية تملك ثلثي الأراضي الصالحة للزراعة انظر :
TRANIER : Aperçu économique sur la vallée du Draa R.G.M. n° 3 et 4 - 1935. p. 257.

III ـــ الظهائر السلطانية

تجمع لدينا رصيد كبير من الظهائر السلطانية وتشمل :

1 ـــ ظهائر التوقير والاحترام :

وتعود في أكثرها إلى زاوية تامكَروت بفزواطة، وزاوية تمسلا بواحة تينزولين وزاوية سيدي صالح بواحة لكتاوة[23] كانت ظهائر التوقير والاحترام تسلم لعائلات الأشراف والمرابطين من أصحاب الزوايا بدرعة، وكانت تجدد على رأس كل سنة بعد تجديد مراسم البيعة والولاء للسلطان، وبفضل هذه الظهائر كانت هذه العائلات ومن يدور في فلكها من الخدم والأتباع يفوزون بوضعية اجتماعية ممتازة بين باقي سكان الوادي، ذلك أن ظهائر التوقير والإحترام كانت توصي العمال والولاة المخزنيين بأن يُحْمَلَ هؤلاء المرابطون والأشراف على «كاهل المبرة والإكرام، والمحاشاة مما يطالب به العوام من الوظائف المخزنية والتكاليف الإمامية»[24] وهذا يعني أن هذه العائلات واتباعها خارجون عن مراقبة العامل المخزني ما لم يخوضوا في أمور تمس سيادة الدولة أي الخروج عن طاعة السلطان.

وتدل كل القرائن على أن العمال وولاة المخزن بدرعة كانوا يتجنبون إغضاب بعض شيوخ الزوايا حتى لا يكونوا سببا في اسقاطهم من ولايتهم.

2 ـــ ظهائر التولية أو العزل

كانت هذه الظهائر تسلم في العادة للعائلات القائدية بدرعة[25] ولشيوخ الزوايا بعد وفاة القائم على الزاوية، أو تسلم لمن تولى ولاية القضاء[26].

وإن كانت هذه الظهائر تكشف لنا عن عمق الروابط بين سلاطين الدولة العلوية وبعض العائلات بدرعة، فهي من جهة ثانية تكشف لنا إلى أي حد كان سلاطين هذه الدولة يهتمون بالجنوب،

---

(23) أسست زاوية تامكَروت على يد سيدي اعمرو بن أحمد الأنصازي في نهاية القرن العاشر الهجري/16م وقد تحولت رياستها الى العائلة الناصرية على يد الشيخ سيدي مَحدم بن ناصر منذ أواسط القرن الحادي عشر الهجري/17م.
ـــ أسست زاوية تمسلا القادرية على يد أبي القاسم بن عبد الرزاق في نهاية القرن العاشر الهجري/16م. وتعتبر أكبر زاوية من حيث النفوذ والاتباع بعد الزاوية الناصرية بدرعة.
ـــ أسست الزاوية الصالحية على يدي صالح بن إبراهيم لكتاوي في نهاية القرن الحادي عشر الهجري/17م.
وسنعرف بهذه الزوايا بشكل مفصل في الفصول اللاحقة.

(24) كانت هذه العبارة وغيرها من عبارات التوقير والاحترام تتكرر في الظهائر السلطانية منذ عهد مولاي اسماعيل الى عهد السلطان محمد الخامس.

(25) من هذه العائلات عائلة القايد اليحياوي بواحة تيزولين، وعائلة القايد التمنوكَالي بواحة مزجيطة، وعائلة المزواريين بواحة تينزولين أيضا، وعائلة القايد الستوري بواحة ترناتة وغيرها.

(26) كان قضاة وادي درعة يعينون بظهائر سلطانية أو برسائل تزكية ونيابة عن قاضي مراكش.

فكانوا يحرصون على أن تكون علاقاتهم متنوعة مع عائلات الأشراف والمرابطين أصحاب الزوايا وكبار أعيان الوادي.

IV ــ المراسلات الرسمية والخاصة

عثرنا كذلك أثناء تجولنا بواحات درعة على مجموعة من الرسائل الرسمية والخاصة يزيد عددها على 450 رسالة، تتطرق لقضايا سياسية واجتماعية تخص سكان وادي درعة.

وقد صنفنا هذه الرسائل حسب مصدرها إلى ما يلي :

1 ــ الرسائل السلطانية أو الأميرية :

إذا كان مصدرها السلطان نفسه أو الأمير ولي العهد أثناء ممارسة مهامه الخلافية على الجنوب انطلاقا من مراكش. وتتسم هذه المجموعة من الرسائل بطابع الايجاز لأنها لا تتعرض لأكثر من موضوع.

وترسل هذه الرسائل الى ثلاث فئات من سكان درعة :

أ ــ شيوخ الزوايا وبصفة خاصة شيوخ زاوية تامكَروت الناصرية وزاوية تمسلا القادرية. وقد كان لهاتين الزاويتين نفوذا واسعا ليس بوادي درعة فحسب وإنما في المناطق المجاورة مثل تازرين ودادس وهسكورة. وقد كان سلاطين الدولة العلوية يراعون هذه المكانة للزاويتين ويتعاملون مع شيوخها على أساسها.

ب ــ بعض أعيان القبائل بدرعة من الذين يتمتعون بنفوذ واسع بين السكان.

ويظهر من الرسائل التي تجمعت بين أيدينا أن شيوخ الزوايا وبعض الأعيان كانوا يقومون بدور بارز في إطلاع السلطان أو خليفته على ما يجري بالجنوب المغربي، وكان السلاطين يشجعونهم بشتى الوسائل على الاستمرار في هذا الدور الإخباري حتى يكونوا على بينة بما يجري في هذه المناطق النائية[27].

ج ــ الشيوخ والقواد والعمال المحليون، وكانوا يتوصلون بصفة دورية برسائل من السلطان أو من خليفته بمراكش.

---

(27) كان رجال الزوايا في الجنوب المغربي عامة خلال القرن 19م وأمام ضغوط الدول الاستعمارية يطلعون السلطان بطريقة دورية على ما يجري بمناطقهم. فقد ورد في رسالة من السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان سنة 1278هـ/1861 الى خليفته بالشمال مولاي العباس ما يلي : «وها كتاب المرابط السيد الحسين الالغي يصلك فطالعه لتعلم ما ذكر فيه... وقد أخبر خديمنا الطالب عبد الله أويهي بمثل ما أخبر به المرابط المذكور» انظر :

محمد بن عزوز حكيم : السيادة المغربية في الاقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية ــ الدار البيضاء ــ 1981 ج. 1 ص. 80.

وتختلف الرسائل الموجهة الى الفئتين السابقتين عن تلك التي تتوصل بها الفئة الثالثة، فالأولى عبارة عن ردود وأجوبة عن رسائل اخبارية توصل بها السلطان، أو خليفته، في حين أن الثانية عبارة عن أوامر يجب تنفيذها طبقا لإرادة السلطان أو خليفته.

2 ــ الرسائل المخزنية

وكان مصدرها بعض رجال المخزن من وزراء وحجاب وقواد وعمال مخزنيين.

وتختلف هذه المجموعة من الرسائل عن الرسائل السلطانية أو الأميرية في طبيعتها وشكلها ومضمونها ذلك أنها كانت تتطرق لقضايا لها علاقة بالأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية بوادي درعة. وتعكس إلى حد ما الاهتمام الذي كان يوليه رجال المخزن لهذه المنطقة.

3 ــ الرسائل الخاصة

هذه الرسائل كانت تصدر من بعض أعيان وادي درعة وبعض شيوخ الزوايا إلى ذوي النفوذ والسلطة من القواد والشيوخ المحليين وتأتي أهميتها التاريخية في كونها تتطرق الى قضايا اجتماعية وسياسية بالنسبة لقبائل درعة كالتوسط بين بعض القبائل والقواد المحليين، ومشاورة الشيوخ المخزنيين لشيوخ الزوايا في أمور سياسية وغيرها.

2 ــ الكتب المخطوطة

اعتمدنا كذلك في إنجاز هذه الدراسة عن التاريخ الاجتماعي لوادي درعة على مجموعة من الكتب المخطوطة، أو التي تدخل في عداد المخطوطات[28] وتضم هذه المجموعة كتب التاريخ المحلي والرحلات الحجية، وكتب المناقب وكتب النوازل.

وجل هذه الكتب من تأليف علماء الأسرة الناصرية بزاوية تامكروت أو علماء تتلمذوا على هذه الأسرة.

1 ــ كتب التاريخ المحلي

وتضم هذه المجموعة ثلاثة كتب للتاريخ المحلي اهتم أصحابها بأحوال وادي درعة في فترات مختلفة.

أ ــ طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة[29] .

وقد أفادنا الكتاب بإشارات هامة عن الكارثة الديمغرافية والعمرانية التي تعرضت لها بلاد درعة خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري /18م. وقد ظلت هذه الكارثة تلقي بظلالها على

(28) أدرجنا ضمن هذه المجموعة رحلة أحمد بن ناصر الخليفة التي طبعت على الحجر بفاس.

(29) مؤلف هذا الكتاب هو محمد المكي بن موسى الناصري من رجال القرن 12هـ/18م. ويعتبر محمد المكي الناصري من أبرز علماء زاوية تامكروت خلال النصف الأول من القرن 12هـ/18م.

والكتاب لايزال مخطوطا، وتوجد منه نسختان بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط تحت رقمي د : 3785 ود 3786.

واحات درعة طيلة النصف الثاني من نفس القرن[30]. كما أفادنا من جهة أخرى عن التطورات الكبيرة التي عرفتها زاوية تامكَروت الناصرية في عهد موسى بن محمد بن ناصر والد المؤلف[31] الذي استخلف على مشيخة الزاوية بعد وفاة الشيخ أحمد بن ناصر الخليفة[32].

ب ـــ العقود الجوهرية في الأبناء الدرعية[33]

أول ما يلاحظ على هذا الكتاب أنه لم يكن كتاب تاريخ بالمعنى المعروف، يركز فيه صاحبه على الحدث ويحلل أسبابه ونتائجه، ولم يكن كتاب مناقب، يقتصر على ذكر رجال العلم والصلاح بدرعة، ولا يمكن تصنيفه ضمن كتب أوصاف الرحالين، ذلك أن الكاتب كان يحشر المعلومات حشرا في مؤلفه دون مراعاة لطبيعة هذه المعلومات، فنجده يسوق الحدث التاريخي بطريقة متداخلة مع بعض الاشارات الخاصة بالجانب التعليمي أو الحِرَفي أو الزراعي إلى جانب منقبة من مناقب أحد الأعلام بدرعة. وترجع هذه الطريقة الاستطرادية في الكتابة عند المؤلف الى تكوينه كفقيه وإلى الطريقة الاستعجالية التي أنجز بها كتابه[34].

وبالرغم من الطابع التعميمي الذي يهيمن على محتويات الكتاب وعدم خضوعه لمنهج معين، فإن أهميته تتجلى في المعلومات الغزيرة التي قدمها المؤلف عن الأحداث السياسية والغليان الاجتماعي الذي عرفته واحات درعة خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر الهجري /20م. فقد كانت قبائل القصور تستعدي قبائل أيت عطا وغيرها من قبائل الرحل على بعضها البعض، كما كان تنافس القواد المحليون وشيوخ القبائل يساعد على إذكاء النعرات القبيلة وتأجيج نار الصراعات، وقد عاين المؤلف الكثير من الأحداث الدامية وما صاحب ذلك من فتك بالأرواح واغتصاب للممتلكات وكان موقفه مما حل بالوادي موقف الحائر المتعجب.

عاصر المؤلف وصول طلائع الحملة الفرنسية الغازية الى وادي درعة سنة 1350هـ /1930م، إلا أنه تجنب التعرض للحملة بالسلب أو الإيجاب، وكان يكتفي باستعمال لفظ «المخزن»[35] في بعض

---

(30) لم يشر المؤلف الى أسباب هذه الكارثة الديمغرافية والعمرانية التي نزلت بدرعة خلال النصف الأول من القرن 12هـ/18م. ونعتقد أن لذلك علاقة بوباء الطاعون الذي ضرب المنطقة خلال نفس الفترة، والتي ذكرها المؤلف في كاتبه الدرر المرصعة، وكذلك الى الحروب الضارية التي خاضها الجيش الاسماعيلي بقيادة مولاي الشريف ابن اسماعيل ضد الثوار بالواحات الجنوبية من درعة وذلك ما بين 1722 و1724، وحول هذه الحروب انظر : MAGALI MORSY : La relation de Thomas Pellow. Une lecture du Maroc au 18ᵉ S. Paris 1983, pp. 119-120.

(31) تولى مشيخة الزاوية بتأييد ومؤازرة مولاي الشريف بن اسماعيل عامل درعة في وقته، الذي وقف الى جانب موسى بن محمد الناصري ضد منافسة الشيخ الحسين الشرحبيلي انظر : محمد المختار السوسي : المعسول ج.18 ص. 239ـــ241ـــ242.

(32) تولى الشيخ أحمد بن ناصر الخليفة مشيخة الزاوية الناصرية بعد وفاة أبيه سنة 1085هـ/1674 الى غاية 1129هـ/171م.

(33) مؤلف الكتاب هو الفقيه محمد بن لحبيب التنوكَالي المتوفى عام 1332هـ/1942 والكتاب من 85 صفحة من الحجم المتوسط. ولايزال مخطوطا في نسختين عند ابنائه بقصر تامنوكَالت بمزجيطة وبمراكش. وقد اعتمدنا على نسخة مصورة في حوزة الحاج ادريس الناصري مفتش الكتاتيب القرآنية بمراكش.

(34) يفهم ذلك من مقدمة الكتاب للمؤلف نفسه.

(35) كان المشرفون على الغزو الفرنسي بدرعة يحرصون على أن تتم هذه العملية باسم المخزن، وحول ظروف التدخل الفرنسي بالمنطقة انظر : G. SPILLMAN : Souvenirs d'un colonialiste, de p. 94 à p. 114.

إشاراته عن القبائل التي استعانت بالنفوذ المعنوي أو الفعلي للقوات الغازية ويبدو واضحا أن ابن لحبيب كان مرتاحا في قراراة نفسه لعودة هيبة المخزن الى وادي درعة حتى لو كانت على يد القوات الفرنسية.

وتبقى أهمية العقود الجوهرية في المعلومات الغزيرة التي سجلها المؤلف عن بلاد درعة خلال الثلاثينات والاربعينات من القرن الرابع عشر الهجري/ 20م إضافة الى استطراداته عن رجالات وادي درعة من أهل العلم والصلاح، مما يجعل الكتاب وثيقة تاريخية لا يمكن الاستغناء عنها لأي باحث في تاريخ وادي درعة.

ج ــ كتيب في التاريخ[36]

عثرنا على جزء من هذا الكتيب بدار القايد العربي اليحياوي[37] وقد سمح لنا مالكه الشيخ مسعود بن العربي بأخذ صور لهذا الجزء وهو عبارة عن حوالي 71 صفحة من القالب الصغير. وبالرغم من محاولتنا المتكررة في عين المكان فإننا لم نتمكن من العثور على البقية الضائعة من الكتاب.

كان الفقيه الطيب بن لحبيب من الملازمين للقائد العربي اليحياوي[38] في تنقلاته بين قبائل أولاد يحيى والقبائل المحسوبة عليه بدرعة وبلاد زكَيط[39] وقد سمح له هذا الموقع بأن يكون على بينة من دخائل سياسة القايد اليحياوي بدرعة سواء في علاقته بقواد وقبائل الوادي[40] أو في علاقته مع عائلة الكلاوي. وهذا ما جعل معلومات الكتاب دقيقة وواضحة فيما يتعلق بالأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتحولات التي بدأت تعرفها المنطقة بعد توقيع معاهدة الحماية.

ويمتاز كتيب الفقيه الطيب بن لحبيب عن العقودة الجوهرية باهتمام صاحبه بما يجري في جهات أخرى من المغرب[41] ولم يكن يخفي ارتياحه من الانتصارات التي كان المقاومون المغاربة بالريف والأطلس المتوسط على الفرنسيين حيث كانت اصداؤها تصل الى درعة، وكان يدعو الله «أن يكون معهم ويؤيدهم بنصره انه على ذلك قدير»[42].

---

(36) هذا الكتيب من تأليف الفقيه الطيب بن لحبيب الملولي أحد الملازمين للقائد العربي اليحياوي. وقد عاصر كذلك دخول الفرنسيين الى درعة. وتبتدىء أحداث الجزء الذي بين أيدينا بأخبار 1333هـ/1914م.

(37) يوجد مقر دار القائد العربي اليحياوي بالمنطقة الشمالية من واحة تينزولين ضمن ما يعرف بأولاد جْرِي.

(38) فيما يتعلق بترجمة القايد العربي اليحياوي الحفيد انظر : G. Spillman : Souvenirs d'un colonialiste, p.

(39) تقع بلاد زكَيط غرب وادي درعة وهي اليوم تابعة لاقليم طاطا.

(40) كانت دار القايد اليحياوي تتغالب مع دار القاي التمنوكَالي على المناطق الجنوبية من واحة مزجيطة. كما كانت دار القايد اليحياوي تتغالب على المناطق الشمالية من واحة تِنْزولين مع عائلة المزواريين بالرباط وقصبة المخزن بنفس الواحة.

(41) كان الفقيه الطيب بن لحبيب يعرج من حين لآخر على الاحداث التي عرفتها بلاد سوس حيث كان أحمد الهيبة يواجه حركة الباشا الكلاوي، وأحداث تافيلالت حيث كان أبو القاسم النكَادي يواجه الفرنسيين، وغير ذلك من الأحداث التي عرفها المغرب بعد توقيع معاهدة الحماية.

(42) حول احداث بن عبد الكريم انظر ص 51 من كتيب الطيب بن لحبيب.

2 ـ كتب الرِّحلات

اشتهر المغاربة منذ العصور الوسطى بالأسفار والرحلات طلبا للعلم ورغبة في زيارة الاماكن المقدسة. وقد اعتاد بعض العلماء، منهمُ على تدوين مذكراتهم اليومية، فكانوا يصفون المناطق التي مرُّوا بها ويذكرون عادات سكانها وتقاليدهم وما تختص به هذه المنطقة أو تلك.

انتشر هذا النوع من الكتابة بين علماء الزاوية الناصرية بتامكَروت مند القرن الحادي عشر الهجري/17 م. فكانوا يحرصون على تدوين مشاهداتهم اليومية منذ مغادرتهم لزاوية تامكَروت حتى العودة إليها، سواء في رحلاتهم الحجية او في رحلاتهم الداخلية. وقد قلدهم في ذلك جملة من العلماء الذين تتلمذوا على علماء الأسرة الناصرية، ولازالت كتب الرحلات الناصرية سجينة رفوف المكتبات العامة والخاصة.

وتتجلى أهمية كتب الرِّحلات فيما تزخر به من معلومات عن الأحوال الاقتصادية بالمناطق الجنوبية، واستطرادات أصحابها عن الحياة اليومية، سواء تعلق الأمر بالمستقرين سكان القصور والقصبات أو بالرحل سكان الخيام وما يستهلكونه من أقوات مثل التمور والحبوب وأحوال النقود والمكاييل وارتفاع الأسعار. إضافة إلى الإشارات التي تزخر بها عن الأوضاع السياسية في المجالات الممتدة بين تافيلالت ودرعة من جهة وبين درعة وبلاد سوس من جهة ثانية.

وقد اعتمدنا على بعض هذه الرّحلات في دراستنا للتاريخ الاجتماعي لدرعة[43] ومن حسن حظنا أن الكتب التي اعتمدنا عليها تكاد تكون متكاملة وتغطي فترة زمنية تمتد من نهاية القرن الحادي عشر الهجري/17 م إلى غاية مطلع القرن الثالث عشر الهجري نهاية القرن 18 م ومطلع القرن 19 م.

وقد استفدنا كذلك من رحلتين داخليتين أولاهما : الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية، لمحمد المكي بن موسى الناصري[44] قام بهذه الرحلة من زاوية تامكَروت الناصرية بدرعة إلى مراكش سنة

(43) الرحلات الحجية التي اعتمدنا عليها هي:

1 ـ رحلة الشيخ أحمد بن ناصر الخليفة (توفي 1129/1717م) وقد طبعت هذه الرحلة في جزئين بالمطبعة الحجرية بفاس سنة 1322هـ/1904م.

وأهم ما كشفت عنه هذه الرحلة هو التطور الكبير الذي عرفته علاقة الزاوية الناصرية بالدولة العلوية على عهد مولاي اسماعيل وما كان يشوب هذه العلاقة من توتر. وقد تمت هذه الرحلة عام 1121هـ/1709م.

2 ـ رحلة أحمد بن داوود التملي المشتوكي (توفي 17/112) وعنوان هذه الرحلة : قرى العجلان، وتوجد لها نسخة مخطوطة بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط، تحت رقم ق. 147. وقد تمت رحلة المشتوكي الى الحج صحبة الشيخ احمد بن ناصر عام 1121هـ/1709.

3 ـ رحلة أبو مدين الدرعي محمد بن أحمد بن الصغير الروداني (توفي : 1157/1744م) خلف ابو مدين الدرعي رحلة حجية دون فيها أخبار رحلته الى الحج عام 1152/1739م. وتوجد هذه الرحلة مخطوطة بقسم الوثائق من الخزانة العامة بالرباط تحت رقم ق 297.

4 ـ رحلة محمد بن عبد السلام الناصري (توفي : 1239هـ/1824م). قام محمد بن عبد السلام برحلتين الى الحج الأولى عام 1196هـ/1781م. وقد دون أخبار هذه الرحلة الناصرية الكبرى تمييزا لها عن الرحلة الثانية التي قام بها عام 1211هـ/1796م. وتوجد الرحلة الناصرية الكبرى مخطوطة بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د : 2327 ونسخة اخرى بالخزانة الحسنية تحت رقم 5658.

(44) ترجم محمد المكي بن موسى الناصري غير واحد مثل عباس بن ابراهيم في «الاعلام»، وليفي بروفنسال في «مؤرخو الشرفاء»، إلا أن أهم ترجمة هي التي كتبها المرحوم جعفر الناصري سنة 1396 كمقدمة للدرر المرصعة استعدادا لطبع هذا الكتاب ولأمر ما لم ينفذ المشروع.

1149 هـ/1736 م. وتوجد هذه الرحلة مخطوطة بقسم الوثائق بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ج 88 ود 1864.

وبالرغم مما في هذه الرحلة من الاستطرادات، فإنها تحتوي على اشارات هامة عن أحوال وادي درعة خلال نهاية النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/18 م. وتعتبر هذه الاشارات مكملة للمعلومات التي استقيناها من كتاب طلعة الدعة في تاريخ وادي درعة لنفس المؤلف.

أما الرحلة الثانية فَعنوانها : الرحلة الزاهرة إلى درعة العامرة للفقيه المهدي الناصري من زاوية سيدي اسماعيل الناصيرية بوادي تودغة[45]

والرحلة عبارة عن قصيدة رجزية من 314 بيتا، والرحلة تؤرخ لحرْكة القائد مَحمد بن مَحمد المزواري المعروف بالقائد حمُّو الكَلاوي تمهيد بلاد درعة وإمَغْران ومكَونة، خلال سنتي 1342 و1343 هـ/1924 ـــ 1925 م.[46]

ويظهر أن المهدي الناصري كان في هذه الرحلة متحمسا لاعمال عائلة الكَلاوي بالجنوب المغربي، خاصة القائد حمُّو الكَلاوي ابن اخ الباشا التهامي الكَلاوي، فقد كان يصفه بالقائد المظفر وينصح المناوئين لنفوذه بالدخول في سلك الجماعة قبل فوات الأوان.

وعلى كل حال، فإن هذه الرحلة بالرغم من صغرْ حجمها قد أفادتنا بمعلوماتها الحية عن حَرْكة القائد حمُّو الكَلاوي إلى وادي درعة، كما سمحت لنا بتميم المعلومات التاريخية التي استقيناها من كتب الطيب بن لحبيب عن وادي درعة في هذه المرحلة التي سبقت ومهدت لدخول الفرنسيين الى المنطقة.

3 ـــ كتب المناقب

تدخل كتب المناقب في جملة الكتب التي تهتم بحياة اشخاص متميزين في المجتمع لصلاحهم أو لعملهم أو بهما معا. وقد ارتبط هذا النوع من الكتب بانتشار طرق التصوف والزوايا في المجتمع المغربي منذ العصور الوسطى، وازدهر بشكل خاص على عهد الاشراف السعديين والعلويين. والواقع أن كتب المناقب التي ظهرت بعد القرن العاشر الهجري /16 م، تدخل في إطار إثبات الذات لكثير من أبناء الزوايا وحفدة شيوخ الطرق الصوفية، أمام تفوق الأشراف بانتسابهم إلى عترة الرسول عليه السلام، ولا غرابة إذن والحالة هذه أن تنتهي جل كتب المناقب في نهاية المطاف بربط الشيخ المترجم له بالنسب النبوي بطريقة أو بأخرى[47] ولا مشاحة في القول بأن أصحاب الزوايا وأهل الصلاح كانوا يتمتعون

(45) كان الفقيه المهدي الناصري من المقربين للقائد حمة الكَلاوي، ولأمر ما قلبت عائلة الكَلاوي ظهر المجن للمهدي الناصري، فاعتقل بسجن تلوات ثم أطلق سراحه ودس له الباشا التهامي الكَلاوي من سقاه السم. توفي بعد سنة 1360هـ.

(46) حول هذه الحركة التي قادها حمو الكَلاوي الى الجنوب المغربي انظر : G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa, pp. 82 - 83.

(47) كثيرا ما كان بعض العلماء يتأسفون لهذه الظاهرة وينفون نسبة الشرف عن أصحابها، من ذلك مثلا ما أورده سليمان الحوات في الروضة المقصودة حيث يقول : «مع أن شأن أهل الزاويا الذين لم يبق منهم شيخ قائم الحياة فإنهم يمدون الأيدي إلى هذا النسب الشريف ولو بالكذب المحض لأنه احفظ للحرمة وأصون للذمة فلا حول ولا قوة إلا بالله» الروضة المقصودة مخطوط خاص ص 311.

باحترام خاص وبنفود واسع بين مختلف فئات المجتمع المغربي لما كانوا يقومون به مثلا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، إضافة إلى دورهم في نشر التعليم الديني والحفاظ على الشعائر الإسلامية.

وبالرغم من أن كتب المناقب كانت تهدف أولا وقبل كل شيء إلى إبراز مناقب الشيخ المترجم له، فإنهم لم تكن تخلو من إشارات قد تفيد في البحث التاريخي بالإضافة إلى ما تزخر به من معلومات عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية عن عصر المترجم له والمنطقة التي عاش فيها.

وقد اعتمدنا على اثنين من كتب المناقب بدرعة، ويؤرخان لأشخاص عاشوا بالمنطقة خلال الفترة التي حددها البحث، أولاهما هو : **تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنة العالية**(48) لمؤلفه الفقيه الطبيب أحمد بن صالح لكتاوي(49) وقد أفادنا هذا الكتاب في الكشف عن علاقة الزاوية الصالحية بالكتاوة بالمخزن على عهد مولاي رشيد مولاي اسماعيل، والدور الذي كان يقوم به سيدي صالح بن ابراهيم في الصلح بين القبائل، التي كانت تحترمه وتقدره لعلمه ولمكانته عند المخزن بحيث لا ترد له كلمة ولا تكسر صلحا أقامه.(50)

وقد سجل لنا صاحب الكتاب ملاحظاته حول مختلف المواد العلمية التي كانت تلقى للطلبة بالزاوية الصالحية(51) كما لم يفته أن يشير لبعض الفيضانات التي عرفها نهر درعة في عهد السلطانين مولاي رشيد ومولاي إسماعيل، وكذا دورات الجفاف التي كانت تضرب بلاد درعة على عهد المؤلف وما يعقبها من قلة في الأقوات وارتفاع في الاسعار. أما الكتاب الثاني فهو : **الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة**(52) ومؤلف هذا الكتاب هو محمد المكي بن موسى الناصري(53)وقد انتهى من تأليفه يوم الاربعاء المسفر صباحها عن الرابع والعشرين من المحرم الحرام سنة 1152 هـ/1738

ترجم محمد المكي بن موسى في كتابه لحوالي ثمانين علما من علماء وادي درعة من أهل العلم والصلاح حوالي سبعين منهم عاشوا ما بين القرن التاسع الهجري /15 م وأواسط القرن الثاني عشر الهجري /18 م. وقد خصص المؤلف حيزا كبيرا من كتابه لرجالات زاوية تامكَروت من الانصاريين والناصريين واصهارهم ومن له بهم علاقة.

---

(48) الكتاب لا يزال مخطوطا وقد اعتمدنا على نسخة مبتورة في حوزة الاستاذ البشير المحمودي.

(49) ولد سيدي احمد بن صالح الفقيه الطبيب والعالم النحرير بزاوية ابيه بلكتاوة سنة 1032هـ/1622. تلقى تعليمه بدرعة وتافيلالت وقد توفي عن سن عالية عام 1149هـ/1739 وترك عدة مؤلفات في الطب والفقه وكلها لا تزال مخطوطة. انظر ترجمته مفصلة عند المهدي الصالحي : أعلام درعة ابتداء من ص 29.

(50) ترجم غير واحد لسيدي صالح بن ابراهيم إلا أننا اعتمدنا على ترجمته الوافية في كتاب تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنة العالية، والذي ألفه خصيصا لابراز مناقب سيدي صالح بن ابراهيم.

(51) تقع زاوية سيدي صالح بواحة لكتاوة بدائرة مركز تاكونيت الحالي باقليم ورزازات.

(52) الكتاب لا يزال مخطوطا، وتتعدد نسخه في غير ما خزانة بالمغرب، وقد اعتمدنا على نسخة مصورة ومهيأة للطبع في حوزة الحاج ادريس الناصري بمراكش.

(53) سبق لنا أن أشرنا الى مظان ترجمة محمد المكي بن موسى الناصري.

وبالرغم من أن محمد المكي الناصري، قد عول في كتابه على تدوين مناقب وأخبار أهل العلم والصلاح بوادي درعة عامة وبتامكَروت خاصة، فإن ذلك لم يمنعه من الدخول بين الفينة والأخرى في بعض الاستطرادات، التي أفادتنا على الخصوص في تلمس ملامح التطور الكبير الذي عرفته زاوية تامكَروت منذ تأسيسها سنة 983 هـ/1575 إلى غاية أوساط القرن الثاني عشر الهجري /18 بعدما تحولت مسؤوليتها إلى العائلة الناصرية(54)

ويزخر الكتاب بإشارات هامة عن الأحوال الإجتماعية بواحات درعة، والفتن التي كانت قائمة بين قبائل الوادي طيلة القرن الحادي عشر الهجري /17 م وردحا من القرن الثاني عشر الهجري /18 م. وكثيرا ما كان المؤلف يعرج على ذلك المجاعات والأوبئة الفتاكة التي كانت تنزل بالوادي على عهده.

ويبدو أن وطأة هذه الظواهر الطبيعية، قد اشتدت على أهل درعة خلال القرنين الحادي عشر الهجري /17 م، والثاني عشر الهجري /18 م، وكانت لها عواقب وخيمة على البنية الديمغرافية والانشطة الاقتصادية بالوادي.

ويمكن القول بأن معلومات كتب المناقب، من طبيعتها الخاصة تعتبر متممة ومكملة للمعلومات التي استقيناها من كتب التاريخ المحلي وكتب الرّحلات.

4 ـــ كتـــب النوازل الـفـقـهـيـة

تندرج كتب النوازل الفقهية ضمن كتب الفقه لطبيعة موادها وموضوعاتها التي تعالج قضايا تتعلق بالعقيدة والمعاملات اليومية في إطار المجتمع الاسلامي. وقد ظهرت كتب النوازل نتيجة ما تراكم من اسئلة حقيقية او افتراضية عند الفقهاء، وما كانوا يقترحونه من أجوبة لهذه الاسئلة طبقا لأصول وفروع المذهب المالكي السائد بالمغرب.

وقد بدأت كتب النوازل تثير انتباه الباحثين منذ مطلع القرن الحالي(55) لما تختزنه من إشارات ومعلومات لا يمكن الاستغناء عنها في فهم عقلية الفرد وممارسته اليومية ضمن الجماعة التي ينتمي إليها. كما تسمح الاسئلة المتراكمة للباحث بتحديد نوعية المعاملات اليومية في إطار الأنشطة الاقتصادية والروابط الاجتماعية المتحكمة في العلاقة اليومية بين الافراد ضمن الجماعة. كما تسمح من جهة اخرى

---

(54) أسست زاوية تامكروت سنة 1575/983 على يد أبي حفص عمر بن أحمد الأنصاري. وقد كان هذا الشيخ يبشر بالشأن الكبير للزاوية (طليعة الدعة ص 10) تصدر للمشيخة بالزاوية عبد الله بن احسين الرقي (ت 1045هـ/1635م) ثم أحمد بن ابراهيم الأنصاري (قتل سنة 1052هـ/1642) وعنهما أخذ الشيخ محمد بن ناصر طريقة الورد. تصدر الشيخ محمد بن ناصر لمشيخة الزاوية ابتداء من سنة 1645/1055 بعدما نجح في التغلب على معارضة الانصاريين المؤسسين الحقيقيين لزاوية تامكروت (الدرر المرصعة ص 273). ومنذ ذلك الحين اصبحت زاوية تامكَروت تعرف بالزاوية الناصرية.

(55) ذكر الأستاذ محمد مزين في العدد الخاص بالتاريخ من مجلة كلية الاداب بفاس (العدد 1985.2 من ص 103 الى ص 106) جملة من أسماء بعض الباحثين الذين اهتموا بكتب النوازل في ابحاثهم التاريخية منذ 1903، الى نهاية السبعينات. إلا أن الاستغلال العملي لكتب النوازل في الأبحاث التاريخية إلا في السبعينات في اعمال الاساتذة : احمد التوفيق (اينولتان)، العربي مزين (تافيلالت) ومحمد مزين (فاس وباديتها).

بتتبع ملامح التطورات والمراحل التي قطعها المجتمع الذي أعطى الكم الهائل من الاسئلة، خاصة في مجتمع بدوي مثل مجتمع وادي درعة الذي ظل يتعرض طيلة الفترة التي حددها البحث لهزات اجتماعية متوالية، نتيجة تعاقب دورات الجفاف من جهة، وتوالي هجومات قبائل الرحل من جهة ثانية، الأمر الذي جعل سكان الوادي، كلما عادت الأمور إلى حالتها الطبيعية يعملون على اعادة النظر في طرق تعاملهم اليومي بقصد تصحيحها حتى ترتكز على الشريعة الإسلامية التي يمثلها الفقهاء بالمنطقة.

وقد اعتمدنا على ثلاثة نماذج لكتب النوازل جمعت بدرعة والمناطق المجاورة فيما بين القرنين العاشر الهجري /16 م والثاني عشر الهجري وتدل كل القرائن على أن هذه الكتب الثلاثة قد أصبحت معتمدة متفقهة بلاد درعة في العصور المتأخرة[56].

وتتجلى أهمية هذه الكتب بكونها تعكس من خلال الأسئلة التي كانت تشغل بال سكان وادي درعة في إطار التعامل اليومي من خلال العلاقات الاجتماعية بين سكان القصور فيما بينهم وما يصحب ذلك من مشاكل ناتجة بالأساس عن الصراع حول الارض ومصادر الماء. إضافة إلى ما كان يطرأ من مشاكل حول بعض المعاملات التجارية وغيرها من المستجدات اليومية التي كانت تحدث بين المستقرين ويحتاجون فيها إلى سند شرعي.

3 ــ الكتابات الأجنبيــة

اعتمدنا كذلك في انجاز هذه الدراسة عن تاريخ وادي درعة على بعض الأعمال التي كتبها الفرنسيون عن بلاد درعة، وقد ركزنا على أعمال جورج سبلمان Georges Spillmann[57] وبيير أزام (P. Azam) وقد كانا معا من ضباط الشؤون الأهلية بوادي درعة على عهد الحماية :

(56) كتب النوازل التي اعتمدنا عليها هي :

1 ــ أجوبة ابن هلال، وقد جمعها ورتبها الفقيه اعلي بن أحمد التمنارتي دفين وادي درعة (الدرر المرصعة ص 217). وقد طبعت أجوبة ابن هلال بالمطبعة الحجرية بفاس سنة 1310هـ/1893م

2 ــ أجوبة الشيخ محمد بن ناصر الدرعي. وقد جمعها ورتبها تلميذه محمد بن القاسم الصنهاجي، وقد طبعت كذلك على الحجر بفاس واغفل تاريخ طبعها. والاجوبة الناصرية متوفرة بكثرة في جل مناطق المغرب.

3 ــ نوازل الدرعي وهي من تأليف الفقيه محمد بن عبد الله ابن الحسين الدليمي اصلا الدرعي وسطا ومحتدا، كما حلى نفسه في مقدمة نوازله. وينتمي هذا الفقيه الى عائلة علمية عريقة بمنطقة تاكمادارت بواحة فزواطة. وقد تفرق ابناء هذه العائلة في عدة جهات من المغرب مثل ورزازات ومراكش وتطوان ولاتزال عائلة الدّليمي بتطوان ومراكش وتعرف بالورزازيين. ونوازل الدرعي لا تزال مخطوطة ولا تقل انتشارا عن سابقتيها في غير ما جهة من المغرب.

(57) كان سبلمان من الضباط المتخصصين في جمع المعلومات، تعلم اللغة العربية في دروس خصوصية بعد وصوله الى المغرب سنة 1920. التحق كضابط للاستخبارات الى جانب شاردون (Chardon) بدائرة أزيلال. فلما عين هذا الأخير على رأس دائرة ورزازات عين جورج سليمان الى جانبه الأمر الذي سمح له بإنجاز أعماله عن درعة.

1 ــ اعمال جورج سبلمان.

قام سبلمان أثناء عمله كضابط للاستخبارات العامة الى جانب الكولونيل شاردون (CHARDON) حاكم منطقة ورزازات بإنجاز ثلاثة أعمال هامة عن بلاد درعة[58]. وبالرغم من الطبيعة الاستخبارية لكتابات سبلمان فإنها قد أفادتنا في تتميم معلوماتنا عن أحوال وادي درعة في نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20، ذلك أن سبلمان اعتمد بشكل كبير على الرواية الشفوية التي التقطها بعين المكان خاصة عندما عين كأول ضابط للشؤون الاهلية على دائرة درعة سنة 1930.

وعلى كل حال فإن كتابات جورج سبلمان لا يمكن الاستغناء عنها في البحث في تاريخ وادي درعة عامة وتاريخ قبائل أيت عطا خاصة.

2 ــ أعمال بيير أزام (Pierre Azam)

عمل بيير أزام كضابط للشؤون الأهلية بمركز تاكونيت ومحاميد الغزلان خلال الأربعينات. وقد أنجز مجموعة من الدراسات عن وادي درعة لمصلحة «مركز الدراسات العليا للإدراة الاسلامية» Centre des Hautes Etudes pour l'Administration Musulmane (C.H.E.A.M.) بباريس وهذه الدراسات لا تزال مطبوعة على الالة الكاتبة ومحفوظة بالمركز المذكور[59]

سلك بيير أزام في هذه الدراسات مسلك جورج سبلمان في جمع الإشارات الواردة في المصادر القديمة، وكثيرا ما كان يحيل على أعمال سبلمان. وقد حاول أزام في بعض فصول أعماله تلمس الواقع

---

(58) أهم هذه الاعمال هي :

1 ــ المناطق المنيعة من درعة العليا Les pays inaccessibles du Haut Draa والعمل عبارة عن مقالة طويلة انجزها سبلمان صحبة القبطان الطيار (Capitaine PENNES) وتتكون هذه المقالة من 60 صفحة مصحوبة بخريطة عامة للجنوب المغربي، وخريطة مفصلة للواحات الشمالية لدرعة ومجموعة من الصور الجوية. وقد نشر هذا العمل بمجلة Notes Marocaines سنة 1929.

2 ــ فرق وقبائل درعة العليا Districts et tribus de la Haute vallée du Draa.

والكتاب عبارة عن جرد عام للمعلومات التاريخية عن وادي درعة جمعها المؤلف من مختلف المصادر مثل روض القرطاس وتاريخ ابن خلدون ووصف افريقيا وغيرها. وقد انهاه بلوائح مفصلة عن قصور الواحات الجنوبية لدرعة ويعتبر متمما للعمل الاول. وقد نشر هذا الكتاب بباريس سنة 1931 ضمن Archives Marocaines. ويشكل الكتاب الجزء 2 من المجلد التاسع من هذه السلسلة.

3 ــ ايت عطا الصحراويون وعمليات «التهدئة بدرعة العليا

Les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Draa.

وقد نشر الكتاب بالرباط سنة 1936. وقد خصصه المؤلف لتاريخ اتحادية أيت عطا ومجالات انتشارها وعاداتها وتقاليدها.

(59) هذه الاعمال هي :

1 ــ البنية السياسية والاجتماعية بوادي درعة

— La structure politique et sociale de l'Oued Draa.

2 ــ المستقرون والرحل بالجنوب المغربي : منعرج درعة

— Sédentaires et momades dans le Sud Marocain : le coude du Draa.

3 ــ القصور القروية بواحة لكتاوة

— Les cités rurales du Ktawa.

الاجتماعي لسكان قصور واحة لكتاوة بالاعتماد على الملاحظة الدقيقة والمعاينة عن قرب. وقد ختم اعماله بملاحق خصص ثلاثة منها لترجمة بعض الإتفاقيات التي تعتبر نصوصها العربية مفقودة بالمنطقة.

وعلى كل حال فإن أعمال بيير أزام لا تخلو من فائدة بالنسبة لمن يبحث في تاريخ وادي درعة، اذ تحفظ لنا، مثلها في ذلك مثل اعمال جورج سبلمان ـــ بحشد من المعلومات التاريخية الهامة، تمكنوا من تسجيلها من أفواه المسنين من أبناء وادي درعة إبان توليهم مسؤولية الحكم بالمنطقة.

4 ـــ الـروايـة الـشـفـويـة

بالرغم من أن زيارتنا المتكررة لقصور وادي درعة، كان الهدف منها هو البحث عن الوثائق المكتوبة، فقد تنبهنا إلى أهمية الرواية الشفوية، ذلك أن المسنين وشيوخ القبائل لم يبخلوا علينا ببعض الاخبار التي عاشوا أحداثها أو التقطوها عن أبائهم وأجدادهم، وقد كنا نجد مصداق ما يرونه من أخبار في الكتابات التاريخية المحلية وكتب الرِّحلات، خاصة عندما يتعلق الأمر بالمجاعات والقحوط الكبرى، او فيضانات نهر درعة وما كانت تسببه من فساد بجرفها لأشجار النخيل وتهديم السواقي والقصور وغيرها.

كان تعاملنا مع الأخبار الشفوية يتسم في جل الحالات بالحذر ولا نعتمد عليها إلا في حالات تأكيد وتدعيم معلوماتنا عن الاحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في بعض الاحيان عند قبائل القصور.

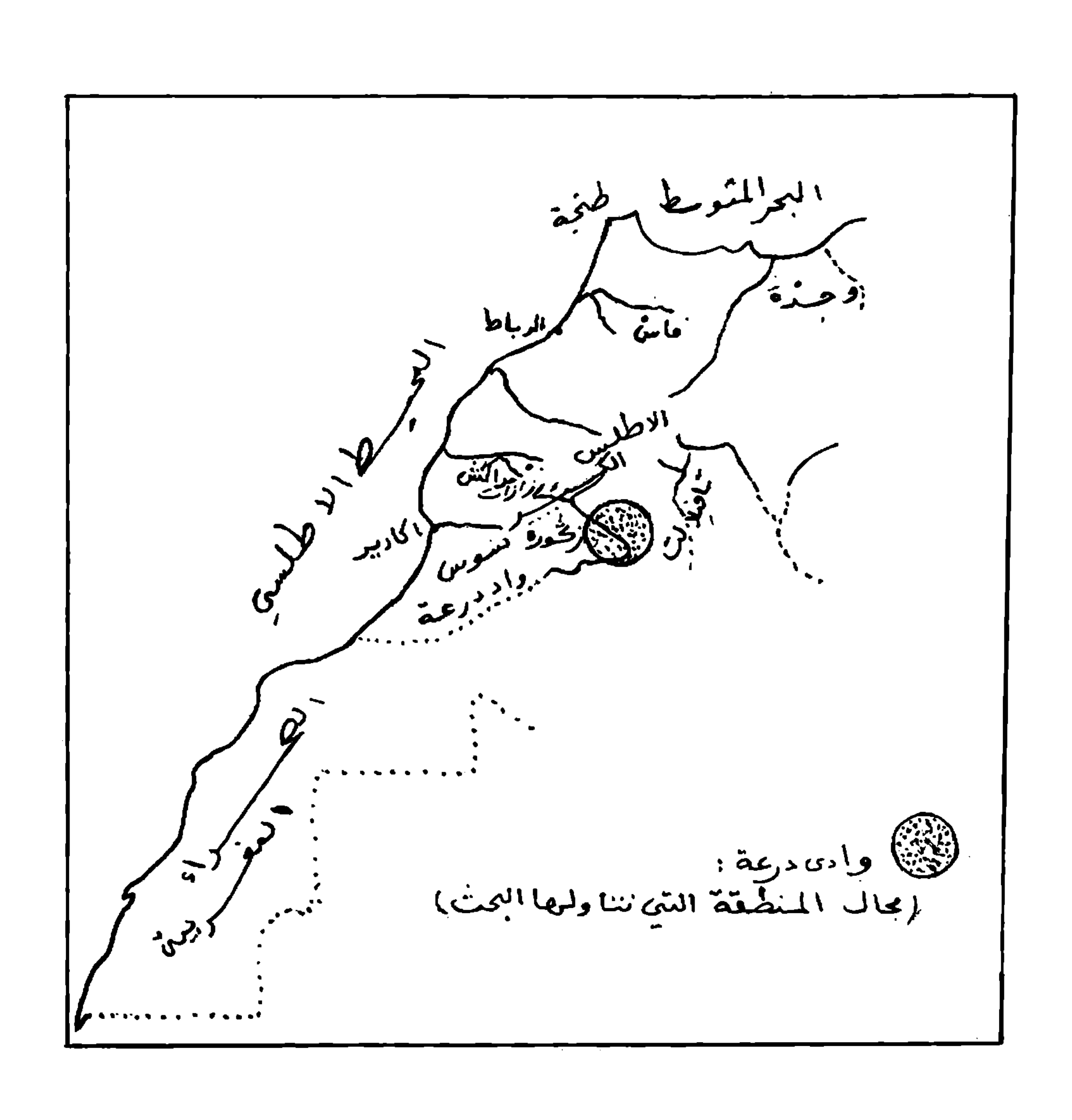
ويبقى السؤال المطروح هو كالتالي : إلى أي حد سمحت لنا هذه المصادر التي حرصنا على أن تكون متنوعة، بتغطية مختلف جوانب التاريخ الإجتماعي لواحات وادي درعة ؟

إن الإشكال الأساسي الذي أثارته هذه المصادر هو كيفية التعامل معها والاستفادة منها بشكل يسمح لنا باستغلال ما فيها من معلومات اجتماعية واقتصادية وسياسية على أوسع نطاق، وبطريقة يكمل بعضها بعضا.

فإذا كانت كتب التاريخ المحلي قد ركز أصحابها على إبراز الحديث التاريخي في إطاره الاخباري، فإن كتب المناقب قد اهتم أصحابها بالاحوال الاجتماعية والاقتصادية واخبار القحوط والأوبئة في حين كانت كتب الرِّحلات تركز على الأحوال الطبيعية.

وتبقى الإتفاقيات بمختلف أنواعها أهم مصدر تاريخي لهذه الدراسة، يكشف لنا بكل وضوح عن مختلف التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي مرت بها قبائل القصور خلال المدة التي حددها البحث.

وهكذا يمكن القول أن مصادرنا قد سمحت لنا برسم إطار متكامل لمختلف مراحل التاريخ الإجتماعي لواحات وادي درعة منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م إلى غاية مَطلع القرن الرابع عشر الهجري /نهاية القرن 19 ومطلع القرن 20.


البحر المتوسط
طنجة
وجدة
فاس
الرباط
المحيط الاطلسي
الاطلس الكبير
مراكش
ورزازات
تافيلالت
اكادير
زاكورة
سوس
واد درعة
وادى درعة :
(مجال المنطقة التي تناولها البحث)

الفصــل الأول

المعطيات الجغرافية ومراحل التعمير إلــى حــدود القــرن السابع الهجري /13 م

I ـــ المعطيات الجغرافية والطبيعية لبلاد درعة

يكتسي تحديد الموقع الجغرافي والوصف العام للظروف المناخية، بالنسبة لمنطقة مثل واحات وادي درعة، أهمية خاصة في الدراسات التاريخية، اذ على ضوء هذه المعطيات الجغرافية يمكن تحديد القاعدة المادية التي تقوم عليها حياة المجموعات البشرية التي استوطنت وادي درعة، وعلى ضوء هذه المعطيات أيضا يمكن تحديد الملامح العامة لمختلف التطورات الاجتماعية والإقتصادية والسياسية التي عرفها تاريخ المنطقة.

1 ـــ الموقع والمعطيات التضاريسية

تقع واحات وادي درعة في الجنوب الأوسط من المغرب، ضمن مجال الأطلس الصغير، تجاورها غربا سوس، ومن الناحية الشرقية وادي تارزين وتافيلالت ومن الناحية الشمالية بلاد دادس وهسكورة وورزازات. وتنفتح من الناحية الجنوبية على الصحراء الكبرى وبلاد إفريقيا السوداء. وانطلاقا من هذا التحديد، يمكن القول بأن واحات وادي درعة، تشكل الحلقة الوسطى في سلسلة الواحات الصحراوية التي تمتد في الجنوب المغربي على شكل هلال كبير من وادي نول غربا إلى بلاد توات شرقا، وينفتح هذا الهلال على إفريقيا السوداء، مما سمح لهذه الواحات أن تقوم بدور الوسيط التجاري بين إفريقيا السوداء والمناطق الصحراوية في الجنوب والمناطق الجبلية في الشمال.

وتتكون تضاريس واحات وادي درعة من وحدتين أساسيتين :

أ ـــ **المرتفعات** : (جبل صاغرو ـــ وجبل تيفرنين) وهما عبارة عن كتل بركانية قاتمة اللون، غير قابلة للاستقرار البشري بصفة عامة. وتفصل هذه الجبال بين واحات درعة في الجنوب وبلاد دادس وهسكورة وورزازات في الشمال، ونظرا لصعوبة مسالكها وممراتها (خاصة جبل تيفرنين) فإن قوافل التجارة لا تطرقها إلا في الحالات الاضطرارية، وكان تجار درعة إذا ما سافروا نحو دادس وورزازات سلكوا طرق تازرين والنقب شرقا، أو طرق منخفض أيت عُمَرْو ـــ زناكَة غربا. ووجود هذه الجبال في المدخل الشمالي لوادي درعة، جعل سكان المنطقة يرتبطون بالمناطق الصحراوية أكثر من ارتباطهم بالمناطق الجبلية. وتتجلى أثار هذا التوجه الصحراوي لسكان درعة في العلاقات التجارية والبشرية التي كانت قائمة بين وادي درعة وإفريقيا السوداء، وفي البصمات القوية التي خلفها الأفارقة السود على شريحة عريضة من سكان درعة، وما ينطوي عليه مجتمع المنطقة من عادات وتقاليد صحراوية وإفريقية لم تتمكن عوامل مجتمع المنطقة من عادات وتقاليد صحراوية وإفريقية لم تتمكن عوامل الذوبان والادماج أن تجردها من خصائصها القديمة المتميزة رغم مرور عشرات السنين عليها.

وتكتنف واحات درعة جبيلات متوسطة الارتفاع أهمها جبل كيسان الذي يشرف من الناحية الغربية على واحة مزجيطة، وجبل بوزرْوال وتُودْمَا في واحة تينزولين.

ويشرف جبل باني على الواحات الجنوبية، ويمتد على شكل قوس كبير يحتضن واحات المحاميد، ولَكْتَاوة وفَزْوَاطَة وتَرْنَاتَة. وينتهي امتداد القوس في المدخل الجنوبي لواحة تينْزُولِين. ويشكل الحد الذي يفصل بين بلاد درعة غربا، وبلاد تَازَرِينْ وتافيلالت شرقا. وتتخلله مجموعة من المسالك والممرات الطبيعية، مثل فم تِدْري الذي يفصل بين واحتي المحاميد ولكتاوة، وفم تَاقَاتْ الذِلِي يفصل بين لكتاوة وفزواطة، وفم وَرْتِي الذي يفصل بين ترناتة وتِيْنْزُولين بدرعة ووادي تَازَرين والنقب[1] وقد لعبت هذه الممرات والمسالك الطبيعية دورا حيويا في تنشيط تجارة القوافل والتبادل البضائعي بين وادي درعة والمناطق المجاورة له. وبفضل هذه المسالك كانت بلاد درعة وأسواقها العديدة تقوم بدور الوسيط التجاري بين سوس ووادي نونل غربا وبلاد تافيلالت وتازرين شرقا. وبين المناطق الصحراوية إفريقيا في الجنوب، والمناطق الجبلية في الشمال. وقد كان سكان درعة يشعرون بأهمية هذا الدور التجاري الذي كانت تقوم به بلادهم، فكانوا يوفرون للتجار وأصحاب القوافل وسائل الراحة والأمن، ويتكلفون بمؤونتهم وضيافتهم بالمجان مدة إقامتهم بين ظهرانَيْهم[2].

والى جانب هذا الدور التجاري الذي كانت تقوم به هذه الممرات، فإنها كانت تشكل الطرق التقليدية لمختلف المجموعات البشرية التي كانت تطرأ على وادي درعة من المناطق الصحراوية والجبلية. كما كانت تسكله القبائل التي كانت تضطر الى الهجرة من درعة فرارا من دورات الجفاف الحادة، أو من قبائل الرحل الصحراوية والجبلية، التي كانت تهاجم سكان درعة من حين لآخر.

وتكتنف واحات وادي درعة هضاب شاسعة وقاحلة من الغرب والجنوب مثل هضبة لكَرارة، وكدية أولاد يحيى في مستوى واحتي مزكَيطة وتينزولين. أما الواحات الجنوبية فتشرف عليها هضبة الفايجة من الغرب وحمادة درعة في الجنوب وهضبة قَمْ ــ قَمْ في الجنوب الشرقي. وينعدم العشب من هذه الهضاب اللهم إلا ما كان نباتات شوكية هضبتي لكَرارة وكُدية أولاد يحيى.

وتخترقها شبكة من الطرق البرية التي لا تزال آثارها جليَّة على شكل مجموعة من «لِمْرَايَرْ»[3] المتقاطعة، المتفرعة عن المحاور الكبرى التي تربط بين وادي درعة والمناطق المجاورة.

ب ــ الــوادي :

يتكون من مجرى نهر درعة والسهول الرسوبية التي تشكلت على حافتي النهر. وهذه السهول عبارة عن شريط زراعي يساير نهر درعة في تعرجاته من الشمال الى الجنوب، والشريط ضيق جدا بصفة عامة، لطبيعة المرتفعات التي تتصل مباشرة بالوادي، ولا تترك له مجالا للاتساع خاصة في واحتي تِينْزُولين

(1) تطلق كلمة «فُمْ» على خانق جغرافي يفصل بين جبلين ويتخذ طريقا عاديا لسكان المنطقة، وللقوافل التجارية.

(2) الحسن الوزان : وصف افريقيا ج 2 ص 120.

(3) لمْرَايَرْ جمع «مريرة» وهو الطريق البري الذي كانت تسلكه قوافل التجار في العصور الماضية.

ومزكيطة، حيث لا يتجاوز عرض الشريط السهلي في هاتين الواحتين إلا بضع مئات من الأمتار، ويعرف أقصى اتساع له في واحة ترناتة[4].

وبفضل هذا الشريط الزراعي، اشتهرت واحات درعة بمنتوجاتها الزراعية الوفيرة خلال العصور الوسطى، مثل التمور والحنا والنيلج[5] وهي مزروعات مطلوبة في مختلف جهات المغرب، الأمر الذي جعل درعة تشتهر بأسواقها العديدة، حيث كانت تقام على مدار الأسبوع في مختلف القصور المتناثرة على جانبي الوادي[7] ونستشف من الخرب والأطلال والآثار المطمورة تحت الرمال التي تكشف عنها الرياح العاتية من حين لآخر، والمقابر البشرية العديدة أن الحركة العمرانية كانت نشطة بواحات درعة خلال العصور الوسطى[8] وتؤكد مصادر القرنين الحادي عشر الهجري / 17م والثاني عشر الهجري /18م. أن خراب عمارة وادي درعة كان نتيجة توالي دورات الجفاف الحادة على واحات الوادي، إضافة الى ما كان ينزل به من أمراض وأوبئة فتاكة. ونستفيد من كتب المناقب المحلية أن الأوبئة الفتاكة لا تكاد ترفع عن منطقة بوادي درعة حتى تنزل ضيفا ثقيلا على بعض أطرافه من جديد[9].

2 ـــ الظروف المناخية ومشكل الماء.

أ ـــ الظروف المناخية

يتميز مناخ واحات وادي درعة بطابعه القاري الصحراوي، الذي يتسم بالحرارة المفرطة في فصل الصيف والبرد القارس في فصل الشتاء مع الجفاف التام طيلة فصول السنة تقريبا، ويرجع ذلك الى تفتح المنطقة على الصحراء الكبرى وتعرضها الى المؤثرات الصحراوية الجافة، والى موقع هذه الواحات ضمن العروض المدارية الجافة. كما تحول جبال الأطلس الكبير في الشمال، وجبل سيروا في الغرب دون تسرب السحب الممطرة الى بلاد درعة.

---

(4) يشمل هذا الشريط مجموع الواحات التي تمتد حول نهر درعة بشكل متصل، من إيمي نُواسّيف (فم الواد) بمنطقة تاغْيا شمال واحة مزكيطة الى نهاية العمران في الجنوب الغربي لواحة محاميد الغزلان ويقدر طوله حاليا بحوالي 200كلم.

(5) لاتزال هذه المواد تزرع بدرعة الى اليوم باستثناء النيلج الذي انقرض، وهناك محاولة لاحياء زراعته بواحة لكتاوة.

(6) فيما يتعلق بالجهات التي تحمل اليها هذه المزروعات وغيرها من منتوجات درعة خلال العصور الوسطى انظر

ـــ الشريف الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق الجزء المطبوع بالجزائر سنة 1957 ص 38.

ـــ مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الامصار : ص 206، 207 ـــ نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد ـــ مطبعة جامعة الاسكندرية.

(7) ابو عبيد البكري : المعرب في ذكر افريقيا والمغرب ـــ طبعة باريس 1865 ص 152 ـــ 155.

(8) لا تزال آثار هذا الأطلال منتشرة في جبل كيسان بمزكيطة وجبل أيت ميمون بأيت سدرات، وجبل زاكورة بترناتة وجبل بن سلمان، بواحة لكتاوة وغيرها وتبقى الكلمة الأخيرة في الكشف عن أسرار الخرب والأطلال الى الاعمال الاركيولوجية إذ بدونها فإن تاريخ وادي درعة يبقى غامضا في العديد من جوانبه.

(9) كثيرا ما كان فقهاء درعة يشيرون الى هذه الأوبئة بالطاعون، وعن هذه الأوبئة التي كانت تنزل بدرعة يقول محمد المكي الناصري في الدرر المرصعة «... فامتلأت البلاد الطاعون... وألح بالنا كرب الوباء ووباله حتى افنى أكثر الخلق به وبقيت من حثالتهم بقايا وهي عند الاعتبار اقل من عشر معشاره وسال منه سيل حجاب سنة 1091 على صميم درعة فاكتسحها أي اكتساح» من الدرر المرصعة ص 121 ـــ 122 ـــ مخطوط خاص.

كانت لهذه الظروف المناخية الجافة انعكاسات سلبية ليس على النشاط الزراعي بالوادي فحسب وإنما على عقلية السكان أيضا، فكانوا يتوسلون إلى الأولياء، وأهل الصلاح، وكل من يعتقدون أنه يملك قوة خفية، لاعتقادهم أن بمقدور هؤلاء حماية المنتوجات من قر الشتاء، وحر الصيف وجلب الماء إليها[10].

وتتعرض واحات درعة لهبوب رياح جافة وحارة، تكون في جل الأحيان محملة بالتراب، وأخطرها ريح «الشركَي» الذي يهب على المنطقة في فصل الصيف ويلحق أضرارا فادحة بالمزروعات التي تعاني أصلا من قلة الماء، كما يسبب في انتشار أمراض العيون التي تصاب بالتهابات حادة ومزمنة.

إلا أن أخطر أثر لريح «الشركَي» يتجلى في تحريكه للكثبان الرملية الرابضة على مشارف درعة، نحو الواحات، فيطمر الآبار والسواقي ومصاريف الري، كما يغطي مساحات شاسعة من الأراضي المنزرعة وتدل أطلال الطابية المنتشرة في الواحات الجنوبية على أن سكان درعة كانوا يدركون خطورة زحف الرمال على الأراضي الزراعية لذلك كانوا يعملون على وقف هذا الزحف دون جدوى، اذ كثيرا ما كانت الرمال الزاحفة تغطى هذه الجدران التي لا يتجاوز علوها مترين على الأغلب.

ونستفيد من كتب الرحلات أن خطر هذه الرياح أشد وأطم على قوافل التجار التي كانت تجوب الفيافي التي تربط بين وادي درعة والمناطق المجاورة[11].

وبصفة عامة فإن الرياح التي كانت تهب على واحات درعة تتميز بحراراتها المفرطة، الأمر الذي كان يزيد في حدة الجفاف، ويقوى من عمليات تبخر المياه السطحية.

ب ــ مشكل الماء :

يشكل الماء بواحات درعة أهمية خاصة بالنسبة لسكان هذه الواحات، باعتباره من المواد الطبيعية والاقتصادية التي لا يمكن الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال، إذ عليه مدار الاستقرار وبفضله عرفت بلاد درعة نشاطا زراعيا تركز منذ عشرات السنين على طول السهل الرسوبي التي تكون على شاطئ نهر درعة.

وبالرغم من كون نهر درعة، يخترق هذه الواحات من الشمال الى الجنوب فإن مشكلتها الأساسية التي ظلت تعاني منها هي قلة الماء، ذلك أن شدة انحدار مجرى النهر وقوة عملية التبخر، جعلت هذه الواحات لا تستفيد إلا بالنزر اليسير من مياه فيضانات النهر. كما أن تفتح واحات درعة على الصحاري الحارة من الجنوب والشرق يجعل سكان الوادي يعيشون بصفة شبه دائمة تحت وطأة الجفاف.

---

(10) انظر على سبيل المثال لا الحصر ما ورد عند احمد بن صالح في كتابه تجديد المراسيم البالية في السيرة الحسنة العالية : ص 52.

(11) تكررت الاشارة الى خطورة هذه الرياح على التجار الذين يجوبون الفيافي الصحراوية في كتب الرحلات في فترات مختلفة انظر مثلا :

ــ الحسن الوزان : وصف افريقيا : الجزء الاول ص 61.

ــ محمد بن عبد السلام الناصري : الرحلة الناصرية الكبرى ــ مخطوط الخزانة العامة صص 8 ــ 9 ــ 13.

وإذا كانت جبال الأطلس الكبير تحول دون وصول السحب الممطرة إلى بلاد درعة، فإنها من جهة ثانية، وبفضل ما كان يتراكم على قممها من ثلوج تشكل المصدر المائي الأساسي لدرعة، ذلك أن ذوبان هذه الثلوج كان يسمح بتوفير قدر لا بأس به من الماء في المجرى الأعلى لنهر درعة، يساعد على قيام نشاط زراعي محدود في واحتي مزكيطة وتينزولين، في حين أن الواحات الأربع الجنوبية تعيش هاجس الجفاف، ولا تستفيد من مياه النهر إلا في أوقات الفياضانات الكبرى، التي لا تحدث إلا في فترات متباعدة. وبفضل هذه الفياضانات الكبرى كانت الفرشات الجوفية تعوض مفقودها من الماء.

انطلاقا مما سبق يمكن القول بأن سكان وادي درعة كانوا يعتمدون في عمليات توفير المياه للاستهلاك اليومي أو للأغراض الزراعية على المياه السطحية لنهر درعة في فصل الشتاء وعلى مخزون الفرشات الجوفية في باقي الفصول.

يعتبر نهر درعة من الأنهار التي تصنف عادة ضمن الأنهار شبه الصحراوية التي تهب الحياة لسلسلة من الواحات بمنطقتي تافيلالت ودرعة مثل زيز وكير، وغريس ودرعة، وتتشابه هذه الأنهار في جملة من الخصائص والمعطيات، إذ تنبع كلها من الأطلس الكبير وتنتهي في الرمال الصحراوية باستثناء نهر درعة الذي كانت مياهه تصل في بعض الحالات الى المحيط الأطلسي.

ويتكون نهر درعة بالأساس من نهري دادس وورزازات، حيث تلتقي مياههما بزاوية نورباز جنوب مدينة ورزازات الحالية فيشكلان معا نهر درعة.

وقبل أن ينطلق النهر في رحلته الطويلة عبر الواحات التي تحمل اسمه كان عليه أن يخترق خانق «تاغيا»[12] وبعد خروجه من هذا الخانق يشرع مباشرة في ري بساتين إيمي نواسيف (فم الواد) بأفلاندرى (أعلى درعة) شمال واحة مزكيطة.

وتصب في نهر درعة مجموعة كبيرة من الوديان الصغيرة مثل واد تمسيفت وواد تانكرفا بواحة مزكيطة وأودية مركو والفارغ والبطاح بواحة ترناتة، وهي وديان جافة لا تفيض إلا في حالة وقوع الرخات العاصفية[13] وإذا كانت واحتا مزكيطة وتينزولين تستنفدان جزءا كبيرا من مياه نهر درعة لموقعهما في عالية الوادي، فإن واحات السافلة تعاني وبشكل متفاوت من قلة الماء، ويزداد هذا المشكل حدة كلما اتجهنا نحو الواحات الجنوبية الى أن يصبح جفافا مزمنا يعايش الناس صباح مساء بواحتي محاميد الغزلان ولكتاوة. وتشتد خطورته مع ظهور البوادر الأولى لنهاية فصل الأمطار بالأطلس الكبير. ذلك أن قبائل الواحات الشمالية من مزكيطة الى ترناتة تعمد إلى إقامة سلسلة من السدود الصغيرة (أكوك) في عرض الواد للرفع من منسوب الماء حتى يتأتى جلبه لمسافات بعيدة، ويزيد عدد هذه السدود في ضفتي النهر على تسعين سدا[14].

(12) تاغيا عبارة عن خانق صخري عميق يتكون من ملتقى الرأس الغربي لجبل صاغرو، والرأس الشرقي لجبل تيفرنين.

(13) اقتصرنا على المهم من هذه الأودية والا فإنها تعد بالعشرات في مجموع الواحات من الشمال الى الجنوب.

(14) كانت القبائل تتشارك في السواقي الكبرى المعدة لجلب المياه الى الأراضي المتزرعة على ضفتي النهر، لذلك فالعمل في بناء هذه السدود الصغيرة كان يتخذ صبغة العمل الجماعي كمظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي الذي كان سائدا بدرعة.

وأمام هذه الاجراءات التي كانت تلجأ إليها قبائل الواحات الشمالية لتخزين المياه، كثيرا ما كانت قبائل الواحات الجنوبية تعتمد على العنف لتهديم هذه الخزانات بالواحات الشمالية لتوفير قدر بسيط من الماء وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من المزروعات والنخيل. وقد كانت هذه الهجومات على السدود تؤدي إلى حروب دموية بين القبائل الأمر الذي كان يستدعي تدخل أهل الصلاح من الأشراف والمرابطين لتهدئة الأوضاع والعمل على ايجاد حل توفيقي. وفي هذا الاطار كانت قبائل الواحات الشمالية توافق على تحديد مدة زمنية تسمح خلالها بإرسال الماء إلى الواحات الجنوبية، فتعمد كل قبيلة إلى إغلاق مدخل ساقيتها وإحداث فتحة كبيرة في سدها الصغير، فيؤدي ذلك إلى إحداث فيضان اصطناعي يسمح بوصول المياه الى واحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان[15].

وباستثناء هذه الاجراءات التضامنية فإن مياه نهر درعة لا تصل إلى واحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان إلا في حالة الفياضانات الكبرى التي لا تحدث إلا في سنوات متباعدة[16]، ورغم أن سكان وادي درعة عامة وسكان واحتي الكتاوة والمحاميد خاصة، يستقبلون مثل هذه الفيضانات بفرح كبير، ويعتبرونها منّة من الله على بلادهم، وحدثا مهما في حياتهم يرقى الى درجة التأريخ به، فإن ذلك لم يمنعهم من السقوط في مغبة الصراعات اليومية التي كانت تؤدي في بعض الأحيان الى القتل وإراقة الدماء. وقد كانت هذه الصراعات تطفو على مسرح الحياة اليومية بشكل مفاجيء مع ظهور الماء في مجرى نهر درعة، ذلك أن بعض الفئات من سكان القصور كانت تطغى عليها الرغبة في الفوز بالأسبقية بالماء لري أراضيها ونخيلها. ويحتد هذا الصراع عندما تظهر البوادر الدالة على أن الماء لن يدوم جريانه أكثر من أسبوع أو أسبوعين على الأكثر، وقد علمتهم التجربة والواقع المعيش أن مثل هذه الفيضانات الكبرى قد لا تحدث إلا بعد سنوات وسنوات[17].

وتؤكد الوثائق المحلية مثل الاتفاقيات، ورسوم الأملاك العقارية أن الماء كان ولازال وراء جملة من المشاكل العويصة التي كانت تطرأ بين سكان وادي درعة. وكثيرا ما كانت هذه المشاكل تعصف بروح التساكن التي تطبع العلاقات العامة بين مختلف العناصر التي تتشكل منها قبيلة القصر. فقد كانت بعض الأسر من ذوي النفوذ ــ المادي والمعنوي ــ من سكان القصور، لا تتردد في استعمال العنف وتجاوز حقوق الآخرين في الاستحواذ على الماء، الأمر الذي كان يؤدي الى تفجير التحالفات القديمة وتعويضها بتحالفات جديدة تستجيب ومتطلبات المستجدات الطارئة. وقد كانت مشاكل الماء تتفاعل وتتطور بسرعة كبيرة، إذ لاتكاد تنطلق على شكل حادث بسيط حتى يتسع نطاقها، فتنكا الجراح القديمة، وتمتد لتشمل كل قبائل هذه الواحة أو تلك أو قبائل الواحات المتجاورة. ونستشف من اشارات

---

(15) ظل العمل بهذه السيول الاصطناعية مدة عهد الحماية ولازال المسؤولون يفرضونه على سكان الوادي الى اليوم، ونستشف من بعض الوثائق المحلية أن العمل بالسيول الاصطناعية قديم جدا بالوادي..

(16) الفقيه محمد بن الحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية. مخطوط خاص ص 2.

(17) زارت السيدة جاك مونيي واحتي الكتاوة والمحاميد سنة 1945 ــ و1946 فلاحظت حسب رواية السكان أن هاتين الواحتين لم تعرفا أي فيضان كبير لنهر درعة منذ 15 سنة. D.J. Meunié : Maghreb et Sahara Paris, 1973, p. 178.

الحسن الوزان في مطلع القرن 10هـ /16م وإشارات مارمول الاسباني في السبعينات من نفس القرن أن مشاكل الماء هي الثابت الحاضر في حياة السكان بوادي درعة، وقد كانت هذه المشاكل تزداد حدة عندما ينخفض منسوب الماء في مجرى النهر ويتجه معينه الى النضوب خلال فصل الصيف[18].

ونلاحظ من خلال بعض المقيدات المحلية، وكتب المناقب، أن الماء كان ولازال يشكل الهاجس الأساسي لسكان وادي درعة. والواقع أن هاجس الخوف من الجفاف وقلة الماء ظل يسيطر على عقلية وسلوك سكان وادي درعة وبالخصوص سكان الواحات الجنوبية، فكانوا إذا ما داهمهم الجفاف وأصبحوا مهددين بالجوع، يلتجئون الى من يعتقدون صلاحهم من أهل التصوف وأصحاب الزوايا من الأشراف والمرابطين فيقدمون لهم الصدقات ويتنازلون لهم عن أجزاء كبيرة من أراضيهم، كما كانوا في بعض الحالات يلتزمون لبعض المرابطين بخدمة سواقيهم وأراضيهم في أوقات معينة من السنة مقابل تفضلهم بالتوجه الى الله والتضرع إليه ليرفع عن أهل درعة أضرار الجفاف ويكشف عنهم عذاب الجوع، ويجري الماء في الوادي. فقد ورد في تقييد محلي وجد بلكتاوة أن قحطا وقع بدرعة خلال القرن العاشر الهجري/16م «فكان الصالحون وأهل الفضل والدين مهتمين بذلك متضرعين الى الله تعالى في كشف ما نزل بهم عند قبور الصالحين والأولياء الأحياء منهم والأموات ملتمسين رحمة الله وغيثه عندهم إلى أن وصلوا إلى شيخ الطريقة أبي العباس سيدي أحمد بن علي الحاجي (ت 998هـ/1589م) وهو إذاك على قيد الحياة[19] وبالرغم من أن هذا الشيخ قد أكد لزائريه أن ما يطلبونه، ليس هو من أهله ولا كان على بابه» فإنه أمرهم بأن يذهبوا بصدقة كبيرة إلى ضريح الشيخ الحاج علي بن عمرو برباط تفجروت[20] وحدد لهم هذه الصدقة في «مُدِي[21] من القمح بِمُدِّ بني صبيح[22] بشرط كيله لا ينقص حبة واحدة، وجمعه عند الناس قبيلة قبيلة حتى يُجمع كاملا على نية الصدقة وثور يكون له لحما. ويؤكد صاحب التقييد أن كل القبائل قد التزمت بجمع القمح حسب شرط سيدي أحمد بن علي وجاءوا به إلى رباط تفجروت حيث أقيمت صدقة كبيرة للفقراء والمساكين بحضور الشيخ سيدي أحمد بن علي. إلا أن التقييد لم يذكر لنا شيئا عن أزمة الجفاف هل فكت أم لا ؟.

أما الشيخ سيدي مَحمد بن ناصر (ت 1085هـ/1774م) فقد تنازل له أهل الضُّبيعِيَّة بأسفل درعة عن مساحات كبيرة من الأرض مقابل إحياء ساقيتهم فخرج اليها الشيخ في جملة من أصحابه «فحرَّكها وسلمها الله فطلعت»[23].

(18) الحسن الوزان : وصف افريقيا الجزء الثاني ص 119.

— MARMOL : L'Afrique, Tome III, p. 13.

(19) ترجم لسيدي أحمد بن علي الحاجي : محمد المكي الناصري في الدرر المرصعة ص 8.

(20) يقع رباط تفجروت على الضفة الغربية لنهر درعة في واحة فزواطة قرب زاوية سيدي بلال، أما الحاج علي بن عمرو فلم نعرف عن حياته شيئا لحد الآن.

(21) لمُدي : من المكاييل المستعملة بدرعة ولم نتمكن من ضبط سعته بصفة دقيقة للاختلاف الكبير في المكاييل بين واحة وأخرى.

(22) قصر بني صبيح : من القصور الكبيرة بواحة لكتاوة، وقد اشتهر هذا القصر كسوق تجارية منذ القرن العاشر الهجري/16م حيث يرتاده التجار من سوس وتافيلالت وجنوبي الصحراء انظر : الحسن الوزان : وصف افريقيا ج 2 ص 119.

(23) أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ج. 1 — ص. 171.

أما سيدي أحمد بن صالح لكتاوي فقد ذكر في كتابه : **تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنة العالية**، أن قحطا شديدا وقع بدرعة في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/17م واشتدت وطأته على أهل لكتاوة «فضعف النخيل وغلت الزروع والأثمار والأسعار وطالت بهم الشدة مع البلاء، فكان الناس يقدمون على الشيخ (سيدي صالح بن ابراهيم والد المؤلف) ويرغبونه في الدعاء وكشف عذاب الجوع عنهم، فقال لبعضهم : إن أهل هذه الحفرة من لكتاوة يدفعون لي ألف أجير أخدم بهم بعض أرضنا وساقيتنا فإن الواد ياتيهم ويرفع عنهم بعض ما يجدون»[24] وعلى كل فإن هذه النماذج التي سقناها كدليل على الأثر النفسي الخطير الذي كان يتركه مشكل الماء عند سكان درعة، ولن نبالغ في شيء إذا قلنا إن الماء كان ومنذ زمن بعيد ليس بدرعة فحسب وإنما في كل المناطق الجنوبية، وراء جملة من المشاكل الاجتماعية (الصراعات القبيلة ــ الهجرة) والمشاكل الاقتصادية (تعثر النشاط الزراعي ــ اضطراب الحياة الرعوية) والمشاكل السياسية بواحات وادي درعة.

وهكذا نستنتج مما سبق أن موقع بلاد درعة على مشارف الصحراء، جعل منها معْبرا تاريخيا للهجرات البشرية الكبرى نحو الشمال، ولاتزال آثار هذه الهجرات واضحة في النسيج العام لسكان واذي درعة وفي تنوع عاداتهم وتقاليد حيث لايزال بعض هذه التقاليد يضرب بجذوره في عمق البلاد الافريقية جنوبي الصحراء.

كما أن الظروف المناخية القاسية، ودورات الجفاف الحادة وهجومات قبائل الرحل المتكررة، كانت لها عواقب وخيمة على عقلية وسلوك سكان درعة، وبالتالي عرقلة مسيرة التطور الطبيعي لتاريخ المنطقة.

(24) أحمد بن صالح لكتاوي: تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنة العالية مخطوط خاص ــ ص 52.

II ــ مراحل تعمير وادي درعة الى حدود القرن السابع الهجري/13م

1 ــ

تعتبر واحات وادي درعة من أقدم مراكز الاستيطان البشري بالمناطق الصحراوية، بفضل ما توفر لها من ظروف طبيعية ساعدت على الاستقرار منذ عشرات القرون، حيث كانت حياة السكان ترتكز على الرعي والزراعة وبعض الأنشطة التجارية، في اطار التبادل التجاري الذي كان قائما بين الجنوب المغربي وافريقيا جنوبي الصحراء. ونستفيد من بعض الاشارات التاريخية[1] أن سكان وادي درعة في العصور الغابرة، ينتمون الى عناصر افريقية سوداء المتساكنين مع أقوام من الرعاة البيض بالاضافة الى الخلاسين المنحدرين من الامتزاج بين العنصرين الأسود والأبيض.

ويعتقد أن هؤلاء الأقوام الذين استوطنوا بلاد درعة، قد هاجروا من الصحراء الكبرى بعدما داهمها الجفاف وتغيرت أحوالها المناخية، ولعل ما يؤكد هذا الاعتقاد هو الطابع الصحراوي لهذه الواحات سواء على مستوى النسيج العام لسكان المنطقة، أو على مستوى العادات والتقاليد التي ظلت تحتفظ ببعض التأثيرات الصحراوية ــ الافريقية إلى عهد قريب[2]. فهل يمكن القول : أن هذه المجموعات البشرية السوداء والمجموعات الخلاسية هم أسلاف الحراطين، ليس في واحات درعة فحسب، وإنما في كل الواحات المنتشرة في الأطراف الشمالية للصحراء الكبرى[3] حيث تؤكد كل القرائن والمعطيات على أن هذه المجموعات البشرية كانت تستوطن مناطق الواحات منذ عشرات القرون.

2 ــ انتشار الأمازيغين الصنهاجيين بواحات درعة.

تعتبر القبائل الأمازيغية الصنهاجية من أكبر التجمعات القبلية البربرية التي استوطنت المغرب الأقصى الى جانب القبائل الزناتية والمصمودية. وتنحدر القبائل الأمازيغية الصنهاجية من أصول غامضة

---

(1) ذلك ما استفدناه من النصوص التاريخية القديمة التي نشرها بعض الدارسين، انظر : على سبيل المثال لا الحصر

D.J. MEUNIE : Le Maroc Saharien des origines au XVI siècle - Paris 1982. Tome I, de p. 159 à p. 188.

(2) D.J. MEUNIE : Sur le culte des Saints et les fêtes rituelles dans le Moyen - Draa et la région de Tazarine

Hespéris 3 et 4, 1951, p. 371.

(3) ذلك ما رجحه كابريل كامبس حول أصول الحراطين بالصحراء انظر :

G. Camps : Recherches sur les origines des cultivateuurs noirs du Sahara.

R.O.M.M., Tome 3, 1970, p. 36.

ومبهمة كما يتضح ذلك من الطروحات الاحتمالية التي كان نسابة البربر يسوقونها حول أصول هذه القبائل[4].

ونستفيد من بعض الاشارات التاريخية القديمة، أن رعاة المازيك أسلاف الامازيغيين الصنهاجيين، كانوا يمارسون الرعي والترحال في المناطق الممتدة ما بين جنوب شرق الجزائر وجنوب غرب ليبيا الحالية. وبالرغم من أننا لا نعرف متى نزح هؤلاء المازك نحو الجنوب المغربي، فإن كل القرائن تدل على أن رعاة المازيك، قد تعرضوا خلال القرون الميلادية الاولى، لضغوط قوية من المجموعات البشرية التي نزحت من الجنوب الليبي في اتجاه شمال غرب افريقيا، فغادروا مناطق انتشارهم الأولى واتجهوا نحو واحات الجنوب المغربي، وقد تمكن رعاة المازيك من السيطرة على الاثيوبيين الدرعيين الذين كانوا يشتغلون بالزراعة في واحات درعة[5].

وتدل كل المعطيات التاريخية على أن رعاة المازيك الذين نزحوا الى الجنوب المغربي خلال القرون الميلادية الأولى، ليسوا في الواقع إلا أسلاف القبائل الامازيغية الصنهاجية، ولعل ما يدعم هذا الافتراض أن النسابين البربر ومن أخذ عنهم من المغاربة الذين اهتموا بتاريخ البربر عامة، والامازيغيين خاصة، يؤكدون على أن الجد الأعلى لقبائل صنهاجة هو مازيغ بن كنعان[6]. ولاتزال قبائل أيت عطا نفخر على أندادها من القبائل الأخرى بأنها من الامازيغيين[7]. وهكذا يتضح لنا أن القبائل الصنهاجية لها صلة تاريخية برعاة المازيك، خاصة أن كلمتي مازيغ ومازيك متقاربتين جدا من حيث التركيب ومخارج الحروف. وتبقى ممارسة الرعي والترحال والارتباط بالصحراء من أقوى الوشائج بين المازيك وأخلافهم من الأمازيغيين الصنهاجيين.

وتدل كل القرائن والمعطيات التاريخية على أن مجالات انتشار القبائل الصنهاجية الصحراوية خلال العصور الاسلامية هي نفس المناطق التي كانت تنتشر فيها في العصور القديمة[8] حيث لاتزال آثار هذه القبائل مطبوعة على أسماء الاعلام والمواقع الجغرافية.

3 — وصول القبائل الزناتية إلى درعة

كانت القبائل الزناتية تتجاور مع القبائل الصنهاجية من الناحية الشرقية، وتعتبر قبائل زناتة المنافس التقليدي والتاريخي لقبائل صنهاجة، حيث كانت المجموعتان تتغالبان على مواطن الكلأ والرعي وتتبادلان

(4) انظر ما ورد في ذلك على سبيل المثال لا الحصر :
— علي بن أبي زرع : روض القرطاس : (طبع 1972) ص. 119 — 120.
— أحمد بن خالد الناصري : الاستقصاء (طبعة 1954) ج. 1 ص. 60 — 61.

(5) G. Camps : Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara - R.O.M.M., Tome 3, 1970, pp. 36-37.

(6) أبو القاسم الزياني : الترجمانة الكبرى، ص. 58.
— الناصري : الاستقصاء ج. 1 — ص. 65.

(7) G. Spillmann : les Ait Atta du Sahara, p. 30.

(8) عبد الوهاب بنمنصور : قبائل المغرب : ج. 1 — ص. 329.

السيطرة والمراقبة على الطرق التجارية الصحراوية، وكان من نتائج هذا التدافع بين المجموعتين، أن أصبحت مواطن الصنهاجيين، في شرق المغرب وجنوبه متداخلة مع مواطن الزناتيين بشكل جعل جل المؤرخين يرتبكون في ربط القبائل الصغرى بهذه المواطن بأصولها الكبرى(9).

وفي القرن الميلادي الأول، قام الرومان الذين كانوا يسيطرون على شمال البلاد بحملة عسكرية ردعية ضد قبائل الرحل التي كانت تهدد الطرق التجارية عبر هضاب ملوية العليا، ويظهر أن الحملة العسكرية الرومانية قد نجحت في اجتياز جبال الأطلس الكبير والوصول الى واد كَير على مشارف الصحراء(10). وقد تراجعت القبائل الزناتية التي كانت تنتشر بالمناطق التي استهدفتها الحملة العسكرية الرومانية نحو الجنوب والغرب، فدفعت أمامها قبائل الأمازغيين الصنهاجيين. وتدل كل القرائن على أن قبائل زناتة قد وصلت في أقصى اندفاع لها نحو الغرب الى واحات درعة، ويعزى الى هذه القبائل الزناتية إدخال مجموعات من المؤثرات الحضارية الى درعة، حيث لاتزال بعض هذه المؤثرات قائمة الى اليوم في الأساليب الزراعية وأسماء النباتات وطرق الري(11).

ولما جاء الاسلام وجد القبائل الزناتية بالمناطق الجنوبية في أوج قوتها حيث تمكنت من بسط سيطرتها على كل الواحات التي تمتد من بلاد درعة غربا إلى تيدكلت شرقا(12). وقد عرفت هذه القبائل كيف تستفيد من تحالفها مع الفاتحين العرب الذين وصلوا إلى درعة(13) لتعزيز وضعها الاجتماعي على حساب القبائل الصنهاجية التي تراجعت إلى أعماق الصحراء(14).

ويظهر أن الاسلام قد غير من مواقف القبائل الزناتية فأصبحت تتطلع إلى دور أكبر واوسع بين المجموعات البربرية الأخرى، ليس في الجنوب ومناطق الواحات فحسب وانما في مجموع، وفي هذا الإطار انضمت القبائل الزناتية إلى التيار الخارجي الذي طفح على مسرح الأحداث في مطلع القرن الثاني الهجري (8م)، فانحشرت قبائل زناتة بشكل جماعي في هذا التيار واعتنقت مذهبه، وتقنعت به لتحقيق أغراضها السياسية، ولم يجد رواد المذهب الخارجي بالمغرب أدنى صعوبة في إقناع زناتيي الواحات ومن في نظرهم إلى الانضمام إلى هذا المذهب والعمل على نشره وتقوية وجوده في المناطق المجاورة. وقد توجت جهود الزناتيين بالواحات بتأسيس إمارة بني مدرار الصفرية بسجلماسة سنة 140هـ/757م(15).

---

(9) كثيرا ما كان الأستاذ التقي العلوي يلخص حيرة المؤرخين وارتباكهم أثناء محاولاتهم لتتبع مواطن القبائل البربرية بالمغرب وذلك في مقالاته التي كان ينشرها في مجلة البحث العلمي بعنوان : **أصول المغاربة**.

(10) **D.J. MEUNIE : Le Maroc Saharien, Tome 1, p. 169.**

(11) **D.J. MEUNIE : op. cité, p. 175.**

(12) التقي العلوي : أصول المغاربة : مجلة البحث العلمي عدد 1982.33 ص. 101.

(13) تؤكد جل المصادر التي اهتمت بالفتح الاسلامي بالمغرب بوصول جيوش الفاتحين الاوائل الى درعة سواء على عهد عقبة بن نافع الفهري سنة 62هـ/681م أو على عهد موسى بن نصير سنة 707/88 انظر مثلا أبي عذاري المراكشي : البيان المغرب ج. 1 — ص. 27.

(14) **F. de la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental — Hesperis XI, 1930, p. 55.**

(15) حول ظروف تأسيس إمارة سجلماسة المدرارية انظر :

— د. محمود اسماعيل : الخوارج في بلاد المغرب. الباب 3 — ابتداء من ص. 109.

كانت القبائل الصنهاجية هي الخاسر الأكبر في هذا التحول السياسي الذي عرفه الجنوب المغربي خلال القرن الثاني الهجري (8م) ذلك أن أمراء الامارة الزناتية بسجلماسة، قد عملوا على تجميع كل العناصر غير الصنهاجية بواحتي درعة، وتافيلالت لخلق عمق بشري لامارتهم، وتوفير شروط الاستقرار لها، وايجاد قوة عسكرية لحماية الطرق التجارية بين افريقيا السوداء والجنوب المغربي. وقد تحولت سجلماسة، بعد فترة وجيزة من تأسيس الامارة المدرارية الزناتية بها الى أكبر سوق تجارية بالمنطقة على الاطلاق.

ظلت بلاد درعة إبان حكم الامارة المدرارية خاضعة لنفوذ سجلماسة وتتفاعل مع أحداثها السياسية، بحيث لا تدق الطبول في سجلماسة إلا ورددت جبال درعة صداها. ذلك أن واحات درعة لا تقل أهمية من الناحية الاقتصادية عن واحات تافيلالت نظرا لأهمية منتوجاتها الزراعية وتعدد مناجم المعادن بها[16] ويعزى هذا الازدهار الاقتصادي لواحات درعة الى تحول جل القبائل الزناتية بدرعة الى الاستقرار، بفضل ظروف الأمن التي وفرتها لهم امارة سجلماسة، وتحكمها في الطرق التجارية الصحراوية بعد تخلصها من مزاحمة القبائل الصنهاجية على خيرات الواحات سواء ببلاد درعة أو ببلاد تافيلالت.

وقد تركت القبائل الزناتية بصمات قوية على كل مناحي الحياة بوادي درعة، ولاتزال هذه البصمات حاضرة في أسماء الاعلام والمواقع الجغرافية، ولم تتمكن الأمواج البشرية التي تعاقبت على تعمير واحات درعة بعد القبائل الزناتية من طمسها والقضاء عليها بصفة نهائية، ولاتزال بعض قبائل القصور بالمنطقة تحتفظ باسمائها الزناتية رغم اندماجها اليوم في مجموعات قبلية تحسب على قبائل مصمودة أو على قبائل صنهاجة[17].

وهكذا يمكن أن نستنتج مما سبق أن القبائل الزناتية قد ظلت تهيمن على واحات وادي درعة منذ القرون الميلادية الاولى الى غاية أواسط القرن الخامس الهجري/11م حيث تراجع نفوذها أمام القبائل الصنهاجية التي استعادت بعض نفوذها بالوادي بعد ظهور الدولة المرابطية.

4 ــ عودة القبائل الصنهاجية الى درعة

ما كادت الحركة المرابطية تنجح في إعادة تجميع القبائل الصنهاجية بالمناطق الصحراوية وتشكيل عصبية قوية، حتى تطلع قادتها الى الاستيلاء على مناطق الواحات بدرعة وتافيلالت[18] تمهيدا لانتزاع حكم المغرب من العصبية الزناتية المتضعضعة، وقد عرف المرابطون كيف يستفيدون من الظرفية التي

---

(16) لا تزال آثار المناجم المعدنية قائمة في بعض المرتفعات المحيطة بواحات درعة الى اليوم. وقد أشار الى بعضها الباحث الفرنسي ROSENBERGER في مجلة جغرافية المغرب. R.G.M. N° 1970, p. 78..

(17) من ذلك قبيلة ايت سمكان ذات الأصل الزناتي والمحسوبة اليوم على قبائل أيت ووزكيت المصمودية. وقبيلة أيت مسكور الزناتية أيضا والمحسوبة على قبائل أيت اونير الصنهاجية. بالاضافة الى مجموعة من قبائل القصور التي لا يعرف لها أصل وهي في الغالب من بقايا القبائل الزناتية.

(18) مجهول : الحلل الموشية في الأخبار المراكشية :
تحقيق عبد القادر زمامة وسهيل زكار ــ ط. 1979 ــ ص. 22.

كانت سائدة بالمغرب في مطلع القرن الخامس الهجري/11م وتوظيف جوانبها السلبية في تحقيق مشروعهم السياسي الهادف الى السيطرة على المغرب وتوحيده تحت نفوذهم.

كانت بلاد درعة نظرا لموقعها الجغرافي كممرٍّ طبيعي وحيوي يربط بين المناطق الجبلية في الشمال والمناطق الصحراوية في الجنوب، يشكل منطقة مهمة في الخريطة السياسية للحركة المرابطية، فكان قادة الحركة يخصونها بحكام من خلص القبائل الصنهاجية.

ويظهر من إشارات أبي عبيد البكري (من رجال القرن الخامس الهجري) أن المرابطين قد ضبطوا أحوال وادي درعة، ووفروا له ظروف الأمن والاستقرار، فازدهرت الحياة العمرانية وتعددت الأسواق[19] على طول الوحات مما يوحي بوفرة الانتاج الزراعي وإقبال سكان المنطقة على الاعمال التجارية.

سبقت الاشارة الى القول بأن القبائل الزناتية كانت تعمر بلاد درعة منذ قرون قبل الاسلام، وقد تمت حركة انتشار قبائل زناتة بالوادي وهوامشه على حساب القبائل الصنهاجية التي اضطرت الى التراجع الى المناطق الصحراوية، فلما قامت الدولة المرابطية، استعادت قبائل صنهاجة هيمنتها على واحات درعة الأمر الذي جعل بقايا وفلول القبائل الزناتية تتحول الى الاستقرار والارتباط بالأرض والعمل فيها تحت نظر القبائل الصنهاجية، ولاشك أن لهذه البقايا الزناتية بدرعة يدا في ازدهار الحركة العمرانية والاقتصادية التي عرفتها المنطقة خلال القرن الخامس الهجري/11م، ويرجع ذلك بالأساس الى الخبرة الطويلة التي اكتسبتها العناصر الزناتية في استغلال الأراضي وتسيير الأعمال التجارية بمناطق الواحات.

وإذا كان من الصعب علينا أن نحدد بدقة مناطق تمركز بقايا القبائل الزناتية بدرعة، بعد ذهاب عز عصبيتها بالمنطقة فإن هذا لا يمنعنا من القول بأن هذه البقايا قد تمركزت بصفة خاصة بواحات تزناتة وتنزولين ومزجيطة حيث لاتزال بصمات القبائل الزناتية مطبوعة على أسماء الأماكن والمواقع الجغرافية بهذه الواحات. ومن البقايا النادرة المعروفة بأصولها الزناتية بدرعة قبيلة آيت مسكور المندمجة حاليا في قبائل ايت أونير الصنهاجية بترناتة[20] وقبيلة ايت سمكَان المحسوبة على قبائل ايت واوزكَيت المصمودية[21].

أما القبائل الصنهاجية التي نزحت من الصحراء الى درعة بعد قيام الدولة المرابطية مباشرة، فقد استقرت بالواحات الجنوبية لتتمكن من مراقبة شبكة الطرق التجارية بهذه الواحات ولأهمية المراعي الشاسعة في هوامشها.

---

(19) أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر افريقيا والمغرب طبعة باريس 1965 — ص. 152.

(20) عبد الوهاب بنمنصور : قبائل المغرب ج. 1 ص. 308 و311.

(21) تعد قبيلة أيت سَمْكَان اليوم من قبيلة تنسيفت بواحة مزكيطة وتستوطن قصر أيت سمكَان الذي يقع بين اكَدز وتازناخت وحول أصول أيت سمكان أنظر :

— التقي العلوي : أصول المغاربة : مجلة البحث العلمي : عدد 33 — 1982 ص. 70

— البيدق الصنهاجي : المقتبس من كتاب الانساب — ص. 43 و48.

وبالرغم من أننا لا نعرف بكيفية مدققة كل القبائل الصنهاجية التي نزحت الى درعة على عهد المرابطين، فإن إشارات البكري قد كشفت لنا عن أسماء بعض هذه القبائل مثل قبيلة مسوفة وقبيلة سرطة.

تعتبر قبيلة مسوفة من القبائل الصنهاجية الخالصة، تندرج في العادة ضمن صنهاجة أهل اللثام، كانت إبان الفتوحات الاسلامية تستوطن المناطق الصحراوية الواقعة وراء سوس[22] وهذا يعني انها كانت تنتشر في عصور ما قبل الاسلام في الصحراء المغربية الحالية وبلاد موريطانيا، حيث لاتزال بعض بقاياها تعرف بين سكان المنطقة بمشضوف[23].

ونستفيد من إشارات البكري أن قبيلة مسوفة قد نزحت الى وادي درعة، حيث كان رعاة هذه القبيلة خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري]11م ينتقلون بقطعانهم في المجالات الممتدة ما بين وادي درعة وتافيلالت[24] وتدل كل القرائن على أن قبيلة مسوفة قد استوطنت واحات درعة منذ القرن الخامس الهجري/11 إلى وقتنا الحالي وقد ظلت محافظة على طبيعتها الصحراوية في التنقل بقطعانها ما بين الهوامش الصحراوية وسفوح جبال الأطلس الكبير.

وتشكل قبيلة مسوفة في الوقت الحالي أهم قبيلة صنهاجية بواحة فزواطة وتتجمع في سلسلة من القصور مثل قصر أمزرو وسَارَت وإنكزاط وقصبة أيت هَكّو وغيرها[25] وبالرغم من أن قبيلة مسوفة بدرعة لاتزال مرتبطة بحركة التنقل وراء القطيع عبر المراعي الشاسعة الممتدة ما بين جبل صاغرو والهوامش الصحراوية فإن الأغلبية الساحقة من القبيلة قد تحولت الى الاستقرار والارتباط بالأرض.

أما قبيلة سرطة فهي القبيلة الصنهاجية الثانية التي قد تكون استوطنت بلاد درعة على عهد المرابطين[26] وتعتبر هذه القبيلة من القبائل المنحلة في عصرنا الحاضر، إذ لم يبق إلا ذكرها في قصر سَارتْ الحالي بواحة فزواطة. ومن المرجح أن فلول قبيلة سرطة قد اندمجت في غيرها من القبائل الصنهاجية الأخرى التي استوطنت بلاد درعة خلال العصور الوسطى.

5 ـ الطوائف اليهودية بواحات درعة

بالاضافة الى هذه العناصر البشرية التي تعاقبت على استيطان وتعمير واحات درعة منذ القديم الى غاية العصور الوسطى، توافدت على بلاد درعة جماعات من اليهود وقد استقرت هذه الجماعات في أول الأمر بالواحات الجنوبية، خاصة بمرتفعات ابن سَلمان ومكَاكْ، وقد كانت هذه المرتفعات تراقب

---

(22) عبد الرحمان بن خلدون : العبر ج. 6 ـ ص. 146.

(23) G. Spillmann : Les Ait Atta du Sahara, p. 75.

(24) أبو عبيد البكري : مرجع سابق ص 149.

(25) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute Vallée du Draa, A.M., Volume 9, Tome 2, Paris, 1931, p. 151

(26) أبو عبيد البكري : مصدر سابق : ص. 155.

الطرق التجارية التي تربط بين الجنوب المغربي وافريقيا السوداء جنوبي الصحراء. وقد انشأ اليهود سلسلة من القصور بمنطقة فم تيدري[27] ولاتزال الخربات القديمة لهذه القصور منتشرة بالقرب من هذا المنفذ الحيوي الذي يربط بين واحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان.

وبالرغم من ادعاءات بعض الباحثين[28] من أن اليهود قد يكونوا وصلوا إلى درعة منذ القرن العاشر قبل الميلاد، فإن كل القرائن توحي بأن الجماعات اليهودية قد وصلت إلى درعة في عصور متأخرة عن التاريخ المذكور[29]، قد يرجع أقدمها إلى القرون الميلادية الأولى، وليس من المستبعد أن يرجع استقرار اليهود بشكل مكثف بدرعة إلى العهود الاسلامية إن لم نقل إلى عصور متأخرة جدا خاصة بعد سقوط الاندلس، إذ من المؤكد أن بعض الاسر الاندلسية قد وصلت إلى درعة منذ نهاية القرن الثامن الهجري /14م[30]. ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن تاريخ اليهود بدرعة لا يقل غموضا عن تاريخ باقي المجموعات البشرية الاخرى التي تعاقبت على تعمير واحات الوادي.

وفي مطلع القرن العشرين، اكتشفت بدرعة ودادس بعض الوثائق اليهودية التي تتحدث عن تاريخ هذه الجماعات بالمنطقة[31]، وبالرغم من الطابع الاسطوري لهذه الوثائق، فإنها تلقي بعض الأضواء على نوعية العلاقات التي كانت تربط اليهود بسكان درعة.

وقد استمر وجود اليهود بواحات درعة حتى بداية عهد الاستقلال حيث هاجروا نحو المدن الكبرى بشمال المغرب أو إلى الخارج.

ــ وخلاصة القول أن المجموعات البشرية التي استوطنت واحات وادي درعة منذ العصور القديمة إلى غاية أواسط القرن السابع الهجري /13م تتكون بالأساس من العناصر السوداء او الخلاسية، وهي عناصر توافدت على بلاد درعة منذ عشرات القرون، وتنتمي إلى اصول غامضة ومبهمة وإلى أصول افريقية في بعض الاحيان. وقد اكتسبت هذه العناصر السوداء او الخلاسية خبرة طويلة في الأعمال الزراعية وكل ما له علاقة بالبستنة وأعمال الري نظرا لقدرة هذه العناصر على التكيف السريع مع الظروف الطبيعية بالمنطقة. وقد التحقت بها وشاركتها سكنى هذه الواحات عناصر بربرية منذ أقدم العصور وبعض الطوائف اليهودية.

---

(27) P. AZAM : Sédentaires et Nomades dans le Sud Marocain. — C.H.E.A.M., Paris, 1946, p. 54

(28) انظر في هذا الصدد ما ذكرته جاك موني في كتابها الضخم :

D.J. MEUNIE : Le Maroc Saharien des origines au 16e siècle, Tome I, p. 181.

(29) ذلك ما يمكن استنتاجه من بعض تواريخ اليهود بدرعة، إذ يغلب عليها الطابع الأسطوري، وتستعمل الفاظا عربية كواد الزيتون، ورباط الحجر، وغيرها من الأسماء. انظر ما نشره كاتفوسي عن اليهود بدرعة. هامش رقم 31.

(30) من العائلات الاندلسية التي وصلت الى درعة خلال القرن الثامن الهجري عائلة الحاج عبد الله العشابي دفين ترناتة (الدرر المرصعة ص :

(31) نشرت هذه الوثائق بعناية كاتفوسي بعنوان :

J. GATTEFOSSE : Juifs er Chrétiens du Draa avant l'Islam. — Bulletin de la Société de la préhistoire du Maroc : 9 Année, n° 3 et 4 - 1935.

ومنذ القرون الميلادية الأولى إلى غاية العصور الوسطى ظلت القبائل الصنهاجية والقبائل الزناتية تتغالب على واحات الوادي، ولاتزال بصمات هذه القبائل مطبوعة على أسماء الاعلام والمواقع الجغرافية في غيرما منطقة بدرعة. وإذا كانت بقايا القبائل الزناتية بعد ذهاب عز عصبيتها بالمنطقة منذ وقت مبكر من القرن الخامس الهجري /11م، قد تحولت إلى الاستقرار والارتباط بالأرض، وصارت تشكل ما عبر عنه الشريف الادريسي خلال القرن السادس الهجري /12م باخلاط من البربر[32]، فإن القبائل الصنهاجية ظلت تمارس الرعي والانتجاع عبر المراعي المنتشرة في هوامش واحات درعة، ولم يطرأ على نمط عيشها أي تحول يذكر طيلة العهدين المرابطي والموحدي، حيث ظلت تمارس نوعا من الهيمنة على المستقرين حتى فاجأتها قبائل بني معقل التي اجتاحت واحات وادي درعة منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري /13م.

(32) الشريف الادريسي : وصف افريقيا الشمالية. وهو جزء مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق، وقد نشر بعناية هنري بريس بالجزائر سنة 1957 — ص. 38.

الفصل الثاني

هجرة القبائل المعقلية إلى درعة

الهجرات العربية إلى درعة وأثرها على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالمنطقة

تعتبر القبائل العربية أخر موجة بشرية عمرت بلاد درعة وأثرت بشكل كبير في البنى الاجتماعية السائدة بالمنطقة، فقد دفعت بالقبائل الصنهاجية نحو المناطق الجبلية أو الصحراوية، واستبدت من جهة اخرى بالمستقرين من الخلاسين وفلول القبائل البربرية التي عجزت عن الظعن والهجرة. ويسود الاعتقاد على أن العرب قد وصلوا إلى بلاد درعة على موجتين :

1ـــ الموجة الأولى : قد تكون وصلت إلى بلاد درعة منذ الفتح الإسلامي، ولا شك أن عدد من جاءوا في هذه الموجة لم يكن كبيرا ولم يكن بإمكان الوافدين العرب أن يحدثوا أي تغيير يذكر في مجتمع المنطقة، اللهم إلا ما كان من نشر الإسلام بين سكان درعة، وقد تكون عناصر هذه الموجة ذابت كلية بين سكان واحات درعة[1]

2ـــ الموجة الثانية : وتتشكل من قبائل بني معقل التي ظلت تتدفق على واحات درعة منذ وقت مبكر من القرن السابع الهجري /13م إلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري /16م. وتعتبر قبائل بني معقل أهم تجمع بشري من القبائل العربية نزح إلى بلاد درعة وساهم في تعمير المنطقة إلى جانب العناصر البشرية التي سبقت الإشارة إليها، وتتجلى أهمية هذه القبائل فيما احدثته من تغيرات اجتماعية واقتصادية بدرعة. إذن فما هي قبائل بني معقل ؟ وما هي التطورات التي مرت بها هذه القبائل ؟ وكيف تحولت من تجمع بشري صغير لا يتجاوز مائتي نفر في القرن السادس الهجري /12م كما ورد عند ابن خلدون إلى تجمع كبير صار يعد من أقوى القبائل واكثرها عددا في الجنوب المغربي ولم يمض على وصولها للمغرب إلا بضعة قرون ؟ وما هي نوعية العلاقة التي كانت تربط هذه القبائل بسكان درعة من جهة، والتي تربطها بالدولة المركزية من جهة أخرى ؟

1 ـــ أصول قبائل بني معقل

نفهم من تاريخ ابن خلدون وغيره من المؤرخين المغاربة أن قبائل بني معقل قد وصلت إلى المغرب ضمن تجمعات بني هلال التي نقلها الموحدون من تونس إلى المغرب في أواسط القرن السادس

(1) تذهب الرواية الشفوية بواحات درعة إلى وجود بعض عائلات عرب الفتح بالمنطقة، وبالرغم من أن بعض عرب الفتح قد يكونوا استقروا فعلا بدرعة، فمن المستبعد أن يظلوا محافظين على هويتهم نظرا لكون المنطقة تتعرض باستمرار الى دورات الجفاف مما يجعل السكان يهاجرون، وتعرض الواحات طيلة تاريخها الى هجرات بشرية متتالية.

الهجري /12م[2] وقد كان عدد بني معقل عند دخولهم إلى المغرب لا يتجاوز مائتي نفر[3] وقد أنزلهم الموحدون في الهوامش الصحراوية، بينما أنزلوا القبائل الأخرى بمناطق السهول شمال البلاد[4].

وتنحدر قبائل بني معقل من أصول غامضة ومبهمة، ذلك أن أنسابها مجهولة عند نسابة العرب، ويعتقد ابن خلدون نقلا عن ابن الكلبي، أن قبائل بني معقل قد تعود بأصولها إلى بعض القبائل اليمنية[5]

أما نسابو بني معقل فيربطون نسبهم ببني هاشم عن طريق جعفر بن أبي طالب، وهو أمر رفضه ابن خلدون، لأن ذرية جعفر بن أبي طالب لم يكونوا أهل بادية ونجعة على عكس القبائل المعقلية التي لم تعرف في حياتها غير التنقل والإنتجاع في البادية والفيافي الصحراوية إلا أن الناصري لم ير في ذلك ما ينفي نسبتهم في بني جعفر ما دام شيوخ بني معقل يحفظون ذلك عن أبائهم وأسلافهم وأن الناس «مصدقون في أنسابهم» حسب ما تقتضيه الشريعة[6].

وبالرغم من أن الناصري قد اعتمد على هذه القاعدة الشرعية للرد على ابن خلدون، فإنه قد عاد إلى نقض هذه القاعدة من أساسها، ذلك أن الاعراب الذين نقل عنهم ابن خلدون «لا تنهض بقولهم ومعرفتهم حجة ردا وقبولا لأنهم من جملة العوام وما يحفظونه لا يوثق بهم فيه لانهم سمعوا الناس يقولون شيئا فقالوه»[7]. والواقع أن تناقض الناصري يجعلنا نرجح ما ذهب اليه ابن خلدون، حول أصول بني معقل، خاصة انه قد عايش واقع هذه القبائل في عزها وعاصر الكثير من أجلة شيوخها. وأن انتسابهم في بني جعفر يمكن فهمه في إطار ما يدعيه مجهولو النسب في كل زمان ومكان، حيث يقحمون أنفسهم في زمرة انساب الاشراف أو ذوي السلطة ليذكوا أنفسهم بأنفسهم.

2 ــ ظروف انتشار قبائل بني معقل في المناطق الصحراوية

ظلت قبائل بني معقل منذ دخولها إلى المغرب الأقصى خلال القرن السادس الهجري /12م إلى غاية بداية العقد الثاني من القرن السابع الهجري /13م، ملازمة لمجالات انتشارها الأولى فيما بين هضاب ملوية ونجود تافيلالت، حيث كانت تجاور قبائل زناتة التي كانت تعمر انذاك صحاري شرق المغرب الأقصى وقد تطورت المجاورة إلى تحالف وثيق بين المجموعتين الزناتية والمعقلية. وبالرغم من التحالف الوثيق بين القبائل الزناتية والقبائل المعقلية فلم يكن بإمكان هذه الأخيرة أن تتوسع على حساب الزناتيين، كما لم

(2) حول مراحل هجرة القبائل العربية الى المغرب في العهد الموحدي انظر :
ــ التقي العلوي : اصول المغاربة : مجلة البحث العلمي ع 35 ــ 1986 ابتدا من ص 386.
(3) ابن خلدون : العبر ج. 6 ــ ص. 77.
(4) فيما يخص تحديد مناطق انزال الموحدين للقبائل العربية بالمغرب انظر :
ــ الناصري : الاستقصا، ج. 2 ــ صص. 168 ــ 169 ــ 170.
ــ عبد الوهاب بنمنصور : قبائل المغرب ج. 1 ــ ص. 408.
(5) ابن خلدون : نفس المرجع نفس الصفحة.
(6) احمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري في النسب الجعفري (فاس 1320).
(7) الناصري : نفس المرجع ص : 114.

يكن بإمكانها أن تتحرش بقوافل التجار التي كانت تجوب الطرق الرابطة بين سجلماسة وبلاد السودان، لكون الدولة الموحدية قد وفرت لهذه المناطق الصحراوية من الحاميات العسكرية ما ضمن لسكانها وتجارها ظروف الأمن والاستقرار.

ونستفيد من إشارات ابن خلدون أن قبائل بني معقل قد تكاثرت في مجالات انتشارها الأولى، ومنها انبثت في «صحاري المغرب الاقصى فعمروا رماله وتغلبوا في فيافيه»[8] ويبدو أن قبائل بني معقل قد تكاثرت بمن انحاش إليها من القبائل العربية الاخرى مثل فزارة وأشجع والشبه والصباح والمهايا والسعود وغيرها[9] كما اندمجت فيها بعض العناصر الزناتية مثل هوارة وغيرها[10]. ولاشك أن الظروف الصحراوية والطبيعة البدوية المتشابهة قد ساعدت هذه القبائل على الانصهار في بوتقة واحدة، فشكلت جموع قبائل بني معقل التي ظل تاريخها مرتبطا بتاريخ الجنوب المغربي عامة ومناطق الواحات بتافلالت ودرعة بصفة خاصة، وذلك خلال فترة زمنية طويلة تمتد من أواسط القرن السابع الهجري /13م إلى وقت متأخر من القرن الرابع عشر الهجري /20م.

استغلت قبائل الرحل بالجنوب الشرقي المغربي مثل قبائل زناتة وقبائل بني معقل، ظروف ضعف الدولة الموحدية بعد هزيمة معركة العقاب سنة 609 هـ /1212م وتهافت الأمراء من بني عبد المومن على السلطنة، فاندفعت في عمليات غزو واسعة نحو المناطق الداخلية من المغرب، وهكذا اندفعت قبائل بني مرين الزناتية نحو شمال المغرب تمهيدا للاستيلاء على الحكم بالبلاد. أما قبائل بني معقل فقد استغلت الفراغ الذي أحدثه اندفاع القبائل الزناتية نحو شمال المغرب، فحلت محلها في تعمير الفيافي الصحراوية، وقد تمت هذه العملية في اتجاهين :

1 ــ **في اتجاه الصحراء الشرقية** : وقد تمت عملية انتشار بني معقل في هذه المناطق بعد انتقال بني مرين وقبائل زناتة إلى المغرب مباشرة، فاستولى المعاقلة على اهم المراكز التجارية المنتشرة في رقاب القفر بتوات وتيكوراريس وبودة وغيرها. وكانت قصور هذه المناطق من انشاء قبائل زناتة، فاستولى بنو معقل على هذه القصور واستبدوا بسكانها.

2 ــ **في اتجاه الصحاري الغربية** : تتكون الصحاري الغربية من الصحاري الممتدة جنوب جبال الأطلس الكبير، وأهم هذه الصحاري صحراء تافيلالت وصحراء سوس وصحراء درعة والصحراء الغربية. وتتخلل هذه الصحاري سلسلة من الواحات التي تشكلت على ضفاف الانهار الصحراوية الكبرى مثل زيز وغريس ودرعة، ونظرا لموقع هذه الواحات بين المناطق الجبلية والمناطق الصحراوية، فقد كانت خلال تاريخها الطويل تقوم بدور فعال في التبادل التجاري. وقد تحولت واحات درعة وتافيلالت خلال العصور إلى محطات تجارية كبرى بعد الازدهار الذي عرفته التجارة الصحراوية على عهد المرابطين والموحدين والمرينيين.

(8) ابن خلدون : مرجع سابق ص. 77.

(9) ابن خلدون : نفس المرجع ص. 78.

(10) التقي العلوي : أصول المغاربة : مجلة البحث العلمي العدد 35 ــ 1986 ــ ص. 397.

وبالرغم مما كانت تقوم به الدول التي تعاقبت على حكم المغرب من توفير ظروف الأمن والاستقرار لواحات درعة وتافيلالت، فان هذه الواحات كانت تتعرض باستمرار لهجومات قبائل الرحل من الجبليين والصحراويين وقد كانت وطأة هذه الهجومات تشتد ابان الازمات السياسية والاجتماعية وفي أوقات الجفاف الذي كان يضرب من حين لاخر الهوامش الصحراوية.

وفي مطلع القرن السابع الهجري /13م، اندلقت قبائل بني معقل من الصحاري الشرقية نحو الغرب في اتجاه الواحات، فاستولت على واحات تافيلالت واستبدت بقصورها، ثم بدأت تتقدم غربا في اتجاه واحات درعة، فاصطدمت بالقبائل الصنهاجية التي كانت تسيطر على المراعي الخصبة الممتدة ما بين واحات تافيلالت ووادي درعة. ورغم أننا لا نتوفر على ما يسمح لنا بتحديد طبيعة الاصطدام الصنهاجي ــ المعقلي، فبالامكان أن نتصور أن الصدام كان عنيفا، ذلك أن طبيعة القبائل الصنهاجية، لا تقل بداوة وخشونة عن طبيعة قبائل بني معقل كما اننا لا نستبعد أن بقايا وفلول القبائل الزناتية بواحات تافيلالت قد تحالفت مع قبائل بني معقل لمواجهة القبائل الصنهاجية التي تمكنت منذ العهد المرابطي من انتزاع المراعي الصحراوية من القبائل الزناتية. ويبدو أن قبائل بني معقل قد نجحت إلى حد ما في تكسير الصمود الصنهاجي بسرعة كبيرة، وتشطير القبائل الصنهاجية إلى شطرين، تراجع أحدهما إلى الفيافي الصحراوية، في حين أن الشطر الثاني، وتحت تأثير الضغط المعقلي اندفع نحو المناطق الجبلية. وهكذا وبعد ما نجحت قبائل بني معقل ومن كان في حلفها من فلول القبائل الزناتية في تكسير تجمعات قبائل صنهاجة في المجالات الممتدة ما بين وادي درعة وتافيلالت، أصبح الطريق إلى واحات درعة وبلاد سوس مفتوحا أمامها. بدأت عمليات نزوح بني معقل نحو واحات وادي درعة على شكل موجات رعوية صغيرة في إطار عملية البحث عن مواطن الكلأ والعشب لقطعانها، ويظهر أن طلائع بني معقل وجدت في هوامش وادي درعة ما يغري بالتوسع والإنتشار فاندفعت في أعداد كبيرة وذلك طيلة العقود الثلاثة الأخيرة من النصف الأول من القرن السابع الهجري /13م وتدل كل القرائن على أن القبائل المعقلية قد تمكنت من بسط هيمنتها على كل الواحات المنتشرة في المناطق الصحراوية من تافيلالت شرقا إلى سوس غربا، بل هناك من يؤكد أنها وصلت بالفعل خلال القرن السابع الهجري /13م إلى المحيط الأطلسي بعد ما تمكنت من تكسير مقاومة كل القبائل الصنهاجية بدرعة وجنوب سوس وإن كانت قد حاولت التصدي للزحف المعقلي[11] وقد استبدت بالأسواق المحلية بهذه المناطق وبدأت تتطلع إلى مراقبة الطرق التجارية الصحراوية التي تربط بين الجنوب المغربي وبلاد السودان، خاصة أن التجارة بهذه الطرق كانت تقوم بالأساس على تجارة العبيد والذهب، وهما مادتان كان يسيل لهما لعاب البدو انذاك. ويبقى التساؤل المطروح : من هي القبائل المعقلية التي انتشرت بواحات وادي درعة خلال القرن الثامن الهجري /14م، وما هي التطورات التي طرأت على هذه القبائل حتى أصبح بإمكانها خلال القرن الثامن الهجري /14م

(11) F. de la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental. — Hesperis, Tome XI, 1930, pp. 66-67-68

أن تشغب على الدولة المرينية وتتعدى عليها على حد تعبير ابن خلدون ؟[12] وما هي نوعية الروابط التي كانت تتحكم في علاقاتها مع سكان القصور بوادي درعة ؟. ثم ما هي علاقة هذه القبائل بالدولة المركزية ؟

3 — نزوح قبيلة أولاد حسين المعقلية إلى درعة

إذا كان المؤرخون يعتبرون أصول قبائل بني معقل غامضة ومبهمة فإن تاريخ هذه القبائل لا يقل غموضا عن أصولها وأنسابها، ذلك أن هذه القبائل في بداية أمرها كانت تحسب على غيرها من القبائل القوية خاصة قبائل بني هلال. وبعد نزوحها إلى صحاري المغرب تكاثرت أعدادها حتى بات بإمكانها أن تقوم بعمليات توسع كبرى خلال القرن السابع الهجري /13م تمكنت خلالها من التغلب والاستبداد بالمناطق الصحراوية الممتدة من تيكوراريس شرقا إلى المحيط الاطلسي غربا[13]. ولن نبالغ في شيء إذا قلنا أن القبائل المعقلية كانت وراء جملة من الأحداث السياسية والتطورات الاجتماعية التي عرفها الجنوب المغربي عامة ومناطق الواحات خاصة طيلة ما يقرب من ثلاثة قرون (من القرن السابع الهجري /13م إلى القرن العاشر الهجري /14م).

كانت القبائل المعقلية تتشكل في البداية من اربعة قبائل كبرى وهي ذوي عبيد الله والثعالبة المنحدرين من سجير بن معقل، وقد كانت مجالات انتشارهم على عهد ابن خلدون بالمغرب الاوسط، وتصل طلائع أهل الانتجاع منهم احيانا إلى صحاري تافيلالت.

أما القبيلتان الأخريان، فهما ذوي منصور وحسان وينحدرون من محمد بن معقل[14]وتمتد مجالات انتشارهم بالمغرب الأقصى، ما بين هضاب ملوية شرقا والمحيط الأطلسي غربا، وقد كان بعض أهل الانتجاع منهم يتوغلون في الصحراء إلى موريطانيا وما بعدها إلى حدود السودان[15] وقد تفرعت كل قبيلة من هذه القبائل الاربعة إلى عدة بطون، ارتقى بعضها إلى مستوى قبيلة، بعد ما تكاثر افراد البطن عن طريق التناسل الطبيعي او بمن انحاش إليه من فلول القبائل المنحلة أو البطون الصغيرة.

برز من بطون ذوي منصور أربعة كل بطن ينتسب إلى واحد من أبناء منصور وهم العمارنة (أولاد عمران) والمنبات، وأولاد حسين وأولاد ابن الحسين. وقد تحولت هذه البطون الاربعة مع مرور الايام الى

---

(12) ابن خلدون : العبر ج. 6 — ص. 88.

(13) اعتمدنا بالأساس في الكشف عن أخبار بني معقل على تاريخ ابن خلدون، ذلك أن صاحب الكتاب قد التقط أخبار هذه القبائل من أفواه شيوخها كما عاصر وعايش الكثير من الأحداث التاريخية التي عرفها المغرب خلال القرن الثامن الهجري/14م وهو القرن الذي نبغت فيه نابغة القبائل المعقلية.

(14) هناك اختلاف في تحديد عدد أبناء معقل بين ابن خلدون والحسن الوزان (وصف افريقيا ج. 1 — ص. 41—42) وقد رجحنا ما أورده ابن خلدون للأسباب التي ذكرناها ولاتصاله المباشر بشيوخ قبائل بني معقل في أوج عزها.

(15) ابن خلدون مرجع سابق صص. 77 — 93.

قبائل كبرى تتغالب فيما بينها على مناطق الرعي والانتجاع بالمناطق الصحراوية وتتزاحم على رياسة ذوي منصور وتتحالف اذا ما داهمها خطر خارجي أو كلما دعت الضرورة الى ذلك.

وكانت هذه القبائل الأربعة، منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري/13م، تنتشر في المجالات الصحراوية ما بين وادي درعة غربا وملوية السفلى شرقا، فكانت قبائل العمارنة ومن في حسابها تستبد بصحاري تافيلالت وتسيطر على طرقها التجارية وأسواقها المحلية، كما كانت قبيلة أولاد حسين تستبد بواحات درعة.

ونستفيد من إشارات ابن خلدون وابن أبي زرع الفاسي، أن قبيلة أولاد حسين كانت وراء جملة من الاحداث السياسية والتطورات الاجتماعية التي عرفتها بلاد درعة خلال النصف الثاني من القرن السابع الهجري/13م وطيلة القرن الثامن الهجري/14م. بل يمكن القول أن هذه القبيلة كانت وراء مجمل التطورات التي عرفتها هذه المنطقة منذ القرن السابع الهجري/13م الى غاية القرن العاشر الهجري/16م. وقد كانت قبيلة أولاد حسين خلال هذه الفترة، لا تتردد في الدخول في مواجهة سلاطين الدولة المرينية وعمالها على درعة. كما كانت ابان الأزمات الاجتماعية تستولي على قصور المستقرين وتمتلكها بالقوة، وتهاجم القوافل التجارية في المسالك الصحراوية الرابطة بين تافيلالت ودرعة من جهة، وبين هذه الاخيرة وبلاد السودان من جهة ثانية، الامر الذي جعل علاقات قبيلة أولاد حسين بسلاطين الدولة المرينية وسكان واحات درعة تتسم، منذ بداية نزوح هذه القبيلة الى درعة، بنوع من التأزم والتوتر، وتتخللها فترات من العنف المتبادل. وفي هذا الاطار اضطر السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني الى أن يقود بنفسه حملة عسكرية الى وادي درعة سنة 669هـ/1270م لتأديب قبيلة أولاد حسين التي كانت تهاجم قصور الوادي، ولم يرحل عن المنطقة حتى لم يبق من أهل النفاق والفساد أحد، على حد تعبير علي بن أبي زرع الفاسي[16] ولم تمض إلا حوالي عشرين سنة حتى اضطر السلطان أبي يعقوب يوسف الى قيادة حملة عسكرية قوية نحو المناطق الجنوبية لترتيب أمورها، ففاجأ قبيلة أولاد حسين بصحاري درعة سنة 686هـ /1278م فقتل من رجالها خلقا كثيرا وأمر بقطع رؤوسهم وتعليقها على ابواب مدن سجلماسة وفاس ومراكش[17] ورغم هذه الحملات الردعية القوية التي كانت تقوم بها الدولة المرينية ضد قبيلة أولاد حسين، فإن هذه القبيلة ما تكاد تستقيم على طاعة الدولة والركون لأوامرها حتى تثور من جديد.

ومع بداية القرن 8هـ /14م غيرت قبيلة أولاد حسين من استراتيجيتها وتعاملها مع الدولة المرينية، فكانت تبادر بمهاجمة عمال الدولة وولاتها بدرعة، كما كانت لا تتردد في مناصرة المناوئين للدولة والوقوف إلى جانب الخارجين عنها من أبناء البيت الحاكم، الذين كانوا يجدون في الجنوب الملجأ الأمين وفي قبيلة أولاد حسين وغيرها من قبائل بني معقل الحليف المعول عليه.

---

(16) — علي بن أبي زرع الفاسي : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وفاس — الرباط 1973 — ص 307 — ابن خلدون : العبر ج 7 — ص 242.

(17) ابن خلدون : العبر ج. 7 — ص. 280.

استغلت قبيلة أولاد حسين غياب السلطان أبي يعقوب يوسف في تلمسان، فأعلنت الثورة بوادي درعة سنة 704هـ /1304م وفتكت بعبد الوهاب بن صاعد عامل المرينيين بدرعة. إلا أن ثورة هذه القبيلة، في ذلك التاريخ بالذات تثير جملة من الأسئلة منها مثلا : هل ثارت هذه القبيلة بايعاز من بني عبد الواد المحاصرين أنذاك بتلمسان للتشويش على أبي يعقوب المريني وارغامه على العودة إلى المغرب ؟[18] أم، ثورة قبيلة أولاد حسين كان حدثا محليا يهدف بالأساس إلى الأخذ بالثأر لقتلى سنة 686هـ /1304م ؟.

وكيف ما كانت الأسباب التي جعلت قبيلة أولاد حسين تثور بوادي درعة، فإن السلطان أبي يعقوب المريني لم يعر كبير اهتمام لهذه الثورة، ولا شغلت باله عن تضييق الخناق على بني عبد الواد، بدليل أن السلطان استمر في حصار مدينة تلمسأن إلى حدود سنة 706هـ /1307م. ولم يكف حصار المدينة الا اغتيال السلطان فجأة وانشقاق كلمة بني مرين حول من يخلفه على كرسي الحكم. وبعدما استتب الأمر للسلطان أبي ثابت عاد إلى المغرب الأقصى، فاحتل بمراكش في شهر رجب سنة 707هـ /1308م. وفي إطار حركة واسعة النطاق لتمهيد المناطق الجنوبية، سرح السلطان أبو ثابت قائده يعقوب بن أصناكَ إلى بلاد سوس فعرج على بلاد درعة وانتقم من قبيلة أولاد حسين، وحاربها حتى استقام شيوخها على طاعة الدولة.

وبعد ما استقل الأمير أبو علي بسجلماسة ابتداء من سنة 715 /1315م قامت قبيلة أولاد حسين بدور أساسي في طرد عامل الدولة المركزية بدرعة وضم المنطقة إلى نفوذ ابي علي. وقد دفعت بالأمير أبي علي سنة 722 /1321م لاحتلال مراكش في محاولة منها لفتح الطريق نحو السهول الخصبة في الشمال، إلا أن هزيمة الأمير أبي علي وانكسار قواته أمام جيش الدولة بقيادة ولي العهد الأمير أبي الحسن أفشل مخططات قبيلة أولاد حسين فعادت إلى درعة وثابت إلى طاعة الدولة من جديد.

ورغم أن قبيلة أولاد حسين قد استقامت على طاعة الدولة بعد هزيمتها فإن استكانتها لأوامر بني مرين لم تكن إلا بصفة مؤقتة لذلك لم يمض على أحداث مراكش إلا أقل من عشر سنوات حتى أعلنت الثورة من جديد بوادي درعة وقتلت عامل الدولة المركزية بالمنطقة ومكنت الأمير أبًا علي من البلاد، في الوقت الذي كان فيه السلطان أبو الحسن غائبا بتلمسان ومنشغلا بمحاصرتها، إلا أن السلطان قد عاد بسرعة إلى المغرب فتوجه إلى سجلماسة وحاصرها ثم اقتحمها عنوة على أخيه أبي علي فاعتقله وضم إمارته إلى نفوذ الدولة المركزية، وعين يوسف بن علال أحد رؤساء الدولة حسب قول ابن خلدون على ولاية درعة[19] فانصاعت قبيلة أولاد حسين إلى طاعة الدولة وركنت لأوامر السلطان أبي الحسن الذي كان يصاحب معه شيخ القبيلة في وقته يوسف بن علي بن غانم حيثما حل وارتحل.

---

(18) حول حصار تلمسان الكبير انظر :
العبر : ج. 7 — صص. 291 — 292 — 293.

(19) ابن خلدون : العبر ج. 7 — ص. 475.

وفي سنة 748 هـ /1348م عين أبو عنان على عمالة درعة عبد الله بن مسلم الزردالي بعد ما نقل يوسف بن علال إلى ولاية طنجة، فأدرك ابن مسلم بحدسه السياسي وسابق خبرته ومعرفته بعقلية قبائل بني معقل أنه لاشيء يجعل حدا لثورات قبيلة أولاد حسين بدرعة إلا اشتراك شيوخها في تحمل بعض المسؤولية بالمنطقة، فعهد اليهم بتحصيل جباية وادي درعة وأقطعهم بعض الاراضي الزراعية بواحتي محاميد الغزلان ولكتاوة.

وإذا كانت سياسية ابن مسلم مع قبيلة أولاد حسين قد ساعدت على خضوع هذه القبيلة إلى الدولة طيلة عهد أبي عنان، فهي من جهة ثانية قد اثرت بشكل سلبي على الواقع الاجتماعي والاقتصادي لسكان درعة. ذلك أن شيوخ أولاد حسين قد استغلوا حرية التصرف في جباية درعة فتشددوا في مضايقة سكان القصور من المزارعين والمستقرين وقبائل الرحل على حد سواء، وألحوا عليهم في استحلاب الأموال الأمر الذي جعل قبائل الرحل تهاجم المنطقة وتتجه نحو المناطق الجبلية.

وهكذا ظلت بلاد درعة تعاني من تعسفات شيوخ قبيلة أولاد حسين طيلة ولاية عبد الله مسلم الزردالي على درعة، هذه الولاية التي استمرت إلى حدود سنة 761هـ /1360م، ولم يخفف من عبء تعسفات هؤلاء الشيوخ إلا هجرتهم المفاجئة إلى تلمسان صحبة عبد الله بن مسلم الذي فر من المغرب خوفا على نفسه من انتقام السلطان إبي سالم الذي نجح في الاستيلاء على الحكم بعد مقتل أبي عنان[20] وقد احتفى أبو حمُو الزياني بابن مسلم الزردالي، فاستوزره نكاية بأبي سالم وفي نفس الوقت اقطع قبيلة أولاد حسين جملة من الاراضي بحوز مدينة تلمسان وآخى بينها وبين قبائل زغبة تأليفا لقلوبها ورغبة في استبقائها إلى جواره للاستكثار بها ضد بني مرين الذين كانوا يهددون مملكة تلمسان من حين لآخر. وقد أدرك السلطان أبو سالم الخطر الذي يشكله بقاء قبيلة أولاد حسين القوية بتلمسان، فظل طيلة مدة حكمه القصيرة يفاوض سلطان تلمسان في استرجاع هذه القبيلة إلى المغرب دون جدوى[21]

4ـــ عودة قبيلة أولاد حسين إلى درعة

وفي سنة 763هـ /1362م وقعت نفرة بين السلطان أبي حمو الزياني وشيخ قبيلة أولاد حسين في وقته أحمد بن رحو بن غانم، فعاد هذا الشيخ بقبيلته إلى المغرب، ونزل بهضاب ملوية. وقد صادف وصول قبيلة أولاد حسين إلى المغرب اضطراب الأحوال بفاس، ودخول البيت الحاكم في مرحلة من المنافسات والصراعات بين الامراء المترشحين للسلطنة، ومن يقف وراءهم من الوزراء والقواد. ويبدو من خلال اشارة ابن خلدون أن قبائل بني معقل عامة وقبيلة اولاد حسين بصفة خاصة، قد وجدت في اضطراب الأحوال السياسية بعاصمة المرينيين ما يحفزها على العودة إلى الجنوب والدخول في معمعة الاحداث السياسية بأي شكل من الأشكال[22].

---

(20) فيما يتعلق بالأسباب التي جعلت عبد الله بن مسلم الزردالي يغادر درعة الى تلمسان انظر : ابن خلدون : العبر ج. 7 ــ ص. 412.

(21) ابن خلدون : نفس الصفحة من نفس الجزء.

(22) بدأت قبيلة اولاد حسين تتطلع الى المشاركة في الأحداث السياسية بمساندتها لعمر بن عبد الله الفودودي المستبد بفاس (ابن خلدون : ج. 7 ص. 424).

والواقع أن عودة قبيلة أولاد حسين إلى درعة سنة 763هـ /1362م تعتبر بداية لمرحلة حرجة من تاريخ المنطقة. ولن نبالغ في شيء، إذا قلنا أن هذه المرحلة قد استمرت حوالي قرن ونصف من الزمان أي من أواسط القرن الثامن الهجري /14م إلى مطلع القرن العاشر الهجري /16م. اذن فما هي السمات العامة لهذه المرحلة الحرجة من تاريخ وادي درعة ؟ وما هي آثارها على الأوضاع الإجتماعية والاقتصادية والسياسية بالمنطقة ؟

وقبل الاجابة على هذين السؤالين يجدر بنا أن نستعرض وبإيجاز الملامح العامة للظرفية التي كانت سائدة بالمغرب الجنوبي خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري /14م، وتأثير هذه الظرفية على الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بمناطق الواحات طيلة القرن التاسع الهجري /15م.

1ــ فمن الناحية السياسية : إستغلت قبائل بني معقل (العمارنة والمنبات) بواحات تافيلالت، وأولاد حسين بدرعة، والشبانات وذوي حسان بسوس، انفجار أزمة ولاية العهد داخل البيت الحاكم المريني لتعدد المترشحين للسلطنة واستبداد الوزراء على السلاطين، فخرجت عن طوق السلطة المركزية، واستبدت بالواحات، ويؤكد ابن خلدون أن المناطق الجنوبية باتت ضاحية من ظل الدولة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري /14م[23] إلا أن أخطر مظاهر هذه الأزمة هو تطلع قبائل بني معقل عامة وقبيلة أولاد حسين خاصة إلى المشاركة الفعلية في التأثير على مسار الأحداث السياسية، وفي هذا الاطار ساندت قبائل العمارنة والمنبات السلطان عبد الحليم[24] ودفعت به للاستيلاء على الحكم بفاس[25] فلما فشل وعاد إلى سجلماسة انضمت إليه قبيلة أولاد حسين، لتتخلى عنه وتعود إلى درعة بعد أن اتهمته بمحاباة العمارنة والمنبات. حاول عبد الحليم رأب هذا الشقاق الذي وقع بين القبائل الملتفة حوله من بني معقل فوجه أخاه عبد المومن إلى درعة ليفاوض قبيلة أولاد حسين في العودة إلى صفوف عبد الحليم، إلا أن شيوخ القبيلة أكرهوا عبد المومن على البيعة وقدموه أمامهم فزحفوا على سجلماسة واستولوا عليها بعدما هزموا العمارنة والمنبات[26]

وبالرغم من أن مسعود بن ماسي مبعوث الوزير عمر بن عبد الله الفودودي الوصي على سلطنة فاس، قد نجح في إعادة سجلماسة إلى نفوذ الدولة المركزية[27] فإن قبيلة أولاد حسين قد عادت إلى بلاد درعة حيث ظلت مصدر تشغيب على كل من حاول أن يعيد للدولة هيبتها بالجنوب، وكثيرا ما كانت قبيلة أولاد حسين، تجد العون والحليف المعول عليه من ملوك تلمسان من سلالة بني عبد الواد الذين

---

(23) ابن خلدون : العبر ج. 6 ــ ص. 87 إلى ص. 92.
(24) حول الأحداث التي أثارها عبد الحليم وطمعه في الاستيلاء على الحكم بفاس انظر :
ــ ابن خلدون : العبر ج. 7 ــ صص. 418 ــ 419 ــ 421 ــ 424.
ــ الناصري : الاستقصا، ج. 4 ــ ص. 43 ــ 44.
(25) ابن خلدون : مرجع سابق ص. 420.
(26) ابن خلدون : مرجع سابق ص. 424.
(27) ابن خلدون : نفس المرجع ص. 425.

اضحى شغلهم الشاغل هو إضعاف المغرب والتشويش على سلاطين الدولة المرينية خلال النصف الثاني من الثامن الهجري /14م

2 ـــ من الناحية الاجتماعية : انعكس اضطراب الأوضاع السياسية على العلاقات العامة بين قبائل بني معقل فيما بينها ومن جهة، وبين هذه القبائل وسكان الواحات وقبائل الرحل من صنهاجة وغيرهم من جهة ثانية فقد ادت المنافسة القوية بين العمارنة والمنبات بواحات تافيلالت واولاد حسين بدرعة إلى اندلاع حروب طاحنة وفتن مستمرة، ولن نبالغ في شيء، اذ قلنا أن الفتن بين هذه القبائل ظلت هي الطابع المميز للعلاقة بين هذه القبائل خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري-/14م وطيلة القرن التاسع الهجري /15م لتداخل مواطنها، وقد كانت الفتن تحتد إبان فترات الجفاف واضطراب تجارة القوافل الصحراوية، حيث كانت كل قبيلة تسعى إلى توفير لوازمها اليومية بوسائلها الخاصة والعمل على توسيع نطاق المراعي لقطعانها ولو على حساب القبيلة المجاورة.

ونستفيد من إشارات بن خلدون الذي عايش أحداث المغرب، خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري /14م، أن قبائل بني معقل بالمناطق الجنوبية كانت تستغل ظروف تراجع نفوذ الدولة بهذه المناطق، لتنطلق في عمليات غزو واسعة لاغتصاب «القصور» من المستقرين والإستيلاء على أراضيهم الزراعية. وفي هذا الاطار استبدت قبيلة أولاد حسين بمغارم وادي درعة[28] وبات شيوخها يتصرفون مع سكان الوادي وكأنهم الحكام الفعليون، فكانوا يثقلون كاهلهم بالضرائب والإتاوات المرهقة بل إنهم كانوا يفرضون حمايتهم المأجورة على القوافل التجارية التي كانت تعبر وادي درعة.

أدى شطط قبيلة أولاد حسين في استنزاف طاقات المستقرين بدرعة والالحاح في استحلاب أموالهم إلى تخريب اقتصاد المنطقة، ذلك أن جل المزارعين قد تخلوا عن ممارسة الاعمال الفلاحية والإهتمام بالأرض وتحولوا إلى ممارسة الرعي، لأن الهرب بالقطيع أسهل بكثير من توفير المأمن للمحاصيل الزراعية[29]، وتدل كل القرائن على أن المكلفين بجمع المغارم من قبيلة أولاد حسين، كانوا لا يترددون في اغتصاب المحصولات الزراعية إذا ما عجز السكان عن تأدية واجباتهم نقدا.

وإذا كانت قبيلة أولاد حسين قد نجحت خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري /14م في بسط هيمنتها على سكان الواحات الجنوبية من محاميد الغزلان إلى المدخل الجنوبي لواحات ترناتة، فإنها قد فشلت في تحقيق ذلك بالواحات الشمالية، حيث ظلت القبائل اَلوَاوَزْكَيتية المتحكمة في هذه الواحات تتصدى لهجومات قبيلة أولاد حسين، الأمر الذي جعل هذه الأخيرة توجه عمليات توسعها نحو المناطق المجاورة، فاستبدت بقبائل صناكة في السفوح الجنوبية بجبل صاغرو[30]

---

(28) ابن خلدون : العبر ج. 6 ـــ ص. 88.

(29) ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون ترجمة ميشيل سليمان ص. 104.

(30) ابن خلدون : نفس المرجع ص. 89.

ما كاد القرن الثامن الهجري /14م يشرف على النهاية حتى كانت قبيلة أولاد حسين قد بلغت في عمليات انتشارها إلى السفوح الجنوبية للأطلس الكبير المركزي، حيث لاتزال بعض اثارها مطبوعة على اسماء المواقع الجغرافية وباتت تسيطر على المراعي الخصبة الممتدة ما بين حوض درعة الأعلى والطرف الشرقي لجبل وكَنات على مشارف واحات تافيلالت. ولا يخفى ما تمثله هذه المنطقة من أهمية اقتصادية كنقطة اتصال بين المناطق الجبلية والمناطق الصحراوية، ولأهمية طرقها التجارية التي تربط بين بلاد سوس غربا وتافيلالت شرقا عبر ورزازات، وبين المناطق الجبلية وبلاد درعة عبر وادي دادس.

لقد كانت هذه العمليات التوسعية التي قامت بها قبيلة أولاد حسين وراء مجموعة من التحولات الاجتماعية التي عرفتها بلاد درعة، ذلك إن عددا من بطون هذه القبيلة قد تحولت إلى الاستقرار والارتباط بالأرض وممارسة الزراعة والاعمال التجارية، وظهرت على اثر هذا التحول مجموعة من «القصور» التي عوضت الخيام. ورغم اننا لا نتوفر على مايسمح لنا بتحديد مختلف التطورات والمراحل التي مرت بها هذه «القصور» خلال القرن التاسع الهجري /15م فإن كتابات الحسن الوزان الذي زار وادي درعة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م، تفيدنا بأن هذه القصور بواحتي لكتاوة وفرواطة قد كبر حجمها إلى حد أنها تجاوزت مستوى قصر صغير لسكنى بطن أو بطنين إلى قرية كبيرة تستوطنها عدة بطون وتتعدد مساجدها وأسواقها[31]. ونعتقد أن ظهور هذه القصور الكبرى كان وراء تفكك قبيلة أولاد حسين إلى مجموعة من قبائل القصور، إذ أصبحت كل قبيلة قصرا، ومنذ مطلع القرن العاشر الهجري /16م، بات كل قصر يشكل كيانا مستقلا بذاته له نظمه وقوانينه الداخلية، وجماعته وشيخه الذي يشرف على تسيير شؤونه.

وبالرغم من التشابه الكبير الذي تنطوي عليه الهياكل العامة لقبائل القصور بدرعة من حيث التنظيمات الداخلية والقوانين العرفية وطرق انتخاب الجماعة وشيخ القبيلة، فإن التعمق والغوص في الوثائق التي تخلفت عن هذه التنظيمات الاجتماعية تكشف عن بعض الملامح للمجموعات القبلية التي تعاقبت على سكنى هذه القصور[32].

3ـــ **أما من الناحية الإقتصادية** : فقد كانت التجارة الصحراوية منذ القديم وإلى غاية أواسط القرن الثامن الهجري /14م تقوم بالاساس على تجارة الذهب والرقيق وتبادل البضائع في أسواق الواحات بدرعة وتافيلالت ودادس وفركلة وتازرين، وكانت أسواق هذه الواحات تعرف حركة دائبة لقبائل الرحل من الصحراويين والجبليين بالإضافة إلى المستقرين الذين كانوا يزودون هؤلاء وأولائك بما يحتاجون من منتوجات زراعية مقابل المواد الدهنية والجلود والأصواف[33]. وقد كانت هذه التجارة الصحراوية تدر

---

(31) الحسن الوزان : وصف افريقيا : ج. 2 ـــ ص. 119.

(32) نلاحظ من خلال الاتفاقيات التنظيمية أن هناك تباينا في الطرق التي يتم بها اختيار الجماعة وشيخ القبيلة، عند قبائل القصور لدرعة، ونجد تشابها بين بعضها في جهات أخرى من المغرب مما يوحي بأصل قبيلة القصر وعلاقتها بقبائل جهات أخرى من البلاد.

(33) LARBI MEZINE : Contribution à l'histoire de TAFILALT — Aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain au 17 et 18e S., Tome I, p. 473

أموالا طائلة على بيت مال الدولة. ولا مشاحة إذا قلنا أن عائدات هذه التجارة الصحراوية كانت تعتبر من أهم مصادر قوة الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، لذلك نلاحظ أن هذه الدول كانت تحرص على استتباب الأمن في مناطق الواحات ولا يتردد سلاطينها في توجيه الحملات العسكرية القوية لردع قبائل الرحل ومعاقبتها اذا ما عاثت فسادا في هذه المناطق.

وفي مطلع القرن الثامن الهجري /14م تعرض الدور المغربي في التجارة الصحراوية لمنافسة حادة وخطيرة، ذلك أن المماليك المصرية تمكنت ومنذ سنة 717هـ /1316م، من القضاء على المماليك المسيحية القائمة ببلاد النوبة جنوب مصر وشمال السودان، فانفتحت الطريق امام القبائل العربية التي زحفت على منطقة السهوب بافريقيا السوداء[34] وأصبح بإمكان التجار المصريين الحصول على الذهب بأنفسهم من بلاد السودان دون ما حاجة إلى الوساطة المغربية.

وفي أواسط العقد السابع من القرن الثامن الهجري /14م، هاجت واحات تافيلالت ودرعة بفتنة قبائل بني معقل[35] فاندثر ما تبقى من نشاط تجاري بطرق هذه الواحات، حيث انعطفت المحاور التجارية نحو واحات توات والجنوب التونسي[36] وأصبح الذهب الإفريقي يصدر إلى أوربا عبر موانىء بجاية وهنين وتونس[37] وبانتقال تجارة القوافل إلى المغرب الأوسط وتونس يكون المغرب قد تخلى عن دوره كوسيط تجاري بين أوربا وبلاد السودان، وتكون الدولة المرينية الحاكمة قد فقدت مورداهاما من موارد بيت المال ومصدرا حيويا من مصادر قوتها. وتدل كل القرائن على أن المترشحين للسلطنة من أمراء البيت الحاكم ووصاتهم من الوزراء والقواد كانوا يعملون جاهدين لاعادة الروح إلى التجارة الصحراوية بالجنوب المغربي دون جدوى، ولعل ما يفسر ذلك هي المحاولات المتكررة التي قام بها سلاطين الدولة المرينية بعد أبي عنان لإخضاع مملكة تلمسان والتحكم في موارد التجارة الصحراوية[38].

تزامنت هذه الانتكاسة التي تعرضت لها الحركة التجارية بالجنوب المغربي مع وباء الطاعون الأسود «الذي تحيف بالأمم وذهب بالجيل !! على حد تعبير الناصري[39]. فتفشت المجاعة وخربت المدن وأصبحت جثث الموتى في بعض المناطق عرضة للقوارض من الطيور والفيران[40]. ورغم أن المناطق الجنوبية كانت في منأى عن هذه الأمراض إلا أن أثارها قد عمت مجموع أنحاء المغرب. ذلك أن الانهيار الديمغرافي الذي عرفته المناطق الشمالية، قد أدى إلى نقص خطير في المنتوجات الزراعية، فلم تعد قبائل الرحل من بني معقل وغيرها تجد في أسواق الشمال من الميرة والأقوات ما يكفي لحاجاتها الضرورية.

---

(34) ايف لاكوست : مصدر سابق ص. 101.

(35) ابن خلدون : العبر ج. 6 — ص. 90.

(36) كان ذلك بتشجيع من بني عبد الواد بتلمسان والحفصيين بتونس.

(37) Jean Brignon et ses collaborateurs : Histoire du Maroc p. 169.

(38) حول الحملات التي كان سلاطين البيت المريني يقومون بها ضد مملكة تلمسان انظر : ابن خلدون : ج. 7. ابتداء من ص. 115 فما بعد.

(39) الناصري : الاستقصا، ج. 4 — ص. 85.

(40) Jean Brignon : op. cité, p. 153.

أمام هذا الخراب الذي تعرض له الاقتصاد المغربي خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري /14م، كان أمراء البيت الحاكم من المترشحين للسلطنة ووصاتهم من الوزراء، لا يترددون في استحلاب أموال الرعية لمواجهة مصاريف الحروب الطاحنة بين المتنافسين على السلطنة من جهة، وبين المتغلبين من هؤلاء والخارجين عليهم من ثوار القبائل.

وهكذا نلاحظ أن آثار هذه الظرفية بجوانبها السياسية والاجتماعية والإقتصادية، كانت لها عواقب وخيمة على سياسة الدولة المركزية بالمناطق الجنوبية، ذلك أن سلاطين البيت المريني بعد أبي عنان كانوا يتغافلون عن الاضطرابات الاجتماعية التي كانت تثيرها قبائل معقل بالواحات، وكانوا يقنعون من شيوخ هذه القبائل بالولاء الشكلي والبيعة الإسمية.

وبالرغم مما قامت به قبيلة أولاد حسين خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري /14م من اضطراب اجتماعي بواحات درعة، فإن هذه القبيلة قد نجحت إلى حد مًّا خلال القرن التاسع الهجري /15م في انعاش الحركة التجارية بين بلاد درعة وبلاد السودان، بعدما انهار محور سجلماسة بصفة شبه نهائية. ورغم اننا لا نتوفر على ما يسمح لنا بتقييم ما كانت عليه تلك الحركة التجارية، فإن الشيء الأكيد، أن هذه التجارة قد ساهمت إلى حد بعيد في توفير ظروف الاستقرار لأعداد كبيرة من أعراب قبيلة أولاد حسين، الذين تخلوا عن طبيعتهم البدوية، وتحولوا من الانتجاع والتنقل إلى الاستقرار والارتباط بالأرض والإهتمام بالأعمال الزراعية والتجارية، إذ تؤكد الإشارات التاريخية التي تحدثت عن واحات وادي درعة عامة وواحات محاميد الغزلان ولَكْتَاوَةَ وفَزْوَاطَة خاصة، في نهاية القرن التاسع الهجري /15م ومطلع القرن العاشر الهجري /16م أن تجار القبائل العربية بدرعة كانوا يصلون بتجارتهم إلى تومبكتو بافريقيا جنوبا وإلى منطقة فاس شمالا[41]. وأن شيوخ هذه القبائل كانوا يعيشون أشبه ما يكونون بالأمراء، لما يملكون من أراض شاسعة ولكثرة أموالهم التي كانت تدرها عليهم تجارتهم بين السودان ووادي درعة[42].

وخلاصة القول أن قبائل بني معقل، قد ظلت منذ وصولها إلى بلاد درعة في أواسط القرن السابع الهجري /13م وإلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري /16م، تشكل عنصر تشغيب على الدولة المرينية ومصدر تعب لسكان الواحات. بالرغم من أن قبائل بني معقل تعتبر آخر موجة مترحلة استوطنت بلاد درعة، فإنها لم تستطع الإنفلات من طبيعة الحياة بالواحات، ذلك أنها ما لبثت أن تحولت بدورها إلى الاستقرار والارتباط بالأرض وظهرت على إثر ذلك مجموعة من «القصور العربية» في واحات محاميد الغزلان ولكتاوة وفزواطة متجاورة مع قصور السود والخلاسين، وقصور بقايا القبائل الزناتية والصنهاجية كما أصبحت اللغة العربية تحتل مكانها إلى جانب اللهجات الاخرى السائدة بدرعة.

ومع بداية القرن العاشر الهجري /16م، بدا واضحا أن سكان القصور بوادي درعة قد تخلوا عن اتحادياتهم الكبرى المبنية على الأنساب المشتركة وتحولوا إلى قبائل «قصور» لا يجمع بين عناصرها إلا المصالح المشتركة كالدفاع عن «القصر» والارض ومصادر المياه.

---

(41) الحسن الوزان : وصف افريقيا. ترجمة : د. محمد حجي وصاحبه. الجزء الاول ص. 44 — 45.

(42) MARMOL : L'AFRIQUE, Tome III, p. 11.

الفصـــل الثـــالـــث

ظهور المشيخات الكبرى بدرعة قبيل قيام الدولة السعدية

I ـــ ظهور المشيخات الكبرى

ظلت واحات درعة ضاحية من ظل الدولة المركزية منذ أوساط القرن الثامن الهجري /14م إلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري/16م وقد نتج عن ذلك وضع سياسي شاذ تميز بظهور مجموعة من المشيخات في القصور الكبرى[1] بواحات محاميد الغزلان ولَكْتَاوة وفَزْواطَة، حيث نصب رؤساء هذه المشيخات المحلية أنفسهم ورثة شرعيين للسلطة المركزية، يتحكمون في أزمة السكان، ويسهرون على استتباب الأمن والإستقرار بقصورهم يعاقبون الجناة ويردعون اللصوص.

أما واحات تَرْنَاتَة وتِينْزُولِينْ ومَزْجيطة، فكانت تخضع لعائلة المزواريين[2]، الذين نجحوا في الحفاظ على وحدة سكان هذه الواحات، وقد بلغ من قوة المزواريين انهم استطاعوا تحويل مشيختهم إلى امارة محلية قوية هي إمارة تنسيطة[3].

ظهور المشيخات المحلية

كانت الواحات الجنوبية بوادي درعة[4] تتعرض باستمرار لهجومات قبائل الرحل من المناطق الصحراوية، لانكشاف هذه الواحات من الجنوب والشرق، ولموقعها في عقدة الطرق التجارية الصحراوية، وتنوع محصولاتها الزراعية والتجارية[5] وكانت هذه المحصولات تغذي اطماع الرحل، خاصة غندما تشتد وطأة الجفاف وتتوالى عليهم السنون العجاف، وقد كانت لهذه الهجومات المتكررة، نتائج سلبية على الصعيدين الاجتماعي والسياسي بهذه الواحات، ويمكن إجمالها في النقط الآتية :

1 ـــ حالة هذه الهجومات دون تغلب قبيلة بعينها سواء من قبائل الرحل أو من المستقرين على هذه الواحات أجمعها. وإذا ما تحقق لإحداها أن تتغلب بفضل ما تتمتع به من قوة وتماسك فإنها لا تستطيع الحفاظ على قوتها وتماسكها لمدة طويلة، ذلك أن ظروف هذه الواحات في فترات الخصب، كانت تغرر بقبائل الرحل فَتَسْتَمْرِئُي حياة الاستقرار وتتخلى عن الطعن والإنتجاع وتستسلم لرغد العيش الظرفي، ثم تبدأ بالتخلي تدريجيا عن طبعها البدوي الذي كان يرتكز على روح الجماعة، ويسري بين

(1) نحبذ استعمال لفظ المَشيخة على الشياخة، مادامت اللفظة مشتقة من اسم الشيخ الذي يشرف على تسييرها، وكذلك مسايرة لما هو سائد في المنطقة، إذ يستعمل سكان درعة لفظ المشيخة ولم يسمع عنهم لفظ الشياخة على الاطلاق. والمشيخة لغة كما في لسان العرب جمع لكلمة شيخ (انظر مادة شيخ من لسان العرب).

(2) سنعرف بهذه العائلة في فصل لاحق من هذه الدراسة.

(3) سنعرف بهذه الامارة لاحقا في هذا الفصل.

(4) هي واحات فزواطة ولكتاوة ومحاميد الغزلان.

(5) تعتبر هذه الواحات من أغنى واحات درعة لاتساع أراضيها وتنوع منتوجاتها في القديم مثل النيلج، وعرق سوس، والحنا والتمور الجيدة.

أفرادها سلوك المستقرين، فينغمسون في المنافسات الحادة على مصادر الثروة خاصة امتلاك الأرض والماء. وبانسلاخ القبيلة عن طبعها البدوي يكون أفرادها قد فقدوا أهم عنصر لقوتهم وتماسكهم، فتبادر إلى القبيلة عوامل التفكك والانحلال شأنها في ذلك شأن القبائل الاخرى، فتندثر مخلفة وراءها شتاتا بشريا، يظل محافظا إلى حدٍّ مَا على بصمات باهتة للخصائص العرقية والنفسية والإجتماعية للقبيلة المنحلة، التي لم يبق من ماضيها إلا ذكريات تتضخم مع مرور الأيام في ذهنية الأخلاف والأحفاد بها يتسامرون، وبها يفاخرون أشباههم من بقايا القبائل المنحلة.

2 ــ ادت هذه الهجومات المتكررة على الواحات الجنوبية لدرعة إلى طبع النسيج العام لسكان المنطقة بطابع تنوع الاصول يحتل فيه العنصران الاسود والخِلاسي حيزا هاما. وبالرغم من أن هذين العنصرين كان يشكلان اقدم عنصر بشري بالمنطقة، فلم يكن بإمكانهما أن يلعبا أي دور سياسي بين سكان الواحات، لعجزهما على تشكيل تجمع قبلي قوي على شاكلة العناصر البيضاء من بقايا القبائل البربرية والعربية، التي كانت تتكتل ولو إلى حين لمواجهة المستجدات. حال هذا التنوع العرقي من حيث الأصول، دون غلبة أحد العناصر المتساكنة بهذه الواحات على باقي العناصر الأخرى. وكانت كل مبادرة استبدادية تنتهي إلى الفشل، حيث كانت جل العناصر تتحالف ولو بصفة موقتة ضد أي تنظيم سياسي يهدف إلى توحيد السكان تحت ظل سلطة واحدة كما هو الحال في الواحات الشمالية، ويصدق في حقهم ما وصفوا به بأنهم «كثيروا الخلاف والشقاق، فلا يكاد يصدر منهم على مرؤوس اتفاق»[6]

3 ــ كانت هذه الهجومات المتكررة تحول دون استقرار الأوضاع الإقتصادية، إذ كان كُل هجوم مباغت على هذه الواحات يؤدي إلى تدمير المحصولات الزراعية وتخريب الابار وقنوات الري، كما كان يؤدي إلى اضطراب الحركة التجارية.

ولكن هذا لا يعني أن سكان هذه الواحات يعيشون فوضى لا سراة لهم، بل إننا نجد مقابل هذا الواقع المفكك على مستوى القبائل الكبرى، مجموعة من القصور، ظهرت على مسرح الأحداث كقوة محلية تدير نفسها بنفسها في إطار «قبيلة القصر»[7]. وبالرغم من أن قبيلة القصر تعتبر أقل عددا من القبيلة الكبرى في إطارها البدوي، فإنها تبدو أكثر فعالية في تنظيم شؤون العناصر المشكِّلة لها وأكثر ضبطا على المستويين الاجتماعي والسياسي، ويعزى ذلك إلى الطريقة «الديمقراطية» التي تدار بها شؤون القبيلة داخل أسوار القصر.

ومن سوء حظنا اننا لا نتوفر على كل المعطيات التاريخية التي تسمح لنا بدراسة دقيقة ومفصلة لأحوال قبائل القصور في مطلع القرن العاشر الهجري /16م، كما تقل معلوماتنا عن أهم العائلات التي قد تكون مارست نوعا من الزعامة بهذا القصر أو ذاك. وقد حاولنا تجاوز هذا النقص بالاعتماد على بعض

(6) محمد بن الحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية مخطوط خاص : ص 7.

(7) سبق لنا أن عرفنا بقبيلة القصر في المدخل الذي خصصناه للمصادر.

المعلومات الطفيفة التي التقطناها من مراجع متأخرة. ونعتقد أن تحليل هذه المعلومات ومقارنتها مع بعض الإشارات الواردة في مصادر القرن العاشر الهجري /16م قد يساعدنا في تحديد بعض القصور التي تزعمت هذه الواحة او تلك.

1 ــ واحة فَزْوَاطَة

تحتل واحة فَزْوَاطة مركزا وسطا بين واحتي تَرْنَاتَة من الشمال ولَكْتَاوة من الجنوب، وهي عبارة عن شريط أخضر متعرج حول نهر درعة. ويقدر عدد قصورها بحوالي ستين قصرا[8] تتفاوت من حيث الحجم وعدد السكان. واذا ما انطلقنا من اسماء هذه القصور وهوية سكانها[9] نلاحظ أن جل هذه القصور قد استحدثت في أوقات متأخرة من القرن العاشر الهجري /16م[10] أما القصور القديمة فتحمل أسماء مواقع جغرافية كقصر أُغْلَا وَدْرَارْ (أعلى الجبل) وقصر تازْرُوت (الصخرة) أو تحمل اسماء قبيلة منحلة كقصر سَارَت الذي يعتقد أنه مشتق من اسم القبيلة الصنهاجية سِرتَةَ التي كانت تستوطن المنطقة خلال العصور الوسطى. وتمتاز هذه القصور القديمة بسكانها الذين يتشكلون في غالبيتهم من السود أو الخلاسين.

وتتكون واحة فزواطة من ثلاث جهات :

1 ــ **جهة تاكَمادَّارْت** : وتتكون من مجموعة من القصور الكبرى مثل أُمَزْرُو، وأُغْلَا وَدْرَارْ وإنْكِزَاطْ وَسَارَتْ وغيرها من القصور القديمة، بالاضافة إلى عدد من القصور والزوايا التي استحدثت في عصور متأخرة خاصة بعد القرن العاشر الهجري /16م.

عندما زار الراهب الاسباني مارمول كار بخال وادي درعة في السبعينات من القرن العاشر الهجري /16م، وصف قصر تاكَمادَّارت بأنه عبارة عن مدينة صغيرة يقدر عدد سكانها بحوالي ألف وخمسمائة نسمة من دراوة، ويوجد بالقصر عدد من الأدباء والعلماء، وحقولها خصبة جدا تنبت القمح والشعير والتمور[11] وإذا ما قدرنا لكل كانون خمسة أفراد فسيكون عدد الكوانين بقصر تاكَمادرات هو ثلاثمائة كانون، وهذا يعني أن قصر تاكَمَادَّارْت يعتبر من القصور المهمة بالمدخل الشمالي لواحة فزواطة خلال القرن العاشر الهجري /16م. إلا أن السؤال المطروح أين يوجد هذا القصر ؟ هل هو قصر

---

(8) اعتمدنا في تحديد عدد قصور فزواطة على مجموعة من الوثائق المحلية، والاحصاء الرسمي لهذه القصور في بداية عهد الحماية.

(9) نقصد بالهوية الصفة التي يطلقها السكان في عين المكان على هذا القصر أو ذاك بقولهم، قصر دراوة، قصر أيت عطا، قصر الروحة، إذا كان اغلبية سكانه من درواة أو أيت عطا أو الروحة.

(10) من ذلك كل القصور التي استحدثتها قبائل أيت عطا وقبائل الروحة بعد القرن العشر الهجري/16م وتعرف بأسماء القبائل التي تستوطنها. ومنها كذلك قصور الاشراف التي استحدثت بعد قيام الدولة العلوية ونزوح بعض العائلات الشريفة من تافيلالت الى درعة.

(11) مارمول كاربخال : افريقيا : ترجمة د. محمد حجي وصحبه الرباط. 1989 ــ الجزء الثالث ــ ص. 149.

أَمْزْرُو كما يذهب إلى ذلك جورج سبلمان ؟[12] أم يكون قد اندثر في جملة القصور التي اندثرت بعد مرض الطاعون الجارف الذي نزل بدرعة في التسعينات من القرن الحادي عشر الهجري /17م ؟[13]

وعلى كل وكيف ما كانت الإجابة على هذه الأسئلة فإن الشيء المؤكد أن قصر تاكَمادَّارْت كان من بين القصور الكُبْرى التي بَرَزت بشيوخها الزمنيين على مسرح الأحداث السياسية بدرعة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م.

2 ــ **جهة تَامَكَرُوتْ** : وتحتل مركزا وسطا بين تَاكَمادَّارَتْ في الشمال، وابنى علي في الجنوب. تتكون هذه الجهة من عدة قصور قديمة أهمها قصر أكَنِي وقصر تازَرْوُت، وقصر تامكَروت وقصر بني خلوف[14] وقصور تامكَروت لا تختلف من حيث الإطار العام عن قصور تاكَمادارت، كما أن غالبية سكان هذه القصور من السود أو الخلاسين بالاضافة إلى طائفة كبرى من اليهود بقصر بني خلوف.

3 ــ **جهة بني علي** : وتتكون من مجموعة من القصور القديمة أهمها قصر تِينْفُو، وقصر بُونُو، وقصر تافكَرُوتْ الشهير برباطه، بالاضافة إلى مجموعة من القصور المستحدثة مثل قصر أولاد ابراهيم وقصور السفلات.

واذا كانت قصور تاكَمادارت تراقب فم تَزَاكُورت. شمال واحة فَزْواطة فإن قصور بنى علي تراقب الحركة التجارية عبر فم تاقَّات بالمدخل الجنوبي لفزواطة.

وهكذا نلاحظ أن فزواطة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م كانت السلطة السياسية فيها موزعة على مجموعة كبيرة من القصور الكبرى التي كانت تتصارع من أجل السيطرة على الأرض ومصادر المياه ومراقبة الطرق التجارية.

2 ــ واحة لَكْتَاوة

تعتبر واحة لكتاوة أهم واحة بوادي درعة، لاتساع أراضيها الزراعية وخصوبتها وتنوع منتوجاتها الزراعية ولتفتحها المباشر على الطرق التجارية الصحراوية. وقد اشتهرت هذه الواحة بنشاطها التجاري المزدهر منذ القرون الوسطى[15] الأمر الذي سمح بقيام جملة من الأنشطة الصناعية المحلية مثل دباغة الجلود وصياغة الحلي[16]

---

(12) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa, A.M. Volume 9 - Tome II, p. 151.

(13) محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة مخطوط خاص ص. 112.

(14) يعتبر قصر بني خلوف من القصور الخاصة باليهود بواحة فزواطة حيث كانوا يساكنون دراوة، وقد هاجر اليهود نحو الشمال أبان عهد الحماية وفي بداية عهد الاستقلال.

(15) كانت المنطقة مشهورة خلال العصور الوسطى بانتاج النيلج والحنا والتمور.

(16) كانت الجلود والحلي المصنعة بلكتاوة تباع في أسواق تافيلالت ومراكش.

يقدر عدد قصور لكتاوة بما يزيد على ستين قصرا، وجلها قد استحدثت بعد القرن العاشر الهجري /16م، على يد قبائل أيت عَطًا التي وصلت إلى المنطقة ما بين القرن الحادي عشر الهجري /17 ومطلع القرن الرابع عشر الهجري /20م. وعلى يد الأشراف الذين طرؤوا على المنطقة في فترات مختلفة بعد قيام الدولة العلوية.

أما القصور القديمة فهي تمتاز عن القصور المستحدثة بسكانها من السود والخلاسين بالإضافة إلى بعض الطوائف اليهودية[17] ومن أهم القصور التي ظهرت على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية بواحة لكتاوة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م.

1 ـــ قصر بني سَمْگِيْنْ

يعرف هذا القصر ايضا بتلكتاوت، ويقع في المدخل الشمالي لواحة لكتاوة في منبسط من الارض بالضفة الشرقية لنهر درعة، وحسب ما اورده مارمول، فإن هذ القصر يعتبر من أكبر القصور على الإطلاق بالواحات الجنوبية، إذ يقدر عدد كوانينه بما يزيد على ثلاثة الاف كانون[18] وإذا ما اعتبرنا أن أفراد كل كانون بخمسة أفراد على الأقل، فإن مجموع سكان قصر بني سمكَين قد يزيد عددهم أنذاك على خمسة عشر الف نسمة، وهو رقم مبالغ فيه ولا شك. ولعل ما يؤكد هذا الشك في حجم وضخامة قصر بني سمكَين خلال القرن العاشر الهجري /16م، أن تَلكتاوت (كتاوة عند مارمول) لاتزال قائمة إلى اليوم. وبالرغم من التطور الكبير الذي عرفته الحركة العمرانية بهذه الواحة، فإن عدد كوانين قصر بني سمكَين لم تصل بعد إلى مائتين كانون[19] مع العلم أن قسما كبيرا من القصر قد استحدثته قبيلة بني مَحمد العربية التي طرأت على المنطقة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري /19م. ولا توجد بالمنطقة أية اطلال ظاهرة حتى يمكن القول بأن «كتاوة» مارمول قد اندثرت وانقرضت مع مرور الأيام. فهل هناك مدينة أخرى بهذا الإسم بواحة لكتاوة ولاتزال اليوم مطمورة تحت الرمال ؟ واذا كانت هذه المدينة موجودة فعلا فلماذا لم يشر إليها ابن مليح السراج اثناء زيارته لدرعة في العقد الرابع من القرن الحادي عشر الهجري /17م، خاصة أن صاحب الرحلة قد أشار إلى بعض قصور لكتاوة مثل بني حَيُّونْ وبني مِسْنَانْ[20] فهل كان مارمول يقصد بإشارته هذه واحة لكتاوة ككل ؟

كان سكان قصر بني سِمكِين في مطلع القرن العاشر الهجري /16م يتكونون من عناصر متباينة الأعراق والاصول، اذا تعتبر في الواقع بقايا بعض القبائل المنحلة، ولعل ما يؤكد هذا أن عددا كبيرا منهم من البرابر اضافة إلى دراوة من السود والخلاسين. وقد سهل هذا التنوع العرقي وعدم الانسجام بين سكان قصر بني سمكين مهمة قبائل الرحل في السيطرة على سكان القصر، اذ كان كل عنصر يستعين

(17) لم يبق اليوم ولو يهودي واحد بواحة لكتاوة.

(18) مارمول كاربخال : مصدر سابق ص 148.

(19) G. Spillmann : op. cité, p. 167.

(20) محمد بن أحمد القيعي (ابن مليح) : انس الساري والسارب رحلة حجية : تحقيق وتعليق محمد الفاسي ـــ فاس 1968 ص : 27.

بقبيلة أولاد سليم. وقد كانت هذه الأخيرة تستبد بسكان، قصر بني سمكَين وتفرض عليهم الإثاوات والضرائب الثقيلة ولم تنته هذه الوضعية الشاذة إلا مع قيام الدولة السعدية التي ضبطت المنطقة وأعادت اليها هيبة الدولة المركزية.

2 ــ قصر بني صبيح

يقع هذا القصر في المنطقة الجنوبية من واحة لكتاوة بالقرب من فم تِيذْرِي الذي يربط بين واحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان. لاحظ الوزان أثناء زيارته لواحة لكتاوة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م أن قصر بني صبيح قصر مُسَوَّرٌ، وسكانه منقسمون على أنفسهم إلى فئتين كل فئة يحكمها رئيس (شيخ). وكانت الفئتان تعيشان في صراع مستمر، ويشتد الصراع في فصل الصيف عندما يقل الماء وينضب معينه[21] وقد كانت كل فئة تستعين على الاخرى بفرسان العرب الصحراويين الذين كانوا يقاتلون إلى جانب هذه الفئة أو تلك مقابل قدر من المال عن كل يوم.

اشتهر قصر بني صبيح كمركز تجاري على باب الصحراء، وقد كان سكان القصر يدركون أهمية الحركة التجارية بمنطقتهم فكانوا يقومون بضيافة التجار ويكرمونهم دون مقابل مدة إقامتهم في القصر ولو لمدة طويلة.

وتدل كل القرائن على أن سكان قصر بني صبيح يعيشون في استقلال تام، إذا كانت كل فئة من الفئتين المتساكنتين داخل أسوار القصر تسير شؤونها تسييرا جماعيا، شأن كل المتساكنين بالقصور الكبرى في الواحات الجنوبية، وقد ظلت الأوضاع على ما هي عليه من صراع وتنافس حتى تغلبت الدولة السعدية وأعادت تنظيم المنطقة فأقامت بقصر بني صبيح حامية عسكرية لوضع حد للصراع بين المتساكنين بالقصر وحمايته من هجومات القبائل الصحراوية.

ورغم أن واحات لَكتاوة تتوفر على قصور أُخرى لا تقل أهمية عن قصري ابني سمكَين، وابني صبيح، فليس بالامكان الحديث عن هذه القصور، خاصة أن الأوضاع الاجتماعية والسياسية بهذه القصور لا تختلف في شيء عن هذين القصرين. ونكتفي باستعراض اسماء بعض القصور مثل قصر بني حيون الذي برز بشكل خاص في أواخر القرن العاشر الهجري /16 ومطلع القرن الحادي عشر الهجري /17م للاهتمام الكبير الذي أعارته اياه الدولة السعدية، وقصر نصراط وقصر أُدْوَافِيلْ وقصر تَخسْوَان وغيرها من القصور التي تتميز بكبرها وتعدد سكانها من دراوة.

(21) الحسن الوزان : وصف افريقيا : ج. 2 ــ صص. 119 ــ 120م.

3 ـــ واحة محاميد الغزلان

تقع هذه الواحة على أبواب الصحراء، وقد حولتها عوامل التصحر والتحولات المناخية إلى أصغر واحة بدرعة، حيث ظلت مساحتها تتقلص باستمرار.

يبدو أن هذه الواحة قد تعرضت أكثر من غيرها لتأثير القبائل العربية المعقلية اثناء سيطرة هذه الأخيرة على الواحات الجنوبية بدرعة خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين /14م و15م، لتفتحها المباشر على الصحراء ولقربها من المراعي الخصبة حيث تنتشر القبائل العربية بعد نزوحها إلى درعة. وقد بلغ هذا التأثير حدا لم نعد معه نعرف الإسم القديم لهذه الواحة[22] ونعتقد أن اسم المحاميد ما هو إلا إسم لقبيلة عربية أو لبطن من بطون قبائل بني معقل ولا نستبعد أن تكون هذه القبيلة قد اندثرت بعدما تركت إسمها على عين المكان الذي كانت تستوطنه وتسيطر عليه. وهذه السيطرة العربية على واحة محاميد الغزلان، قد شوشت علينا ونحن نحاول التعرف على بعض القصور الكبرى، التي قد يكون لها بعض النفوذ بهذه الواحة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م، ذلك أن أحد عشر اسماء من بين أربعة عشر قصرا، تحمل اسماء عربية محضة[23] وقد حاولنا تجاوز هذا التشويش اعتمادا على ما ورد عند مارمول، فقد تحدث هذا الراهب عن مدينة تَرْكَالة، وهي مدينة كبيرة يقدر عدد كوانينها بأربعة آلاف كانون، من بينها اربعمائة كانون للطائفة اليهودية. وتقع تركَالة على شاطىء نهر درعة في منبسط من الأرض وسط أكمة من النخيل، وقد أقام السعديون بهذه المدينة حامية عسكرية تقدر بحوالي اربعمائة فارس وخمسمائة راجل. وكانت هذه الحامية تقوم بحماية الذهب الذي كان يصل من الصحراء إلى تركَالة وبعد تصفيته ووزنه يوجه إلى لكتاوة ومنها إلى مراكش[24] ومن خلال ما ذكره مارمول يمكن أن نستخلص الملاحظات الاتية :

1ـــ يستشف من وصف مارمول أن تركَالة تقع في منطقة مَّا جنوب واحة لكتاوة، بدليل انها كانت تستقبل الذهب، فيقوم المكلفون بتصفيته ووزنه وطبعه ثم إرساله إلى مراكش عبر لكتاوة.

2ـــ اشار إلى وجود طائفة يهودية كبرى بالمدينة، ولا نستبعد أن يكون السعديون قد جمعوا يهود لكتاوة بهذه المدينة لتشغيلهم في تصفية الذهب.

3ـــ أن المواصفات الطبيعية لموقع تركَالة (قربها من نهر درعة، خصوبة أراضيها، كثرة نخيلها) تنطبق على غير ما قصر من قصور واحة لكتاوة وقصور محاميد الغزلان. وتنطبق بشكل أدق على قصور محاميد الغزلان، خاصة قصري الطلحة وأولاد أحمد حيث يرسب نهر درعة حمولته من الغرين قبل أن يستأنف رحلته في اتجاه المحيط الأطلسي.

---

(22) لاشك أن الاسم القديم للواحة قد يكون بربريا على غرار أسماء الواحات الاخرى مثل ترناتة وفزواطة ولكتاوة وغيرها.

(23) من ذلك مثلا قصر أولاد ادريس، وقصر أولاد احمد، وقصر البطحاء، والطلحة وأولاد محيا وغيرها.

(24) مارمول كاربخال : مصدر سابق ص. 149 ـــ 150.

4ـ أن عدد كوانين مدينة تركَالة يثير الكثير من الشك، ذلك أننا لو قدرنا خمسة أفراد لكل كانون لكان عدد سكان المدينة عشرون الف نسمة وهو رقم كبير جدا ومبالغ فيه، ومن الصعب قبول وجود مدينة بدرعة بهذا الحجم في وقت كانت فيه المنطقة تتعرض باستمرار لهجومات القبائل الصحراوية ولمدة تزيد على قرن ونصف من الزمن.

فهل كان مارمول يقصد مجموعة من القصور المتقاربة جدا بحيث تظهر وكأنها مدينة كبيرة ؟ وهل يمكن القول بأن مارمول كان يقصد الواحة كلها ؟

وفي أواسط العقد الرابع من القرن الثاني عشر الهجري /18م وردت اشارة عن مدينة الغزلان في كتاب «Relation de Thomes PELLOW»[25]، فقد ذكر طوماس بيلو «THOMAS PELLOW» وهو أسير انجليزي، كان يعمل في جيش مولاي اسماعيل أن قبائل واحة محاميد الغزلان، قد ثارت ضد الدولة المركزية فوجه السلطان مولاي اسماعيل قوة عسكرية سنة 1135هـ /1722 إلى هذه المنطقة لإعادة الامن والاستقرار بين ربوعها[26] والذي يهمنا من اشارة بيلو هو الوصف الدقيق الذي افادنا به عن مدينة الغزلان كما يسميها، فهي مدينة كبيرة، بنيت في سهل رملي وتحيط بها اشجار النخيل، ويلاحظ أن القوات السلطانية لم تتمكن من التغلب على سكان المدينة إلا بعد سبعة عشر شهرا من القتال العنيف. والسؤال المطروح : هل تكون مدينة الغزلان هي مدينة تركَالة ؟ واذا كانت الغزلان هي تركالة لماذا لم يرد لها اسم في المصادر المغربية ؟

وسواء كانت مدينة الغزلان هي تركَالة أم لا، فإن الشيء الأكيد أن هذه القصور الكبرى بالواحات الجنوبية من درعة، قد بلغت من القوة والإحساس بالاستقلال، إلى درجة أنها لم تعد لديها قابلية للانصياع لأوامر الدولة المركزية. وقد ظلت هذه القصور على حالها من الصراعات والتنافس الحاد إلى ما بعد قيام الدولة السعدية، ولم يتمكن سلاطين هذه الدولة من إعادة الأمن والاستقرار لوادي درعة عامة وللواحات الجنوبية خاصة، إلا بعد إقامة سلسلة من الحاميات العسكرية في نقط متقاربة جدا.

ومن عواقب هذه الصراعات بين القصور الكبرى، إنقسام الواحات الجنوبية إلى عدة فرق متناحرة تتغالب على الأرض والماء، وتتعاون على بعضها البعض بقبائل الرحل، وقد كانت بعض القصور تضطر إلى طلب حماية قبيلة مترحلة، فتعقد معها بعض الاتفاقيات التي تنظم بنود هذه الحماية. وقد كانت هذه الاتفاقيات في بداية أمرها تعرف بـ «الرَّعْيَة»[27] وكان الهدف الأول لهذه الاتفاقيات هو حماية المنتوجات الزراعية، اذ بمجرد ما تظهر بوادر نضج التمور حتى تأمر القبيلة الحامية بعض فرقها بالانتشار خلال حقول القصر المحمي. وتدل كل القرائن على أن العمل بهذه الاتفاقيات قد توقف إبان

---

(25) — Relation de THOMAS PELLOW : Traduit par MAGALI MORSY — Paris 1983

(26) — Relation de THOMAS PELLOW : pp. 117, 118, 119, 120.

(27) يطلق لفظ «الرَّعية» على عملية حماية المنتوجات الزراعية، ويعرف الشخص الذي يمارس الرعية بالرَّاعي. وترتكز الرَّعية على أساس تفويت جزء من المنتوج مثل 1/20 ـ 1/10 حسب نوع المنتوج وحسب الاتفاق بين المتعاقدين.

عهد الدولة السعدية بفضل ما وفرته لسكان المنطقة من ظروف الأمن والاستقرار وتمكنها من جعل حد لهجومات قبائل الرحل على المنطقة، وسنرى أن العمل بهذه الإتفاقيات قد اتسع بشكل أكبر بوادي درعة إبان عهد العلويين ويشمل جوانب أخرى من الحياة العامة.

وهكذا نستخلص مما سبق أن القصور الكبرى بواحات فزواطة ولكتاوة ومحاميد الغزلان كانت قبيل قيام الدولة السعدية تعيش في استقلال تام تدير أمورها السياسية والإجتماعية بنفسها. كما كانت تعيش في حالة من الصراع الدائم من أجل السيطرة على الأرض والماء ومراقبة الطرق التجارية.

ومن جهة أخرى كانت قبائل الرحل الصحراويين تستغل انقسام سكان هذه الواحات إلى أوزاع متناحرة، لتقوم بعمليات غزو فتنهب المحصولات الزراعية، وتدمر سواقي وآبار الري وتفرض إثاوات على سكان القصور الذين كانوا يضطرون الى عقد بعض إتفاقيات مع أقوى قبائل الرحل لحماية انفسهم من رحل آخرين.

أما واحة ترناتة وتينزولين ومزجيطة فيبدو أنها كانت تتمتع انذاك بنوع من الاستقرار بفضل تغلب المزواريين على المنطقة.

II ــ استقلال «إمارة» تَنْسِيطَة بالواحات الشمالية

في الوقت الذي كانت فيه قصور الواحات الجنوبية تعرف حالة من الغليان الاجتماعي والتنافس الحاد بين شيوخ هذه القصور من أجل السيطرة وبسط النفوذ، كانت قصور الواحات الشمالية تنعم بنوع من الاستقرار السياسي والرخاء الاقتصادي بفضل ظروف الامن والانضباط التي وفرتها لها عائلة المزواريين. وتدل كل القرائن على أن هذه العائلة قد عرفت تطورا كبيرا في نهاية القرن التاسع الهجري /15م ومطلع القرن العاشر الهجري /16م حيث يظهر أنها قد تحولت خلال هذه الفترة من مشيخة صغيرة إلى امارة محلية قوية نجحت في بسط نفوذها على سكان واحات ترناتة وتِنْزُولِينْ ومزجيطة.

وظهور هذه الامارة بوادي درعة قبيل قيام الدولة السعدية يثير جملة من الاسئلة منها مثلا : ما هي الظروف الإجتماعية التي ساهمت في ظهور هذه الإمارة بدرعة ؟ وكيف تمكنت من التغلب على شيوخ القصور الكبرى بهذه الواحات واخضاع سكانها لنفوذها ؟ وما هي نوعية العلاقة التي تربطها بالسلطة المركزية بفاس ؟ ثم كيف كانت علاقتها بالدولة السعدية بعد نجاح هذه الاخيرة من بسط نفوذها على درعة ؟

1 ــ الأوضاع الاجتماعية والسياسية بالواحات الشمالية.

تشمل الواحات الشمالية تَرْنَاتَة وتِينْزُولِينْ ومَزْجِيطَة وتمتد هذه الواحات من فم تَزَاكَورْتْ جنوبا إلى إيمي نَلْدَى (فم درعة) شمالا. وتشتمل كل واحة من هذه الواحات على ما يزيد على خمسين قصرا، بنيت

على مسافات متباينة من نهر درعة. وهذه القصور لا تختلف في شكلها العام عن القصور الصحراوية. وينحدر سكان هذه القصور من عناصر متباينة الأعراق والاصول، من بينهم نسبة كبيرة من السود أو الخلاسين يعرفون محليا «بذْرَاوة»[28] أما العناصر الأخرى فينحدرون من بقايا القبائل الزناتية والصنهاجية وتطلق على نفسها نعت «أَلْاحْرَارْ»[29] مما يؤكد على أصولها الامازيغية بالاضافة إلى العناصر العربية التي تحولت إلى الاستقرار.

وبالرغم من هذا التباين في الاصول الذي يطبع البنية العامة لسكان هذه الواحات، فإن هذه العناصر قد نجحت في الاندماج في بعضها البعض وتأسيس مجموعة من القصور الكبرى التي لعبت دورا بارزا في الحياة العامة بهذه الواحات. وانطلاقا من نفس المعايير التي اعتمدناها في التمييز بين القصور القديمة والقصور المستحدثة بالواحات الجنوبية، نلاحظ أن القصور الكبرى بالواحات الشمالية تحمل أسماء بعض المواقع الجغرافية : تُوغَمَّارْ (نسبة إلى المكان الذي انعرج فيه نهر درعة) تمكّاسَلت (نسبة إلى تل عال) أو تحمل أسماء بعض الادوات المستعملة في الحياة اليومية بوزركان (نسبة إلى الارحاء) بالإضافة إلى عدة قصور كبرى تحمل اسماء لا يُعرف لها معنى[30].

وبالرغم من الروح الاستقلالية التي كانت تطبع العلاقات العامة بين قبائل القصور، فإن ذلك لم يكن يمنعها من الدخول في تحالفات واسعة لمواجهة قبائل الرحل الصحراويين الذين كانوا يهددون باستمرار قصور المستقرين. وفي هذا الإطار يمكن فهم الدور الكبير الذي لعبته مشيخة المزواريين[31] بتنزولين حيث نجحت هذه المشيخة من تقوية نفوذها بين قبائل القصور في الواحات الشمالية، فعملت على توحيدها في تحالف واسع يمتد من مزجيطة شمالا إلى ترناتة جنوبا في محاولة للتصدي لهجومات قبائل بني معقل التي خرجت بصفة نهائية عن طوق الدولة المرينينة منذ أواسط القرن الثامن الهجري /14م.

وفي غمرت الصراع على السلطة بين اواخر المرينيين ووزراءهم من الوطاسيين خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري /15م وما صاحب ذلك من تفكك سياسي وتهديدات المسيحيين، طرحت مشيخة المزواريين نفسها بدرعة لتكون بديلا شرعيا لملإ الفراغ السلطوي الذي أصبحت تعاني منه واحات الوادي.

2 ــ قيام «امارة» تنسيطة المزوارية.

تنتسب هذه الإمارة إلى قبيلة أيت واوزكَيت القوية[32] التي انجبت إمارتين قويتين بوادي درعة

(28) سبق لنا أن عرفنا بمعنى دراوة ودراوي في المدخل.

(29) سنعرف بالأحرار في الفصل المخصص لمشكل التراتب الاجتماعي بدرعة في مكان لاحق من هذا البحث.

(30) من ذلك مثلا : قصر أسْتُور بترْناتة، وتامزْمُوطْ وتِمَسْلا بواحة تينزولين، وتيمضرت، وتافركالت بمزجيطة وغيرها من القصور الكبرى المنتشرة في هذه الواحات.

(31) ظلت مشيخة المزواريين قائمة برباط تينزولين وقصبة المخزن بنفس الواحة الى بداية عهد الاستقلال، ولا يزال بقايا العائلة المزوارية مستقرين بقصور أجدادهم بنفس الواحة الى اليوم.

(32) تعتبر قبيلة أيت واوزكيت من القبائل المصمودية الكبرى، وتمتد مجالات انتشارها من ورزازات الى درعة، وتشتمل اليوم على عشرات من القبائل الصغرى انظر : هامش رقم 67 من كتاب المقتبس من كتاب الانساب تحقيق عبد الوهاب بنمنصور ص. 43.

وجبل سيروا هما امارة تِينْ واوز وامارة تنسيطة[33]. وقد نجح شيوخ قبيلة أيت واوزكَيت من كِبَار إمْزْوَارْنْ[34] باعتمادهم على العصبية الواوز كَيتية من فرض إرادتهم على سكان قصور الواحات الشمالية بدرعة

وإذا كان الشك يحوم حول وجود امارة تين واوز بدرعة، فإن إمارة تنسيطة مقطوع بوجودها بالوادي، لكن السؤال الكبير الذي يفرض نفسه بالحاح هو كالتالي : فإذا أكدنا بصفة قطعية وجود إمارة تنسيطة بدرعة، فأين يوجد مقر هذه الإمارة ؟ هل يمكن القول بأنها كانت توجد بترناتة على اعتبار أن قصرين من قصور هذه الواحة لا يزالان يحملان وإلى اليوم اسم تنسيطة[35] ؟ وهل كان موقعها بواحة تينزولين على اعتبار أن إحدى العائلات القديمة بقصبة المخزن ورباط تينزولين[36] لاتزال لها بقية مزوارية بهذين القصرين إلى اليوم ؟ ونستفيد من الوثائق التي جمعناها من العائلة المزوارية بهذين القصرين أن اسلافها كانوا يتوارثون حكم تينزولين طيلة العهدين السعدي والعلوي، ولم يخرج الحكم من حفدتهم إلا بعد الإعلان عن استقلال المغرب ؟ واخيرا هل يمكن القول بأن مقر هذه الامارة كان يوجد بواحة مزجيطة كما توحي بذلك بعض القرائن المحلية ؟.

وقبل محاولة الإجابة على هذه الاسئلة، نعتقد أنه من الأجدى أن نسوق بعض المعطيات الأولية، عن امارة تنسيطة كما أوردها الحسن الوزان الذي زار بلاد درعة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م وذلك في كتابه **وصف إفريقيا** ذلك أن هذا الكتاب يعتبر المصدر التاريخي الوحيد الذي شاهد صاحبه مشاهدة عيان، ما بلغته هذه الامارة من قوة ورخاء اقتصادي.

يذكر الحسن الوزان بأن جبل تنسيطة يقع بين جبل دادس شرقا وجبل أيت وازكيت غربا. ويعج بالسكان ويشتمل على خمسين قصرا مبنية بالصلصال والآجر النيء اقيمت على طول نهر درعة لكنها

---

(33) وردت أول إشارة عن هاتين الامارتين في كتاب وصف افريقيا للحسين الوزان (ج. 1 — ص. 134 — 135) وكتاب افريقيا لمارمول (ج. 2 — 112 — 113) والواقع أن هاتين الامارتين عبارة عن مشيختين كبيرتين الصق بهما نعت الامارة من لدن الوزان ومارمول تقريبا لافهام الاوروبيين.

وقد تضاربت الآراء حول موقع امارة تين زَاوَزْ، فقد ذكر لويس ماسنيون انها تقع بتلوات بالأطلس الكبير (Le Maroc dans les 1ères Années du 16e S, p. 205)

أما سبلمان فيرجع موقعها بمزجيطة .(Districts et tribus de Draa, p. 42). في حين تميل جاك كاموني الى تحديد موقعها بجبل سيروا مركز الثقل انذاك بالنسبة لقبيلة أيت واوزكَيت .(Le Maroc Saharien, T. I, pp. 327 - 329) ونرجح أن يكون موقعها فعلا بجبل سيروا ذلك أن أن هذا الجبل يحد درعة غربا. وتنطبق عليها المواصفات الواردة عند الوزان ومارمول.

(34) إمْزْوَارْنْ ومفرده أمزوار ومعناه عند قبائل أيت واوزكَيت السيد والمقدم على قومه. وقد كان يستعمل بهذا المعنى عند بعض القبائل بجنوب المغرب منذ عهد الموحدين (المقتبس من كتاب الانساب ص. 44 — 45).

(35) هما قصرا تنسيطة خشاع وتنسيطة التَّشاشدة، وقد أصبح أحد القصرين مندمجا اليوم بمدينة زاكورة على اثر التحولات العمرانية التي عرفتها هذه المدينة منذ مطلع الثمانيات.

(36) تقع قصبة المخزن ورباط تينزولين وسط هذه الواحة على الضفة الغربية لنهر درعة، على جانبي الطريق الرئيسي رقم 31 — الرابط بين مراكش وزاكورة عبر ورزازات.

تبعد عنه بمسافات متفاوتة[37]. ومن اضافة مارمول الذي زار بلاد درعة في أواسط السبعينات من القرن العاشر الهجري /16م أي بعد زيارة الحسن الوزان بحوالي خمسين سنة أن هذه الامارة تحد من الجنوب بصحراء درعة كما أن المؤرخين كانوا يضعونها في اعلى درعة[38]. فهل هذا يعني أن موقع إمارة تنسيطة في نقطة ما من واحة مزجيطة ؟ ذلك أننا إذا ما أخذنا هذه المواصفات وقابلناها مع موقع هذه الواحة وظروفها الطبيعية نلاحظ ما يلي :

1 ـــ أن واحة مزجيطة يحفها من الناحية الشرقية جبل كيسان وهو جزء من الأطلس الصغير، الذي يتصل غربا بجبل أيت واوزكيت أي جبل سيرْوَا، ويتصل شرقا بجبل دادس وبلاد مكونة.

2 ـــ أن قصور واحة مزجيطة القديمة لا تتجاوز خميسن قصرا، وهي قصور لم تتعرض إلا لبعض التغييرات الطفيفة منذ القرن العاشر الهجري /16م، خاصة انها لم تتأثر بعوامل الهجرة وهجومات قبائل الرحل مثل ما هو الحال بالنسبة لقصور الواحات الأخرى، ويرجع ذلك إلى كون واحة مزكيطة محاطة بحلقة محكمة من الجبال تشكل في واقع الأمر حماية طبيعية لها. ولعل ما يدعم هذا الافتراض أن الراوية الشفوية بمزكيطة تذكر بأن السوق القديم بقصر أسَلِّيمْ نِزْدَارْ[39] على خطوات من قصر تامنوكالت قد أقيم في محل القيادة القديمة بواحة مزجيطة فهل يمكن القول بأن هذا السوق قد أقيم في محل إمارة تنسيطة ؟

إلا أننا لا نستبعد أن يكون مقر هذه الإمارة بواحة تينزولين وبالضبط في قصر الرباط. ذلك أننا إذا أخذنا المواصفات التي حددها الوزان عن جبل تنسيطة، نلاحظ كذلك أن موقع تينزولين وظروفها الطبيعية تتشابه إلى حد كبير مع واحة مزجيطة، اذ يحفها جبل بوزروال من الناحية الشرقية، ويقدر عدد قصورها بحوالي خمسين قصرا اقيمت على مسافات متباعدة من نهر درعة تتصل من الناحية الجنوبية بصحراء درعة، ويجد هذا الافتراض ما يدعمه فيما كتبه مارمول، حيث ذكر أن مدينة تينزولين كانت مقرا لابن عمرو أحد مزواري وادي درعة[40]. وقد ظلت عائلة المزواريين تمارس الحكم بواحة تينزولين طيلة العهدين السعدي والعلوي، وحافظت على موقعها السياسي بدرعة طيلة عهد الحماية.

وهكذا يتضح أنه من الصعب الخروج برأي قاطع في تحديد موقع امارة تنسيطة في مطلع القرن العاشر الهجري /16م، لكن الشيء المؤكد أن هذه الامارة قد مارست نوعا من السلطة على سكان الواحات الشمالية بدرعة. وقد أصبحت هذه الامارة من القوة بمكان، حيث انها كانت تتوفر على قوة عسكرية يقدر عدد أفرادها بحوالي الف وخمسمائة فارس ومثل ذلك من المشاة، وهو جيش قوي كاف لاخضاع كل واحات وادي درعة فبالاحرى الواحات الشمالية. كان شيخ هذه الامارة أو رئسها في مطلع القرن العاشر الهجري /16 تربطه بالسلطان محمد الشيخ الوطاسي علاقة ولاء شكلية، إذ كان هذا

---

(37) الحسن الوزان : وصف افريقيا ـــ الجزء الأول ص. 136 ـــ 137.

(38) مارمول كاربخال : افريقيا (الترجمة العربية) الجزء الثاني : ص. 113 ـــ 114.

(39) يقع قصر اسليم نِزْدَارْ (الأسفل) بالضفة الغربية لنهر درعة جنوب مركز اكدز الحالي.

(40) مارمول كاربخال : مصدر سابق : ص. 113.

الرئيس يبعث إلى سلطان فاس بالهدايا السنية[41] كما كان سلطان فاس يمده بالخيل والسروج المطعمة بالذهب ونستفيد من اشارات الحسن الوزان أن امارة تنسيطة، كانت تتمتع برخاء اقتصادي كبير، لازدهار الحركة التجارية بين وادي درعة وبلاد السودان في مطلع القرن العاشر الهجري /16م.

أما فيما يتعلق بعلاقة إمارة تنسيطة بالدولة السعدية، فلابد من الاشارة هنا إلى القول بأن السعديين كانوا يعيشون بواحة فزواطة قبل انتقالهم إلى سوس، ومن الصعب جدا استبيان ما اذا كان للسعديين قبل رحيلهم من درعة علاقة بامارة تنسيطة أم لا. كما أننا لا نعلم شيئا عن موقف امراء تنسيطة اتجاه الحركة السعدية في بداية أمرها وكل ما نعرفه عن علاقة هذه الامارة بالسعديين، أن أحد أمرائها ـــ هو ابن عمرو قد حاول مقاومة نفوذ السعديين بوادي درعة[42] وقد وصل به الأمر إلى حد التحالف مع برتغاليي أكادير ضد الدولة السعدية الفتية[43] ولا ندري هل كانت هذه المقاومة التي أبداها ابن عمرو ضد السعديين بدرعة، بايعاز من سلطان فاس الذي أصبح يرى في صعود نجم الأشراف خطرا على دولته أم هي مجرد تحرك فردي بدافع الحفاظ على مصالح مزواري تنسيطة بالمنطقة ؟ أم أن برتغاليي أكادير قد دفعوا ابن عمرو في حركة تشويشية ضد السعديين بوادي درعة لصرف أنظارهم عن التفكير في محاصرة أكادير ؟

وكيفما كانت الاسباب والدوافع التي جعلت إمارة تنسيطة تقاوم نفوذ السعديين بوادي درعة، فإن المزواريين قد أعلنوا ولاءهم في نهاية الأمر لسلاطين الدولة السعدية. ويظهر من بعض اشارات مارمول أن السعديين قد حاولوا الاستفادة من خبرة العائلة المزوارية في الميدان الاداري حيث نجد أنهم قد عهدوا لحمو بن علي المزواري بإدارة مدينة تركَالة نظرا لموقعها في باب الصحراء ولأهميتها التجارية[44]

ونستخلص مما سبق أن الواحات الشمالية بوادي درعة كانت خاضعة لإمارة تنسيطة قبيل قيام الدولة السعدية. وأن هذه الإمارة كانت تحتكر النشاط التجاري بين وادي درعة وبلاد السودان الأمر الذي جعلها تكتسب قوة اقتصادية ساعدتها في تدعيم نفوذها على سكان واحات تزناتة وتينزولين ومزجيطة رغم تباين أصولهم. وفي محاولة لاضفاء المشروعية على وضْعيتها كانت إمارة تنسيطة على علاقة ولاء شكلية بسلاطين الدولة الوطاسية بفاس. ورغم ما حاولته من مقاومة للسعديين في أول الأمر، فقد وجدت نفسها مضطرة إلى إعلان ولائها وطاعتها للدولة الجديدة، مما جعل هذه الأخيرة تستفيد من خبرة المزواريين في تسيير شؤون بعض المناطق بوادي درعة.

---

(41) حول هذه الهدايا التي كانت توجه من درعة الى فاس انظر : الحسن الوزان : مصدر سابق : ص. 137.

(42) — MARMOL : L'AFRIQUE, Tome 2, p. 125

(43) — MARMOL : L'AFRIQUE, Tome 1, p. 446

(44) — MARMOL : L'AFRIQUE, Tome 3, p. 15

III — انتشار الطريقة الجزولية بدرعة والتمهيد لقيام الدولة السعدية

استغل البرتغاليون والاسبان عوامل التفكك التي طرأت على هياكل الدولة المرينية منذ أواسط القرن الثامن الهجري /14م فانتزعوا زمام المبادرة من المسلمين بالاندلس، وقاموا بعمليات استرداد واسعة النطاق انتهت بإسقاط آخر حكومة إسلامية اندلسية بغرناطة سنة 897هـ /1492م.

اما في السواحل المغربية، فقد تمكن البرتغاليون من احتلال سبتة سنة 818هـ/1415م، وظلوا يقومون بهجومات خاطفة على سواحل المغرب طيلة القرن التاسع الهجرى/ 15م، اذ لم يكد هذا القرن يشرف على النهاية حتى كان الايبيريون يحتلون غير ما مرسى على الساحل المغربي من بوجدور جنوبا الى سبتة شمالا. وقد عرف هؤلاء الايبيريون كيف يستغلون التفوق المادي الذي باتوا يتوفرون عليه، والظروف النفسية المنهارة عند المغاربة، حيث كان عامة الناس يعتقدون ان تغلب المسيحيين على بعض المراسي المغربية هو عقاب من الله للمسلمين الذين زاغوا عن طريق الاسلام[45] وقد زاد من تعميق الاحساس بالذنب عند المغاربة انتشار الاوبئة والمجاعات في غير ما جهة من البلاد، وقد بلغت ظروف المجاعة أوجها في بعض الجهات حدا، جعلت المغاربة يبيعون ابناءهم وذويهم للإبيريين خوفا عليهم من الموت بالجوع قبل أن يتحولوا هم أنفسهم إلى رقيق عند البرتغاليين[46].

وفي هذا الجو المتأزم سياسيا واجتماعيا برزت فئة من أهل الصلاح وشيوخ التصوف، تدعو الناس إلى اعادة النظر في أمور الدين والتقرب إلى الله ليرفع عنهم المجاعات والاوبئة ويساعدهم في النصر على المسيحيين، خاصة أن الدولة الوطاسية قد عجزت عن توفير ظروف الامن للمغاربة كما عجزت عن الدفاع عن حوزة الوطن. ونستشف من بعض اشارات الناصري أن دعوة أهل التصوف قد ركزت على قتال العدو وجهاده، وأن الشيوخ قد صرفوا وجوه العزم لتحصيل الثواب، وأن عددا منهم قد قتلوا وهم يجاهدون العدو في السواحل المغربية[47]

كان جل شيوخ التصوف بالمغرب في مطلع القرن العاشر الهجري /16 ينتسبون إلى الطريقة الجزولية التي أسسها الشيخ محمد بن عبد الرحمان ابن سليمان الجزولي[48] وقد انتشرت هذه الطريقة بين المغاربة على نطاق واسع، على يد الاعداد الغفيرة من التلاميذ والمريدين الذين اخذوا الطريقة عن الشيخ الجزولي وتفرقوا في مجموع انحاء البلاد بعد اغتياله سنة 870هـ /1466م. وقد عرف شيوخ هذه الطريقة في نهاية القرن التاسع الهجري /15م كيف يستفيدون من الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية الصعبة التي عرفها المغرب انذاك، لنشر تعاليم الشيخ الجزولي، واستقطاب عامة الشعب وخاصتهم إلى صفوفهم.

(45) Jean Brignon et ses collaborateurs : Histoire du Maroc, p. 199.

(46) أحمد بوشرب : دكالة والاستعمار البرتغالي الى سنة اخلاء اسفي وأزمور — البيضاء 1984 ص. 148.

(47) أحمد بن خالد الناصري : الاستقصاء ج. 4 — ص. 111 — 112.

(48) ترجم لمحمد بن سليمان الجزولي غير واحد وقد اعتمدنا على ترجمته في ممتع الاسماع لمحمد المهدي الفاسي ابتداء من ص. 29.

من الركائز الأساسية عند المتصوفة، الذكر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم للآيات القرآنية الواردة في ذلك، وتعزى شهرة الشيخ الجزولي إلى كتابه «دلائل الخيرات وشوارق الانوار في ذكر الصلاة على النبي المختار» وقد كان هذا الكتاب ولايزال إلى اليوم محل عناية المغاربة، بل إن شهرة الكتاب وانتشاره قد تجاوزت حدود المغرب إلى المشرق[49] وقصدنا ونحن نثير قضية الذكر بالصلاة على النبي في الطريقة الجزولية، أن نؤكد على العلاقة بين تخصيص كتاب بكامله في الصلاة على النبي وذيوع فكرة الشرافة بين المغاربة وما استتبع ذلك من استعداد الاشراف لتسلم مقاليد الحكم بالمغرب بمباركة شيوخ الطريقة الجزولية، في وقت عجزت فيه السلطة المركزية عن ضبط شؤون الحكم كما عجزت عن التصدي للهجومات البرتغالية على السواحل المغربية. إذن فكيف انتشرت الطريقة الجزولية بالجنوب عامة وبوادي درعة خاصة ؟ وما هي الملابسات التي جعلت اقطاب هذه الطريقة بدرعة وسوس يبايعون الاشراف السعديين على الجهاد ؟ ثم كيف تمكن السعديون من تحويل هذه الحركة الجهادية إلى حركة سياسية

بالرغم من أننا لا نتوفر على ما يساعدنا في ضبط الفترة الزمنية التي قد تكون الطريقة الجزولية وصلت خلالها إلى وادي درعة، فإننا نعتقد أن هذه الطريقة قد انتشرت بالوادي على يد مجموعة من علماء سوس الذين وصلوا إلى درعة في نهاية القرن التاسع الهجري /15م ومطلع القرن العاشر الهجري /16م، وقد استقر جل هؤلاء العلماء بواحة فزواطة حيث أسسوا مجموعة من الزوايا مثل زاوية سيدي علي بن محمد الشيخ الجزولي البكري[50] وزاوية تاكمادارت، وقد كانت هذه الأخيرة مقرا للشرفاء الزيدانيين[51] بعد انتقالهم من ترناتة إلى فزواطة[52] ولا نستبعد أن يكون هؤلاء الأشراف قد اخذوا الورد الجزولي عن فقيه درعة في وقته عبد الله بن عمرو المَطْغْري[53] الذي كان استاذا لأبناء محمد القائم بامر الله أحمد الاعرج وأخيه محمد الشيخ[54].

وتدل كل القرائن على أن تفشي روح التصوف والتظاهر بالمشيخة كانت من أبرز الأمور التي تميز بها مطلع القرن العاشر الهجري /16 واعتبرها الناصري من الأمور العظام التي ظهرت آنذاك[55]. فهل تظاهر محمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله بالمشيخة على شاكلة متصوفة عصره قبل الإعلان عن رغبته في تولي الملك بالمغرب ؟

---

(49) حاجي خليفة : كشف الظنون : نشر مكتبة المثنى، بغداد دون تاريخ الجزء الأول ص. 759.

(50) ترجم للشيخ علي بن محمد الشيخ الجزولي البكري غير واحد وقد اعتمدنا على ترجمته الوافية عند المختار السوسي : المعسول ج. 10 — ص. 184.

(51) كان اشراف تاكمادارت يعرفون بالزيدانيين نسبة الى جدهم زيدان بن أحمد بن محمد من ذرية محمد النفس الزكية. وبعدما تولوا الملك أصبحوا يعرفون بالسعديين رغم كراهيتهم لهذه الصفة.

(52) كان مقر الاشراف السعديين قبل انتقالهم الى فزواطة بقصر تيدسي بترناتة انظر : اليفرني : نزهة الحادي ص. 7.

(53) ترجم لفقيه درعة عبد الله بن عمرو المطغري دفين قصر أغْلاوْدْرَارْ غير واحد وقد اعتمدنا على ترجمته عند محمد المكي بن موسى الناصري في الدرر المرصعة : مخطوط خاص ص. 168.

(54) محمد بن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر ص. 88.

(55) احمد بن خالد الناصري : الاستقصا، ج. 4 — ص. 163.

تصف المصادر التي ترجمت لمحمد بن عبد الرحمان القائم بأمر الله بأنه نشأ في عفاف وصلاح، كما كان مجاب الدعوة[56] وكانت هذه الصفات من النعوت التي كان متمشيخة تلك الفترة يحرصون على اكتسابها والتظاهر بها أمام الناس[57]. وهكذا نلاحظ أن محمد بن عبد الرحمان قد تجمعت له الشروط التي كان عامة الناس بالمغرب آنذاك يبحثون عنها للتخفيف من وطأة الازمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي غرق فيها المغرب على اثر الهجومات المسيحية على السواحل المغربية، وقد كانت هذه الصفات كافية لتأهيله الى رئاسة الجهاد بالاضافة إلى نسبه الشريف وكأن محمد بن عبد الرحمان قد أدرك أن ظروف تقديم نفسه لكرسي الحكم، كبديل لسلاطين بني وطاس العاجزين قد حلت، فعمل على التمهيد لذلك حيث كان يبشر في المحافل بأن ابناءه سيتولون ملك المغرب[58].

وفي وقت مبكر من القرن العاشر الهجري /61م، اشتدت وطأة الهجومات المسيحية على سواحل سوس، والحق وجود البرتغاليين والإسبان بسواحل سوس، أضرارا ماحقة بمصالح القبائل التي كانت تستفيد من التجارة الصحراوية، كما أدرك شيوخ الطريقة الجزولية بالمنطقة الأخطار التي ستلحق بالدين، إذا ما تمكن المسيحيون من تركيز وجودهم بسواحل سوس، فتداعى شيوخ الطريقة بالجنوب، من أقصى بلاد درعة إلى المحيط الأطلسي بسوس إلى الجهاد، فظهر على إثر ذلك سلسلة من الزوايا بجبل باني، وبلاد جزولة، ووادي تمناز بالإضافة إلى زوايا وادي درعة، وكانت مهمة شيوخ التصوف وأهل الصلاح تنحصر في تعبئة المجاهدين من بين القبائل، وحض عامة الناس وخاصتهم بالمساهمة في العمليات الجهادية بالأموال والأسلحة كل على قدر طاقته. وقد انتدبت قبائل سوس الشيخ محمد بن مبارك الاقاوي[59] ليقودها في الجهاد، كما راودته على البيعة، إلا أن الشيخ وهو المتصوف الزاهد، عزف عن البيعة ووجه القبائل السوسية إلى مبايعة شريف تاكَمادارت محمد بن عبد الرحمان، الذي لقب نفسه بعد ذلك بالقائم بأمر الله، وإذا ما صدَّقنا ما أورده ابن القاضي، فإن القائم بأمر الله، قد اجتمع بالشيخ الأقاوي قبل أن تبعث اليه القبائل السوسية ببيعتها[60] وهذا الاجتماع يجعلنا نعتقد أن الطريقة الجزولية ممثلة في شيوخ الزوايا بدرعة وسوس كانت تبحث لنفسها عن قيادة سياسية لمواجهة البرتغاليين فوجدتها في محمد بن عبد الرحمان، لشرفه وصلاحه والتزامه بتعاليم الشيخ الجزولي، وقد وجد أشراف تاكَمادارت الدعم المادي والمعنوي الكامل من شيوخ الطريقة الجزولية سواء بسوس ودرعة. أو لما استولوا على مراكش سنة 930هـ /1523[61].

---

(56) محمد الصغير اليفرني : نزهة الحادي في اخبار ملوك القرن الحادي ص. 9.

(57) نقصد بالمتمشيخة تلك الفئة التي تتظاهر بالتصوف لتحقيق أغراض دنيوية، حتى اذا تمكنوا من أغراضهم كشفوا عن نواياهم الحقيقية، وإلا فإن أهل التصوف الحق قلما يعرفون إذ يفضلون الخمول على الظهور في غالب الأحيان.

(58) محمد الصغير اليفرني : نزهة الحادي ص. 10.

(59) الناصري : الاستقصاء ج. 5 — ص.

(60) الناصري : نفس المرجع : ص.

(61) عندما استولى أحمد الأعرج على مراكش سنة 930هـ/1523 وجد الدعم الكامل من الشيخ عبد الله الغزواني شيخ الطريقة الجزولية بالمدينة.

وقد حرص الاشراف السعديون على القيام بالدور الجهادي الذي أنيط بهم، وفي هذا الإطار يؤكد صاحبه نزهة الحادي[62] أن محمد الشيخ السعدي، الذي كان نائبا لأخيه أحمد الاعرج بسوس لم يتوقف عن مناوشة البرتغاليين بحصن فونتي (أكَادير) على أمل تحريره وإبقاء شعلة الجهاد متقدة في نفوس المجاهدين حاول البرتغاليون التشويش على السعديين بالمناطق الداخلية، وفي هذا الإطار تحالف البرتغاليون مع مزواريي وادي درعة وأمدوهم الاسلحة النارية[63] لمواجهة الحركة السعدية، وقد أدرك محمد الشيخ، قائد الجهاد أبعاد تحالف البرتغاليين مع المزواريين بدرعة، لذلك اسرع الى عقد هدنة موقتة مع البرتغاليين فعاد إلى درعة ومهدها وقضى على الامارة المزوارية، كما أخضع كل القصور الكبرى لنفوذ الأشراف، وقد عرف محمد الشيخ كيف يستخدم القبائل المعقلية المنتشرة في هوامش درعة وواحاتها الجنوبية لصالح الحركة السعدية، فأدمج الكثير من عناصرها في جيشه ليضمن طاعتها وليأمن مغبة اثارتها للفتن بدرعة اثناء غيابه بسوس.

في الوقت الذي كان فيه محمد الشيخ يمهد بلاد درعة، كان العملة يقومون بتجديد مدينة تارودانت، ليتخذها مقرا لولايته، وهكذا ما كادت سنة 943هـ 1536م تشرف على النهاية[64] حتى كان محمد الشيخ قد انتهى من تحصين تارودانت، وجمع بها قوة عسكرية ضخمة، قدرتها بعض المصادر بحوالي خمسين ألفا من الرجال ما بين فرسان ومشاة[65] وقد حاول البرتغاليون تجديد الهدنة دون جدوى، إذ لم تمض بضع سنوات على تجميع هذا الجيش بتارودانت حتى اقتحم محمد الشيخ حصن فونتي على البرتغاليين، وبتحرير محمد الشيخ لهذا الحصن طارت شهرة السعديين كمجاهدين في مجموع أنحاء المغرب مما جعل البرتغاليين ينسحبون من مدينتي أزمور وأسفي.

وهكذا يتضح أن بلاد درعة عاشت وضعا سياسيا شاذا منذ اوائل القرن التاسع الهجري /15م إلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري /16م. ويتجلى ذلك في ظهور المشيخات المحلية بالقصور الكبرى بواحات فوزاطة ومحاميد الغزلان ولكتاوة وقد ظلت هذه المشيخات تتصارع على الارض والماء إلى غاية قيام الدولة السعدية.

اما الواحات الشمالية فقد كانت خاضعة لإمارة تنسيطة المزوارية، وبعد قيام الدولة السعدية، اهتم سلاطين هذه الدولة بواحات وادي درعة، فقضوا على كل المشيخات المحلية وأخضعوا أسرة المزواريين لنفوذهم تم بعد ذلك اعادوا تنظيم شؤون الوادي، فأقاموا سلسلة من التحصينات العسكرية[66] لحماية قصور الوادي من هجومات قبائل الرحل الصحراويين. وتدل كل المعطيات على بلاد درعة قد استرجعت

(62) محمد الصغير اليفرني : نزهة الحادي ص. 22.

(63) — D. J. MEUNIE : Le Maroc Saharien, Tome I, p. 72.

(64) تعتبر نهاية هذه السنة نهاية الهدنة الموقتة التي عقدها محمد الشيخ السعدي مع البرتغاليين.

(65) — D. J. MEUNIE : op. cité, p. 345.

(66) فيما يتعلق بالتحصينات العسكرية التي أقامها السعديون على طول واحات وادي درعة انظر :

— مارمول كاربخال : افريقيا ترجمة : جماعة من الاساتذة — الرباط 1989 — الجزء 3 من ص. 144 الى ص. 151.

بعض نشاطها الإقتصادي واستقرارها الاجتماعي خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري /16م، إلا أن المنطقة اضطربت من جديد بعد وفاة السلطان أحمد المنصور مباشرة سنة 1012 /1609م، وتحولت إلى مسرح للصراعات السياسية بين المتطلعين إلى الحكم من أهل تافيلالت وأهل سوس، ولم ينته هذا الصراع إلا بتغلب مولاي محمد بن الشريف على درعة ابتداء من سنة 1051هـ /1641م وضمها بصفة نهائية إلى نفوذ الدولة العلوية الوليدة.

الفصــل الــرابــع

الصراع على السلطة بدرعة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17م

الصراع على السلطلة بدرعة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17م

1ــ وادي درعة على عهد المنصور السعدي

ما كاد السلطان أحمد المنصور السعدي يستقر بمراكش بعد معركة وادي المخازن حتى وجه عنايته للمناطق الجنوبية. فأعاد تنظيم واحات وادي درعة فجدد تحصيناتها العسكرية[1]، وفي إطار هذه العناية بدرعة، كان المنصور يعهد بحكم المنطقة إلى أقربائه أو الخلص من رجال دولته.

والواقع أن هذا الاهتمام بدرعة له ما يبرره في سياسة احمد المنصور، فالمنطقة لموقعها وسط البلاد في مأمن من كل هجوم مباغت من أتراك الجزائر عبر طرق تافيلالت أو من هجوم المسيحيين انطلاقا من سواحل سوس. كما كان المنصور يرغب في توفير ظروف الأمن والاستقرار بالوادي لما يشكله من اهمية اقتصادية بفضل ما عرفته المنطقة من حركة تجارية بين الجنوب المغربي وبلاد السودان. خاصة أن طريق سجلماسة قد عرف أنذاك انهيارا تاما. ولما تشكله بلاد درعة من أهمية في مخطط أحمد المنصور الذي كان يهيء لفتح بلاد السودان والسيطرة على مناجم الذهب بها.

ما كادت فكرة غزو السودان تختمر في ذهن السلطان حتى كانت واحات درعة مهيأة لتقوم بدورها كاملا في الربط بين بلاد السودان ومدينة مراكش.

وبعد فتح بلاد السودان سنة 998هـ /1571م، ازدادت أهمية بلاد درعة، فأصبحت طرقها تعج بالقوافل التجارية من سوس وتافيلالت وشمال المغرب، وتحولت واحة محاميد الغزلان إلى مركز تتجمع فيه القوافل قبل انطلاقها في الصحراء. ونستفيد من إشارات مارمول أن تَارْكَالة (واحة المحاميد) كانت تستقبل حمولات الذهب الواردة من السودان، فيقوم يهود المدينة بتصفية الذهب ووزنه والتأشير عليه وإرساله إلى بني سَمْكِين بواحة لكتاوة، ومن هناك يوجه إلى مدينة مراكش[2].

(1) حول هذه التحصينات التي أقامها السعديون بدرعة انظر :

— Marmol : L'AFRIQUE, Tome III, pp. 12, 13, 14... 17

— G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa — A.M.V. 9, Tome II, p. 50 - 51.

— Andrzy Dzinbinski : L'armée et la flotte du guerre Marocaine à l'époque du Sultan saadien : Hesp. Tamuda — Fascicule unique, 1972, p. 89.

(2) Marmol : op. cité, Tome III, p. 15.

واذا كان مارمول قد سجل ملاحظاته هذه في عهد السلطان عبد الله الغالب[3] فلاشك أن دور واحة المحاميد قد ازداد اهمية على عهد أحمد المنصور. وتدل كل القرائن على أن بلاد درعة قد استفادت بشكل مباشر من هذا النشاط التجاري الذي عرفته المنطقة على عهد السلطان المنصور، فانتعشت الحياة الاقتصادية بفضل ظروف الأمن والاستقرار التي وفرتها الدولة لسكان الوادي، فلم تعد القبائل المترحلة بقادرة على مهاجمة قصور المستقرين، ولا التعرض لقوافل التجار والمسافرين. ولعل ما يؤكد انتعاش الحياة الاقتصادية بدرعة، أن الدولة في عهد المنصور كانت تجبي من الوادي دخلا سنويا يقدر بحوالي مائة وخمسين مثقالا[4] وهو مقدار ضخم من المال لا يمكن جمعه إذا ما اعتمد فقط على الثروات المحلية المحدودة.

أما على الصعيد الإجتماعي فقد ظهرت فئة اجتماعية من الاثرياء بين سكان وادي درعة، وبصفة خاصة من بين سكان واحتي فَزْوَاطَة ولكتاوة، واستقرت طائفة كبيرة منهم ببلاد السودان وصارت تمارس مهام إدارية إلى جانب اعمالها التجارية. ومن أبرز هؤلاء حَمُّو بن عبد الحق الدرعي الذي عينه أحمد المنصور أمينا على اموال الدولة بتينبوكتو، وباقَسُّو الدرعي الذي اسندت إليه عمالة دْيِنْيِي[5]. ونستفيد من «**كتاب تذكرة النسيان**»[6] أن أهل درعة كانوا يشاركون بشكل كبير في الجيش المخزني بتينبوكتو. وقد استمر وجود هذه الطائفة المغربية بمدينة تينبوكتو إلى ما بعد سقوط الدولة السعدية وردحا كبيرا من عهد العلويين حيث كان بعض أفرادها يتولون مهام الباشوية بالمدينة[7]

كان سكان وادي درعة على عهد السلطان المنصور السعدي يجلبون الرقيق والعبيد إلى الجنوب المغربي لاستخدماهم في الأعمال الزراعية والتجارية، ولا يزال حفدة هؤلاء العبيد إلى اليوم في جل قصور درعة حيث اندمجوا كلية في فئة الحراطين. وكثيرا ما كان هؤلاء الإرقاء يخوضون غمار الحروب القبلية إلى جانب مسترقيهم من شيوخ القبائل وأعيانها. وبوفاة أحمد المنصور سنة 1012هـ /160م دخلت واحات وادي درعة مرحلة من الإضطرابات السياسية والاجتماعية انهار معها كل ما بناه المنصور، وذلك كنتيجة لتنافس أبناء السلطان على السلطنة وتدخل بعض رجال التصوف في شؤون الحكم.

2 ــ أطماع المتصوف في السلطة واستيلاؤهم على درعة.

ذهبت هيبة الدولة بوفاة أحمد المنصور، وانشغال ابنائه بالصراع على كرسي الحكم ومحاربة الثوار الذين زاحموهم على ممارسة السلطة في كل جهة من البلاد.

---

(3) زار مارمول الاسباني بلاد درعة ضمن بعثة عسكرية على عهد عبد الله الغالب، وقد تكون هذه الزيارة تمت في السبعينات من القرن العاشر الهجري/16م.

(4) محمد الصغير اليفرني : نزهة الحادي ص.

(5) د. محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ــ الكويت 1982 ــ ص. 386.

(6) يظهر أنه من تأليف محمد صودو وقد نشر الكتاب بباريس سنة 1901 بعناية جورج كولان.

(7) محمد صودو : تذكرة النسيان ابتداء من ص. 15 الى ص. 158.

انطلقت جل الثورات التي عرفها المغرب خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17م من الزوايا وقادها رجال التصوف الذين لم يتورعوا في استبدال السبحة بحزام الرصاص، وتعويض الحائك بدرع الميدان، والنصائح الوعظية بالخطب السياسية والقصائد الحماسية لخوض غمار الحروب.

برز من هؤلاء المتصوفة ثلاثة ينتسبون إلى كبار الزوايا بالجنوب المغربي، وقد كانوا وراء إضعاف نفوذ السعديين بالمناطق الجنوبية، خاصة بتافيلالت ودرعة وسوس والإسراع في أفول نجم الدولة ساعدهم في ذلك انتشار وباء الطاعون في غير ما منطقة من البلاد وتحرش الأجانب بسيادتها.

أ ــ ثورة احمد بن أبي محلي وسيطرته على درعة[8]

أول هؤلاء الثوار المتصوفة هو أبو العباس أحمد بن عبد الله ابن أبي مَحلي، ولد لعائلة علمية ميسورة الحال بوادي الساورة، فلما اشتد عوده بعث به أبوه إلى فاس لتلقي العلم، ثم استهواه التصوف فخرج للبادية باحثا عن شيخ مرب، فوجد ضالته عند الشيخ محمد بن مبارك التستاوتي الزعري[9] ولازمه مدة طويلة فأخذ عنه طريق القوم وحصل له نصيب من الذوق [10] فلما عاد إلى بلاده، بدأ يشيع عن نفسه انه سيكون المهدي المنتظر، والسلطان الذي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا. لم يكن بإمكان ابن أبي محلي أن يكشف عن طموحه السياسي والمنصور السعدي على قيد الحياة، إذ كان المنصور لا يتردد في البطش بكل من يشم فيه رائحة التطلع إلى السلطنة أو غيرها من الأمور التي لها علاقة بالحكم. فلما توفي المنصور ودخل ابناؤه في دوامة الصراع على كرسي الحكم، اندلق ابن أبي محلي يشهر بابناء المنصور، متهما إياهم بالتعاون مع الأجانب ضد مصلحة البلاد خاصة بعد تنازل محمد الشيخ المامون عن مدينة العرائش للإسبان سنة 1019هـ /1610م، فأخذ ابن أبي محلي يندب الناس للجهاد، فمهد لذلك بجملة من المؤلفات ظاهرها الحض على الجهاد ومحاربة أبناء المنصور[11] وباطنها تهيء النفوس لقبول دعوته والإنضمام إليه.

وفي سنة 1019هـ /1610م أعلن ابن ابي محلي الثورة على السعديين بالجنوب، فشكل قوة صغيرة من البربر وشراقة[12] فاقتحم بها واحة تافيلالت واستولى على سجلماسة مقر العامل السعدي بالمنطقة.

---

(8) فيما يخص ترجمة أحمد بن أبي محلي انظر :
ــ اليفرني : نزهة الحادي : ص. 200.
ــ عباس بن ابراهيم : الاعلام ج. 2 ــ ص. 286.
ــ الناصري : الاستقصاء ج. 6 ــ ص. 286.
ــ د. محمد حجي : الزاوية الدلائية ص. 132 ــ 133.

(9) ترجم له الناصري في الاستقصا ج. 6 ــ ص. 27.

(10) عباس بن ابراهيم : الاعلام ج. 2 ــ ص. 286.

(11) فيما يتعلق بكتب ابن ابي محلي انظر د. محمد حجي : الزاوية الدلائية ص. 135.

(12) يطلق لفظ شراكة على خليط من العناصر البشرية التي دخلت الى المغرب من الجزائر .

وبالرغم من القوة الصغيرة التي شكلها ابن أبي محلي، والتي لا يتجاوز عدد أفرادها حوالي اربعمائة نفر مسلحين بالحراب والنبال، فقد استطاع أن يهزم القايد الميرِ، عامل السلطان زيدان السعدي على سجلماسة وتافيلالت[13].

كان لهذا الانتصار صدى عميق في نفوس قبائل الرحل التي كانت تعيش في هوامش واحات تافيلالت، فتسابقت إلى الانضمام لحركته، وقد شجعها على ذلك ما أشاعه ابن أبي محلي في كون الرصاص لا يصيب أحد من أتباعه.

وبعد دخول الثائر الى سجلماسة أظهر العدل وغير المناكر فتواردت عليه الوفود من كل الجهات بالتهنئة[14].

ونتساءل لماذا لم يتوجه ابن أبي محلي من سجلماسة إلى فاس مباشرة حتى يمكنه من هناك تنظيم الحملات الجهادية ضد الإسبان بالعرائش ؟ لماذا فضل التوجه إلى درعة ؟ هل يمكن تفسير ذلك برغبته في السيطرة على قوافل تجارة الذهب التي كانت تصل إلى مراكش عبر وادي درعة ؟ هل كان يقصد بسيطرته على وادي درعة ضرب السعديين في موطنهم الأصلي تمهيدا لتحقيق مشروعه الرامي إلى تنصيب نفسه سلطانا بمراكش ؟ توجه ابن أبي محلي إلى وادي درعة فالتقى بجيش السعديين بقيادة عبد الله الزبدة، فالحق به هزيمة ساحقة وفقد الجيش السلطاني حوالي ثلاثة ءالاف رجل[15]. وبهذا الانتصار الذي لا يقل أهمية عن انتصاره الأول بسجلماسة بدا واضحا ان ابن أبي محلي لم يكن قصده الجهاد كما ظل يدعو إلى ذلك، وانما هدفه الأساسي هو الاستيلاء على السلطة. وتؤكد هزيمة الجيش السلطاني بدرعة حقيقة التراجع السعدي وبداية دخول المنطقة في سلسلة متلاحقة من الأحداث الخطيرة أتت على ما أقامه المنصور السعدي من تحصينات عسكرية وتنظيمات إدارية ساعدت على توفير ظروف الأمن والإستقرار بواحات الوادي من مزجيطة شمالا إلى محاميد الغزلان جنوبا وذلك خلال العقود الأخيرة من القرن العاشر الهجري /16م. وإذا كانت حركة ابن أبي محلي تعتبر بداية النهاية لنفود السعديين بوادي درعة، فإنها في الواقع تعتبر تدشينا لفترة قاسية من تاريخ المنطقة، دامت حوالي ستين سنة، كانت بلاد درعة خلالها لا تكاد تتخلص من ثائر أو طامع في السلطة حتى تفاجأ بآخر.

قضى ابن أبي محلي مدة بوادي درعة كان خلالها يستعد للرحيل إلى مراكش، فدخل في مفاوضات مع قبائل الأطلس الكبير التي كانت تراقب الطريق الرابط بين مراكش والجنوب، ويظهر أنه نجح في اقناع شيوخ قبائل أيت ووزكيت وايت زينب[16] وكَلاوة[17] في الانضمام إلى حركته بعد ان

(13) اليفرني : مصدر سابق ص. 207.

(14) الناصري : الاستقصا، ج. 6 — ص. 30.

(15) الناصري : نفس المرجع نفس الصفحة.

(16) فيما يتعلق بهذه القبائل انظر على الخصوص :
— البيدق الصنهاجي : المقتبس في معرفة الاصحاب. تحقيق عبد الوهاب بنمنصور (1971) ص. 43 — هامش 67.

(17) — Paul Pascon : Le Haouz de Marrakech, Tome 1, p. 299.

انضم اليه القائد عزور بن سعيد الواوزكيتي[18] أحد كبار وجوه المخزن السعدي في عهد أحمد المنصور. ونستفيد من المصادر التاريخية أن ابن أبي محلي قد هزم جيش زيدان السعدي ثم توجه إلى مراكش فنصب نفسه سلطانا على المدينة وذلك في بحر سنة 1021هـ /1612م.

ب : شيخ زاوية زدادغة يثور بتارودانت ويحاول السيطرة على درعة : بعد هزيمة الجيش السعدي على يد ابن أبي محلي فر السلطان زيدان من مراكش إلى أسفي ومنها توجه بحرا إلى أكادير حيث التحق بزاوية زداغة بالأطلس الكبير شمالي مدينة تارودانت، مستصرخا بالشيخ أبي زكرياء يحيى الحاحي[19]. فشكل الشيخ قوة عسكرية من أتباعه ثم عبر الاطلس الكبير عبر تيزنتيست في اتجاه مدينة مراكش، فالتقى بجبل جليز بابن أبي محلي، وبعد معركة قصيرة سقط ابن أبي محلي في جملة من كبار رجاله وذلك في شهر شوال سنة 1022هـ /1613 بعد ما نصب نفسه سلطانا على مراكش بحوالي تسعة عشر شهرا[20] دخل يحيى الحاحي إلى مراكش وطهرها من اتباع الثائر القتيل ثم سلمها للسلطان زيدان السعدي بشروط[21] فعاد الشيخ إلى زاويته بزداغة.

وفي الوقت الذي عاد فيه يحيى الحاحي إلى زداغة كانت بلاد جزولة واداوسملال تضطرم بثورة أبي حسون السملالي[22] المنحدر من متصوفة زاوية تازروالت.

يبدو أن السملالي كان يتتبع عن كثب أعمال يحيى الحاحي بمراكش. ولا شك أن السملالي كان يدرك ما يشكله شيخ زاوية زداغة من خطورة على امارته بسوس، خاصة أن زاوية زداغة لا تقل مجدا ومكانة عن زاوية تزروالت، وأن اتباع الحاحي بسوس لا يقلون عن أتباع السملالي، لذلك حاول هذا الأخير استدراج الحاحي إلى صفه، فرغبه في الانضمام إلى حركته شأنه شأن كل علماء سوس[23].

استفزت دعوة السملالي شيخ زاوية زداغة فكشف القناع واستولى بالقوة على تارودانت ثم أعلن عن ميلاد إمارته، وقد اندلعت بين الثائرين السوسيين معارك تشيب لها النواصي ويهرم لها الرضيع[24].

لم تمض إلا ثلاث سنوات على مقتل ابن أبي محلي بمراكش حتى تمكن زيدان من استعادة سيطرته على وادي درعة، بعد ما تمكن من وضع حد لثورة أحد حفدة أخيه أبي فارس الذي ارسله السملالي للتشويش على السلطان بدرعة[25].

---

(18) قتل القائد عزوز الواوزكيتي صحبة ابن ابي محلي في معركة جليز سنة 1022هـ/1613.

(19) انظر ترجمة عند اليفرني في النزهة ص. 209 وعند المختار السوسي في ايليغ ص. 16.

(20) دخل ابن ابي محلي مراكش في ربيع 1 — سنة 1021 وقتل في شوال سنة 1022.

(21) Robert Ricard : Mazagan et le Maroc sous le règne de Moulay Zidane : d'aprés le «Discurso» de Gonçalocoutinho. Paris 1956, p. 40.

(22) حول ثورة وامارة ابي حسون السملالي انظر :
— محمد المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا — المطبعة الملكية — الرباط 1966.

(23) المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 52 — 53.

(24) اليفرني : نزهة الحادي ص. 212.

(25) Robert Ricard : op cité, p. 40.

وإذا كانت أخبار وادي درعة يكتنفها نوع من الغموض خلال العقد الثالث من القرن الحادي عشر الهجري /17م، فإننا نستفيد من رسالة قاضي تارودانت عيسى بن عبد الرحمان السكتاني[26] إلى يحيى الحاحي أن هذا الأخير قام، بعد سيطرته مباشرة على تارودانت، بتنظيم هجومات خاطفة على وادي درعة تمهيدا للاستيلاء عليه وضمه إلى منطقة نفوذه كما توحي بذلك رسالة السكتاني التي يواخذ فيها شيخ زداغة بما وقع لأهل درعة من النهب والسلب واسترقاق الأحرار وهتك الحرمات[27]. ونعتقد أن العمليات التي كانت تقوم بها قوات يحيى الحاحي بأطراف وادي درعة تدخل في إطار التشويش على زيدان السعدي الذي نقض كل الشروط التي التزم بها للحاحي بعد مقتل ابن ابي محلي[28] وفي نفس الوقت كان يهدف بها إلى مزاحمة أمير تازروالت الذي كان يتطلع بدوره إلى اقتطاع واحات درعة من المناطق الخاضعة لزيدان والسيطرة على ما تبقى من نشاط تجاري بالوادي. ولا شك أن بلاد درعة ظلت تعاني من هجومات يحيى الحاحي الذي لم يجد مكانا أخر ينتقم فيه من السلطان زيدان السعدي إلا هذه المنطقة، ولا نستبعد أن يكون الحاحي قد استمر في ممارسة ضغوطه على وادي درعة منذ استيلائه على تارودانت سنة 1023هـ /1614 إلى حين وفاته سنة 1035هـ /1625م.

وبالرغم من أن يحيى الحاحي لم يتمكن خلال هذه المدة من السيطرة على وادي درعة فإنه من جهة أخرى قد اسهم بشكل كبير في الحاق أضرار كبيرة بسكان المنطقة بعد تخريب اقتصادها نتيجة هذه الهجومات المتكررة وما استتبعها من اضطرابات اجتماعية خاصة وأن زيدان السعدي قد عجز كلية عن توفير ظروف الامن لسكان المنطقة وأصبح وجود الدولة رمزيا في شكل حامية عسكرية قابعة وراء جدران قصبة المخزن بتينزولين.

ج ـــ استيلاء أبي حسون السملالي على وادي درعة.

ما كاد خبر وفاة الحاحي ينتشر في نواحي سوس حتى شكل السملالي جيشا قويا استرد به مدينة تارودانت من الحاحيين ثم أرسل قائد جيشه عبد الله بن سعيد المراكشي الى درعة فهاجم الحامية العسكرية السعدية بقصبة المخزن بتيزولين، وهذا الهجوم يشكل في الحقيقة تحديا خطيرا لسلطة زيدان بدرعة، لذلك نجد السلطان يجند كل طاقاته العسكرية للحفاظ على درعة تحت نفوذه على اعتبار أن هذا الوادي يشكل الطريق التجاري الوحيد الخاضع لسلطة السعديين والمنفذ الأساسي لربط الاتصال ببلاد السودان بعد استيلاء أبي حسون على سوس، وتحويل ايليغ الى أهم مركز تجاري في الجنوب المغربي.

وفي إطار الحفاظ على وادي درعة أرسل زيدان السعدي، القائد الزعروري في أربعمائة من الأندلسيين لتعزيز الحامية العسكرية بقصبة تينزولين[29] وبالرغم من التفوق الكبير الذي كانت تستمتع

---

(26) انظر ترجمته عند المختار السوسي في المعسول ج. 5 ـــ ص. 15 فما بعد.

(27) من رسالة السكتاني الى يحيى الحاحي : النزهة ص. 231.

(28) ذلك ما استفدناه من رسالة يحيى الحاحي الى زيدان السعدي انظر : نزهة الحادي : صحيفة 214.

(29) احمد بن خالد الناصري : الاستقصا ج. 6 ـــ ص. 51.

به فوات سعيد بن عبد الله المراكشي، ووفاة زيدان سنة 1037هـ/1627م فإن الحامية السعدية بالقصبة استماتت في الدفاع، وقاومت ظروف الحصار، لمدة تزيد عن ثلاث سنوات ولم يستطع السملاليون الاستيلاء على القصبة إلا سنة 1039هـ/1629م، وبعد هلاك الكثير من الجانبين. وبسقوط قصبة تيزولين يكون السملالي قد استولى على الوادي من أعلاه الى أسفله حسب رأي المرحوم المختار السوسي[30].

والواقع أن القول بأن السملاليين قد استولوا على الوادي من أعلاه الى أسفله امر مبالغ فيه، ومن الصعب جدا تأكيده في غياب ما يثبت ذلك، خاصة أن قصبة تينزولين لا تمثل الا مركزا واحدا من جملة المراكز التي أقامها السعديون على طول واحات درعة لضبط سكان المنطقة وحماية قصورها من هجومات قبائل الرحل الصحراويين. والسيطرة على قصبة تينزولين لا يعني بالضرورة السيطرة على كل واحات الوادي.

وبالرغم من أن المتتبع لما كتبه المختار السوسي عن وجود السملاليين بدرعة يعتقد أن هؤلاء قد نجحوا بالفعل في السيطرة على الوادي، وأن السكان قد تجاوبوا معهم طيلة مدة سيطرتهم على المنطقة، غير أن الصحيح هو العكس وهذا ما نلاحظه من إشارات ابن مليح في كتابه «**انس الساري والسارب**»[31]. فقد مر هذا الرجل وهو في طريقه الى الحج بوادي درعة سنة 1040هـ/1630م ويعني هذا أن ابن مليح قد عبر الوادي من أعلاه الى أسفله، بعد سقوط قصبة تينزولين بيد القوات السملالية بقليل ومع ذلك فإنه لم يشر ولو أدنى إشارة الى وجود السملاليين بدرعة. ونتساءل : لماذا سكت ابن مليح عن وجود هؤلاء بدرعة ؟ هل يرجع ذلك لموقعه في الوفد الرسمي الذي بعثه الوليد السعدي الى الحج ؟ ثم ما هو موقف السملاليين اذا كانوا فعلا قد أحكموا سيطرتهم على الوادي من مرور الوفد الرسمي التابع لسلطان مراكش بأرض قدموا الكثير من أجل السيطرة عليها والتحكم في مسالكها ؟ ثم لماذا عجزوا عن ردع اللصوص وقطاع الطرق الذين كانوا يهاجمون قوافل التجار بطرق وادي درعة[32]. وقد يدل على عجز السملاليين في بسط سيطرتهم على درعة. ولا نستبعد أن يكون السملاليون قد نجحوا فعلا في بسط نوع من السيطرة على واحتي تينْزولين ومزجيطة، ويهدف السملالي في السيطرة على هاتين الواحتين واضح جدا، إذ كان يرمي الى قطع الطريق على ما تبقى من نشاط تجاري بين وادي درعة ومراكش. ولاشك أن اندفاع السملالي نحو الوادي وما صاحب ذلك من حروب قد أضر بالقبائل الصحراوية التي كانت تستفيد من الحركة التجارية بين درعة وبلاد السودان، لذلك نجد محمد المسوفي، الذي ينتمي الى واحدة من أقوى هذه القبائل الصحراوية، يقوم بعمليات خاطفة على بعض المناطق الخاضعة لأبي حسون السملالي ويسخن كثيرا في جيوشه بالغدر والحرب[33] وهكذا يتضح أن بلاد درعة

---

(30) المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 59..

(31) محمد بن أحمد القيسي : الشهير بابن مليح : انس الساري والسارب : تحقيق وتعليق محمد الفاسي ــ طبع بفاس ضمن سلسلة كتب الرحلات سنة 1968.

(32) ابن مليح : أنس الساري والسارب ص. 27.

(33) محمد المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 86.

عرفت مرحلة من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية الناتجة عن المحاولات المتكررة التي كان يقوم بها الثوار المتصوفة طيلة النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري/17م وقد بدأت تنعم بنوع من الاستقرار النسبي منذ أن تمكن مولاي مَحمد بن الشريف العلوي من انتزاع واحات وادي درعة بالقوة من السملاليين وضمها إلى نفوذ العلويين ابتداء من سنة 1640/1051. إذن فكيف كانت طبيعة الصراع السملالي ـــ العلوي على واحات وادي درعة.

3 ـــ الصراع السملالي ـــ العلوي على وادي درعة.

كانت أسرة الأشراف العلويين تستوطن قصر سجلماسة بواحة تافيلالت. فلما انتثر عقد الدولة السعدية خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م واستقل الثوار ببعض جهات المغرب، بدا للأسرة العلوية أن تخوض غمار السياسة بمباركة مجموعة من القبائل الفيلالية مثل دخيسة وذوي منيع والصباح وغيرها. تزعم عائلة الأشراف مولاي الشريف بن علي، وبويع له بالامارة بسجلماسة سنة 1041هـ/1630م[34]. اصطدم الاشراف بمنافسة أسرة أولاد بني الزبير بقصر تبو عصامت، وقد تطورت المنافسة بين الأسرتين بشكل جعل كل منهما يبحث له عن حليف قوي يدعم موقفها أمام الخصم وينجدها متى دعت الضرورة لذلك، فاحتمى أولاد بني الزبير بالامارة الدلائية[35] واحتمى الأشراف بإمارة السملاليين لما بينهم من سابق معرفة الحمتها وشائج الأرحام[36]

وفي سنة 1043هـ /1633 وقعت مماحكة بين الأشراف وأولاد بني الزبير، فاستنجدت سجلماسة بحليفها السملالي الذي وجدها فرصة سانحة فانطلق بجيشه من دادس في اتجاه واحات تافيلالت إلا أنه فوجيء بالجيش الدلائي الذي هب صاحبه بدوره لنجدة البوعصاميين. وقد توقف الجيشان عن القتال حقنا لدماء المسلمين ورغبة من الإمارتين في تجاوز الدخول في مواجهة مسلحة لا طائل من ورائها.

وبالرغم من أن السملالي قد حضر بجيشه إلى سجلماسة لنجدة الأشراف والحيلولة دون تغلب اولاد بني الزبير وحلفائهم على المنطقة، فقد بدا له أن يعتقل مولاي الشريف بن علي ويحبسه في ايليغ لسنوات عديدة وقد تضاربت آراء المؤرخين حول الأسباب التي جعلت السملالي ينفي مولاي الشريف من تافيلالت. فهل كان السملالي يدرك ما يشكله الأشراف من خطر على وجوده بالمنطقة ؟

وعلى كل ومهما كانت الدوافع التي جعلت السملالي يعتقل مولاي الشريف فإن هذا الحادث قد أتاح الفرصة للأشراف ليعلنوا عن نيتهم في الظهور والاستقلال بسجلماسة وتافيلالت. وفي هذا الإطار قام محمد ابن الشريف بعد اعتقال مولاي الشريف مباشرة، فشكل قوة حربية من القبائل العربية المناوئة

---

(34) ولد الشريف بن علي بسجلماسة حوالي سنة 997 وهو أول من تصدى من العلويين لطلب الامر.

(35) فيما يتعلق بالامارة الدلائية انظر : محمد حجي : الزاوية الدلائية ـــ الرباط 1964.

(36) المختار السوسي : المصدر السابق ص. 88.

لنفوذ السملاليين بتافيلالت مثل دخيسة والصبَّاح وذوي منيع وأولاد غنام وحميان وغيرها[37] وانقض على قصر تبوعصامت وفتك بالشيخ عبد الرحمان والشيخ ملوك والشيخ عبيد وهدم ديارهم بعد أن استصفى أموالهم[38] استفزت هذه العملية التي قام بها محمد بن الشريف، أمير ايليغ فنظم حملة عسكرية قوية إلى تافيلالت وحاصر سجلماسة في محاولة جديدة منه للحد من خطر الأشراف. كما أعاد البوعصاميين إلى قصرهم. إلا أن هذه العملية التي قام بها أمير إيليغ لاستعراض القوة بتافيلالت لم تقنع مولاي محمد بن الشريف بالتراجع عن مشروعه السياسي الذي يهدف إلى الاستقلال بتافيلالت، ولعل ما يؤكد هذا أن سكان واحات تافيلالت قد تجاوبوا كلية مع حركة مولاي محمد بن الشريف وبايعوه بالإمارة بشكل رسمي سنة 1050هـ /1640[39] ثم بدا لمولاي محمد بن الشريف أن يضايق السملاليين بوادي درعة. أدرك أبو حسون السملالي أن محمد بن الشريف يشكل خطرا على وجوده بوادي درعة وعلى إمارته ككل، خاصة أن الشريف بن علي كان يشيع في الناس بأن أبناءه سيتولون أمر المغرب[40] لذلك نجد السملالي يشكل قوة كبيرة ويتوجه بها نحو بلاد درعة لمواجهة مولاي محمد بن الشريف، ولأسباب لا نعرفها أحجم مولاي محمد بن الشريف عن مواجهة أمير إيليغ، واكتفى بارسال وفد للتفاوض باسمه على تحديد نقطة ما ببلاد درعة تكون حدا فاصلا بين مناطق نفوذ اشراف سجلماسة وامارة السملاليين.

كان وفد مولاي محمد بن الشريف يتشكل من بعض أبناء عمومته مثل مولاي عبد الكريم بن الفضيل، ومحمد بن محرز ومولاي عبد الواحد ابن حجاج والسيد عبد السلام بن أحمد بالإضافة إلى بعض الكَرواوة[41].

حاول أبو حسون السملالي إرشاء الوفد فقدم للاشراف بعض ما طلبوه من خيل وبنادق وغيرها إلا أن السيد عبد السلام بن أحمد رفض أن يتقبل أية هبة من أبي حسون وبلغه بأن مهمة الوفد تنحصر في إخباره بأن محمد بن الشريف يطلب منه التخلي عن بلاد درعة وألا يمني نفسه بالعودة إلى سجلماسة لأن الاشراف قد ملكوها بحد السيف. وهكذا بدا واضحا لأبي حسون السملالي أن مناورته ورشوته للوفد الفيلالي لم تنجح وأن الأمور تسير نحو صدام مسلح بين المتنافسين بدرعة لا محالة، ولعل هذا ما يفسر لنا عودة أمير إيليغ المسرعة إلى سوس دون أن يتوصل إلى حل مع أشراف سجلماسة[42].

ومن سوء حظنا أن المصدر الذي استقى منه المرحوم المختار السوسي هذه المعلومات عن المفاوضات بين أمير ايليغ وأمير سجلماسة، لم يحدد لنا تاريخ هذا اللقاء ولا اسم المكان الذي تم فيه بوادي درعة كما لم يحدد لنا موقف أهل درعة من هذه المفاوضات التي كانت تجري فوق بلادهم وحول

(37) محمد المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 141.

(38) محمد المختار السوسي : نفس المرجع ص. 106.

(39) الافراني : نزهة الحادي ص. 301.

(40) الافراني : نفس المرجع ص. 219.

(41) كَراوة فرقة من قبيلة كَراوة الزناتية، وقد كانت بعض فرقها بالواحات الصحراوية. وقد ارتبطت هذه القبيلة بالدولة العلوية وتولى عدد من رجالها بعض المهام الادارية بدرعة كما نلاحظ ذلك من بعض الوثائق المحلية.

(42) محمد المختار السوسي : مرجع سابق ص. 107.

مصيرها. وعلى كل فإننا نعتقد أن هذا اللقاء قد تم في بحر سنة 1050هـ /1640م بدليل أن الوفد كان يتكلم باسم مولاي محمد بن الشريف الذي بويع بالإمارة في نفس السنة. وسواء صَحَّ هذا الإفتراض أم لا، فإننا نجد أن مولاي محمد بن الشريف قد عمد إلى تحريك الثورة بوادي درعة ضد أبي حسون بمجرد عودة الوفد إلى سجلماسة. وفي هذا الصدد تذكر بعض المقيدات التاريخية التي اعتمدها المرحوم المختار السوسي في كتابه عن إيليغ أن الفتنة وقعت سنة 1050هـ /1640م بين أهل الساحل، ويعني بهم جيش السملالي، وأهل مزجيطة، «فهلك من أهل الساحل مائتان وسبعة وثمانون رجلا، ونهب لهم مائة وعشرون من الخيل ونيف وستون من البغال واربعمائة بندقية، وقتل فيهم القائد محمد بن منصور الملولي وابن عمه ابن موسى ابن لحسين، وابن عمه يوسف بن محمد»[43]».

وبالرغم من اننا لا نتوفر على ما يساعدنا في تحديد دور مولاي محمد ابن الشريف في هذه الإنتفاضة ضد السملاليين بوادي درعة فلا نستبعد أن يكون هذا الحادث قد وقع بايعاز منه في محاولة لزعزعة وضعية أبي حسون وإضعافه في معارك هامشية، ولعل ما يدعم هذا الرأي أن السملالي قد وجد نفسه في سنة 1051هـ /1641م مضطرا الى حشد قوة كبيرة قادها بنفسه للقضاء على فتنة مزجيطة وذلك ما كان مولاي محمد بن الشريف يعمل من أجله، وفي هذا الاطار نزل أمير ايليغ بواحة مزجيطة في عاشر رجب الفرد سنة 1051هـ /1641م وهدم عدد من القصور وكسر تَرْكَانَ الْمَالْ[44] ودخل في مواجهة مع سكان مزجيطة وحلفائهم من أهل إمَغْرَانْ، وفي السابع من شهر، رمضان في نفس السنة بعث بقوة تحت قيادة قائد يعرف بِعَدِّي إلى تملكَالت (تامنوكَالت). إلا أن أهل مزجيطة وحلفائهم هزموا قوة عَدِّي وقتلوا منها حوالي «تسعمائة رجل وأكلوا منهم مالا كثير»[45] وقد انتهت هذه المعارك بمقتل حوالي ثلاثة ءالاف فارس من أهل سوس فانكسر أمير ايليغ ورجع إلى سوس.

وهكذا يتضح نجاح خطة مولاي محمد بن الشريف في إحداث التوتر بوادي درعة ضد الوجود السملالي لإضعاف قوة هذا الأخير قبل المواجهة المباشرة بين الإمارتين المتنافستين.

لم يمض إلا وقت قصير على هزيمة أبي حسون وانكسار قوته من وادي درعة حتى أمكن لمولاي محمد بن الشريف أن يدفع بقواته إلى بلاد درعة للإجلاب على ما تبقى من فلول قوات أبي حسون. ونستفيد من بعض الإشارات التاريخية التي التقطناها من المصادر التاريخية العامة أن معارك ضارية وقعت بوادي درعة بين أمير ايليغ ومولاي محمد بن الشريف[46] وقد انتهت هذه المعارك بانتصار مولاي محمد بن الشريف وانخراط بلاد درعة في سلك إمارته.

---

(43) محمد المختار السوسي : مرجع سابق ص. 117.

(44) لايزال قصر وساقية المال قائمين الى اليوم في المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة انظر خريطة المغرب. 1/100.000 ورقة اكَدر.

(45) المختار السوسي : المرجع السابق ص. 118.

(46) انظر على سبيل المثال لا الحصر : الافراني : نزهة الحادي — ص. 301 — الناصري : الاستقصا ج. 9 — ص. 16.

ومن سوء حظنا أن هذه المصادر التاريخية العامة لم تسعفنا بتفاصيل هذه المعارك التي يظهر انها استغرقت عقدا من الزمن[47] ولا تذكر أي شيء عن المواقع التي جرت فيها هذه المعارك الضارية اللهم إلا ما كان من بعض الأماكن التي ورد ذكرها عرضا في رسالتين تم تبادلهما بين مولاي محمد بن الشريف وابي حسون السملالي، ويعود تاريخها إلى سنة 1061هـ /1650م. والرسالتان نشرهما محمد المختار السوسي في كتاب **ايليغ قديما وحديثا**[48] وأعاد نشرهما الاستاذ عبد الوهاب بنمنصور في العدد الأول من **مجلة الوثائق** التي تصدرها مديرية الوثائق الملكية[49] ومما ورد في رسالة مولاي محمد بن الشريف إلى أبي حسون «ولا زائد بعد حمد لله الواحد القهار.. إلا ما قدره في علمكم يقين الخبر والعيان واعتقده عقول العوام والأعيان أن البستان الأخضر وادي درعة ماؤها كما قيل ينشىء الشحناء والشر والمجاعة كما ينبت كل واد ذيبه ويراعه، بذلنا المجهود في صونه وتحصينه من كل ثنية وترعة. فطرقنا أن خَرِّيتكم نحوها الحارث بن مرة زخرف لأخلادكم الأياب والخلود فيها ثاني مرة فخشينا أن تقودكم أرسان الأوهام، بعد مروقكم منها مروق السهام فالمؤمن لا يلدغ من حجر واحد مرتين وانتم لدغتم مرارا من الشقوق والغيران إلى أن عافتكم الخنافس والطوامر والفيران.. كم جر عليكم الدهر فيها من ذيول الهزائم. ومن الشنيع الشهير وقعة زاكَورة بعد فضيحة أبي دهير[50] كاد ولدكم أن يجعل للمنية في مخالب القبضة لولا جواده الشراد اقتحم به غصون الغيضة»[51] ومن خلال هذه الرسالة أمكننا استنتاج جملة من الملاحظات :

1 ــ أن محمد بن الشريف قد استولى على وادي درعة بحد السيف، وعمل جهده في ضبطه وتحصينه وحمايته من كل هجوم محتمل يقوم به أبي حسون السملالي.

2 ــ أن معارك ضارية قد وقعت بين الجيشين المتحاربين وأهمها معركتي زاكَورة وبودهير. ولعل ما يؤكد ضراوة هذه المعارك أن سكان وادي درعة لا يزالون يرددون مثلا مشهورا «الَّا يَدِّيكْ لَارُّو والكْلَاب يَتْهَارُّو» ولا يزال قصر أرُّو قائما إلى اليوم في أحد تلال بودهير في المنطقة الشمالية الشرقية لواحة تزناتة، ويكشف لنا هذا المثل عن عنف المعارك بين أمير ايليغ وامير سجلماسة إلى درجة أن أشلاء القتلى ظلت عرضة للكلاب.

3 ــ أن بعض أنصار أبي حسون السملالي بدرعة قد هونوا عليه أمر استعادة المنطقة إلى نفوذه وأن رسالة محمد بن الشريف كانت واضحة في تحذير أمير ايليغ من التفكير مرة أخرى في استعادة درعة إلى حكمه. ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه بالحاح هو كالتالي : ما هو موقف سكان وادي درعة من هذه الأحداث الخطيرة التي عرفتها بلادهم ؟ خاصة أن حروبا في مثل هذا الحجم قد تكون لها عواقب وخيمة على اقتصاديات المنطقة.

---

(47) نستفيد ذلك من رسالة جوابية بعث بها أمير إيليغ الى محمد بن الشريف بتاريخ 1081هـ/1651م وفيها يلتزم بالتخلي عن درعة (انظر كتاب ايليغ ص. 131.)

(48) محمد المختار السوسي : المرجع السابق من ص. 123 ــ إلى ص. 131.

(49) العدد الأول من الوثائق سنة 1976 صص. 403 ــ 410.

(50) زاكورة وبودهير اسمان لمرتفعات معروفة بواحة ترناتة انظر خريطة المغرب 1/100.000 ورقة زاكورة.

(51) المختار السوسي : المرجع السابق ص. 124 ــ 125.

من الصعب جدا التعرف على الموقف الحقيقي لسكان درعة من هذه الحروب لكون هذه الفترة تعتبر من الفترات التي يكتنفها الغموض لقلة المصادر، إلا أن هذا لم يمنعنا من محاولة تحديد موقف بعض الفئات الاجتماعية مثل أصحاب الزوايا، لكون هؤلاء يرون أنفسهم اكثر ميلا وارتباطا لمولاي محمد بن الشريف. وفي هذا الصدد أفادنا صاحب الدرر المرصعة[52] أن الشيخ سيدي حسين بن ناصر صاحب زاوية أغلان[53] قد تدخل لحماية أحد خدام مولاي محمد بن الشريف عندما اضطر إلى اللجوء إلى زاويته[54] اما سيدي صالح بن ابراهيم بواحة لكتاوة فقد كان يعلن تأييده لوجود الاشراف العلويين بدرعة، وكان يحض اتباعه وابناءه على احترامهم والإهتمام بشؤونهم وشؤون ولاتهم إذا ما حلوا بلكتاوة[55] وفي إطار هذه العلاقة بين الزواية الصالحية والدولة العلوية اقطع مولاي اسماعيل أبناء هذه الزاوية أراضي شاسعة بواحة لكتاوة.

واذا استثنينا أصحاب الزوايا الذين أعلنوا وقوفهم إلى جانب مولاي محمد بن الشريف، وأهل مزجيطة الذين الحقوا هزائم ساحقة بجيش أبي حسون السملالي في بحر سنتي 1050 — 1051هـ /1641م فإننا نعتقد أن سكان واحتي ترناتة وفزواطة، كانوا متذبذبين في مواقفهم، وكانوا يميلون إلى السملالي، خاصة بعض الفئات السوسية التي كانت تحاول الحفاظ على مصالحها التجارية المرتبطة بأبي حسون السملالي الذي كان آنذاك يتحكم في الطرق التجارية بين الجنوب المغربي وبلاد السودان. ونستفيد من الرسالة الجوابية التي أرسلها السملالي إلى مولاي محمد بن الشريف أن هذا الأخير قد واجه معارضة بعض أعيان وادي درعة، فعمل على استدراج جماعة منهم إلى سجلماسة ثم فتك بهم[56] وبالقضاء على هذه المعارضة يكون مولاي محمد بن الشريف قد أحكم قبضته على واحات وادي درعة وأن المنطقة أصبحت منذ ذلك الحين تشكل جزءا لا يتجزأ من الإمارة العلوية الوليدة.

كانت لهذه الأحداث السياسية التي عرفتها بلاد درعة طيلة النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17م عواقب وخيمة على الأوضاع الإقتصادية والاجتماعية. ولا مشاحة إذا قلنا بأن هذه الحقبة القاتمة من تاريخ وادي درعة ظلت تلقي بظلالها على المنطقة طيلة عهد العلويين ويمكن حصر هذه النتائج الخطيرة في المجالين التاليين :

1 — تدهور الوضعية الإقتصادية

سبق لنا أن الحنا إلى الجهود الكبيرة التي بذلها سلاطين الدولة السعدية عامة واحمد المنصور بصفة خاصة، لتوفير ظروف الأمن والإستقرار لسكان واحات وادي درعة، فاستعادت المنطقة نشاطها

---

(52) سبق لنا أن عرفنا بهذا الكتاب وبمؤلفه في المدخل.

(53) محمد المكي بن موسى : الدرر المرصعة مخطوط خاص ص. 131.

(54) كانت زاوية أغلان بترناتة هي مقر الناصريين قبل انتقالهم الى تامكًروت : انظر : احمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري الجزء الأول ص.

(55) أحمد بن صالح لكتاوي : تجديد المراسيم البالية : صص. 28 — 29 — 31.

(56) محمد المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 130.

الاقتصادي، وانتعشت الأعمال الزراعية من جديد، وتحولت واحات المحاميد ولكتاوة وفزواطة إلى أكبر محطة تجارية بعد فتح السودان، تلتقي فيها القوافل التجارية من كل الآفاق. وقد ذكر مارمول أثناء زيارته لهذه الواحات في السبعينات من القرن العاشر الهجري /16م أنه شاهد مجموعة من التجار الأوربيين بأسواق الوادي، حيث كانوا يشترون بعض المواد المطلوبة في أسواق أوربا مثل الصوف والنيلة والتمور وغيرها[57] وهذا يدل على ما أصبحت تتمتع به درعة من شهرة اقتصادية على عهد الأشراف السعديين. إلا أن هذه الحركة الإقتصادية النشيطة تعرضت للانتكاس على إثر الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة بعد وفاة أحمد المنصور السعدي، فقد كان قواد الحملات العسكرية التي كانت تتوجه إلى درعة، سواء من سوس إبان عهد يحيى الحاحي وابي حسون السملالي، أو من تافيلالت إبان استبداد ابن أبي محلي أو في عهد مولاي محمد الشريف، كثيرا ما كانوا يعمدون إلى تهديم السواقي، والقضاء على المنتوجات الزراعية، فكانوا ينسفون الزروع ويقطعون أشجار النخيل لإرهاب السكان وارغامهم على الخضوع[58].

أدى تكرار مثل هذه الأعمال مع كل هجوم على واحات درعة إلى تخريب الاقتصاد وتدمير الثروات الزراعية الاساسية بشكل لم تستطع معه واحات درعة استرجاع ما عرفته من رخاء اقتصادي على عهد أحمد المنصور السعدي.

ونستفيد من كتب المناقب وكتب الرِّحلات الحجية أن اللصوص وقطاع الطرق استغلوا ظروف الصراع على السلطة فكانوا ينهبون القوافل التجارية ويسلبون أصحابها[59].

2 ـــ اضطراب الاوضاع الاجتماعية

عرفت بلاد درعة على اثر أحداث النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري /17م مرحلة من التحولات الاجتماعية الواسعة ولإدراك عمق هذه التحولات لابد من الإشارة بأن بلاد درعة ظلت خاضعة طيلة ثلاثة قرون تقريبا (ومن القرن السابع الهجري /13م إلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري /16م) لقبيلة أولاد حسين المعقلية[60]. وقد كانت هذه القبائل تفرض الإتاوات على سكان قصور درعة، كما كانت تفرض حمايتها المأجورة على القوافل التجارية التي كانت تجوب الطرق الصحراوية بين درعة، وتافيلالت، وبين درعة وسوس. ومن جهة أخرى مارست هذه القبيلة ضغوطا شديدة على القبائل الصنهاجية التي كانت تجوب بقطعانها الهوامش الجنوبية والغربية لبلاد درعة، فاضطر بعض

(57) Marmol : L'Afrique, Tome III, p. 15.

(58) ـــ المختار السوسي : إيليغ قديما وحديثا ص. 117.
ـــ اليفرني : نزهة الحادي ص. 281.

(59) ـــ ابن مليح السراج : انس الساري والسارب : ص. 27.
ـــ محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة ص. 10.

(60) انظر الفصل الذي خصصناه للهجرات العربية الى وادي درعة.

الصنهاجيين الى التراجع نحو الفيافي الصحراوية والبعض الاخر نحو أعالي الجبال[61] في حين اندمج العاجزون عن الظعن في قبائل بني معقل، شأنهم في ذلك شأن فلول القبائل المنحلة في كل زمان ومكان. فلما قامت الدولة السعدية كبحت جماح قبائل بني معقل بصفة عامة، وأرغمت قبيلة أولاد حسين القوية على الخضوع لظل الدولة، ونفوذها، ثم بدا لسلاطين هذه الدولة استخدام رجال هذه القبيلة في الجيش الرسمي للدولة[62]، الأمر الذي أدى إلى استنزاف طاقتها البشرية في الحروب التي خاضتها الدولة في غير ما جهة من البلاد، فكان من الطبيعي والحالة هذه، أن تهاجر أعداد كبيرة من أفراد قبيلة أولاد حسين في اتجاه المناطق الشمالية صحبة السلاطين السعديين والاستقرار في مناطق أخرى تبعا لما تفرضه خدمة الدولة.

واذا كانت هذه الهجرة المكثفة لقبيلة أولاد حسين نحو الشمال قد أضعف من وجود وجبروت هذه القبيلة بدرعة، فإن الأحداث السياسية الخطيرة التي عرفتها واحات درعة بعد وفاة المنصور السعدي، وطيلة حوالي خمسين سنة، قد استنفدت ما تبقى من قوة لهذه القبيلة بدرعة، فاندثرت البطون القديمة المعروفة، وتحول فلها إلى الاستقرار، كما ظهرت على أنقاضها بطون، ما لبثت أن تحولت مع مرور الأيام إلى قبائل جديدة استطاعت أن تحافظ على الخصائص الاجتماعية لقبائل بني معقل، وقد تكاثر أعداد هذه القبائل الجديدة بمن انحاش إليها من رحل الصحراء من فلول المعاقلة، ثم تكتلت بعد ذلك في تجمعات اهمها تجمع قبائل الروحة[63] وتجمع قبائل أولاد يحيى[64]. وتدل كل القرائن على أن هذه القبائل جميعها كانت تمارس الرعي في هوامش بلاد درعة، وتتزود بحاجاتها من واحات المنطقة. وقد كانت هذه القبائل تستغل ظروف الفتن التي كانت تندلع بين سكان القصور مع كل فراغ سلطوي فتزحف على شكل مجموعات مسلحة وتستولي على المنتوجات الزراعية، فتغتصب القصور من سكانها.

وهكذا يمكن أن نستخلص مما سبق أن بلاد درعة كانت مسرحا لصراعات سياسية حادة بين رجال التصوف من أهل سوس وتافيلالت، الذين ظلوا يتغالبون على المنطقة نصف قرن من الزمن، حتى تمكن مولاي محمد بن الشريف من التغلب على أبي حسون السملالي واخضاع درعة لنفوذ الإمارة العلوية.

---

(61) F. de la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental : Hesperis XI, 1930 - p. 66.

(62) اليفرني : نزهة الحادي ص. 177 — 178.
ذلك ما يمكن استخلاصه من كلام اليفرني في النزهة (ص. 177 فما بعد، حيث ذكر أن قبيلة أولاد حسين قد استقرت بعض عناصرها بناحية فاس بعد قيام الدولة السعدية.

(63) من هذه التجمعات المعقلية الجديدة قبائل الروحة وينحصر مجال انتشارها مابين فزواطة جنوبا وتينزولين شمالا.

(64) تنتشر قبائل أولاد يحيى بشكل خاص بواحتي تينزولين ومزجيطة بالاضافة الى بعض قصورها بترناتة.
أما فيما يتعلق ببقايا بني معقل في واحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان فانظر :
P. AZAM : Sédentaires et nomades dans le Sud Marocain — C. H. E. M. Paris, 1946, pp. 57-58.

ومن جهة أخرى فإن هذه الأحداث قد خربت اقتصاد المنطقة وأتت على ما تبقى من نفوذ وقوة لقبيلة أولاد حسين المعقلية الأمر الذي ساعد على ظهور تجمعات قبلية جديدة، إلا أن أهم ما تولد عن أحداث النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري /17م هو ظهور القبائل الصنهاجية كقوة قبلية فاعلة رشحتها الأحداث السياسية وما نتج عنها من فراغ سلطوي، وتدهور اقتصادي، واضطرابات اجتماعية لتقوم بدور فعال في توجيه مسار الاحداث التاريخية، ليس بوادي درعة فحسب وانما في كل الواحات الجنوبية الممتدة ما بين الاطلس الكبير والمناطق الصحراوية وذلك طيلة عهد العلويين في اطار اتحادية أيت عطا.

الفصل الخامس

اتحادية أيت عطّا وعلاقتها بالمخزن

تشكيل اتحادية أيت عطا
وعلاقتها بالمخزن

انتهينا إلى القول في الفصل السابق بأن قبائل الرحل التي كانت تجوب المراعي الصحراوية والجبلية المنتشرة في هوامش بلاد درعة قد استغلت أحداث النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17م وما نتج عنها من انهيار اقتصادي واضطراب اجتماعي وانشغال سلاطين الدولة العلوية بمشاكل المناطق الشمالية فاندفعت في عمليات غزو واسعة لمناطق الواحات. وتدل كل المعطيات التاريخية على أن هذه القبائل المترحلة، كانت في جلها من القبائل الصنهاجية الصحراوية التي تضررت كثيرا من انهيار الأوضاع الاقتصادية بالواحات واضطراب النشاط التجاري في الطرق الصحراوية، فكان على هذه القبائل ان تبحث عن وسيلة أخرى لتجاوز أزمة نقص المواد التموينية، فتطلعت إلى الانكفاء على الواحات بدرعة وغيرها واغتصاب المزروعات والسيطرة على القصور بالقوة.

وحتى يكون بإمكان القبائل الصنهاجية أن تحافظ على قوتها وتماسكها أمام كل خطر محتمل فقد تجمعت في تكتل قبلي قوي تولد عنه ميلاد اتحادية أيت عطا[1] التي حلت محل قبيلة أولاد حسين المعقلية بوادي درعة والمناطق المجاورة له. ولا مشاحة اذا قلنا أن هذه الاتحادية قد ظلت ومنذ القرن الحادي عشر الهجري /17م وإلى غاية القرن الرابع عشر الهجري /20م عنصر تشغيب على الدولة العلوية بواحات وادي درعة ومصدر تعب ومشقة لسكان قصور بالمنطقة.

1 ـــ البدايات الأولى لتجميع القبائل الصنهاجية الصحراوية

بالرغم من أننا نجهل البدايات الأولى التي أحست فيها القبائل الصنهاجية الصحراوية بالرغبة في إعادة توحيد نفسها[2]في تحالف قبلي واسع، فإننا نرجح أن يكون مثل هذا الاحساس قد خامر ذهنية شيوخ القبائل الصنهاجية الصحراوية في العقود الأخيرة من القرن التاسع الهجري /15م أو في العقود الأولى من القرن 10هـ /16م. إذ يمكن القول بأن هذه الحقبة قد عرفت أوج الأزمة الاقتصادية التي ضربت التجارة الصحراوية منذ ظهور الاوربيين في السواحل الإفريقية ونجاحهم في تحويل التجارة الإفريقية نحو الساحل الاطلسي. وقد ألحق هذا التحول للمحاور التجارية نحو البحر وما نتج عنه من تراجع خطير في الحركة التجارية بالطرق الصحراوية أضرار كبيرة بقبائل الرحل بالمناطق الصحراوية عامة، وبالقبائل

(1) فيما يخص الظروف التي تشكلت فيها اتحادية أيت عطا انظر
G. Spillmann : les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Draa, Rabat, 1936.

(2) عرفت القبائل الصنهاجية خلال تاريخها الطويل عدة محاولات لتوحيد صفوفها انظر روض القرطاس لابن أبي زرع ص.

الصنهاجية بصفة خاصة، ذلك أن القبائل الصنهاجية، كانت ومنذ قرون تمارس حماية القوافل التجارية بين الجنوب المغربي وإفريقيا السوداء، كما كان رجال هذه القبائل متخصصين في إرشاد قوافل التجار في الطرق والمسالك الصحراوية الصعبة[3] لمعرفتهم التامة بمواطن الماء وأقرب الطرق. وتدل كل القرائن التاريخية على أن قوافل التجار كانت تزود قبائل الرحل بما هم في حاجة إليه من أقوات ومواد تموينية، كما كنت قبائل الرحل تبيع ما فضل لديها من أصواف وجلود ومواد دهنية وغيرها.

ولا نبالغ في شيء إذا قلنا بأن تراجع التجارة الصحراوية والذي عرف أوجه في العقود الاخيرة من القرن التاسع الهجري /15م وفي مطلع القرن العاشر الهجري /16م، كان وراء الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي عرفها الجنوب المغربي من تافيلالت شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا خلال هذه الفترة، فكانت القبائل الصحراوية تتغالب على الواحات، وتضايق المستقرين في القصور وتزاحمهم على المنتوجات التي تتسم أصلا بالقلة والهزال، ولم ينته هذا الوضع الشاذ إلا بقيام الدولة السعدية.

أدرك سلاطين الدولة السعدية هذا الدور الحيوي الذي كانت تقوم به التجارة الصحراوية في استقرار الأوضاع القبلية بالجنوب المغربي، فعملوا منذ وقت مبكر على إحياء الطرق التجارية الصحراوية وإعادة الحركة إليها، وذلك بتوفير ظروف الأمن لقوافل التجار وخاصة في منطقتي درعة وسوس، وفي هذا الاطار اهتم محمد الشيخ السعدي (923 ـــ 964 هـ /1518 ـــ 1557) بالوضع القبلي في الجنوب فأحدث سلسلة من القصبات بدرعة[4] كان الهدف من ورائها حماية الطرق التجارية ووضع حد لما كانت تقوم به قبائل الرحل من هجوم على واحات وادي درعة انطلاقا من المناطق الصحراوية. وفي إطار التخطيط لفتح بلاد السودان عزز السلطان أحمد المنصور السعدي (ت 1012هـ /1603) ظروف الأمن بالمحاور التجارية في الجنوب المغربي وشحن كل القصبات الممتدة على طول واد درعة بالمفرزات العسكرية.

ويبدو واضحا أن سياسة السعديين في المناطق الجنوبية قد أعادت للطرق التجارية حيويتها وبالتالي ساهمت في استقرار الأوضاع القبلية. ولا شك أن هذه السياسة وما صاحبها من حزم وشدة مع القبائل، جعل القبائل الصنهاجية تستكين إلى سلطة الدولة والإقبال على حياتها الخاصة.

2 ـــ دور دادا عطا في تشكيل اتحادية أيت عطا

نستشف من بعض إشارات مارمول الإسباني أن بعض القبائل الصحراوية كانت خلال النصف الثاني من القرن العاشر الهجري /16م تشكل تجمعا قبليا قويا في منطقة طاطا بالجنوب المغربي[5] وقد استدل بعض الباحثين بهذه الإشارة كإرهاص أول لظهور اتحادية ايت عطا[6].

(3) ابن بطوطة : الرحلة ج. 2 ـــ ص. 773. تحقيق علي المنتصر الكتاني ـــ طبع بيروت ـــ 1975.

(4) Marmol : L'AFRIQUE, Tome III, pp. 16-17

(5) MARMOL : L'AFRIQUE, Tome III, p. 23.

(6) – G. Spillmann : les Ait Atta du Sahara p. 33.
– F. de la Chapelle : Esquisse d'une histoire du Sahara, p. 88.

ويبدو أن القبائل الصنهاجية الصحراوية قد وجدت في دادا عطا الرجل القادر على تجميع القبائل الصنهاجية الصحراوية في تكتل قبلي، فألقت إليه بزمام أمرها، واتخذت إسمه كرمز لهذه الاتحادية القوية.

هذا الرجل الذي تحول إلى جد لكل قبائل أيت عطا لانكاد نعرف عنه أي شيء اللهم إلا ما ورد عنه في كتابات جورج سبلمان. وما كتبه هذا الضابط الفرنسي المتخصص في شؤون قبائل أيت عطا لا يختلف في جوهره ومضمونه عن الرواية الشفوية التي لا تزال إلى اليوم متداولة عند المسنين وغيرهم من قبائل أيت عطا[7]. يعتقد جورج سبلمان، أن دادا عطا قد يكون مجرد مريد مخلص لسيدي عبد الله بن حساين المغاري[8] كما لم يستبعد أن يكون واحدا من أقربائه[9] وإذا صح أنه من أقرباء عبد الله بن حساين المغاري فهذا يعني أن الرجل شريف ادريسي شأنه في ذلك شأن العائلة المغاربة[10].

وإذا كان دَادًّا عطا قد أخذ فعلا عن عبد الله حساين المتوفى سنة 976هـ /1567م، فإنه قد يكون عاش في العقود الأخيرة من القرن العاشر الهجري /16م، وقد يمتد به العمر إلى العقود الأولى من القرن الحادي عشر الهجري /16م، مما يعني أنه كان معاصرا للسلطان أحمد المنصور السعدي، وشاهد الازدهار الاقتصادي الذي عرفته بلاد درعة على عهد هذا السلطان، ثم شاهد ما آلت إليه أمور درعة من انهيار اقتصادي واضطراب اجتماعي نتيجة تهافت بعض رجال التصوف وأصحاب الزوايا من تافيلالت وسوس على الحكم ورغبتهم في السيطرة على وادي درعة.

تؤكد الرواية الشفوية المتداولة إلى اليوم عند قبائل أيت عَطًا، أن دَادًّا عطا قُبِرَ بفم تاقَّات، بالمدخل الجنوبي لواحة فزواطة بدرعة. وإذا ما ثبت فعلا أن دَادًّا عطًّا قد عرف النور في مكان مَّا من الواحات الجنوبية بدرعة، ولظروف أمنية ودفاعية محضة لم تعرف اتحادية أيت عطا انطلاقتها الحقيقية إلا من جبل صاغرو، وليس من المستبعد في شيء أن تكون رغبة القبائل الصنهاجية الصحراوية في تحقيق الالتحام بالقبائل الصنهاجية الجبلية هي التي جعلت الصنهاجيين الصحراويين يتجهون نحو جبل صاغرو.

والبرغم من الغموض الذي يكتنف حياة دَادًّا اعَطًّا، فإن هذا لم يمنعنا من اثارة بعض الاسئلة حول الدوافع الحقيقية التي جعلت دَادًّا اعَطًّا أو من تقمص شخصيته يتجند لتجميع القبائل الصنهاجية الصحراوية ويوحدها في تكتل قبلي قوي. فهل كان يفكر في تأسيس دولة قوية انطلاقا من الجنوب، تقوم

(7) لا يزال الشيوخ المسنون وغيرهم من قبائل أيت عطا يعتقدون اعتقادا راسخا أن الجد الأعلى لأيت عطا هو دادا عطا مع العلم أن قبائل أيت عطا يعودون في الواقع الى أصول مختلفة ككل القبائل في الجنوب.

(8) ترجمته عند ابن عسكر في دوحة الناشر ص. 104.

(9) G. Spillmann : les Ait Atta du Sahara p. 68.

(10) شكك غير واحد في النسبة الادريسية للعائلة المغاربية انظر مثلا :

— Paul Pascon : Le Haouz de Marrakech, Tome I, p. 264

— Michaux-Bellaire : Conférences sur les Confréries religieuses au Maroc, A.M., Volume 28, p. 33.

على اكتاف القبائل الصنهاجية على شاكلة الدولة المرابطية ؟ هل كان يرمي إلى تأسيس إمارة محلية شأنه في ذلك شأن متصوفة سوس وتافيلالت ؟ وإذا كان هذا الشخص قد قام بشيء من هذا فلماذا تجاهلته الكتابات التاريخية التي تناولت اخبار درعة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري /17م ؟ وإذا قلنا بنسبه الادريسي فهل يمكن إدراج محاولته الفاشلة ضمن كل المحاولات التي قام بها الأشراف الادارسة في فترات مختلفة من تاريخ المغرب للاستيلاء على السلطة ؟ وإذا كانت فكرة الاستيلاء على السلطة قد راودت ذهنية دادا عطا، فما هي العوامل التي جعلت مشروعه السياسي يبوء بالفشل[11].

ليس من السهل بمكان الاجابة عن مثل هذه الاسئلة مادمنا لا نتوفر على أية وثيقة مكتوبة تساعدنا في تحديد هوية دادا عطا وبالتالي تسمح لنا بالكشف عن حقيقة أمره، ولعل ما يزيد في غموض ماضيه أن الفقهاء الذين كانوا يشتغلون بتدريس أخبار أهل الصلاح وغيرهم بوادي درعة لم يشيروا إليه لا من قريب ولا من بعيد، بل إن هؤلاء الفقهاء كان لهم موقف معاد من قبائل أيت عطا على العموم، لكون هذه القبائل إشتهرت خلال تاريخها بالعنف وممارسة اللصوصية بالواحات وعلى طول الطرق التجارية[12] ورغم هذا التعتيم الذي أحاط شخصية دادا عطا فإن الشيء الأكيد أن الرجل قد يكون شخصا تاريخيا وأنه قام بدور فعال في تجميع القبائل الصنهاجية وتوحيدها في تكتل قبلي قوي بمباركة العائلة المغاربة، التي يبدو أنها كانت على صلة قوية بالقبائل الصنهاجية منذ العصور الوسطى[13]. وقد تعززت هذه الصلة بين المغاربيين والقبائل الصنهاجية بعد تشكيل اتحادية أيت عطا، ولازال حفدة عبد الله بن حساين المنتشرين في مجموعة من الزوايا بوادي درعة، وتازرين، وتافيلالت وتودغة[14]، يتمتعون باحترام كبير لا مزيد عليه من لدن قبائل أيت عطا، ولا تزال هذه الاخيرة تخصص، والى اليوم، قدرا معينا من كل منتوج زراعي، ورأسا عن كل مائة رأس من الإبل والاغنام وغيرها للعائلة المغاربة[15].

3 ــ مجالات انتشار قبائل ايت عطا بعد تشكيل الاتحادية.

بالرغم من أن القبائل الصنهاجية الصحراوية تعتبر العمود الفقري لاتحادية أيت عطا، فإن حجم هذه الاتحادية قد تضخم بشكل كبير بمن انحاش إليها من فلول قبائل بني معقل المنحلة وفتات القبائل الصحراوية الأخرى[16].

(11) لا تنسى أن الجنوب المغربي كان ومنذ قرون منطلقا لكل المحاولات التي تستهدف الاستيلاء على السلطة واخرها حركة بلقاسم النكادي من تافيلالت (المعسول ج. 16 ابتداء من صحيفة 263) وحركة الهيبة من الصحراء المغربية.

(12) انظر على سبيل المثال لا الحصر :
ــ احمد بن داوود المشنوكي (أحوزي) : هداية الملك العلام ــ مخطوط خ ع ق 190 ص. 51.
ــ محمد بن عبد السلام الناصري : الرحلة الكبرى : مخطوط خ ع د 2327 ص. 13.

(13) د. ابراهيم الشيخلي : آل امغار... مجلة البحث العلمي ع 33 1984 ــ ص. 167 ــ 180.

(14) G. Spillmann : les Ait Atta du Sahara p. 69, 70, 71...

(15) — Paul Pascon : Le Haouz de Marrakech, Tome I, p. 276, note 61.

(16) ذ. التقي العلوي : اتحادية أيت عطا : مجلة البحث العلمي عدد 23 ــ 1974 ص. 116.

إستغلت قبائل أيت عطا انشغال السلطانيين مولاي رشيد ومولاي إسماعيل في تدعيم ركائز الدولة العلوية الوليدة بالمنطقة الشمالية، طيلة النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري /17م وردحا كبيرا من القرن الثاني عشر الهجري /18م، فانطلقت في عمليات واسعة لتركيز وجودها في مجال من الارض يمتد من تافيلالت شرقا إلى حوض وادي درعة غربا. ومن السفوح الجنوبية لجبال الاطلس الكبير شمالا إلى التخوم الصحراوية جنوبا، ويعتبر جبل صاغرو القلب النابض لما أصبح يعرف بعد هذه الفترة ببلاد أيت عطا[17] وقد كانت قبائل أيت عطا تصل في أقصى انتشارها إلى الأطلس المتوسط شمالا وإلى موريطانيا جنوبا والى منطقة تواث وتيدكلت شرقا وإلى جبل باني غربا[18] ونستشف من إحدى رسائل الحسن اليوسي الى السلطان مولاي اسماعيل، ومن كتب الرِّحلات الحجية التي كتبت في نهاية القرن الحادي عشر الهجري /17م. أن قبائل أيت عطا كانت تقوم بقطع الطرق ومهاجمة القصور بواحات وادي درعة وتافيلالت. فقد ورد في رسالة اليوسي «وأما قطع الطريق فإنما كان في أيت عطا.. وما تركوا ذلك قط، ولا دخلوا في الطاعة دخول غيرهم، وإنما يخادعون تارة على التمر وتارة على الزرع وسراياهم سارية في كل أرض من ها هنا (الاطلس المتوسط إلى درعة)[19] وهي نفس الملاحظة التي ذكرها أحمد بن داوود الهشتوكي[20] أثناء سفره من تغازى الى تامكروت سنة 1096هـ /1684م على نية السفر إلى الحج صحبة الشيخ أحمد بن ناصر[21] وإن دلت هذه الاشارات على شيء فإنما تدل على أن قبائل أيت عطا كانت معروفة بالتشغيب على الدولة العلوية منذ القرن الحادي عشر الهجري /17م، كما كانت وراء كل الاضطرابات الاجتماعية والسياسية في المناطق الجنوبية. وقد لاحظ اليوسي أن سكان القصور في الواحات الجنوبية، كانوا يضطرون الى عقد بعض الاتفاقيات الصلحية مع قبائل أيت عطا إلى أَمَدٍ مَّا، عندما يتأكد لهؤلاء السكان عجز خدام السلطان عن حمايتهم[22] وتدل كل القرائن على أن سكان وادي درعة وخاصة أصحاب الزوايا والحراطنة قد ذاقوا الأمرين من هجومات قبائل الرحل عامة وقبائل أيت عطا بصفة خاصة، وقد كانت هذه الهجومات تزداد حِدَّة إبان الازمات السياسية والاجتماعية التي كانت تطرأ مع كل فراغ سلطوي بالمنطقة، وقد كانت فترات الفراغ السلطوي تظهر في العادة مع كل اضطراب سياسي على صعيد السلطة المركزية بعد وفاة السلطان ودخول أبنائه أو إخوته أو هما معا في صراع على السلطة. ونلاحظ أن هذه الهجومات كانت تشتد على السكان مع ظهور قبائل أيت عطا المفاجىء في هوامش الواحات. ويمكن القول بأن قبائل أيت عطا كانت تهاجم واحات وادي درعة بصفة دورية مع كل فراغ سلطوي منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري /18م وطيلة القرن الثالث عشر الهجري /19م وردحا من القرن الرابع عشر الهجري /20م.

---

(17) G. Spillmann : Les Ait Atta du Sahara p. 36.

(18) ذ. التقي العلوي : المرجع السابق ص. 117.

(19) ابو علي اليوسي : رسائل اليوسي : تحقيق فاطمة خليل القبلي ج. 1 — ص. 212.

(20) انظر ترجمته عند محمد المكي بن موسى : الدرر المرصعة ص. 20 — 39.

(21) أحمد بن داوود الهشتوكي : قري العجلان مخطوط الخزانة العامة — الرباط — حرف ق 147 ص. 51.

(22) أبو علي اليوسي : المرجع السابق نفس الصفحة.

4 ـــ طبيعة العلاقة بين قبائل أيت عطا والمخزن خلال عهد السلطان مولاي اسماعيل (1082 ـــ 1139هـ /1672 ـــ 1727)

أ ـــ أسس العلاقة بين أيت عطا والمخزن

تتفق جل المصادر التي اهتمت بتاريخ قبائل أيت عطا، أن هذه القبائل بعد تشكيل الاتحادية العطاوية، كانت تهيمن عليها الروح الاستقلالية الجامحة وتذكرنا هذه الروح في بعض جوانبها بقبائل بني معقل التي كانت تسيطر على الواحات الجنوبية طيلة ثلاثة قرون وزيادة.

والواقع أن إغراق قبائل أيت عطا ومبالغتهم في ابراز هذه الروح الاستقلالية، ينسجم والطبيعة البدوية للقبائل الصنهاجية الصحراوية التي كانت تعتبر العمود الفقري في اتحادية أيت عطا. كما تتجاوب هذه الروح مع الوسط الطبيعي القاحل التي تشكلت فيه هذه الاتحادية، وتعكس إلى حد كبير طبيعة الروح القبيلة التي طبعت تاريخ الجنوب المغربي منذ أواسط القرن الثاني الهجري /14م. ولا يمكن بأي حال من الاحوال إدراك مغزى تصرفات قبائل أيت عطا سواء في علاقتهم بسكان الواحات أو في علاقتهم مع المخزن وعماله بالجنوب إلا في ضوء الروح الاستقلالية التي تعتبر من المكونات الاساسية للشخصية العطاوية[23].

تدل كل المعطيات التاريخية على أن اتحادية أيت عطا قد استكملت عناصر تشكيلها في الوقت الذي بدأت تلوح فيه بوادر تأسيس الامارة العلوية بتافيلالت، أي بمنطقة تجاور مباشرة المجال الذي تشكلت فيه اتحادية أيت عطا. ومعلوم أن مجموعة من القبائل الصحراوية قد بايعت محمد بن الشريف على قتال السملاليين بتافيلالت. ومن القبائل التي بايعت مولاي محمد بن الشريف قبيلة الصباح ودخيسة وذوي منيع والمعاضيد وحميان وغنام وغيرها[24] ولم تحتفظ لنا كتب التاريخ بأي اسم لاحدى قبائل أيت عطا الصنهاجية من بين مجموع القبائل التي ساعدت مولاي محمد بن الشريف. فهل يعني هذا أن قبائل أيت عطا، قد وقفت موقفا معاديا من حركة مولاي محمد بن الشريف؛ أم ان هذا الأخير هو الذي أعرض عن إشراك هذه القبائل تجنبا لما قد يحدث من نعرة بين أيت عطّا وإخوانهم في الاطلس المتوسط ؟ خاصة أن الامارة السملالية، تعتمد على القبائل الصنهاجية بالاطلس المتوسط. وبالرغم من هذا الغموض الذي يطبع العلاقة بين قبائل أيت عطا والامارة العلوية في هذه المرحلة المبكرة من تأسيسها، فإننا نعتقد أن قبائل أيت عطا قد بايعت مولاي محمد بن الشريف بعد ما نجح في تأكيد سيطرته على واحات وادي درعة وتافيلالت والمناطق المجاورة لها، ذلك أن مصلحة هذه القبائل تقتضي إعلان ولائها للأمير المتغلب على هذه المناطق، لضمان تزودها بالحاجات الضرورية من اسواق درعة وتافيلالت.

(23) حول مكونات الشخصية العطارية انظر :

G. Spillmann : Les Ait Atta du Sahara, op. cité, pp. 31-44.

(24) محمد المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 141.

ترتكز بيعة قبائل أيت عطّا على الولاء الشخصي للسلطان باعتباره شريفا ينتمي لآل البيت وإلى ما يرمز إليه من «بَرَكَةٍ» وهذا شيء ينسجم مع الاعتقادات القبلية في مناطق الواحات، التي لا تتصور على حد تعبير شائع أن السلطان لا ينصر إلا بعد أن يجمع بردنه «بَرَكَة» أربعين وليا «من اولياء الله الصالحين»[25] وانطلاقا من مثل هذا التصور كانت قبائل أيت عطا تناصر كل شريف من البيت العلوي الحاكم اذا ما تصدى للأمر بالجنوب، الامر الذي جعل سلاطين الدولة العلوية يقودون بأنفسهم الحَرْكات العسكرية إلى الجنوب لردع قبائل ايت عطّا ووضع حدٍّ للخارجين عليهم من البيت الحاكم نفسه.

بـ : المواجهات الأولى بين أيت عطا ومولاي اسماعيل

في الوقت الذي كان فيه مولاي محمد بن الشريف يتطلع إلى توسيع مجال نفوذه، والتفكير في الانتقال بمشروعه السياسي من مرحلة إمارة صغيرة انحصر نفوذها بواحات تافيلالت ووادي درعة إلى مرحلة الدولة الوطنية ليشمل ظل دولته كل جهات المغرب فوجىء بثورة أخيه مولاي رشيد الذي نجم بمنطقة أنكَاد من المغرب الشرقي، وقد قتل مولاي محمد بن الشريف في أول مواجهة بين جيشه وجيش أخيه سنة 1075هـ /1665م، فانتقلت قيادة الإمارة إلى مولاي رشيد الذي أظهر عزماً أكيدا على إعادة الوحدة إلى البلاد والقضاء على كل الامارات الجهوية التي توزعت حكم المغرب. وقد اكتفى سكان واحات وادي درعة بتجديد ولائهم وبيعتهم للأمير الجديد. وقبل أن ينطلق الأمير الجديد في عملياته الحربية لمنازلة زعماء الإمارات الجهوية بالزاوية الدلائية ومراكش وإيليغ، عين أخاه مولاي اسماعيل خليفة له على مكناس وكل المناطق الشمالية، وعين ابن أخيه أحمد بن محرز خليفة له على سجلماسة والصحراء وبلاد تواث ودرعة[26] ورغم أن أمر هذين التعيين يبدو عاديا جدا، لكون مؤسسي الدول والإمارات كانوا يعتمدون بالاساس على أقربائهم، إلا أنهما بالنسبة للإمارة العلوية قد كانا وراء ظهور مشكل ولاية العهد، وقد كان هذا المشكل وراء جملة من الإضطرابات السياسية التي كانت تطرأ على صعيد السلطة المركزية بعد وفاة كل سلطان. وهكذا ما كاد خبر وفاة السلطان مولاي رشيد بمراكش سنة 1082هـ /1672م ينتشر بين المغاربة، حتى ظهرت نوادر الصراع على السلطنة تلوح في الافق بين خليفتيه في الشمال والجنوب، فقد بايع سكان مدينة فاس ومكناس مولاي اسماعيل وتخلفت عن بيعته كل المناطق الجنوبية ومدينة مراكش بايعاز من أحمد بن محرز الذي أعلن خروجه عن السلطان، فاحتل مراكش مطالبا بالأمر وداعيا إلى نفسه على حد تعبير الناصري[27] ورغم أن مولاي اسماعيل قد نَجَح في استرجاع مراكش من أحمد بن محرز، فان هذا الأخير قد تراجع الى الجنوب وظل يشاغب على السلطان طيلة أربعة عشر سنة،

---

(25) كانت هذه العقلية سائدة في جل المجتمعات القبلية بالمغرب، فقد ذكر الناصري في الاستقصا (ج. 8 — ص. 196) أن السلطان مولاي سليمان لما وقع اسيرا في ايدي قبائل حيان لم يعرفوه فاضطر أن يحلف لهم بانه هو السلطان، فلما تأكدوا من شخصه تسابقوا الى تقبيل يده والتمسح باطراف ثيابه تبركا به.

(26) محمد بن الطيب القادري : نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ج. 2 — ص. 201 — تحقيق د. محمد حجي، وذ. التوفيق احمد — الرباط — 1984.

(27) احمد بن خالد الناصري : الاستقصا، ج. 7 — 46.

وقد كاتب ابن محرز قبائل أيت عطا وطلب منهم العون على عمه[28] وبعد المواجهة العنيفة بين السلطان مولاي اسماعيل وقبائل أيت عطا بجبل صاغرو سنة 1087هـ /1678م تراجعت قبائل أيت عطا إلى الفيافي الصحراوية وبالرغم من أن الجيش السلطاني قد انتصر بصعوبة على قبائل أيت عطا، فإن هذه الاخيرة قد خرجت من هذه المواجهة الأولى مع الجيش المخزني وهي متأكدة من نفسها كقوة قبلية فاعلة في المناطق الجنوبية، فعرفت الاتحادية نموا مطردا حيث انضمت اليها فلول قبائل بني معقل المنحلة. وقد استفادت قبائل أيت عطا من تشغيب ابن محرز على السلطان بسوس ودرعة، فكانت تقوم بمهاجمة القوافل التجارية في الطرق الصحراوية، وتهدد المستقرين بقصور الواحات بدرعة وتافيلالت. ولم يستطع السلطان مولاي اسماعيل وضع حد للتهديدات التي تشكلها قبائل أيت عطا بالنسبة لسكان قصور وادي درعة إلا مع مطلع القرت 12هـ /18م.

ظل السلطان مولاي اسماعيل خلال العقدين الأخيرين من القرن 11هـ/17م منشغلا بمشاكل الثوار والخارجين على سلطة الدولة، فلم يحدث أي تغيير اداري في المناطق الجنوبية، فكان يكتفي بتعيين خليفة له بسجلماسة (كان خليفته من ابنائه) ومنها تتوجه الأوامر والنواهي إلى توات وتيكورارين ودرعة[29] وهذا يعني أن بلاد درعة، وبعد عودتها إلى حظيرة الدولة بعد مقتل أحمد بن محرز، كانت تخضع إداريا إلى عمالة سجلماسة. ويبدو أن عامل سجلماسة في مطلع القرن 12هـ / نهاية القرن 17م، مولاي المامون بن اسماعيل، قد عجز عن ضبط حركة قبائل الرحل من بقايا بني معقل وأيت عطا فكان السلطان يشد عضده بمجموعة من «المَحْلّات»[30] العسكرية المتنقلة. ورغم أن الهدف من هذه المحلات هو تدعيم نفوذ عامل المناطق الصحراوية، فإنها في الواقع تعتبر مظهرا من مظاهر الوجود الفعلي للدولة، وتأكيد ممارسة سلطتها على سكان هذه المناطق، وخاصة قبائل الرحل التي كانت تقطع الطريق على القوافل التجارية وتهاجم المستقرين بواحات وادي درعة وجبل باني. ومن المثير للانتباه أن تعدد هده المحلات العسكرية التي كانت تجوب مناطق الواحات خاصة والجنوب عامة، وعزم قوادها في تنفيذ الأوامر السلطانية رغبة أو رهبة، لم يفد في جعل حد لهجومات قبائل أيت عطا وقبائل الرحل الصحراويين على قصور واحات درعة، كما أن قوادها لم يفلحوا في حماية قوافل التجار من هجومات اللصوص وقطاع الطرق[31] ولعل ما يدعم هذا أن اهل درعة قد اضطروا إلى التعاقد مع قبائل أيت عطا لحماية قوافلهم التجارية. فقد عثرنا على اتفاقتين تكفيلتين يعود تاريخ عقدها إلى سنة 1107هـ /1695 أي في أوج عهد السلطان مولاي اسماعيل، وقد تم عقدهما بين شيوخ بعض قبائل ابت عطا وأولاد سيدي محمد بن

---

(28) المشرفي : الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية. ص. 106 ــ مخطوط الخزانة العامة الرباط ــ حرف د. 1463.

(29) مولاي اسماعيل : الى ولدي المامون ص. 15.

والكتيب عبارة عن مجموعة من الرسائل الاسماعيلية التي كان السلطان يوجهها الى ابنه مولاي المامون عامل سجلماسة. وقد نشرها ذ. بنمنصور سنة 1967.

(30) «مَحلّات» جمع «محلة» والكلمة تطلق في عرف المغاربة على الارساليات العسكرية التي كان السلاطين يوجهونها الى الجهات المضطربة لاخضاعها.

(31) مولاي اسماعيل : الى ولدي المامون : صص. 12 ــ 18 ــ 21.

يوسف الملياني «اين كانوا وتعينوا في زاوية تكَرسيفت (بفزواطة) وزاوية أفرا (بمزجيطة)»[32] وتعتبر هاتان الاتفاقيتان أقدم اتفاق معروف لدينا لحد الان بين قبائل أيت عطا وسكان وادي درعة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على عجز مولاي المامون خليفة السلطان على المناطق الجنوبية، في ضبط حركة قبل أيت عطا وحماية سكان قصور درعة من ضغوط هذه القبائل المتزايدة.

كان السلطان يواخد ولده على إغفال أمر درعة، كما كان يعنفه على الخلود إلى الراحة وعدم الإقبال على «الأمور التي تخلد الذكر وتكشف عن الهمة العالية للرجال»[33] وإن كان لنا من شيء نستنتجه من رسائل السلطان إلى ابنه فهو اتشغال السلطان بأمر القبائل المترحلة في الجنوب عامة ووادي درعة خاصة، فاقتنع في نهاية الأمر أنه لامجال لفرض حرمة الدولة وهيبتها إلا باستحداث عمالة مستقلة بوادي درعة وفصل هذه المنطقة إداريا عن عمالة سجلماسة.

ج — استحداث عمالة درعة وضبط شؤون قبائلها.

بعد ما تمكن السلطان بصفة تقريبية من التغلب على ما اعترضه من مشاكل سياسية بالمناطق الشمالية وجه أنظاره إلى المناطق الجنوبية، فأعاد تنظيمها وأحدث عمالة مستقلة بوادي درعة كان مقرها بقصبة أغلان الباشا بواحة ترناتة[34] وقد كان عامل وادي درعة يتلقى الأوامر مباشرة من السلطان. جاء إحداث هذه العمالة بعد ما لاحظ السلطان عدم جدوى المحلات العسكرية المتنقلة في ضبط حركة قبائل الرحل والتصدي لهجومات قبائل أيت عطا على سكان القصور بالواحات. وقد كانت هذه القبائل تقض مضاجع السكان، ويذكر اليوسي أن لصوص أيت عطا كانوا «ياتون بالستين والسبعين كلهم رماة يقفزون في الهواء ويتضاعفون بالرعب.. فينهبون كل ليلة دوارا»[35]. وفي اطار توفير ظروف الأمن والاستقرار لسكان وادي درعة عين السلطان ابنه مولاي عبد الملك عاملا على وادي درعة سنة 1111هـ /1699م فأنزله بقصبتها ورتب معه ثلاثة آلاف من الخيل[36] ينطوي إختيار واحة ترناتة كمقر لعامل المخزن بوادي درعة على أهمية خاصة، ذلك أن هذه الواحة تتوسط واحات وادي درعة وتنفتح مباشرة على بلاد تافيلالت عبر ثنية تافيلالت، وبإمكان المتحكم في منافذ هذه الواحة أن يراقب حركة قبائل أيت عطا التي كانت تهاجم قصور الوادي من الجنوب والشرق. بالاضافة إلى التحكم في الطرق التجارية التي تربط بين سوس ودرعة من جهة، وبين هذه الاخيرة والمناطق الصحراوية وتافيلالت من جهة ثانية.

---

(32) سنتعرض بالتحليل لهاتين الاتفاقيتين في فصل لاحق من هذا البحث.

(33) مولاي اسماعيل : الى ولدي المامون ص. 15.

(34) كان مقر حاكم ترناتة بقصر بني زولي قبل أن ينتقل في عهد مولاي الشريف الى قصبة اغلان ليعود مرة أخرى الى بني صولي في نهاية القرن الماضي.

(35) ابو علي اليوسي : رسائل اليوسي : مرجع سابق ج. 1 — ص. 212.

(36) أحمد بن خالد الناصري : الاستقصا ج. 7 — ص. 89.

لم تمض إلا ثلاث سنوات على استقرار مولاي عبد الملك كعامل لأبيه على وادي درعة حتى فوجىء بثورة أخيه مولاي أبي النصر فكانت الهزيمة على مولاي عبد الملك وقتل أخاه المولى عبد الرحمان فاستولى ابو النصر على درعة ونواحيها[37] ففر مولاي عبد الملك إلى جبل زرهون مستحرما بضريح مولاي ادريس الأكبر[38] خوفا على نفسه من بطش السلطان الذي كان لا يغفر لعماله، حتى ولو كانوا من أبنائه التهاون مع الثوار والخارجين عن الدولة.

عين السلطان إبنه مولاي الشريف على رأس عمالة درعة وجهزه بحملة عسكرية قوية لاسترجاع الوادي من أخيه أبي النصر. وقد نشب قتال عنيف بين الاميرين اضطر معه أبو النصر إلى اللجوء إلى داخل قصبة أغلان والاحتماء بأسوارها صحبة اربعمائة من أصحابه فحاصره مولاي الشريف، ولم تنته الحرب إلا بتدخل شيخ زاوية تامكَروت سيدي احمد بن ناصر الخليفة[39] الذي يظهر أنه نجح في اقناع مولاي الشريف بالسماح لأخيه مولاي أبي النصر بمغادرة قصبة اغلان الباشا والرحيل عن وادي درعة[40].

ورغم أننا لا نتوفر على ما يساعدنا في تحديد الكيفية التي تم بها الاتفاق بين الشيخ أحمد بن ناصر ومولاي الشريف حول السماح لأخيه أبي النصر في مغادرة قصبة اغلان والرحيل عن وادي درعة، فإننا نعتقد أن السلطان مولاي اسماعيل لم يكن راضيا عن الطريقة التي عالج بها مولاي الشريف مشكل ثورة أبي النصر. ولا شك أن السلطان كان ينتظر من مولاي الشريف أن يأسر مولاي أبا النصر لتطبيق حكم المخالف عليه، شأنه في ذلك شأن أخيه مولاي محمد العالم[41] لذلك نجد السلطان يعزل مولاي الشريف عن عمالة وادي درعة. ولعل ما يؤكد مصداق تصور السلطان أن الأوضاع القبلية المضطربة في المناطق الجنوبية، كانت تشجع الثائرين من إخوان السلطان وأبنائه على الثورة[42]. وهكذا وبعد أن قضى مولاي أبو النصر مدة طويلة مختفيا في المناطق الصحراوية، ظهر من جديد في سوس وأعلن الثورة ضد أبيه، وقد ظل يشوش على السلطان بهذه المناطق إلى أن تمكنت قبيلة أولاد دليم من القضاء على ثورته وقتله سنة 1124هـ /1712م[43].

(37) المشرفي : الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية ص. 109.

(38) احمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ص. 90.

(39) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة. مخطوط خاص ص. 52.

(40) التبس الامر على صاحب الدرر فاعتقد أن الامير عبد الملك هو الذي كان محاصرا لأبي النصر في حين ان مولاي الشريف بن اسماعيل هو الذي تمكن من القضاء على ثورة أبي النصر وطرده من وادي درعة.

(41) ثار مولاي محمد العالم بن اسماعيل على أبيه بسوس سنة 1113هـ/1701م فزحف على مراكش واحتلها، فكلف السلطان ابنه زيدان الذي نجح في القضاء على ثورة محمد العالم والقاء القبض عليه، فطبق السلطان عليه حكم المخالف بقطع بعض أطرافه — انظر الاستقصا ج. 7 — ص. 91.

(42) نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر التفاف قبائل أيت عطا بتافيلالت حول اخوة مولاي اسماعيل المولى الحران وهاشم واحمد الذين خرجوا بالمناطق الصحراوية للمطالبة بالملك. انظر الاستقصا ج. 7 — ص 60.

(43) احمد بن خالد الناصري : الاستقصا ج. 7 — ص. 96.

د : الولاية الثانية لمولاي الشريف على درعة والقضاء علي ثورة القبائل بواحة محاميد الغزلان.

تظل أخبار وادي ردعة غائبة عنا منذ هزيمة مولاي أبي النصر سنة 1114هـ /1702م إلى حدود سنة 1124هـ /1712م، ولا نتمكن من التعرف على من كان يتولى حكم المنطقة خلال هذه المدة خاصة أن السلطان قد عزل إبنه مولاي الشريف عن ولاية وادي درعة كما سبق أن رأينا. ونستشف من بعض الاشارات الواردة في كتاب **رحلة الوافد**(44) للحاج محمد بن إبراهيم الزرهوني صاحب زاوية تاسفت بالأطلس الكبير الذي زار وادي درعة في مطلع العقد الثالث من القرن 12هـ /18م، أن قبائل الرحل بوادي درعة قد عادت إلى شنشنتها القديمة، في مهاجمة قصور المستقرين والتلصص على المسافرين وقوافل التجار في أهم المنافذ بواحات وادي درعة(45) وإن دلت هذه الاشارة على شيء فإنما تدل على أن هذه القبائل قد استغلت الفراغ السلطوي الذي عرفته المنطقة بعد عزل مولاي الشريف فاسترجعت نشاطها القديم وعادت إلى مهاجمة المنتوجات الزراعية وقصور المستقرين داخل الواحات والتلصص على المسافرين وقوافل التجار في الطرق التي تربط بين وادي درعة وافريقيا السوداء وتافيلالت.

وفي سنة 1124هـ /1712 سرح السلطان الكاتب الخياط بن منصور من السجن وعينه على رأس عمالة وادي ردعة، ولأسباب نجهلها لحد الان أمر السلطان بقتل الخياط بن منصور وأخيه في السنة الموالية(46) ثم عين إبنه مولاي الشريف للمدة الثانية على رأس عمالة وادي درعة، و قد ظل هذ الأمير على رأس هذه العمالة إلى حين وفاته سنة 1139هـ /1726م(47) وبالرغم من أن مولاي الشريف قد نجح إلى حد كبير في ضبط حركة قبائل الرحل في الواحات المحاذية للمناطق الصحراوية،وتوفير ظروف الأمن والاستقرار لسكان القصور، فإن فترة ولايته لا تخلو من بعض الأحداث الخطيرة من ذلك مثلا عصيان القبائل بواحة محاميد الغزلان سنة 1135هـ /1722م، فقد كادت ثورة هذه القبائل أن تعصف بالأمن بوادي درعة كله، الأمر الذي جعل مولاي الشريف يستنجد بالجيش السلطاني لوضع حد لهذا العصيان الخطير.

ومن سوء حظنا أن المصادر التاريخية المغربية وكذا كتب المناقب المحلية لم تتعرض إطلاقا لأحداث محاميد الغزلان التي تطلبت الكثير من الدولة العلوية لوضع حد لها. ويبقى مصدرنا الوحيد عن هذه الأحداث هو ما كتبه الأسير الانجليزي طوماس بيلو. THOMAS PELLOW(48) الذي كان يعمل ضمن فرق المدفيعية في الجيش الإسماعيلي.

وحسب معلومات طوماس بيلو، فإن أحداث محاميد الغزلان قد اندلعت عندما أرسل السلطان مولاي اسماعيل مجموعة من عبيده إلى وادي درعة لجمع الضرائب، ولا شك أن هؤلاء المكلفين المخزنيين

---

(44) عنوان الكتاب كاملا : «رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد» دوّن فيه الكاتب أخبار والده لما اضطر الى الهجرة من زاويته خوفا على نفسه من هجوم جيش السلطان على الزاوية وقد دوّن الزرهوني أسباب توتر الجو بين والده والسلطان والكتاب لايزال مخطوطا.

(45) الحاج محمد بن ابراهيم الزرهوني : رحلة الوافد مخطوط — مكناس — ص. 127.

(46) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa, p. 63.

(47) انظر ترجمة مولاي الشريف في الدرر المرصعة ص. 139 — 140.

(48) MAgali Morsy : La relation de Thomas Pellow : Une lecture du Maroc au 18e s., Paris, 1989.

قد تشددوا مع سكان واحة محاميد الغزلان، وبالغوا في استحلاب أموالهم، الأمر الذي أدى إلى اصطدام مسلح بين السكان وعبيد مولاي اسماعيل انتهى بمقتل حوالي ستة عشر من العبيد، ثم أعلن السكان العصيان وبدأوا يستعدون للمقاومة، بتجميع الأقوات وشراء الأسلحة لمواجهة أي هجوم تقوم به القوات السلطانية[49] وقد أثار هذا العصيان غضب السلطان، خاصة وأن القوات المحلية التي تحت إمرة مولاي الشريف قد عجزت عن ردع هذا العصيان، فشكل السلطان قوة عسكرية ضخمة من الفرسان وفرق المشاة والمدفعية قدرها بيلو بحوالي ستة وعشرين ألف مقاتل. ولعل ما يؤكده خطورة أحداث محاميد الغزلان أن السلطان قد أمر قواد الجيش أن يغذوا السير إلى درعة، فقطعوا المسافة بين مكناس ووادي درعة في أقل من عشرين يوما. كما أصدر أوامره لشيوخ القبائل التي على جانبي الطريق التي سافر عبرها الجيش، أن يمدوا القوات السلطانية بما هي في حاجة إليه من مؤون وأقوات.

انطلق الجيش من مكناس عبر طريق الأطلس المتوسط فمر بتادلة وعين اسردون ثم حل بمنطقة سيدي رحال بالقرب من مراكش ثم اخترق الأطلس الكبير عبر تيزي تيشكا،ويؤكد بيلو أن عبد الصادق الكَلاوي عامل السلطان على الأطلس الكبير قام بضيافة الجيش. ثم التحق بورزازات فأكَدز وبعده واحة تينزولين، وبعد تسعة عشر يوماً من السير الجاد، حل الجيش السلطاني بواحة ترناتة (قصبة أغلان) حيث مقر مولاي الشريف عامل السلطان على وادي درعة، فانضم إليه الجيش المحلي الذي حشده مولاي الشريف، وقد قدره بيلو بحوالي ستة عشر ألف مقاتل.

وبعد يومين من التوقف للاستراحة، شكل خلالها مولاي الشريف قيادة موحدة للجيش تحت إمرته، استأنف العسكر السلطاني سيره نحو واحة محاميد الغزلان، فمر بتاكَمادارت ثم فم الخنق (فم تَاقَّاتْ نْلَكْتَاوتْ) ليحل بقصر بني صبيح بواحة لكتاوة. ويظهر أن الجيش قد بات بقصر بني صبيح، ذلك أن طوماس بيلو قد ذكر أن الجيش قد وصل إلى مشارف محاميد الغزلان، بعد ثلاث وعشرين يوما على مغادرته لمدينة مكناس[50] حيث وصل مساء ذلك اليوم إلى المحاميد، وقد استقبل المتمردون الجيش المخزني بوابل من الرصاص. وقد فقد الجيش المخزني حوالي ستمائة قتيل من بينهم حوالي ثمانين من الفرقة التي بنتمي إليها بيلو[51].

والسؤال الذي يطرح نفسه بالحاح : كيف استطاعت قبائل المحاميد أن تحشد هذه القوة الكبيرة، التي قدرها بيلو بحوالي ثمانية عشر ألف مقاتل لمواجهة العسكر المخزني ؟[52] ومن هي القبائل المشاركة في هذه الاحداث ؟ هل هي من قبائل أيت عطا ؟ أم هي بقايا قبائل بني معقل ؟ أم هناك تحالف بين أيت عطا والمعاقلة لمواجهة القوات المخزنية ؟ ولماذا سكتت المصادر التاريخية المغربية عن هذه الاحداث ؟

---

(49) Magali Morsy : La relation de Thomas Pellow, p. 118.

(50) Magali Morsy : La relation de Thomas Pellow, p. 119.

(51) Lui-même : même page.

(52) Lui-même : même page.

وعلى كل سواء كانت هذه القبائل من أيت عطا أو من قبائل بني معقل او منهما معا، فإن الشيء الأكيد أن القبائل المتمردة قد أدركت خطورة ما أقدمت عليه بقتلها جباة الضرائب الذين أرسلهم السلطان إلى درعة، لذلك فقد حاولت تجنيد قبائل القصور إلى جانبها وكانت تغير على مزروعات وقصور القبائل التي تمتنع في الانضمام إلى صفوفها.

نستفيد من إحدى إشارات طوماس بيلو أن مولاي الشريف قد ألزم سكان واحات وادي درعة بتموين الجيش المخزني فكان الناس ينقلون الخبز والمواد التموينية كل يوم بالتداول إلى واحة محاميد الغزلان.

كان عدد المقاتلين المتمردين داخل أسوار محاميد الغزلان يقدر بحوالي ثمانية عشر ألف مقاتل، مسلحين تسليحا خفيفا وجيدا، ويتمتعون بقدرة قتالية عالية ويتمتعون بكفاءة كبيرة في إصابة الهدف وصد كل هجوم كانت تقوم به القوات المخزنية، ولعل ما يؤكد هذا الرأي أن المواجهة بين المتمردين والقوات المخزنية قد استغرقت حوالي سبعة عشر شهرا، فقد الجيش المخزني خلالها ما يزيد على خمسة عشر الف قتيل. وعدد كبير من الجرحى والمعطوبين.

ورغم الفارق الكبير بين المتمردين والقوات المخزنية، فإن هذه الأخيرة لم تستطع التغلب على المتمردين إلا بعد نفاد ذخيرتهم من البارود والرصاص، وإشراف المخزون من الأقوات والمؤنة على النفاد. ورغم هذه الوضعية الحرجة التي آلت إليها أحوال المتمردين داخل قصر محاميد الغزلان، فإنهم استماتوا في الدفاع عن القصر، حتى اضطر الجيش المخزني إلى الاعتماد على المدفعية والمتفجرات الباطنية[53] لتهديم الأسوار الثلاثة التي كانت تحيط بالقصر، وبعد اقتحام القصر على المتمردين، سيقت البقية منهم إلى مولاي الشريف الذي أمر بقطع رؤوسهم. وقد اضطر الجيش إلى البقاء في عين المكان عدة أسابيع اخرى لمعالجة المعطوبين والجرحى من أفراده. وقبل الرحيل أمر مولاي الشريف باشغال النار فيما تبقى من آثار المتمردين بقصر محاميد الغزلان[54] كانت لهذه الاحداث الخطيرة التي عرفتها واحات وادي درعة في المرحلة الاخيرة من ولاية مولاي الشريف على المنطقة (توفي بعد ثلاث سنوات فقط من انتهاء حرب المحاميد) عواقب وخيمة على الأوضاع العامة ليس بواحة محاميد الغزلان فحسب، وانما امتدت آثارها لتشمل كل واحات وادي درعة. وقد زاد من تأزم الأوضاع انهيار سلطة المخزن بالمنطقة بعد وفاة السلطان مولاي اسماعيل ودخول أبنائه في سلسلة متلاحقة من التغالب على السلطنة والتشاحن على الحكم، بالاضافة إلى دورات الجفاف الحادةالتي كانت تفاجىء واحات درعة بين الفينة والاخرى :

ــ على الصعيد الاقتصادي :

كان اقتصاد واحات وادي درعة يعتمد بالاساس على النشاط الزراعي والرعوي بالاضافة الى مزاولة بعض الاعمال التجارية التي كانت تمارس محليا او على نطاق جهوي فيما بين درعة وسوس من

---

(53) عمل الجيش على شق نفق تحت الأرض الى مستوى أسوار القصر ثم زرع مجموعة من الألغام. وحسب ما يحكيه المسنون من أهل درعة الذين عاشوا مثل هذا الحصار إبان الفتن القبلية، فقد كانت الالغام تصنع محليا. واللغم عبارة عن قلة خزفية مملوءة بارودا، وتوصل بشريط من سعف النخيل مدهون بالزيت أو السمن، وبعد اشتعال الشريط يتفجر البارود وينسف السور.

(54) Magali Morsy : La relation de Thomas Pellow, p. 120.

جهة وما بين درعة وتافيلالت وبلاد الصحراء من جهة ثانية. ويتسم اقتصاد المنطقة بالهشاشة، وكان يتأثر بشكل سلبي لأدنى حادث طبيعي أو بشري يطرأ على المنطقة. وقد اكتسب سكان قصور وادي درعة خبرة كبيرة في تخزين الاقوات، خاصة التمور والحبوب والمواد الدهنية، استعدادا للمفاجآت التي كانت تطرأ من حين لآخر. ويمكن القول بأن هذا النشاط الاقتصادي بدرعة كان يسترجع عافيته بسرعة كبيرة، إذا ما توفرت له بعض الشروط (وفرة الماء بالوادي، وتوفير ظروف الامن والاستقرار) وهكذ وبعد المتاعب التي عرفتها الحياة الاقتصادية بدرعة طيلة القرن 11هـ/17م عرفت بعض الانتعاش في ولاية مولاي الشريف بن اسماعيل الثانية على درعة ابتداء من سنة 1225هـ/1713م. فلما اندلعت أحداث واحة محاميد الغزلان توقفت الحركة التجارية بالمرة، لكون الجيش المخزني قد أحكم قبضته على كل منافذ وادي درعة للحيلولة دون وصول أي امداد ممكن للمتمردين، وفي اطار معاقبة سكان وادي درعة على ثورة المحاميد الزمهم مولاي الشريف بتموين الجيش المخزني طيلة المدة التي قضاها وهو يقاتل بواحة محاميد الغزلان، فكان السكان ينقلون الخبز كل يوم على البغال الى ساحة القتال(55) ويكفي ان نقارن بين القدرة المحدودة للانتاج الزراعي المحلي، ومتطلبات الجيش المخزني الذي يتجاوز عدد أفراده أربعين ألفا من الرجال وحوالي عشرين ألفا من الخيل والدواب المستعملة في نقل العتاد الحربي لندرك مدى الأضرار الكبيرة التي أصابت اقتصاد وادي درعة. ومن حسن حظنا أن بعض الاشارات التي استقيناها من كتاب طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة لمحمد المكي الناصري(56) قد سمحت لنا باستطلاع الاحوال الاقتصادية المتردية بوادي درعة بعد الأحداث التي عرفتها واحة محاميد الغزلان، ولعل ما يضفي أهمية خاصة على إشارات هذا الكتاب أن صاحبه قد عايش هذه الظروف القاسية التي عرفتها بلاد درعة، فقد ذكر محمد المكي ابن موسى الناصري في أخبار سنة 1153هـ/1740م أن الاسعار بقطر درعة قد بلغت «مبلغا عظيما، المُدِّيُّ(57) من الثمر بخمسة مثاقيل والمدي من القمح بأربعة وعشرين مثقالا والفول مثله والمدي من الشعير باثني عشر مثقالا وربما بلغ في بعض الاحايين خمسة عشر مثقالا، وانعدمت الأقوات وكثرت الاموات في الشوارع والطرقات»(58). وقد ندرك فداحة ما بلغت اليه أسعار المواد التموينية الاساسية والقوت اليومي لسكان هذه الواحات، اذا عرفنا أن بقعة من الأرض وخَمْس نخلات من أجود النخيل المعروف بدرعة قد بيعت بسبعة مثاقيل ونصف(59). وتؤكد لنا هذه الحقيقة جملة من بطائق المدانية والتي يرجع تاريخها الى سنة 1152هـ/1739م، فقد اضطر عدد من أصحاب هذه البطائق الى عرضها على قاضي درعة في وقته سيدي محمد بن عبد الكبير(60) الذي أمر بتدليل أملاك المُدانين ثلاث جمع قبل

---

(55) Magali Morsy : La relation de Thomas Pellow, p. 119.

(56) عرفنا بهذا الكتاب وبمؤلفه في الفصل الأول من هذا البحث.

(57) المُدي من المكاييل المحلية، وتختلف سعته من واحة الى اخرى بوادي درعة وسنحاول ضبط مقداره بالتقريب في الفصل الخاص بالحياة الاقتصادية.

(58) محمد المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة : مخطوط خاص — ص. 18.

(59) من وثائق دار المزواريين بتينزولين ويرجع تاريخها الى أواسط ق. 12هـ/18م.

(60) لم نتمكن من العثور على ترجمته وقد يكون ابن قاضي قضاة وادي درعة في وقته السيد عبد الكبير التنفوي المتوفى سنة 1146هـ/1733 وقد وردت ترجمته في الدرر المرصعة ص. 204.

تفويتها الى أصحاب الدين[61]. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على ما ألت اليه احوال السكان بدرعة حيث باتوا يموتون جوعا ويفضلون تفويت املاكهم مقابل صاع أو صاعين من الثمر أو الشعير أو غيرهما.

ونستفيد من كتاب **طليعة الدعة** أن زاوية بامكَروت الناصرية قد اضطرت الى اغلاق أبوابها في وجوه الضيوف والزوار، بل ان شيخ الزاوية في وقته سيدي جعفر بن موسى قد اضطر الى الهجرة الى الغرب[62] فرارا من هذه الظروف الاقتصادية الصعبة التي عمت بلاد درعة بعد احداث واحة محاميد الغزلان.

ــ على الصعيد الاجتماعي :

نلاحظ من خلال اشارات طليعة الدعة ورسوم الأملاك العقارية ورسوم الرهن وبطائق التداين، أن هذه الانتكاسة التي أصابت اقتصاد وادي درعة نتيجة حرب واحة محاميد الغزلان، قد انعكست اثارها السلبية على الأوضاع الاجتماعية العامة بواحات درعة، فإذا كان الجوع قد أودى بحياة العديد من سكان قصور درعة لندرة الاقوات وارتفاع أسعارها، فإن القادرين من السكان قد فضلوا الهجرة الى جهات أخرى على البقاء بدرعة والعيش في ظروف اقتصادية واجتماعية قاسية، وفي هذا الصدد يذكر محمد المكي بن موسى الناصري، في **طليعته** أن عددا من الدور والقصور قد تهدم وعفت محاسنه لقلة من يعتني بها، ومن ذلك مثلا زاوية تامكَروت الناصرية، فإنه لم يبق من عمارتها «إلا عشرها بالنسبة الى عمارتها قبل أو أقل من ذلك والله غالب على أمره»[63]. وقد نتج عن عاملي الهجرة والموت بالجوع نقص كبير في سكان وادي درعة.

صادفت هذه الحقبة ايضا وفاة عامل وادي درعة مولاي الشريف ابن اسماعيل بعد شهرين فقط من وفاة والده سنة 1139هـ/1727م فاضيف الى الازمة الاقتصادية والاضطراب الاجتماعي الناتج عنها فراغ سلطوي خطير، زاد من حدته ضعف المترشحين للسلطنة من أبناء مولاي اسماعيل وعجزهم في ضبط شؤون الدولة سواء بعاصمة الدولة أو بالاطراف، فكان ذلك ايذانا بدخول واحات وادي درعة في مرحلة تاريخية حرجة ما فتئت تلقي بظلالها القاتمة على سكان قصور الوادي منذ ذلك الحين (أواسط القرن الثاني عشر الهجري (18م) والى وقت مبكر من عهد الحماية.

كان المستفيد الأكبر من هذه الظروف الصعبة التي آلت إليها واحات وادي درعة، هي قبائل الرحل عامة وقبائل أيت عطا خاصة تلك القبائل التي كانت تعيش في المراعي المنتشرة في هوامش وادي درعة. فقد استغلت هذه القبائل تراجع أعداد سكان درعة لكثرة من مات في حرب المحاميد ومن الجوع ومن هاجر الى جهات أخرى، والفراغ السلطوي الذي أعقب وفاة مولاي الشريف، فاندفعت في

---

(61) من وثائق زاوية سيدي اعمرو بن أحمد السفلي بواحة ترناتة.

(62) محمد المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة ص. 18.

(63) محمد المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة : نفس الصفحة.

عمليات غزو واغتصاب لقصور الوادي. ويمكن القول بأن بداية تمركز قبائل أيت عطا في الواحات الجنوبية من درعة تعود الى هذه الفترة[64]. ورغم الحَرْكات العسكرية التي كان سلاطين الدولة العلوية يرسلونها الى درعة طيلة هذه الفترة لردع قبائل الرحل من ايت عطا وغيرها، فإن هذه القبائل قد ظلت مصدر تعب وفزع لسكان القصور وخاصة قصور الحراطنة والزوايا مما دفع بهؤلاء الى اللجوء الى عقد اتفاقيات مع هذه القبائل في محاولة لحماية مصالحهم ولتنظيم العلاقات بين الرحل والمستقرين.

(64) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa - in A.M., Volume 9, Tome II, p. 64.

الفصل السادس

مشكل التراتب الاجتماعي

مشكل التراتب الاجتماعي بوادي درعة

يرتبط مشكل التراتب الاجتماعي بدرعة، بجملة من التطورات التاريخية والاجتماعية التي تعرضت لها المنطقة في غير ما مرحلة من تاريخها، ذلك أن موقع هذه الواحات بين المناطق الصحراوية في الجنوب والمناطق الجبلية في الشمال، جعل منها ممرا تاريخيا للهجرات البشرية التي كانت تنطلق من الصحراء، خلال عمليات الدفع الكبرى التي كانت تقوم بها قبائل الرحل في اتجاه المناطق الشمالية. وقد كانت هذه القبائل تخلف بعض البقايا البشرية اثناء مرورها بواحات وادي درعة، ولاتزال آثار هذه البقايا البشرية واضحة، ليس فقط على النسيج العام للبنية الاجتماعية لسكان وادي درعة، وانما أيضا في العادات والتقاليد التي تضرب بجذورها في عمق التاريخ، وبعد ما فقدت هذه البقايا كل ما يذكرها بأصولها القديمة تكتلت في تجمعات صغيرة وشكلت ما يعرف بقبائل القصور.

تخضع قبيلة القصر في الواقع لتراتب اجتماعي داخلي يضع الاشراف والمرابطين في أعلى قمة الهرم الاجتماعي والحراطين والعبيد في قاعدته[1] وتعتبر الزاوية كمؤسسة دينية واجتماعية أهم قاعدة لتكريس واقع التراتب على السلم الاجتماعي منذ القرن العاشر الهجري/16م الى الوقت الحالي. اذن فما هي الظروف التاريخية والاجتماعية التي أهلت الاشراف ثم المرابطين للتربع على قمة الهرم الاجتماعي بين السكان بوادي درعة ؟ وما هي التطورات التي مرت بها الزاوية على اعتبار ــ انها كانت ولا تزال ــ تشكل القاعدة الروحية والمادية التي اسهمت في التشكيل الاجتماعي ؟

1 ــ من الرباط الى الزاوية

تدل كل القرائن التاريخية على أن الرباط كمكان للمرابطة والجهاد، وكموضع للتعبد ونشر التعليم الديني، وكمكان لاطعام الجوعى والفقراء[2] اسبق الى الوجود من الزاوية، فقد انتشرت ظاهرة الربط، بشكل مواز للفتوحات الاسلامية، حيث كان المجاهدون يرابطون في المناطق المتاخمة لبلاد العدو.

وقد انتشرت هذه الربط بالمغرب منذ وصول الفاتحين الاوائل[3] ثم تكاثرت بشكل خاص في عهد الأدارسة، إلا أن وظيفة الرباط لم تبق محصورة في الجهاد وحماية الثغور من الاعداء، بل تعدتها الى مهمة نشر العلم في اطار المذهب المالكي السني ومحاربة البدع الضالة[4] وعلى هذا الاساس ظهرت مجموعة من

---

(1) سنتعرف بالحراطين في مكان لاحق من هذا الفصل.

(2) د. محمد حجي : الزاوية الدلائية ــ ص. 23.

(3) د. محمد حجي : نفس المرجع ــ نفس الصفحة.

(4) د. ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ج. 1 ــ ص. 189.

الربط في المناطق المغربية الداخلية حيث تجندت ثلة من فقهاء أهل السنة لنشر مبادىء المذهب المالكي والتصدي للفئات المنحرفة التي انتشرت في غيرما منطقة من المغرب[5] وفي العهد المرابطي وصل التيار الصوفي المشرقي الى المغرب وصار الفقهاء يجمعون بين مهمتي نشر التعليم وبث مبادىء التصوف في الاوساط الشعبية، فظهرت على اثر ذلك مجموعة من الربط. فهل يمكن القول بأن الربط بدرعة قد ظهرت خلال هذا العهد ؟ وكيفما كان الامر فإن بلاد درعة كانت فيها مجموعة من الربط، حيث كانت تعقد الحلقات الفقهية والصوفية. وتدل كل القرائن على أن هذه الربط كانت منتشرة على طول واحات وادي درعة من مزجيطة شمالا الى واحة لكتاوة جنوبا[6].

وبالرغم من أن الربط القديمة بدرعة قد اندثرت ولم يبق منها إلا الذكر، الذي لايزال عالقا بذاكرة السكان في المنطقة، فإن بعض هذه الربط قد تحول الى قصر كبير كما هو الحال بالنسبة لرباط الحجر بترناتة، ورباط المزوار بتنْزولين ورباط طَجِّينة بمزجيطة، كما تحول بعضها الى زاوية كما هو الحال بزاوية سيدي بلال التي اقيمت في مكان رباط تفْكَروتْ بفزواطة، وزاوية أبي الحسن التي بنيت في مكان رباط إغْرْغِزْ بمزجيطة.

كان رُوَّادُ هذه الربط يعرفون «بالمرابطين» في مناطق الواحات، وصارت ميزة لنشر العلم وبث مبادىء التصوف أهم سمة يتميز بها هؤلاء المرابطون عن باقي عامة الناس. وقد كان المرابطون يتلقون الزكاة والاعشار من القبائل المجاورة للرباط الامر الذي يسمح للمرابطين باستقبال الفقراء والمعوزين وأبناء السبيل وتقديم الوجبات الغذائية لهم دون مقابل. ولن نبالغ في شيء إذا قلنا ان هدا الدور الاجتماعي للرباط والمرابط كان يزداد أهمية عندما تطرأ الازمات الاقتصادية التي كانت تفاجىء سكان الواحات مع دورات الجفاف. وهكذا يمكن القول بأن الرباط وبعدما تخلى عن وظيفته الجهادية القتالية الاصلية، تحول الى مكان للتعبد والزهد وبث التصوف وتقديم الطعام الى المعوزين والفقراء، وصار المرابط يشكل النموذج البشري الذي تجاوز بعمله وتصوفه ومساعدته للمعوزين مستوى الانسان العادي بين سكان الواحات. وقد كانت هذه الوظائف التي كان المرابط يقوم بها انطلاقا من الرباط كافية لاضفاء طابع من التقدير والاحترام المشوبين بنوع من التبجيل والتقديس للرباط وصاحبه بين سكان الواحات[7].

أما الزاوية فقد كانت في بداية الامر تعرف بدار «الكرامة» و«دار الضيوف»[8] الشيء الذي جعل منها مؤسسة اجتماعية أولا وقبل كل شيء حيث كانت تقدم فيها الوجبات الغذائية المجانية لابناء السبيل.

---

(5) نشير هنا على سبيل الاستئناس الى ما ذكره صاحب روض القرطاس (ص. 129 — 130) عن كون عبد الله ابن يس قد حارب الروافض الجبلية بسوس والبرغواطيين بتامسنا.

(6) من الربط التي ذكرها عبد الكريم المزريوي بدرعة رباط لكتاوة، رباط سارت، رباط ميمون، الخ...

(7) تذكر وثيقة محلية أن أهل لكتاوة أصابهم الجفاف فجاءوا الى الشيخ سيدي أحمد بن اعلي بترناتة يطلبون منه التوجه الى الله لاستنزال الامطار، فأمرهم باحضار ثور كبير وقمح كثير الى رباط تفجروت بفزواطة، فيتصدقون بذلك كله على الفقراء، فإن الله سيغيثهم.

(8) د. محمد حجي : المصدر السابق : ص. 25.

وإذا كانت كل القرائن توحي بأن الزاوية ـــ بالمفهوم الاجتماعي ـــ قد ظهرت قبل القرن الخامس الهجري/11م، فإنها قد عرفت تطورا نوعيا على عهد المرابطين، فقد أسس أبو محمد صالح الماكَري المتوفى عام 631هـ/234/م حوالي ست وأربعين زاوية على طول طريق الحج من المغرب الى مصر، وكان تلامذة هذا الشيخ يشرفون على تسيير هذه الزوايا، فكانوا يقدمون كل المساعدات اللازمة الى الحجاج المغاربة، وفي نفس الوقت كانوا يبثون مبادىء التصوف بين اتباع الشيخ والراغبين في سلوك طريقه(9). وقد تمكنت الزاوية بعد وقت قصير من ظهورها من أن تعوض الرباط في كل الوظائف التي كان يقوم بها.

وفي القرن التاسع الهجري/15م ظهرت ملامح الوهن والضعف على هياكل الدولة المرينية، فانفلت زمام السيطرة على جل أنحاء المغرب من أيدي المتسلطنين من بني مرين وبني وطاس بفاس، وقد صادفت هذه الحقبة الحرجة من تاريخ المغرب تمكن المسيحيين الايبريين من التفوق على المغاربة بعد امتلاكهم لوسائل الغلبة، فانطلقوا في سلسلة من العمليات الحربية نجحوا خلالها في استعمار عدة نقط على السواحل المغربية. وأمام عجز أمراء فاس عن رَدِّ هجوم الايبريين، تجند الفقهاء، وشيوخ الطرق الصوفية لحماية البلاد فانتدبوا الناس بمختلف فئاتهم الى الجهاد.

كانت الطريقة الجزولية أبرز طريقة صوفية ظهرت أنذاك في الجنوب المغربي وقد ساهم بشيوخها بحظ وافر في تأطير المجاهدين، واستنهاض همم مختلف فئات السكان بسوس ودرعة للمشاركة بالاموال والانفس في العمليات الجهادية ضد المسيحيين. ونظرا لاقبال سكان المناطق الجنوبية على المشاركة المكثفة في العمليات الجهادية،بات شيوخ الطريقة الجزولية في حاجة الى أماكن معينة لتجميع المجاهدين وتكديس المؤن التي كانت القبائل تساهم بها، فأنشأوا شبكة واسعة من الزوايا بجبال جزولة بالأطلس الصغير وجبل باني ووادي درعة، ولا مشاحة إذا قلنا أن هذه الزوايا تعتبر في الواقع الوريث الشرعي للربط بهذه المناطق، حيث تؤكد كل المعطيات التاريخية على أن هذه الزوايا كانت تقوم بنفس الوظائف التي كانت تقوم بها الربط، قبل ظهور الزوايا وتطورها خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/15م.

ومع اشتداد الهجومات المسيحية على السواحل المغربية في مطلع القرن العاشر الهجري/16م كان شيوخ الطريقة الجزولية في الجنوب المغربي، يشجعون الراغبين في الجهاد على الانقطاع والمرابطة بالزوايا حيث كان هؤلاء الشيوخ يشرفون على تدريب المجاهدين على الرماية وفنون الحرب ويخصصون لهم أوقاتا معينة لسرد الاحاديث الواردة في فضل الجهاد(10) ولا شك أن جل ربط وادي درعة قد تحولت خلال هذه الفترة بالذات الى زوايا(11). إذن فما هي التطورات التي طرأت على الزوايا بدرعة خلال القرن العاشر الهجري/16م ؟ وما هي الظروف الاجتماعية والاقتصادية التي أهلت أصحاب الزوايا من المرابطين والاشراف للترقي الاجتماعي بدرعة ؟

---

(9) Michaux-Bellaire : Conférences sur les Confréries religieuses au Maroc — Archives Marocaines, Volume 27, pp. 51-52.

(10) عثرنا بدرعة على وثيقة بعنوان : سلسلة أصحاب الرماية وتقوم دليلا على انتشار تقليد تأطير المجاهدين بالوادي.

(11) سبق لنا أن أشرنا الى بعض هذه الزوايا في بداية هذا الفصل.

2 ـــ تطور وضعية المرابطين والزوايا بدرعة

تعززت وضعية الطرق الصوفية وأتباعها بين سكان المناطق الجنوبية عامة ووادي درعة خاصة بعد نجاح الطريقة الجزولية في تنصيب أحد أتباعها من زاوية تاكمادارت بفزواطة على رأس المجاهدين بسوس ثم الدفع بها الى الاستيلاء على السلطة، ويتعلق الامر هنا بمحمد السعدي الملقب بالقائم بأمر الله. أقبل أهل درعة مع مطلع القرن العاشر الهجري/16م على الانخراط في سلك المتصوفة والتهافت على المشيخة، الامر الذي جعل الشيخ أحمد بن موسى السملالي، شيخ تازروالت (ت 971هـ/1564م) كثيرا ما كان يسأل زائريه من أهل درعة. وبلهجة لا تخلو من التندر «بكم يباع عندكم الشيوخ بدرعة»[12] وإن دلت عبارة الشيخ أحمد بن موسى على شيء فإنما تدل على إقبال شريحة عريضة من أهل درعة على ممارسة التصوف والتظاهر بالصلاح، والتحلي بشيمة المرابط، وقد صحب هذا التهافت على التظاهر بالصلاح، في وسط تتسم ذهنية سكانه بالسذاجة، وتغلب عليهم الغفلة وحسن الظن بالناس[13] حركة واسعة لتأسيس الزوايا، وتكثير الاتباع. وقد كان أصحاب هذه الزوايا ينعزلون بأنفسهم زاهدين في الدنيا. وقد أحاطهم أتباعهم بهالة من التقديس والتبجيل، كما تحولت خلواتهم الى مزارات تقام فيها المواسم ويستسقي فيها لاستنزال الأمطار[14] ولاتزال عصي وعكاكيز بعض الشيوخ في غير ما منطقة من وادي درعة تستخرج من خلوات أصاحبها لرد المدلهمات وفك المعضلات ودفع المخاطر الى اليوم رغم مرور عدة قرون على وفاة أصحابها[15] ناهيك عن تحول أضرحتهم الى أماكن تعقد فيها المحالفات ويستقسم بها[16] هذه العقلية السائدة بين سكان وادي درعة الذين وصفهم الافراني بالبله[17] باتت ترى في أصحاب الزوايا وأخلافهم قدرة خارقة على مساعدة السكان في التغلب على ظروف الازمات القاسية التي كانت تنزل بسكان وادي درعة وخاصة الأزمات التي كانت تعقب دورات الجفاف الحادة. وقد كان بعض شيوخ الزوايا يعمقون هذا الاحساس في نفسية السكان بالاعلان الصريح عن قدرتهم في انهاء محنة الجفاف ورفع المجاعة من السكان، وكان هؤلاء الشيوخ يتمتعون بحدس قوي يساعدهم في استطلاع الأحوال الجوية فيبشرون أتباعهم بسقوط الأمطار وفيضان نهر درعة. فقد ذكر السيد احمد بن صالح لكتاوي في كتابه **تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنة العالية**[18] أن أهل لكتاوة قد أصابهم الجفاف في العشر الأواخر من القرن الحادي عشر الهجري فطالت بهم الشدة والبلاء، فتوجهوا الى والده سيدي صالح بن ابراهيم[19]

---

(12) محمد المختار السوسي : المعسول ج. 12 ـــ ص. 31 ـــ 32.

(13) محمد بن لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية مخطوط خاص ـــ ص. 4.

(14) سبق لنا أن أشرنا الى توجيه سيدي أحمد بن علي الحاجي سكان لكتاوة إلى رباط الحاج علي بن اعمرو بتفجروت لطلب الاستسقاء هناك. انظر الهامش رقم 7.

(15) عادة اخراج عصي وعكاكيز بعض الشيوخ منتشرة في غير ما منطقة بوادي درعة.

(16) كان لكل قبيلة بوادي درعة ضريح تستقسم بصاحبه وتتحالف عنده.

(17) الافراني : نزهة الحادي ص. 231.

(18) سبق لنا أن عرفنا بهذا الكتاب في المدخل.

(19) ترجم لسيدي صالح بن ابراهيم غير واحد، وقد اعتمدنا على ترجمته الوافية في تجديد المراسم البالية لابنه أحمد بن صالح.

بزاوية بن صبيح يرغبونه في الدفاع|وكشف عذاب الجوع عنهم فاشترط عليهم أن يقدموا له ألف أجير يخدم بهم أرضه وساقيته[20] فلما وافقوا على شرطه سال النهر.

وقد كانت مثل هذه الاعمال وغيرها كافية لأن تجعل من المرابط صاحب الزاوية وليا مشهورا ورجلا صالحا يلتمس كل الناس بمختلف طبقاتهم بركة دعواته، ولا يترددون في اتخاذه واسطة لفض نزاعاتهم المستعصية، وعقد المصالحة بين القبائل، كما كانوا يستحرمون به من تعسفات وجور الشيوخ الزمنيين، وعمال المخزن مهما كبر شأنهم، وتتحول الزاوية بين عشية وضحاها الى كعبة يقصدها ذوو الحاجات «بالوعْدات»[21] والنذر من كل الافاق.

ورغم ان مثل هذه الكرامة قد تحدث للشيخ المرابط مرة واحدة في حياته كلها، فإن ابناءه وأتباعه ينسجون حولها حكايات، كانت تتضخم مع مرور السنين والأعوام وقد تدون في كتب خاصة تسْرد في مواسم الزاوية على مسامع خدام الشيخ الذين هبوا لزيارة ضريحه من كل الآفاق[22].

وإذا كان الشريف يقتبس مثل هذه «الكرامات» من نور النبوة على اعتبار أنه من السلالة النبوية حسب تصور سكان وادي درعة، فإن على المرابط أن يكشف عن بعض «الكرامات» لتقوية مركزه الاجتماعي، فقد ورد في وثيقة محلية بزاوية تِينْمَسْلا القادرية أن المشتغلين ببناء مسجد الزاوية سنة 1111هـ/1699م اختلفوا في تحديد جهة القبلة لبناء المحراب، فأرسلوا الى شيخ الزاوية في وقته مولاي عمر بن أبي القاسم[23] فلما حضر توضأ «وأشار بيده اليمنى وانشقت لهم القبلة وظهرت لكل واحد منهم ورأوها بعينهم»[24] ومثل هذه الكرامات التي كان المرابطون بدرعة يكشفونها لاتباعهم كثيرة ومتعددة في كتب المناقب المحلية[25].

وبالرغم من أن المرابط صاحب الزاوية، قد ينجح في تحقيق بعض النجاح على المستوى الاجتماعي، فإنه على كل حال يبقى في الدرجة الثانية بعد الشريف في سلم التراتب الاجتماعي وهذا ما دفع بالكثير من مرابطي وادي درعة الى البحث عن نسب شريف وقد لا يعوزون من يتطوع لهم بكتابة مشجر طويل للانساب فيصلهم بطريقة أو بأخرى بالسلالة النبوية[26].

---

(20) تجديد المراسم البالية : مخطوط خاص ص. 52 — 53.

(21) «الوعدات» ج. وعدة وهو نذر يقدم الى المرابط نقدا أو عينا.

(22) نتوفر على رسمين سجلت فيهما كرامات أبو القاسم بن عبد الرزاق الينمسلاوي، وسيدي أحمد بن علي الحاجي. وقد كان شيخ زاوية تينمسلا يسرد على اتباع هذه الزاوية كرامات أبي القاسم في كل موسم.

(23) ترجم له المختار السوسي في المعسول ج. 19 — ص. 121.

(24) الوثيقة بحوزة السيد عبد الرحمان القادري وقد سمح لنا مشكور بأخذ صورة لها.

(25) انظر مثلا تراجم كل من سيدي الحسين بن ناصر، وسيدي مَحمد بن ناصر، وسيدي احمد بن ناصر في الدرر المرصعة صص. 120 — 121 — 274... الخ.

(26) كمثال على ذلك فقد ذهب المكي بن موسى الناصري أن نسب أسلافه يرجع الى المقداد الصحابي الجليل (انظر بداية ترجمة الشيخ محمد بن ناصر بالدرر).
إلا أن الشيخ أحمد بن خالد الناصري ردّ نسب الناصريين الى جعفر بن أبي طالب، ليثبت نسب الناصريين في آل البيت انظر بداية طلعة المشتري لابن خالد الناصري).

وبعد القرن العاشر الهجري/16م عرفت الزاوية بوادي درعة تحولات كبرى، خاصة في القرون الثلاثة الاخيرة (ما بين القرن الحادي عشر الهجري/17م والقرن الرابع عشر الهجري/20م) فقد تحولت من خلية دينية صغيرة كانت وظائفها الاساسية منحصرة في نشر التعليم الديني وبث الاوراد والأذكار الصوفية وتأطير المجاهدين كلما اقتضت الضرورة ذلك الى مؤسسة اجتماعية واقتصادية، وأصبحت الزاوية عبارة عن قصر كبير لا يختلف في تنظيماته الداخلية وعلائقه الاجتماعية عن باقي قصور درعة، وصار سكان الزاوية يشكلون قبيلة قصر لا تختلف في بنيتها الداخلية عن باقي قبائل القصور بالوادي. ونلاحظ من خلال المعطيات التاريخية والواقع الاجتماعي أن مؤسسة الزاوية بدرعة قد مرت بمرحلتين اساسيتين : مرحلة التأسيس وهي التي ظهرت فيها الزاوية، ومرحلة توسيع النفوذ وهي التي ظهرت فيها الزاوية ــ الدار.

أ ــ مرحلة التأسيس (الزاوية ــ القصر)

سبق لنا أن أشرنا الى ظهور مجموعة من الزوايا بوادي درعة خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/15م الى غاية مطلع القرن العاشر الهجري/16م على اثر وصول تيار الطريقة الجزولية الى المنطقة، وقد كانت مهمة الزوايا خلال هذه الحقبة تنحصر في تأطير المجاهدين وحشد أكبر عدد ممكن من المقاتلين امام أطماع الاسبانيين والبرتغاليين. وقد انتهت هذه المهمة التأطيرية بقيام الدولة السعدية، وتصدي سلاطينها لقيادة الحركة الجهادية، فأقبل شيوخ الطريقة الجزولية والفقهاء الذين نزحوا من سوس الى درعة على نشر مبادىء التصوف والعلوم الفقهية والدينية بصفة عامة بين سكان الوادي، فأنشأوا مجموعة من الزوايا على شكل قصور مستقلة كانوا ينعزلون فيها بأتباعهم وطلابهم، بعيدين عن الصراعات القبلية والمماحكات اليومية بين القبائل الرحل والمستقرين. وقد كان هؤلاء المتصوفة والفقهاء يحترزون من الاختلاط بهذه القبائل أو قبول شيء منها[27] لأنها في نظرهم، كانت تعيش على قطع الطريق واغتصاب المزروعات. ونستشف من إشارات كتب المناقب أن شيوخ التصوف وجل الفقهاء كانوا يعيشون على الكفاف وعلى ما اقتنوا من كد أيديهم[28]. إذن فما هي الزوايا التي ظهرت بدرعة خلال القرن العاشر الهجري/16م ؟

ظهرت هذه الزوايا ــ القصور خلال القرن العاشر الهجري/16م على دفعتين، الدفعة الاولى وقد ظهرت في مطلع القرن، ومن جملتها زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ الجزولي إلبكري، وزاوية تاكَمادارت بواحة فزواطة، وزاوية سيدي مَحمد بن مهدي الجراري بواحة ترناتة[29] كما جددت في نفس

---

(27) ساد هذا الاحتراز من قبول أي شيء من القبائل المتحاربة بعد القرن العاشر الهجري/16م، خاصة عندما تكون بلاد درعة تعاني من الفراغ السلطوي.

(28) انظر ما ورد بهذا الصدد عند محمد المكي بن موسى الناصري في الدرر المرصعة في ترجمة أبي القاسم الكوش فقيه درعة في وقته وفي ترجمة الشيخ الصوفي عبد الله بن حسين الرقي وغيرهم.

(29) د. محمد حجي : الحركة الفكرية في عهد السعديين ج. 2 ــ ص. 533 ــ 545.

الفترة زاوية سيدي الناس التي أسسها الشيخ الحاج ابراهيم بن عبد الله الانصاري في القرن الثامن الهجري/ 14م[30].

وفي العقود الاخيرة من نفس القرن تأسست الدفعة الثانية من هذه الزوايا ـــ القصبور، وأهم زاويتين في هذه الدفعة هي زاوية تامكَروت الانصارية التي أسسها الشيخ عمرو بن أحمد الانصاري سنة 983هـ/1575م[31] وزاوية تينمسلا القادرية التي أسسها ابو القاسم بن عبد الرزاق في تاريخ لم نتمكن من ضبطه خلال العقود الثلاثة الاخيرة من القرن العاشر الهجري/16م[32].

وانطلاقا من الوظائف التي كانت تمارسها هذه الزوايا يمكن ان نميز بين صنفين من الزوايا ـــ القصور بوادي درعة :

أ ـــ الزاوية العلمية

وهي الزوايا التي كان يغلب عليها الطابع العلمي، وقد كانت هذه الزوايا من انشاء مجموعة من الفقهاء والعلماء الذين نزحوا خلال القرن 10هـ/16م من سوس الى واحات ودي درعة، ومن هذه الزوايا العلمية :

1 ـــ زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ الجزولي البكري[33] وقد أنشئت هذه الزاوية على يد هذا الرجل في مطلع القرن العاشر الهجري/16م وقد اشتهرت هذه الزاوية بتخريج جملة من العلماء من أبناء الشيخ المؤسس وحفدته، انتدب بعضهم لمهام دبلوماسية في عهد السلطانين السعديين عبد الله الغالب (ت 981هـ/1574) وأخيه أحمد المنصور (ت 1012هـ/1603م). وقد ظلت هذه الزاوية تقوم بمهمتها التدريسية والعلمية الى أواسط القرن الثاني عشر الهجري/18م[34]، ومنذ ذلك الحين انكمشت هذه الزاوية على نفسها ويعيش سكانها من ذرية سيدي علي بن محمد بن الشيخ على ذكريات الاسلاف.

2 ـــ زاوية سيدي محمد بن المهدي الجراري[35] أنشأ هذا الفقيه زاويته بالواد الميت في المنطقة السفلى من واحة ترناتة وقد كانت لمحمد مهدي «قابلية عجيبة في التدريس ورغبة ملحة في افادة

(30) د. محمد حجي : نفس المرجع ص. 545.

(31) محمد المكي الناصري : طليعة الدعة ـــ مخطوط خاص ص. 10.

(32) محمد المختار السوسي : المعسول ج. 19 ـــ ص. 120 ـــ 121.

(33) انظر ترجمته عند كل من :
ـــ د. محمد حجي : الحركة الفكرية في عهد السعديين ج. 2 ص. 545.
ـــ محمد المختار السوسي : المعسول ج. 10 ـــ ص. 184.

(34) ذلك ما لاحظناه من خلال بعض التعاليق على نسخة خطية لكتاب الشفا للقاضي عياض كان يدرس الى حدود سنة 1116/هـ. بهذه الزاوية.

(35) ترجم له غير واحد وقد اعتمدنا على ترجمته بالدرر المرصعة ص. 253 وبما ورد عنه في الحركة الفكرية في عهد السعديين ج. 2 ـــ ص. 533.

المتعلمين»[36] لذلك لا غرو إذا وجدنا أن زاوية سيدي محمد بن مهدي قد تحولت خلال القرن العاشر الهجري/16م الى قبيلة يقصدها طلاب العلم من سوس وتافيلالت ودادس وبلاد الصحراء والسودان، بالاضافة الى طلبة وادي درعة وقد تخرج على يده جملة من العلماء الأفذاذ ظلوا يلقون بإشعاعهم العلمي على واحات درعة خلال القرن العاشر الهجري/14م[37]. كانت الدراسة بزاوية سيدي محمد بن مهدي تستمر بمسجد الزاوية من الفجر الى صلاة العشاء الاخيرة، وقد كان الشيخ يلقي على طلبته دروسا عالية في الفقه والتفسير واللغة وغيرها، وقد أفنى الشيخ مَحمد بن مهدي عمره كله في تعلم العلم وتعليمه[38] ولزهده وإعراضه عن صلات سلاطين عصره، وشيوخ القبائل المجاورة لزاوية، عمل على استصلاح بعض الاراضي الزراعية فحفر مجموعة من الآبار حول زاويته، وقد كان رواد الزاوية يَشتغلون بالزراعة وخاصة زراعة الحنا التي اشتهرت بها هذه الزاوية. وقد انتهى الدور العلمي لهذه الزاوية بوفاة مؤسسها وهجرة من تبقى من أبنائه وحفدته الى جهات أخرى من درعة.

3 — زاوية سيد الناس : بالرغم من كون هذه الزاوية زاوية تصوف منذ تأسيسها خلال القرن الثامن الهجري/14م[39] فقد تحولتَ الى زاوية علمية بعد استقرار الشيخ أبي القاسم بن عمرو التفنوتي بها خلال القرن العاشر الهجري/16م[40] وقد كان ابو القاسم مثل الشيخ محمد بن مهدي زاهدا في صلات سلاطين عصره، متورعا عن الشبهات وقد كانت له براعة في فنون كثيرة، متبحرا في الفقه والغربية والحساب[41] وقد كان يعتمد في تموين زاويته على ما يتقنه من صناعات يدوية ويبيعها في أسواق المنطقة. وقد تخرج من هذه الزاوية جم غفير من علماء درعة. وقد انتهى الدور العلمي لزاوية سيد الناس بوفاة الشيخ أبي القاسم التفنوتي سنة 953هـ/1546م.

والملاحظ أن الدور العلمي لهذه الزوايا العلمية، كان ينتهي بوفاة الشيخ المؤسس، كما هو الحال بالنسبة لزاوية سيدي محمد بن مهدي، أو بوفاة الشيخ الذي كان يدرس بها كما هو حال زاوية سيد الناس، أو بانقراض اهل العلم بها كما هو الحال بالنسبة لزاوية سيدي علي بن محمد الشيخ، ورغم تراجع الدور العلمي لهذه الزوايا، فإنها تبقى قائمة في شكلها الاجتماعي كقصر لا يختلف في تنظيماته الداخلية وعلاقاته بمن حوله عن باقي قصور وادي درعة، كما يتحول سكان الزاوية الى قبيلة — قصر لا تختلف في شكلها ومضمونها عن قبائل القصور بالمنطقة، اللهم إلا ما كان من تمييز لسكان الزاوية بالمرابطين.

---

(36) د. محمد حجي : الحركة الفكرية ج. 2 — ص. 533.

(37) ذ. محمد المنوني : حضارة وادي درعة من خلال النصوص والآثار : دعوة الحق — العدد 2 — 1973 — ص. 140.

(38) د. محمد حجي : المرجع السابق ص. 534.

(39) د. محمد حجي : نفس المرجع ص. 541.

(40) انظر ترجمته عند :

— محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة ص. 112.

— ابو زيد التمنارتي : الفوائد الجمة في اسناد علوم الامة — مخطوط. خ ع الرباط — رقم د : 1420 ورقم 28.

— د. محمد حجي : الحركة الفكرية : ج. 2 — ص. 541.

(41) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة ص. 112.

ولاتزال أطلال المدارس العلمية بهذه الزوايا الى اليوم تحكي ما كان لها من إشعاع علمي في الماضي القريب.

ب ــ الزاوية الصوفية

وتدخل في هذا الصنف الزاوية التي تأسست منذ البداية على التصوف قبل العلم[42] أو تحولت من العلم الى التصوف أو جمعت بينهما معا، كما هو الحال بالنسبة لزاوية تامكَروت بعد استقرار الشيخ مَحمد بن ناصر بها.

وأهم ما يميز الزاوية الصوفية عن الزاوية العلمية هو روح الحيوية التي يتسم بها نشاط الزاوية مما يسمح لها بالاستمرار والتطور حتى بعد وفاة الشيخ المؤسس، في حين أن الزاوية العلمية، كان دورها ينتهي بانقراض أهل العلم بها. ويعزى سر هذه الحيوية بالنسبة لزوايا التصوف في اعتقادنا الى العوامل الاتية :

1 ــ اختيار مكان التأسيس

وهذا الاختيار لم يكن اعتباطيا ولا عشوائيا بل كان الشيخ الذي يرغب في إقامة زاوية صوفية يتحرى بدقة متناهية مكان تأسيس الزاوية. وهكذا نلاحظ ان جل الزوايا الصوفية بوادي درعة قد أسست في عقد الطرق التجارية وعلى طول أهم المحاور التي تربط وادي درعة بالمناطق المجاورة، بحيث تصبح الزاوية ملتقى للقوافل وسوقا تجارية لتبادل البضائع[43].

2 ــ اجتهاد الشيخ

من العوامل الاساسية التي سمحت للزاوية الصوفية بأن تتطور مع مرور الايام، حيوية ودينامية الشيخ المشرف على شؤون الزاوية. فقد كان الشيخ المؤسس للزاوية الصوفية، يختار من بين اتباعه من يأنس فيه القدرة والكفاءة على اتباع طريقة الاشياخ ويحافظ على وضعية الزاوية والعمل على تطوير امكاناتها ضمانا لاستمرار دورها التصوفي، وهي صفات قد لا ينجح شيخ الزاوية العلمية في العثور على تلميذ يكون بإمكانه أن يخلف الشيخ في علمه وتدريسه.

---

(42) نذكر على سبيل المثال لا الحصر أن زاوية تامكَروت كانت زاوية صوفية محضة قبل أن يستقر بها الشيخ محمد بن ناصر، حيث أصبحت تجمع في عهده بين التصوف والعلم.

(43) تقدم لنا زوايا درعة نموذجا حيا لاختيار مكان تأسيس الزاوية فزاوية تامكَروت أقيمت في عقدة الطرق التجارية التي تربط بين تافيلالت وسوس من جهة وبين بلاد درعة وافريقيا جنوبي الصحراء من جهة أخرى. وبإمكان المتحكم في زاوية تامكَروت أن يسيطر على الحركة التجارية التي تتم عبر فم تاقّات جنوب فزواطة، وفم زاكَورة شمال نفس الواحة وتيزنتافيلالت غربها.
وتنطبق نفس الملاحظة على زاوية تينمسلا التي اقيمت وسط واحة تيزولين بسفح جبل بوزروال، وبإمكان هذه الزاوية مراقبة الطرق التجارية التي تربط بين سوس غربا وتافيلالت شرقا عبر الكَرارة وتازرين وبإمكانها ايضا مراقبة الحركة التجارية التي تمر عبر طرق درعة من الشمال الى الجنوب وبالعكس.

فزاوية تامكَروت قبل أن تتحول مشيختها الى مشيخة وراثية مع الناصريين، كان شيوخها يختارون من بين اتباعهم من يأنسون فيه القدرة على استقطاب المزيد من المريدين والاتباع، ونشر مبادىء التصوف تبعا لممارسة شيوخ الطريقة الغازية[44] والعمل على الرفع من مكانة الزاوية ماديا ومعنويا، وعلى هذا الاساس اختار الشيخ عبد الله بن حسين الرقي (ت 1045/1635م) تلميذه أحمد بن ابراهيم الانصاري (قتل سنة 1052هـ/1642م).

بدأ أحمد بن ابراهيم يخطط ليجعل من زاوية تامكَروت زاوية كبرى، يقصدها طلاب العلم والتصوف وتلتقي بها القوافل التجارية من كل الافاق. وقد استطاع احمد بن ابراهيم اقناع مَحمد بن ناصر بالاستقرار في الزاوية والتصدير لنشر العلم. وحتى يطمئن مَحمد بن ناصر على وضعيته بالزاوية التامكَروتية، أوصى له الشيخ احمد بن إبراهيم بأمر الزاوية بعده[45].

تحولت زاوية تامكَروت في أيام الشيخ أحمد بن ابراهيم، الى سوق تجارية كبرى تلتقي فيها قوافل المناطق الشمالية بقوافل الصحراء وبلاد السودان[46]. أثار هذا النشاط الذي ظهرت به زاوية تامكَروت في أيام الشيخ أحمد بن ابراهيم، حفيظة جيران الزاوية، وخاصة قصر اكَني لذلك قام يحيى بن عمرو أحد أعيان هذا القصر باغتيال الشيخ أحمد بن ابراهيم سنة 1052هـ/1642م[47].

تولى الشيخ محمد بن ناصر، أمر زاوية تامكَروت بعد مقتل الشيخ احمد بن ابراهيم، فأعطى للزاوية دفعا جديدا، فركز في بداية الامر على الخروج بالزاوية من مرحلة التأسيس الى مرحلة التقعيد، ومن الاعتماد على الغير الى الاكتفاء الذاتي، وهكذا قام باستصلاح بعض الاراضي الزراعية[48] لتوفير قاعدة مادية صلبة للزاوية بعد مرحلة من الفقر المدقع، ووفر كل الظروف الملائمة لزوار الزاوية وقوافل التجار، فتحولت الزاوية في أيام مشيخته ومشيخة ابنه احمد بن ناصر (ت 1127هـ/1717) الى أهم زاوية في الجنوب المغربي على الاطلاق، لكثرة اتباعها، وتعدد طلاب العلم بها، كما تحولت الى أكبر سوق تجارية تلتقي فيها القوافل من كل الاصقاع.

3 ــ المرونة في اعطاء الاذكار

من العوامل التي ساهمت ايضا في استمرار الزاوية الصوفية بدرعة مرونة الذكر، فقد كان شيوخ الطرق الصوفية بهذه المنطقة يراعون العوامل النفسية والقدرة العقلية والفكرية لاتباعهم ومريديهم فكانوا

---

(44) تنسب الطريقة الغازية الى الشيخ ابي القاسم بن أحمد بن عمرو السوسي الفرغي (ت 982) دفين تابوبكرت من تافيلالت. ويتصل سند الطريقة الغازية بالطريقة الشاذلية عن طريق أحمد زروق. وقد حلت الطريقة الناصرية محل الطريقة الغازية بعد الشهرة الكبيرة التي عرفتها زاوية تامكَروت بعدما تحولت مشيختها الى الناصريين في أواسط القرن الحادي عشر الهجري/17م..

(45) أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ج. 1 ــ ص. 143.

(46) نفسه : نفس المرجع ص. 142.

(47) G. DRAGUE : Esquisse d'histoire religieuse au Maroc, p. 187.

(48) احمد بن خالد الناصري : المرجع السابق ص.

يعينون لكل فئة من الناس انواعا خاصة من الأذكار على قدر مستواهم فللطالب الذي يحفظ القرآن أذكاره، وللمرأة أذكارها، وللعامي أذكاره وأدنى مراتب الورد الاستغفار والهيللة، وأقصاها أن لا يفتر لسان المريد عن ذكر الله في كل وقت وحين[49].

كان شيوخ التصوف يفتحون باب الامل والخلاص امام أتباعهم ويشجعونهم بشتى الوسائل للالتحاق بصفوفهم. فقد سأل احمد بن عبد القادر التستاوتي[50] شيخه محمد بن ناصر ذات يوم قائلا : «لعلك تحشر وحدك من غير اتباع اذ من شرط الصحبة الاتباع، فإما أن تمنع اصحابك من المعصية أو تعاملهم بحسن الخصوصية... فأجابه الشيخ : المعضية لا تحول بيني وبين أصحابي .ومن صدرت منه هفوة فليداركها بالتوبة والحبل متصل بيني وبينه وإنما يضرنا الاصرار[51]، بل أن الشيخ محمد بن ناصر كثيرا ما كان يبشر أصحابه بأن الشيخ عبدالله بن حسين الرقي، لما قلده الله سياسة العباد، أخذ العهد من ربه أن لا يسوق اليه شقيا[52] وكان يقول : «من وقع عليه طابعنا تهنينا منه ونشفع في غيره من المحبين»[53].

أما شيوخ زاوية تينْمسلا القادرية فقد كانوا يبشرون أتباعهم بأقوال تفتح أمامهم باب الامل والخلاص[54] وقد كانت هذه الأقوال والاشارات كافية لحشد أعداد وفيرة من الاتباع حول شيخ الزاوية. وهكذا نلاحظ أنه في الوقت الذي كانت فيه الزوايا العلمية تتقوقع على نفسها بموت العالم المؤسس لها، كانت الزوايا الصوفية تضع لنفسها أرضية فكرية وايديولوجية لاستقطاب مئات الاتباع من بين سكان درعة، وخاصة من الحراطين الذين كانوا يجدون في شيوخ هذه الزوايا الملجأ الذي يحتمون به من ظروف المجاعات وتعسفات قبائل الرحل والشيوخ الزمنيين.

وبفضل هذه العوامل التي حاولنا ابراز بعض جوانبها تمكنت الزوايا الصوفية من خلق مجال حيوي يحمي وجودها ويضمن لها الاستمرار.

وبعد مرحلة التأسيس كان على شيخ الزاوية الصوفية أن ينتقل الى مرحلة توسيع النفوذ بالاكثار من الاتباع في اطار عملية نشر طريقته واورادها بمختلف واحات الوادي وخارجه، وفي هذه المرحلة الثانية ظهر ما يمكن تسميته بالزاوية الدار. فكيف ظهرت الزاوية ــ الدار وما هي وظائفها ؟

---

(49) احمد بن خالد الناصري : نفس المرجع ج. 1 ــ ص. 148.

(50) انظر ترجمته عند عباس بن ابراهيم : الاعلام ج. 2 ــ ص. 353.

(51) محمد بن سليمان الحوات : الروضة المقصودة في مآثر بني سودة مخطوط خاص ص. 240.

(52) الناصري : نفس المرجع ج 1 ــ ص. 142.

(53) الناصري : نفس المرجع ج 1 ــ ص. 148.

(54) من ذلك مثلا قولهم : «أن من زار قبر أبي القاسم بن عبد الرزاق بتينمسلا يخرج من الذنوب كيوم ولدته أمه» نقلا عن هدية السرور من الملك الخلاق في كرامات ولي الله أبي القاسم بن عبد الرزاق. والمخطوط موجود بزاوية تينمسلا.

ب ــ مرحلة توسيع النفوذ وظهور الزاوية ــ الدار

إذا كانت المرحلة التأسيسية قد اتسمت بجهود شيوخ الزاوية الصوفية في خلق اطار فكري وايديولوجي لزاويتهم، لضمان استمرارها ونشر طريقتها بين اكبر عدد من سكان القصور بدرعة، فإن مرحلة توسيع النفوذ قد ركز فيها شيوخ الزاوية الصوفية على خلق مجموعة من الخلايا الدينية في كل قصر يوجد لهم به اتباع. وقد كانت هذه الخلية الدينية تعرف بدار الزاوية تمييزا لها عن باقي دور القصر. وقد يسميها سكان القصر بالزاوية فقط. وغالبا ما تبنى هذه الزاوية ــ الدار بالقرب من مسجد القصر، وتتمتع بنفس وضعية المسجد من احترام وتبجيل.

كانت الزاوية ــ الدار تقوم بعدة وظائف في آن واحد، فقد كانت تتخذ مستراحا للشيوخ أثناء جولاتهم التفقدية، كما تستقبل كبار الاتباع وأفراد أسرة الشيخ[55]. يشرف على تسيير الزاوية ــ الدار مقدم يعينه الشيخ من بين كبار الأتباع، ويجتهد المقدم في جلب المزيد من المريدين للطريقة، ويترأس قراءة الورد بالزاوية، الدار مرة أو أكثر في اليوم، ويقوم مقدم الزاوية ــ الدار من جهة أخرى بتلقي الوعدات والفتوح التي كانت القبائل تقدمها برسم الزاوية الصوفية وشيخها. وبعد تجميع هذه الوعدات توجه الى الزاوية الام حيث مدفن الشيخ المؤسس للزاوية، وحيث المقر الرسمي للشيخ الذي بقيد الحياة، وقد يسمح الشيخ لمقدم الزاوية ــ الدار بالتصرف في الوعدات والزيارات والاتفاق منها على الزاوية وضعفائها.

لم يكن بإمكان شيوخ الزوايا الصوفية مراقبة كل الزوايا ــ الدور والتحكم في مقدميها بعد تكاثر أعدادهم، بل إن بعض المقدمين لم يكونوا يترددون في التمرد على شيوخ الزوايا الصوفية والاستقلال بأنفسهم، خاصة اذا كانت الزاوية ــ الدار بعيدة جدا عن مقر الزاوية الام، أو كانت الوعدات التي تتجمع بها تشكل موردا اقتصاديا هاما.

فقد كانت للناصريين بعض هذه الزوايا الدور بالقنادسة، وكانت تتجمع بها الوعدات التي تقدمها قبائل المنطقة برسم الزاوية الناصرية. وقد كانت هذه الزاوية ــ الدار تمد الشيخ الناصري ومن في ركابه من العلماء والاتباع اثناء رحلاته الحجية باللوازم الضرورية للسفر من القنادسة الى طرابلس الغرب. كان المشرف على هذه الزاوية ــ الدار هو المقدم ابن أبي زيان القنادسي بتكليف من الشيخ أحمد بن ناصر، ويظهر أن ابن أبي زيان قد أغراه ما كان يتجمع بهذه الدار من وعدات وزيارات وما كان عليه من اقبال الراغبين في الانخراط، في سلك مشيخة الزاوية الناصرية، فتمرد على الشيخ احمد بن ناصر ونصب نفسه شيخا وجلس للمريدين والاتباع في مجلس الخوصصة وتلقين الاوراد.

لم تكن حركة ابن أبي زياد لتروق الشيخ احمد بن ناصر، فقد ذكر هذا الشيخ في رحلته الحجية سنة 1121هـ/1709م، أنه لما وصل الى القنادسة نصح «هنالك القنادسي بن أبي زيان إنقاذا له من حبالة الشيطان، إذ أذنا له في تلقين الاوراد نيابة عنا وانكب عليه الناس لشدة رغبتهم في الانخراط في

(55) محمد المكي الناصري : الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية : مخطوط خ.ع. د. 1864.

سلك مشيختنا، واستهوته نفسه عند ذلك ولم يحتمل ما هنالك، وتعاطى معهم ما لايجدي وعاقهم عما يهدي فضل وأضل وزل وأزل... وبالغنا في نصحه فرد النصيحة ولم يقبلها... فهممت بشأنه وهالني أمره لما ارتكبه من تضييع الأصول فتبين لي عزله حسما لمادة الغرر وشدا لثنية الخطر فعزلته وعن تعاطي الثقلين نهيته»[56].

ورغم أن استقلال ابن أبي زيان عن الشيخ الناصري، وتنصيب نفسه شيخا بالمنطقة يشكل خطرا على نفوذ الناصريين لأهمية القنادسة في تموين موكب الشيخ الناصري ومن في ركابه، فإن أحمد بن ناصر قد برر عزل القنادسي بالخوف عليه «من سوء الخاتمة عياذا بالله إلا أن يتداركه الله بلطفه، وهذا كله هو الحامل لنا على عزل المذكور كما هو لانفاسة عليه في شيء ما نصحا له خاصة ولجميع المسلمين عامة»[57].

وبوادي درعة نفسه، حيث مقر الزاوية الناصرية وفي عقر دار الناصريين، اتهم الفقيه الشرحبيلي[58]، وهو من أكبر مقدمي الناصريين بدرعة في أيام الشيخ احمد بن ناصر، بمحاولة السيطرة على زاوية تامكَروت الناصرية بعد وفاة احمد بن ناصر سنة 1129هـ/1777م، فاستعدى عليه الناصريون الشريف بن اسماعيل عامل وادي درعة أنذاك[59] وقد عقد مولاي الشريف مجلسا قضائيا بقصبة أغلان، تحت رئاسة قاضي درعة في وقته عبد الكبير بن أحمد التينفوي[60].

وقد انتهت وقائع هذا المجلس بإرغام الفقيه الشرحبيلي بالتخلي عن التصدر للمشيخة وتلقين الاوراد بزاوية تامكَروت رغم أن الشيخ أحمد بن ناصر قد عهد له بذلك[61] وقد منع الشرحبيلي من العودة الى تامكَروت فالتحقت به أسرته الى قصر أغلان وذلك سنة 1132هـ/1719م وقد ظل بهذا القصر نحو سنتين كاملتين[62]. وبالرغم من أن الشرحبيلي قد منع من العودة الى تامكَروت فإن ذلك لم يمنعه من الاستمرار في ممارسة التصوف حيث لاتزال بعض الزوايا بدرعة تنسب اليه كما هو الحال بالنسبة لزاوية الفقوس بتينزولين.

وبعد رحلة الى فاس سنة 1134هـ/1721م عاد الشرحبيلي الى الجنوب فاستقر به المقام ببلاد صنهاجة ما بين سوس ووادي درعة حيث أسس زاوية أمانْ مَلُولَنْ (الماء الأبيض). وفي هذه الزاوية عكف

---

(56) الشيخ احمد بن ناصر : الرحلة الحجية — طبعة حجرية ج. 2 ص. 188.

(57) نفسه — نفس المرجع ص. 189.

(58) ترجم له محمد المكي الناصري في الدرر المرصعة ص. 132 والمرحوم محمد المختار السوسي في المعسول ج. 18 ابتداء من ص. 240.

(59) حول ولاية مولاي الشريف بن اسماعيل على درعة انظر الدرر المرصعة.

(60) ترجم له محمد المكي الناصري في الدرر المرصعة ص. 204 والفقيه محمد بن لحبيب التمنوكَالي في العقود الجوهرية ص. 15.

(61) حول الصراع على مشيخة تامكَروت بعد وفاة احمد بن ناصر انظر :
— محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة ص. 410 فما بعد.
— المختار السوسي : المعسول ج. 18 ص. 241 — 242.
— سليمان الحوات : الروضة المقصودة في مآثر بني سودة مخطوط خاص ص. 353.

(62) المختار السوسي : المعسول ج. 18 ص. 241.

الشرحبيلي على التدريس وتربية المريدين، فاكتسب شهرة واسعة تجاوزت بكثير ما كان له من صيت بوادي درعة.

ونستفيد من بعض اشارات صاحب الدرر المرصعة ان شهرة الشرحبيلي في موطنه الجديد قد اثرت بشكل سلبي على نفوذ الزاوية الناصرية بسوس، فقد تمرد بعض مقدمي هذه الزاوية الشيخ موسى بن محمد الكبير الناصري(63) فاستولوا على ما للزاوية من أملاك بسوس ولم يعودوا يرسلون أي شيء الى تامكَروت(64) وقد عجز موسى الناصري على استرجاع سلطته على هؤلاء المقدمين.

وهكذا نستخلص مما سبق ان هذه الزوايا ــ الدور ومقدميها كانوا وراء ظهور هذا الحشد الكبير من الزوايا بوادي درعة ما بين نهاية القرن الحادي عشر الهجري/17 ومطلع القرن الثاني عشر الهجري/18م(65). إذن فما هي علاقة المخزن بالمرابطين اصحاب الزوايا بدرعة ؟ وكيف ساهم المخزن في تكريس هذا الواقع الاجتماعي الذي جعل المرابطين والاشراف يتربعون على سلم التراتب الاجتماعي ؟

3 ــ علاقة أصحاب الزوايا بالمخزن وتعزيز الوضعية الاجتماعية للمرابطين بدرعة

أ ــ علاقة اصحاب الزوايا بالمخزن الى حدود نهاية القرن الثاني عشر الهجري/18م.

بعدما تمكنت الامارة العلوية الفيلالية من طرد السملاليين من درعة مع بداية النصف الثاني من القرن 11هـ/17م، عرفت مجموعة من الزوايا ذات الميول السوسية مثل زاوية سيدي علي بن محمد الشيخ، وزاوية سيدي مَحمد بن مهدي، وزاوية سيد الناس نوعا من الركود والتراجع(66) في حين استغلت زاوية تامكَروت تراجع هذه الزوايا القديمة لتطرح نفسها كبديل يملأ الفراغ الذي عرفته المنطقة بركود هذه الزوايا. وحتى يتأتى لزاوية تمكَروت ان تملأ هذا الفراغ بطريقة فعالة فقد حرص شيوخها الاوائل على أن تجمع ما بين وظيفتي التصوف والعلم فجلبوا إليها من زاوية أغلان بترناتة الفقيه مَحمد ابن ناصر. وقد نجح الشيخ سيدي عبد الله بن حسين في إقناع مَحمد بن ناصر بأخذ الورد عنه، أما الشيخ أحمد بن إبرهيم فقد عهد للفقيه مَحمد بن ناصر بمشيخة الزاوية حتى يضمن بقاءه بتامكَروت. فلما قتل أحمد بن ابرهيم سنة 1052هـ/1642م واجه مَحمد بن ناصر معارضة قوية من الأنصاريين أصحاب الزاوية(67)

(63) ترجم له ابنه محمد المكي بن موسى في الدرر المرصعة من ص. 374 الى ص. 415.

(64) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة ص. 410.

(65) من الزوايا التي أسسها الشيخ محمد بن ناصر في القرن 11هـ/17م زاوية الفتح وزاوية البركة، والشيخ صالح بن ابراهيم لكتاوي زاويتي بني صبيح القديمة والحديثة في نفس القرن، والشيخ احمد بن ناصر زاوية الفضل في القرن 12هـ/18، والشيخ سيدي يوسف بن عبد المالك التينمسلاوي زاوية اخف نوزرو (رأس الحجر) بتينزولين في نهاية القرن 12هـ/18م.

(66) نذكر هنا بأن الذين أسسوا هذه الزوايا بدرعة أو المتصدرين للعلم فيها يرجعون بأصولهم الى سوس. فالشيخ اعلي بن مَحمد من ماسة والشيخ محمد بن مهدي الجراري من قبيلة أولاد جرار الواسعة الانتشار بسوس والشيخ ابو القاسم عالم زاوية سيد الناس من تفنوت بسوس أيضا.

(67) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة باخبار اعيان درعة ص. 274.

لم يتغلب عليها إلا بصعوبة وبعد زواجه من السيدة حفصة أرملة الشيخ أحمد بن إبراهيم، الأمر الذي سمح له بالاستقرار بصفة نهائية بزاوية تامكَروت. إذن فكيف كانت علاقة مَحمد بن ناصر بعد تصدره للمشيخة بسلاطين الدولة العلوية الوليدة ؟

يبدو أن العلاقة بين زاوية تامكَروت على عهد مَحمد بن ناصر والدولة العلوية قد بدأت متعثرة حيث كان يشوبها نوع من التوتر والفتور منذ البداية خاصة في عهد مولاي رشيد الذي أظهر عزما أكيدا على الحد من نفوذ الزوايا، فقد كان السلطان متشككا في موقف مَحمد بن ناصر وهدد بتهديم زاوية تامكَروت[68] ويرجع أصل هذا التشكك الى العلاقات التي كانت تربط مَحمد بن ناصر في بداية حياته العلمية بالسملاليين الذين كانوا يسيطرون على وادي درعة في العقدين الرابع والخامس من القرن 11هـ/17م فقد ذكر صاحب الدرر المرصعة أن محمد بن ناصر قد شارط بقصر أغلان قبل انتقاله الى تامكَروت وتصدر للعلم بزاوية أبيه[69]. وعرف بالعلم والدين، وكانت له وجاهة وجاه عند أهل الوقت من الملوك أهل الساحل (هم السملاليون) وعظموه غاية الأعظام وأكرموه غاية الاكرام ووجد والده رحمه الله في ذلك راحة ففرح به غاية الفرح وسر به غاية السرور»[70].

وإذا كانت هذه الاشارات التي أفادنا بها صاحب الدرر قد أكدت لنا ارتباط مَحمد بن ناصر بأبي حسون السملالي، فإنهما من جهة أخرى قد سمحت لنا بالكشف عن موقف مَحمد بن ناصر المتحفظ من الامارة العلوية الوليدة، إذ يبدو ان الناصري لم يتسرع بإلغاء بيعة السملاليين التي في عنقه، فلما أنهار نفوذ أولياء نعمته بوادي درعة بعد معارك زاكَورة وبودهير وحاسي السور ومزجيطة[71] تشبث بموقفه المتحفظ من العلويين فلم يكن يدعو لهم على منبر زاوية تامكَروت. فلما تولى مولاي رشيد أمر الامارة العلوية وأظهر عزما أكيدا على توحيد المغرب هدد في إطار سياسته المناهضة لأصحاب الزوايا بتخريب زاوية تامكَروت ليلحقها بزاويتي الدلاء وايليغ، وأمام هذا التهديد أسرع مَحمد بن ناصر الى طلب مساعدة عبد الملك التجموعتي[72] أحد الذين درسوا عليه بتامكَروت، فأوعز اليه بأن ينصح السلطان مولاي رشيد في الرفق بأهل درعة[73] فهل كان عبد الملك التجموعتي وراء اقناع مولاي رشيد بعدم التعرض للشيخ مَحمد بن ناصر وزاوية تامكَروت ؟

وعلى كل وسواء تدخل عبد الملك التجموعتي عند السلطان مولاي رشيد لصالح مَحمد بن ناصر أم لا، فإن الشيء الأكيد أن زاوية تامكَروت لم تكن تشكل أي خطر على الامارة العلوية الوليدة

(68) احمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري (طبعة حجرية) ج. 1 — ص. 166.

(69) حول زاوية أغلان انظر : محمد حجي : الحركة الفكرية ج. 2 — ص. 536.

(70) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة مخطوط خاص ص. 269.

(71) المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا، صص. 117 — 125 — 126.

(72) كان عبد الملك التجموعتي من أبرز الذين درسوا بتامكَروت على مَحمد بن ناصر، وقد كان قاضيا بسجلماسة في دولة مولاي رشيد العلوي.

(73) احمد بن خالد الناصر : طلعة المشتري في النسب الجعفري، ج. 1 — ص. 259.

أنذاك. وأن مَحمد بن ناصر لم يكن له أي طموح سياسي مثلما كان لمعاصريه من أهل الدلاء وإيليغ، فلما تأكد مولاي رشيد من هذه الحقيقة اعرض عن القضاء عن زاوية تامكَروت واكتفى بمراقبتها عن كثب.

فلما تولى مولاي اسماعيل شؤون الدولة سنة 1672/1083، صادفت فترة حكمه، أيام مشيخة أحمد بن ناصر على زاوية تامكَروت. وفي عهد هذا الشيخ عرفت زاوية تامكَروت شهرة واسعة تجاوزت الحدود الوطنية. ولا مشاحة إذا قلنا أن الزاوية الناصرية قد عرفت انطلاقتها الحقيقية في عهد هذا الشيخ.

فقد أسس هذا الشيخ مجموعة من الزوايا — الدور على طول واحة وادي درعة، كما أسس خزانة علمية ضخمة للاقراء والتدريس فتوارد عليها العلماء من مجموع انحاء المغرب[74] وقد توسعت الزاوية في تأثيل الاملاك، وتحولت زاوية تامكروت الى سوق تجارية كبرى يرتادها التجار من بلاد السودان وسوس ومراكش وفاس عبر تافيلالت وذلك بفضل ما وفره الناصريون من شروط الامن وضمان مرور القوافل التجارية عبر المحاور التجارية بالجنوب، لنفوذها الواسع وكلمتها المسموعة بين قبائل الرحل وخاصة قبائل أيت عطا التي كانت تنتشر على طول اهم الطرق التجارية الصحراوية.

كان هذا التوسع المادي والمعنوي الذي عرفته زاوية تامكَروت مصدر قلق وازعاج للجهاز المخزني عامة وللسلطان مولاي اسماعيل خاصة. وقد زاد من مخاوف المخزن من هذه الزاوية أن أحمد بن ناصر قد نهج طريق أبيه في عدم ذكر السلطان في خطبه المنبرية، كما كان لا يقف لأي زائر من الامراء لتامكَروت، فاتهموه بالكبر وبغض السلطان[75].

ويبدو ان التقارير التي كان السلطان يتوصل بها من درعة قد استخرقت الكثير من التهم على الشيخ الناصري، فاستدعاه السلطان الى مكناس ووضعه تحت الاقامة الجبرية بضريح عبد الرحمان المجذوي حتى إذا تأكد من سلامة موقفه سمح له بالعودة الى زاوية تامكَروت، ولكنه في نفس الوقت منعه من السفر الى الحج لموسمين مواليين (1118 و1120هـ) وقد ذكر أحمد بن ناصر أن السلطان لم يسمح له بالسفر إلى الحج «لأوجه تخيلها وأوهام انتحلها ولم يكن من ذلك شيء ولا له دفـء ولا ردء وإنما هي تسويلات نفسانية ووساوس شيطانية»[76].

وإذا كان الشيخ أحمد بن ناصر قد اكتفى بالتلميح الى حقيقة الأسباب التي جعلت السلطان يمنعه من الحج لموسمين متواليين، فإن تلميذه احمد بن داوود الهشتوكي[77] قد حدد لنا جملة من الاسباب التي كانت وراء توتر العلاقات بهذا الشكل بين السلطان مولاي إسماعيل واحمد بن ناصر، ومن أخطرها

(74) أحمد بن داوود الهشتوكي : هداية الملك العلام : مخطوط ضمن مجموع بالخزانة العامة. الرباط رقم ص. 41.

(75) أحمد بن داوود الهشتوكي : نفس المرجع ص. 46.

(76) احمد بن ناصر : الرحلة الناصرية : طبعة حجرية ج. 1 — ص. 7.

(77) انظر ترجمة أحمد الهشتوكي عند محمد المكي الناصري في الدرر صص. 20 — 44 وعند عباس بن ابراهيم في الاعلام ط. 2 — ج. 2 — ص. 352.

اتهام احمد بن ناصر بالاتصال بابن السلطان مَحمد العالم الذي ثار على أبيه بتارودانت ما بين 1113 و1115هـ[78]. وعلى كل فقد انتهى هذا الجو المتوتر بين السلطان وزاوية تامكَروت بشكل سلمي، وسمح للشيخ أحمد بن ناصر بالعودة الى تامكَروت وممارسته لما كان يقوم به من نشاط علمي وتصوفي، كما رخص له بالسفر الى الحج خلال موسم سنة 1121هـ/1709م.

وبعد وفاة الشيخ أحمد بن ناصر سنة 1129هـ/1717م، وجدت العائلة الناصرية نفسها أمام مشكل المشيخة بزاوية تامكروت، فقد تصدر للمشيخة الحسين بن محمد الشرحبيلي بوصية من أحمد ابن ناصر[79] وهذا يعني ان العائلة الناصرية لن تستفيد من الموارد الاقتصادية الهائلة التي أصبحت تتوفر عليها زاوية تامكَروت، وقد استعان الناصريون بمولاي الشريف بن اسماعيل، عامل السلطان على وادي درعة، لمنع الشرحبيلي من التصدر للمشيخة وتلقين الاوراد، ثم طرد الشرحبيلي بصفة نهائية من تامكَروت سنة 1132هـ/1721م.

تعتبر هذه الخطوة التي أقدم عليها مولاي الشريف بالتدخل في شؤون زاوية تامكَروت بداية عهد جديد بين المخزن وهذه الزاوية، فقد نصب الناصريون موسى بن محمد الكبير، شيخا على الزاوية بعد طرد الشرحبيلي، فتخلى كلية عن الموقف الديني لجده وعمه، وصار يدعو لسلاطين الدولة العلوية على منبر مسجد الزاوية، وبالمقابل فإن المخزن قد سمح للناصريين باتخاذ الأتباع وتأسيس فروع أخرى لزاويتهم في غير ما جهة من المغرب.

وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله (ت 1205هـ/1792) توطدت العلاقة بين المخزن وشيخ زاوية تامكَروت في وقته سيدي يوسف ابن محمد الكبير الناصري (ت 1197هـ/1183م)[80]. فقد كان هذا الشيخ يحضر مراسم تجديد البيعة للسلطان سيدي محمد بن عبد الله، كما كان هذا الأخير لا يرد له شفاعة[81].

وفي ظروف غامضة توترت العلاقة من جديد بين المخزن وزاوية تامكَروت، في أيام الشيخ سيدي علي بن يوسف الناصري[82] ويظهر أن الزاوية الناصرية قد ارتكبت خطأ ما في حق المخزن فقرر السلطان سيدي محمد بن عبد الله سنة 1203هـ/1788م) توجيه حملة عسكرية قوية مجهزة بالانفاض والمهاريز

---

(78) ومما كتبه المشتوكي في اطار دفاعه عن أحمد بن ناصر.

«فإن الشيخ والله ما اضر أحدا أولا ولا ءاخرا ولا سولت له نفسه قط التكبر ولا الرياسة على أحد ولا همه ذلك أصلا ولا بغض أمير المومنين قط ولا نصر أحدا من أولاده وإنما كان ما يذكره بعض الحساد مزورا عليه وكذلك ما ينسب الحساد اليه من الكتب بتارودانت كذب وزور وبهتان وفجور بل استخرقوا عليه ذلك» هداية الملك العلام — ص. 45.

(79) كان الشيخ احمد بن ناصر اثناء رحلته الحجية سنة 1122هـ، قد لدغته عنكبوت في مدينة الاسكندرية فكتب وصيته للفقيه الحسين بن محمد الشرحبيلي، إلا أن الناصريين يؤكدون أن أحمد بن ناصر قد الغى هذه الوصية قبل وفاته بقليل.

(80) ترجم للسيد يوسف بن محمد الكبير الناصري كل :

— ابن مخلوف الدمشقي : شجرة النور الزكية — ترجمة رقم 1431 — ص. 358.

— سليمان الحوات : الروضة المقصودة في مآثر بني سودة. مخطوط خاص ص. 425 — 430.

(81) الضعيف الرباطي : تاريخ الضعيف. مخطوط خ.ع. بالرباط رقم د. 758 ص. 91.

(82) تولى سيدي علي بن يوسف امر الزاوية بعد أبيه سنة 1183 وقد توفي سنة 1234هـ.

الى وادي درعة، لقطع النخيل «وإخلاء الزاوية الناصرية وأن يحتوي على مالها ويخليها مثل بجعد»[83] وما كادت القوات المخزنية تغادر مراكش نحو بلاد درعة حتى فوجىء السلطان بخروج ابنه اليزيد عليه في شمال البلاد، فأمر بإرجاع القوات المخزنية الموجهة الى درعة لمواجهة المستجدات التي قد تطرأ بعد ثورة اليزيد.

ورغم أننا لا نتوفر على ما يساعدنا في الكشف عن الاسباب التي جعلت العلاقة تتوتو من جديد بين المخزن وزاوية تامكَروت فإننا نعتقد أن هذا التوتر له علاقة بالغليان الاجتماعي الذي عرفته بلاد درعة في السنوات الأخيرة من عهد سيدي محمد بن عبد الله، فقد أكثرت قبائل أيت عطا من هجوماتها على سكان درعة فتأثرت هيبة المخزن بالمنطقة بهذه الهجومات، خاصة ان عماله بالمنطقة قد عجزوا كلية عن ردع القبائل المترحلة ووضع حد لهجومها المتكرر على السكان، وليس من المستبعد على يوسف أن يكون سيدي علي ابن يوسف الناصري، وفي إطار الحفاظ على مصالح زواياه بدرعة وفي المناطق المجاورة، قد سالم قبائل أيت عطا وسكت عن عثيها وفسادها بالمنطقة، وهو موقف لا يرضاه المخزن من الزاوية الناصرية على كل حال، فقرر السلطان تخريب الزاوية وتهديمها على رؤوس أصحابها لولا أن فاجأته ثورة إبنه مولاي اليزيد.

وهكذا نستخلص مما سبق أن العلاقة بين المخزن وزاوية تامكَروت طيلة قرن ونصف من الزمن، لم تخضع لوتيرة واحدة بل كانت تتعرض بين الحين والاخر لهزات عنيفة وتوترات حادة، وقد كان السلاطين خلال هذه المدة وتحت تأثير سورة الغضب يهددون غير ما مرة بتهديم الزاوية الناصرية.

أما علاقة المخزن بالزوايا الأخرى بوادي درعة مثل الزاوية الصالحية بواحة لكتاوة، والزاوية البونية بفزواطة، والزاوية القادرية التينمسلاوية بواحة تينزولين، فقد كانت خلال هذه الفترة جد عادية، فقد ظلت هذه الزوايا محدودة التأثير في دائرة لا تتجاوز في أبعد الحدود القصر الذي ولدت فيه الزاوية والمناطق القريبة منها. وكان شيوخها يكتفون بتقديم الهدايا التقليدية للمخزن في المناسبات الدينية، ويجددون ولاءهم وبيعتهم للسلطان على رأس كل سنة، وبالمقابل كان السلطان يجدد لهم ما بأيديهم من ظهائر التوقير والاحترام. اذن فما هي طبيعة العلاقة بين المخزن وأصحاب الزوايا. وكيف ساهمت هذه العلاقة في تعزيز الوضعية الاجتماعية للمرابطين ؟

ب ــ تعزيز الوضعية الاجتماعية للمرابطين من خلال علاقتهم بالمخزن خلال القرن الثالث عشر الهجر /19م.

لما استقر أمر السلطنة لمولاي اسلمان بصفة نهائية ابتداء من سنة 1211هـ/1796م وجه رسالة الى كبير زاوية تامكَروت الناصرية في وقته سيدي علي بن يوسف يستقدمه الى مكناس[84] فلما

(83) الضعيف الرباطي : المرجع السابق ص. 111 ــ 112.

(84) ــ نص رسالة مولاي اسليمان الى كبير الزاوية الناصرية منشور عند :

ــ محمد بن اليمني الناصري : **ضرب نطاق الحصار على أصحاب نهاية الانكسار** ــ المطبعة الاهلية ــ الرباط ــ ص. 48.

ــ د. محمد المنوني : حضارة وادي درعة... دعوة الحق ــ العدد الثاني السنة 18 ــ اكتوبر 1973 ــ ص. 153.

حضر بين يديه، أخذ عنه الورد الناصري[85] ليبرهن السلطان على نية المخزن في إنهاء جو التوتر الذي طرأ على العلاقة بين سيدي يوسف بن علي، والسلطان سيدي محمد بن عبد الله. وبعد سنتين من هذا اللقاء تلقى سيدي يوسف بن علي الناصري ظهيرا سليمانيا يسبل أردية التوقير والاحترام على زوايا الناصريين «حيثما كانت وتعينت، وعلى أصولها وأملاكها ورباعها فلا يرسم عليها أدنى وظيف ولا تسام بأقل تكليف وكذا خدامها ومن إنضاف إليها والمقدمون والمباشرون لأمور الزوايا، لهم من التوقير والاحترام مثل من أضيفوا اليه وحسبوا عليه... ونأمر جميع من يقف عليه من عمال وادي درعة وغيره ان يعمل بمقتضاه ولا يحيد عما أبرمه أمرنا الشريف وأمضاه ـ كتب في رابع جمادى الاولى عام 1213هـ/(1798)»[86].

كانت عادة تسليم ظهائر التوقير والاحترام لأصحاب الزوايا بوادي درعة سائدة منذ العهد السعدي[87] ولم يتخل سلاطين الدولة العلوية عن هذا التقليد، اعترافا منهم بالفضل لأصحاب الزوايا لما كانوا يقومون به من نشر للتعليم الديني والتخفيف من ظروف الأزمات الاجتماعية والسياسية لدورهم التصالحي بين القبائل في المنطقة.

كانت مظاهر التوقير والاحترام طيلة قرن ونصف من الزمن تقتصر على شيخ الزاوية ومن في دائرته من أخص الاتباع والمقربين. ومع بداية عهد السلطان مولاي اسلمان سنة 1206/1792م، صارت دائرة التوقير والاحترام تتسع شيئا فشيئا لتشمل بالاضافة الى الزاوية الأم وشيخها بالحياة، كل الزوايا ــ الدور والزوايا القصور التابعة لشيخ الزواية، ومقدميها والعاملين والمباشرين لأمورها بحيث صار كل الذين يعملون في خدمة الشيخ وفروع زاويته على طول واحات وادي درعة، معفون من كل التكاليف المخزنية. وتلح الظهائر السلطانية على عمال المخزن بوادي درعة ألا يحيدوا عما أبرمه الامر الشريف.

ونلاحظ من خلال ما تجمع لدينا من ظهائر التوقير والاحترام التي جمعناها بمختلف زوايا درعة، أن أمرها لم يكن محصورا في الزاوية الناصرية وحدها، بل إن الرغبة في الانفلات من الوظائف المخزنية والخروج عن سلطة القواد المحليين[88] وما يمارسونه من ظلم دفع بأصحاب الزوايا الى دق أبواب السلطان، مولاي سليمان لتجديد ظهائر أجدادهم. وما أن يعود صاحب الزاوية الى درعة حتى يتسابق المستضعفون من الذين طالتهم تعسفات القواد وظلم العمال الى الاستظلال بظله والدخول في خدمته. بل إن بعض سكان الوادي كانوا يفضلون أن يتصدقوا بأملاكهم الى هذه الزاوية أو تلك، ويعمل فيها تحت نظر شيخ الزاوية على أن يتركها بيده لتغتصب منه بالقوة من لدن قائد جائرا أو قبيلة مترحلة.

وإذا كانت سياسة ظهائر التوقير والاحترام قد ساهمت الى حد كبير في تعزيز الوضعية الاجتماعية والاقتصادية لأصحاب الزوايا من المرابطين بدرعة، فإنها من جهة ثانية قد كشفت لنا عن الدور الذي

---

(85) نص الظهير نشر : محمد بن الجمني الناصري : في كتاب : ضرب نطاق الحصار ص 49.

(86) الضعيف الرباطي : تاريخ الضعيف مخطوط الخزانة العامة ص. 202.

(87) لا تزال بعض الظهائر السعدية عند أصحابها بدرعة ولم نتمكن من أخذ صور لها لتهرؤها وقدمها.

(88) سبق لنا أن أشرنا في فصل سابق الى ما قام به مولاي اسليمان من إنشاء قيادة محلية بدرعة.

كان يقوم بها أصحاب الزوايا من اطلاع السلطان على بعض أخبار المنطقة (انظر على الخصوص الرسائل التي كان يتلقاها سيدي احمد بن التهامي الناصري من المخزن في آخر هذا الفصل). وبفضل هذه الاخبار عن المنطقة كان المخزن يراقب القواد المحليين، وتحركات القبائل المترحلة والطامعين في الملك ليتأتى له التدخل في الوقت المناسب كلما دعت الضرورة الى ذلك.

ولكن أخطر ما أفرزته سياسة ظهائر التوقير والاحترام بالنسبة لزوايا وادي درعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م هو فتح باب الزاوية على مصراعيه أمام المخزن للتدخل في شؤون المشيخة وتنصيب من اختاره على رأس الزاوية حتى ولو لم تتوفر فيه كل الشروط لهذا المنصب[89] خاصة وأن المتطلعين من أبناء الزوايا صاروا يتسابقون بهداياهم الى أبواب القصر السلطاني. وقد كان السلطان يتحرى من أبناء المرابطين من يتوسم فيه القدرة والكفاءة على الاسراع في تبليغ الاخبار الى السلطان وإشعاره بكل المستجدات قبل فوات الاوان، وفي وقت كانت فيه الدول الاوروبية الاستعمارية تتسابق إلى أقتطاع بعض الاطراف من المغرب والاستعداد لاستعماره.

وهكذا يتضح مما سبق، أن المرابطين من أصحاب الزوايا، وبعد التحولات التي طرأت على وضعية الزوايا بصفة خاصة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م، قد تحولوا نسبيا عن الوظائف الاساسية التي أسست الزوايا من أجلها، وصاروا منشغلين اكثر من ذي قبل بتكديس الثروات وتأثيل الأملاك، خاصة ان سياسة ظهائر التوقير والاحترام قد ساعدت على تعزيز وضعيتهم الاجتماعية والاقتصادية بين سكان الوادي[90] وتدل كل المعطيات التارخية على أن جل أصحاب الزوايا في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/19م قد تخلوا كلية عن تقاليد أسلافهم في نشر العلم وبث التصوف، وصاروا يكتفون بتذكير السكان وعمال المخزن بالوادي، بما كان لأسلافهم من مجد معززين ذلك بما تراكم لديهم من ظهائر التوقير والاحترام والوسائل المخزنية المتواترة على احترامهم وعدم خرق العادة عليهم، الامر الذي كرس الى حد كبير مسألة التراتب الاجتماعي في نفسية سكان المنطقة.

وبالرغم من أن السلطان مولاي عبد العزيز (1312—1326هـ/1894—1908) قد حاول إلغاء سياسة ظهائر التوقير والاحترام التي كانت تعفي أصحاب الزوايا من كل التكاليف المخزنية بادخاله لنظام الترتيب لاصلاح أحوال البلاد المالية، فإن المرابطين تشبثوا، بعد توقيع معاهدة الحماية بتقاليد أجدادهم، فكانوا يسافرون الى الرباط أو فاس ويعودون بظهائر جديدة تعفيهم من الكلف المخزنية وتوصي بعدم خرق العادة عليهم.

4 — «العْــوامْ»

تطلق كلمة «العْوَام» ومفردها «عامِّي» بواحات درعة، حسب سلم التراتب الاجتماعي المتوارث بالمنطقة على كل العناصر البشرية، التي توجد خارج دائرة الأشراف والمرابطين، لذلك يرتبون في الدرجة

(89) ذلك ما استفدناه من عدد كبير من الظهائر السلطانية التي عثرنا عليها بالوادي.

(90) كان أصحاب الزوايا في بداية عهد الحماية يستحوذون على ثلثي الأراضي الزراعية بدرعة انظر

L. TRANIE: Aperçu économique sur la vallée du Draa, R.G.M, N° 3 et 4, 1935. p. 257.

الثالثة بعد هاتين الفئتين. ويشكل «العْوام» القاعدة العريضة في هرم التراتب الاجتماعي، وعليهم يقع ثقل الوظائف المخزنية والتكاليف الإمامية حسب التعبير المخزني. وينقسم العوام بدرعة الى فئتين اساسيتين :

أ ــ الأحْــرارْ[91]

تتشكل فئة الأحرار بوادي من كل العناصر البشرية البيضاء التي انحدرت من أصول أمازيغية[92] أو عربية[93] وقد كان الأحرار في كل قصر، الفئة المحاربة والتي تتحكم في الثروات (الأراضي، ملكية النخيل، ملكية الماء، وقطيع الاغنام الخ) ويترفعون عن ممارسة الاعمال اليدوية، كما يعزفون عن مزاولة الحرف المهنية مثل الحدادة والسكافة وغيرها حيث يعتبرونها مهنا وضيعة من اختصاص الفئات الدنيا مثل العبيد والحراطين وغيرهم.

ب ــ الحــراطيــن

يعتبر الحراطين من أهم الفئات الاجتماعية، ليس فقط من حيث عددها، وإنما أيضا من حيث أهميتها الاقتصادية والاجتماعية اذ تعتبر أقدم عنصر بشري عمر واحات وادي درعة منذ أقدم العصور[94].

وإذا كانت فئة الأحرار تشكل الفئة المحاربة والمالكة للثروة[95] فإن فئة الحراطين تشكل الفئة المنتجة، حيث كان دورها الاساسي يقتصر على تفليح الأرض وزرعها برسم المالكين الحقيقيين لها من الأشراف والمرابطين والأحرار، ولا مشاحة إذا قلنا إن الحراطين ظلوا ــ ولقرون طويلة ــ معتمد الواحات في الاعمال الزراعية وتوابعها كصيانة الآبار والسواقي وتأبير النخيل وتشذيبه كلما اقتضت الضرورة ذلك، وإن دل هذا على أن شيء فإنما يدل على أن الحراطين كانوا يشكلوا القاعدة البشرية الاساسية التي كان يقوم عليها اقتصاد مجتمع الواحات بالجنوب المغربي.

---

(91) لا يستبعد أن يكون أصل هذه الكلمة مشتق من لفظ «أمازيغ» الذي يعني في اللهجة الصنهاجية الرجل الحر، الذي يرفض الانصياع لأية سلطة كيفما كان نوعها، وقد سبق لنا في فصل سابق من هذا البحث أن أشرنا الى نزول الامازيغيين (الأحرار) بوادي درعة منذ مطلع التاريخ بالمنطقة.

(92) نقصد بذلك كل القبائل التي تتكلم اللهجة البربرية بالمنطقة وينحدر الامازيغيون من المجموعات الزناتية والمجموعات الصنهاجية التي تعاقبت على تعمير واحات وادي درعة منذ فجر التاريخ الى وقت متأخر من القرن الماضي. وسنستعرض في فصول لاحقة من هذا البحث كل القبائل الامازيغية التي عمرت بلاد درعة خلال الفترة التي تناولها البحث، حيث تعتبر هذه القبائل نفسها من صميم أحرار وادي درعة.

(93) يندرج الأحرار العرب بدرعة ضمن المجموعات المعقلية التي طرأت على وادي درعة منذ القرن 10هـ/16م مثل قبائل أولاد يحيى، وقبائل الروحة، وقبائل بني محمد، وقبائل الغنائمة وغيرها من القبائل العربية التي تعتبر من قبائل بني معقل التي عمرت بلاد درعة خلال الفترة التي تمتد من أواسط القرن 7هـ/13م الى غاية أواسط القرن 10هـ/16م. بالاضافة الى بعض المجموعات الاخرى التي تتكلم اللهجة العربية، ولكننا نجهل كل شيء عن أصولها العرقية.

وسنتطرق بتفصيل في فصول لاحقة من هذا البحث عن مناطق انتشار هذه القبائل العربية بواحات درعة.

(94) كانت المصادر التاريخية القديمة تشير الى أسلاف الحراطين بالاثيوبيين الدرعيين، أما في العصور المتأخرة، فكان الحراطين يعرفون بدراوة انظر على سبيل المثال : مارمول : افريقيا ج. 3 ــ ص. 148 ــ 149.

(95) أصبح الأحرار من العناصر العربية والأمازيغية يتحكمون في الثروات بعد تغلبهم على المنطقة، واستيلائهم على الأراضي بالقوة.

ويمتاز الحراطين بطبيعتهم المسالمة ودماثة الاخلاق[96] وحسن الظن بالناس، وعزم أكيد على تحدي الصعاب. كانت قبائل الرحل تستغل هذه الطبيعة المسالمة عند الحراطين فتهاجمهم على حين غفلة، فتستولي على أراضيهم بالقوة. وتدل كل المعطيات على أن قبائل الرحل التي كانت تطرأ على وادي درعة سواء من المناطق الصحراوية أو من المناطق الجبلية، كانت تستغل كل فراغ سلطوي بالمنطقة لتزحف على القصور وتستولي عليها بالقوة، الامر الذي كان يدفع بالحراطين الى عقد سلسلة من الاتفاقيات التكفلية مع قبائل أيت عطا على أساس تفويت جزء من ممتلكاتهم مقابل حمايتهم[97]. ونستشف من وثائق الاتفاقيات وغيرها، أن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للحراطين بوادي درعة قد تراجعت بشكل خطير، نتيجة الهجومات المتكررة التي كانت تقوم بها قبائل الرحل على واحات الوادي، خاصة منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م الى غاية مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م[98].

أ ــ التسمية والأصول التاريخية للحراطين

لم يكن سكان وادي درعة من السمر خلال العصور الوسطى يعرفون بالحراطين وإنما كانوا يعرفون بـ «دراوة»[99] ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن كلمة «حرطاني» لاوجود لها على الاطلاق في كتب التاريخ التي كانت تتحدث عن العمليات الردعية التي كان يقوم بها سلاطين الدول التي تعاقبت على حكم المغرب بالمناطق الجنوبية[100] وغياب هذه الكلمة في الكتابات الوسطوية، يجعلنا نعتقد أن الكلمة، قد ظهرت في فترات لاحقة[101].

وبالرغم من كوننا لم نتمكن، من تحديد الفترة التي ظهرت فيها هذه الكلمة بكيفية دقيقة، فإننا نعتقد أنها بدأت تتداول شفويا في المرحلة الاخيرة من عهد السعديين، فقد ورد في كتاب **الدرر المرصعة**، لمحمد المكي بن موسى الناصري، أن الشيخ أحمد بن ابراهيم الانصاري (المتوفى سنة 1052هـ/1642م)[102] كثيرا ما كان يردد أن «توبة العبد توبة وربع، وتوبة الحرطاني توبة كاملة، وتوبة غيره ربع توبة»[103].

وإذا كانت هذه الاشارة تؤكد لنا تداول حرطاني في الخطاب الشفوي لأهل درعة في العقود الاربعة الأولى من القرن الحادي عشر الهجري/17م، فإنها في جهة تسمح لنا بتحديد موقع الحرطاني بين

---

(96) محمد بن لحبيب التمنوكَالي : العقود الجوهرية مخطوط خاص ص : 4.

(97) انظر الفصل الذي سنخصصه للاتفاقيات التكفلية من هذا البحث.

(98) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute valleé du Draa, in A.M., Volume 9, Tome II, de p. 62 à p. 74.

(99) كانت كلمة «دراوة» تطلق عامة على سكان درعة، إلا أنها تطلق محليا على الحراطين تمييزا لهم عن باقي العناصر الاخرى.

(100) كانت هذه العمليات الردعية تنظم الى الجنوب لوضع حد لشغب قبائل الرحل، خاصة القبائل الصحراوية التي كانت تعتمد على العنف مع المستقرين بدرعة.

(101) نعتقد أن الكلمة ظهرت مع قبائل أيت عطا كما سنوضح ذلك في مكان لاحق من الفصل.

(102) انظر ترجمته في الدرر المرصعة مخطوط خاص ص. 9.

(103) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة : ص. 10.

الفئات الاجتماعية بواحات الوادي، فالحرطاني يحتل موقعا وسطا بين العبد وغيره في قاعدة هرم السلم الأجتماعي بالمنطقة.

ومع بداية عهد الدولة العلوية بدأت تطالعنا كلمة «حرطاني» في بعض الرسائل المتبادلة بين مولاي محمد بن الشريف وأبي حسون السملالي(104) ويظهر أن الكلمة انتشرت حتى في المناطق الشمالية من البلاد، فقد ورد في رسالة من قاضي فاس في وقته العربي بن أحمد بردلة(105) الى السلطان مولاي اسماعيل، يذكره فيها بأن «الحراطين أحرار مثل سائر أحرار المسلمين»(106) وذلك في قضية تشكيل عبيد البخاري(107).

ومنذ ذلك الحين بدأت كلمة حرطاني تظهر في الكتابات الرسمية والعادية للتدليل على فئة اجتماعية من سكان الواحات : فماذا تعني كلمة حرطاني من حيث الاشتقاق ؟

من المثير للانتباه في الكتابات التاريخية المغربية، أن جل المؤرخين لم يهتموا كثيرا بالبحث عن أصل الكلمة، وكانوا يكتفون فقط بالتأويل المتداول شفويا، قبل أن يدونه الناصري خلال القرن الماضي، ويرتكز هذا التأويل على القول بأن الحرطاني تحريف عن الحر الثاني. ويعتبر الناصري أول من حاول حل إشكال التسمية كتابة، فقد ذكر أن لفظ «الحرطاني» ومعناه في عرف أهل المغرب العتيق، وأصله الحر الثاني، كأن الحر الأصلي حر أول وهذا حر ثان ثم كثر استعماله على الالسنة فقيل الحرطاني على ضرب من التخفيف»(108).

أما المرحوم المختار السوسي، الذي كان يتوقف من حين لآخر في معسوله، لتتبع الدلالات اللفظية لبعض الكلمات الشلحية والعربية في بعض الأحيان، فلم يزد على القول بأن كلمة حرطاني «تصحيف للحر الثاني»(109) وهذا تبن واضح لرأي الناصري دون مناقشة. ولعل شيوع هذا التأويل وانتشاره على نطاق واسع هو الذي جعل جل الباحثين عندما تعترضهم كلمة حرطاني يكتفون بوضع لفظتي عبد محرر بين قوسين ويمرون عليها مر الكرام.

أما التأويل الثاني لكلمة حرطاني، فإنه لا يقل شيوعا وانتشارا عن الرأي الاول، ويرتكز على القول بأن لفظ الحرطاني تحريف عن كلمة «الحراث». وقد انطلق هذا التأويل من الواقع الاجتماعي والاقتصادي للحراطين بالواحات الجنوبية، وارتباط هذه الفئة الاجتماعية بالاعمال الزراعية سواء بمناطق سكناها الاصلية أو بالمناطق التي هاجرت اليها.

---

(104) محمد المختار السوسي : إيليغ قديما وحديثا ص. 126.
(105) انظر ترجمته عند الناصري : الاستقصا ج. 7 — ص. 54.
(106) علي بن عيسى العلمي : نوازل العلمي ج. 2 — ص. 39 — ملزمة 8 — طبع فاس 1332.
(107) فيما يتعلق بتشكيل عبيد البخاري انظر الناصري : الاستقصا ج. 7 — صص. 56 — 57 — 58.
(108) الناصري : الاستقصا ج. 7 — ص. 58.
(109) محمد المختار السوسي : المعسول ج. 5 — ص. 192.

وكما وجد لفظ الحراطين في الكتابات الرسمية، فقد وجد كذلك «الحراث» في الظهائر الملكية، مما يدل على أن الشائع المتداول في عرف المغاربة بأن الحرطاني هو «الحراث» أي الذي يحرث الارض ويعتني بها. فقد ورد في ظهير ملكي يعود الى عهد السلطان محمد بن عبد الله، بأن السلطان قد حرر «لمولاي الطيب أصحابه الحراثين»[110] وبهذا المعنى أيضا كان المتحذلقون من طلبة وادي درعة يستعملون لفظ الحرثاني، في مكاتباتهم، فقد جاء في رسالة كرد على استفسار من القاضي سيدي محمد بن محمد ابن العربي الحاجي[111] لأحد المكلفين بأراضي بعض اليتامى ما يلي «كتابك المبارك صفحناه وقرأناه وفهمنا لفظ سيدنا، وبحثنا عن الملك المذكور، ووجدنا بقعتان محروثتان وحرثهما حرثانهم محمد بن عبد الرزاق مع سيدي محمد بن اعلي النصف لليتامى وأمهم والنصف للحارثان»[112].

إلا أن جل الوثائق التي بين أيدينا، والتي جمعناها بوادي درعة، الخاصة بتنظيم الشؤون الفلاحية بين الحراطين كمزارعين خماسة، وأرباب الأملاك من الأشراف والمرابطين وغيرهم، غالبا ما كان كتابها يستعملون لفظ الحرطاني، وان كان ذلك يرجع في الواقع الى المستوى الثقافي لكاتب الوثيقة، وهو في الغالب الأعم دون مستوى التحذلق والسعي وراء ابراز المعنى الحقيقي لكلمة حرطاني.

إذن فهل يمكن القول وانطلاقا من هذين الرأيين بأن لفظ الحرطاني تحريف في كلا التأويلين ؟

ولعدم قناعتنا بهذين التأويلين اقترحنا رأيا مغايرا لحل اشكال التسمية.

من الملاحظ ان كلمة حرطاني تنتشر في مجالات من الأرض تمتد من منطقة وركلة بالجزائر الى المحيط الأطلسي غربا ومن الأطلس المتوسط شمالا الى ولاتة بموريطانيا جنوبا[113] وتوجد أهم التجمعات الحرطانية بهذه المجالات بواحات جبل باني عموما وواحات درعة وتافيلالت وتازرين وتاغبالت وفركالة خصوصا. أما خارج هذه الواحات، فإن الحراطنة عبارة عن فتات بشري يتساكن مع العناصر الأخرى التي قد تطلق عليهم كلمات أخرى مثل «أسوقي» و«أسمخ» و«أقبلي» وغيرها وهي تسميات لا تخلوفي واقعها من روح التندر والاستعلاء على هذه العناصر السوداء أو الخلاسية كما توحي بذلك التسميات التي أشرنا إليها. وانطلاقا من انتشار كلمة حرطاني يمكن الخروج بالملاحظات الآتية :

1 ــ أن هذه المجالات قد تعرضت ومنذ القرن 7هـ/13م والى غاية القرن 14هـ/20م لزحفين كبيرين من القبائل المعقلية ثم القبائل الصنهاجية بعد تشكيل اتحادية أيت عطا وقد كانت القبائل العربية تتساكن مع القبائل الصنهاجية، وان القبائل العربية والقبائل الصنهاجية تستعمل كلمة «الحرطاني» في صيغتين متقاربتين.

---

(110) انظر هذا الظهير الملكي عند عبد الرحمان بن زيدان في الاتحاف ج. 3 ــ ص. 83.

(111) انظر ترجمته عند الفقيه محمد بن لحبيب التمنوكالي في كتاب العقود الجوهرية في الانباء الدرعية ــ مخطوط خاص ــ ص. 65.

(112) يعود تاريخ هذه الوثيقة الى أواسط القرن 13هـ/19م.

(113) Gabriel CAMPS : Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara. R.O.M.M, Tome 3, 1973, p. 43.

2 ــ بالنسبة للقبائل العربية تنطق الكلمة «حرطاني» وتجمعها على الحراطنة والحراطين. ولا وجود لهذه الكلمة أو ما يشابهها في معاجم|اللغة العربية. ولعل غياب فعل حرطن ومشتقاته في هذه المعاجم هو الذي حدا بالمؤرخين المغاربة الى التخرجيين السابقين حول تسمية الحراطنة.

3 ــ بالنسبة للعناصر الصنهاجية وخاصة أيت عطا، فإنهم يستعملون كلمة «أحرضان» وتجمع على «إحرضان» بكسر أوله، والكلمة تعني في اللهجة الامازيغية الصنهاجية الاسود المائل الى السمرة[114].

4 ــ عندما نتتبع الاستعمال المكثف لكلمة «حرطاني» او «أحرضان» نجد أنها تستعمل بشكل خاص في مجالات انتشار قبائل أيت عطا وهي قبائل صنهاجية على كل حال. وقد كانت هذه القبائل بعد غزوها للواحات الجنوبية بدرعة وتافيلالت تنعت المجموعات البشرية السوداء أو الخلاسية بهذه الواحات «بأحرضان» وهي تسمية لا تخلو في طياتها من التندر والاحتقار شأن الغالب مع المغلوب في كل عصر وزمان. وتؤكد كل الوقائع والممارسات الفعلية لقبائل أيت عطا مع حراطنة الواحات ما ذهبنا اليه[115].

وعلى هذا يمكن القول بأن كلمة الحرطاني تحريف لكلمة أحرْضان الأمازيغية تبعا للهجة الصنهاجية. وقد استعارت العناصر العربية كلمة أحرضان وعربتها الى كلمة حرطاني شأنها في ذلك شأن تعاملها مع الكثير من المفردات الامازيغية التي أصبحت من صلب اللهجة العربية الدارجة. وقد كانت العناصر العربية تستعمل كلمة حرطاني أو حراطنة للاستدلال بها على شريحة عريضة تاتي في سلم التراتب الاجتماعي بعد الأحرار، وتمييزا لها عن العبيد المسترقين.

وإذا كانت كلمة حرطاني ذات دلالة سوسيو ــ اقتصادية في واحات باني وتافيلالت ودرعة وبلاد فركلة وغريس فإن فئة مشابهة لها في الوضع الاجتماعي، تعيش مع قبائل الطوارق بجنوب الجزائر وليبيا، وهذ الفئة لا تختلف عن الحراطنة إلا في الاسم، فالقبائل الطارقية تنعت المجموعات البشرية المائلة الى السواد والتي تعيش معها بأزكَاغ وتجمع على ازكَاغن[116] وكلمة أزكَـاغ في اللهجة الطارقية أو في اللهجة الصنهاجية، تعني الأحمر المائل الى السمرة. والتقارب واضح في معنى كلمتي أحرضان الصنهاجية وأزكَـاغ الطارقية مما يؤكد ماذهبنا اليه في الاصل الامازيغي البربري لكلمة أحرضان «الحرطاني».

ب ــ الأصول السلالية للحراطين

يشوب الأصول السلالية للحراطنة نوع من الغموض، وقد تعددت بشأنها الافتراضات والتأويلات بشكل لا يقل عما أثارته التسمية من اجتهادات، خاصة أن النصوص التاريخية القديمة والتي

(114) لا تختلف كلمات أسوقي، وأسمغ، وأقبلي المنتشرة بالاطلس المتوسط عن معنى أحرضان المنتشرة بالواحات الجنوبية.

(115) ذ. العربي مزين : Contribution à l'histoire du Tafilalet.

الجزء الثاني : شروط الكَارة (النص العربي) من ص. 295 الى 338.

(116) Gabriel CAMPS : op. cité, p. 43.

ظهرت في القرون الوسطى تؤكد بما لا يدع مجالا للشك عن وجود عناصر بشرية سوداء وخلاسية بالواحات الجنوبية(117).

كانت النصوص التاريخية القديمة تشير الى هذه العناصر البشرية السوداء التي كانت تستوطن الجنوب المغربي مرة بالاثيوبيين(118) أي ذوي الوجوه المحروقة(119) وأخرى بالكوشيين.

كان قدماء المصريين يطلقون كلمة «كوش» على بلاد النوبة الواقعة بين جنوب مصر وشمال السودان(120) ثم صارت الكلمة نعتا لسكان هذه المنطقة لسواد بشرتهم. ويظهر أن الكلمة قد تسربت الى الجنوب المغربي منذ عهود غابرة مع الأمواج البشرية التي هاجرت من الشرق الى الصحراء، ثم تأكد استعمالها مع التجار الذين كانوا يجوبون الطرق الصحراوية بحثا عن الذهب والرقيق.

تعتبر الوثائق السرية اليهودية المكتشفة بوادي درعة ودادس أول من أشار الى سكان وادي درعة في عصور ما قبل الاسلام بالكوشين. وقد نشر الباحث الفرنسي كَاتفوسي مجمل ما في هذه الوثائق مع تعليقات هامة في النشرة الخاصة بالتاريخ القديم للمغرب سنة 1935(121).

ويبدو أن محمد المكي بن موسى الناصري (ق 12هـ/18) كان له اتصال ببعض احبار اليهود بدرعة، فأخذ عنهم بعض أخبار الوادي فسجلها ضمن كتابه «طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة» و«الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية»(122)، ذلك أن المعلومات التي ساقها محمد المكي الناصري عن الكوشيين بدرعة لا تختلف في جوهرها وشكلها عن المعلومات التي نشرها كَاتفوسي.

ونستنتج من معلومات الناصري وكَاتفوسي أن بلاد درعة كانت مسرحا عنيفا لصراع حاد بين السكان الأصليين من الكوشيين والجماعات اليهودية التي كانت ترغب في فرض سيطرتها على الكوشيين، وقد دام هذا الصراع ما يزيد على ثلاثة قرون(123).

رغم أن المعلومات التي ساقها الناصري وكَاتفوسي يغلب عليها الطابع الخرافي وتفتقد الاطار الحدثي التي يسمح لنا بتحديد الفترة الحقيقية التي دار فيها الصراع بين اليهود والكوشيين، فان ذلك لم يمنعنا من ابداء الملاحظات الآتية :

---

(117) انظر الفصل الثالث من هذا البحث.

(118) F. de la Chapelle : Les Tekna du Sud Marocain p. 30

(119) Gabriel CAMPS : op. cité, p. 36.

(120) D. J. Meunié : le Maroc Saharien, Tome I, p. 180.

(121) J. Gattefosse : Juifs et Chrétiens du Draa avant l'Islam, B.S. de la préhistoire du Maroc 9 Année n° 3 et 4, 1935, de p. 39 à p. 65.

(122) سبق لنا أن عرفنا بهذين الكتابين في الفصل الاول.

(123) J. Gattefosse : op. cité, p. 40.

— محمد المكي الناصري : طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة، ص. 5.

الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية ص. 142.

1 ــ أن القبيلة الكوشية التي كانت تتصارع مع اليهود من أجل السيطرة على درعة لما يزيد على ثلاثة قرون يمكن تسميتها بأيت سردون كما يظهر ذلك من بعض أسماء شيوخ القبيلة كالبردعي السردوني[124] وجعفر السردوني[125] فهل يمكن القول ان هذا الصراع بين اليهود وأيت سردون قد وقع في وقت ما من القرن الثاني الهجري على اعتبار وجود اسماء ذات طبيعة عربية ؟

2 ــ أن هذا الصراع قد يكون وقع في واحة ترناتة، حيث تكون قبيلة أيت سردون تجاور اليهود، إذ لا يزال قصر سرادنة وهو ذو أغلبية حرطانية قائما الى اليوم بترناتة ويجاور قصر رباط الحجر الذي قد يكون هو مدينة الحجر التي ذكرتها الوثائق اليهودية السرية[126] خاصة أن بعض النقوش العبرية لاتزال الى اليوم على صخرة كبرى بالشعب الغربي القريب جدا من رباط الحجر[127].

3 ــ أن أهم تجمع للحراطنة بواحة ترناتة يوجد بقصور أستور في الضفة الشرقية لنهر درعة وفي موقع يقابل موقع سردانة ورباط الحجر، ولاتزال المقابر اليهودية والى اليوم في الأراضي الممتدة ما بين قصر أستور وقصر بوزركان، ولا يزال صبية هذه القصور كثيرا ما يعثرون على شواهد القبور منقوشة بحروف عبرية، وغير بعيد من قصر استور، يوجد أهم ضريح يقصده اليهود للزيارة بقصر تارغليل. وان دل هذا على شيء فإنما يدل أن هذه المنطقة (ترناتة الوسطى) كانت مأهولة بجموع غفيرة من الكوشيين واليهود، فانقرض اليهود مخلفين بعض آثارهم في حين أن الكوشيين لايزالون في شخص أخلافهم وحفدتهم من الحراطنة.

وهكذا يمكن القول بأن المجموعات البشرية السوداء، أو الخلاسية التي كانت تعرف عند القدماء لبشرتها السوداء بالاثيوبيين أو الكوشيين هي في الواقع أسلاف حراطنة وادي درعة في الوقت الحاضر، خاصة أن كلمة كوش ظلت نعتا لكل من هو أسود من أهل درعة، كرحال الكوش[128] وسيدي أبي القاسم الشيخ الذي كان يعرف عند أهل فاس بالكوش[129] لسمرة لونه وسواد بشرته.

ظل الحراطين المستوطنون بدرعة ولقرون عديدة يتعرضون لهجومات القبائل الصحراوية، فاندفعت أعداد كبيرة منهم نحو المناطق الشمالية، في حين أن البقية الباقية منهم ظلت في مواطن استقرارها بالوادي، وقد تكاثرت اعدادها بالرقيق المستعبد الذي جلب الى درعة بأعداد وفيرة بشكل خاص في العهدين المرابطي والسعدي.

يمتاز الحراطين بطبيعتهم المسالمة وحسن الطوية الى حد السداجة والغفلة في بعض الأحيان، لذلك كانوا يخضعون لكل طارىء من الرحل الصحراويين والجبليين، فاكتسبوا بذلك خليطا من العادات والتقاليد كما تنطوي لهجاتهم على مزيج من اللهجات الزناتية والصنهاجية وغيرها.

(124) محمد المكي الناصري : الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية ص. 243.

(125) J. Gattefosse : Juifs et Chrétiens du Draa, p. 52.

(126) Lui-même, p. 40

(127) الحجر الذي رأينا عليه الحروف العبرية لا علاقة له بشواهد القبور.

(128) محمد بن العربي البهلول : منهج الارتحال الى سيدي رحال. صص. 11، 12، 13.

(129) محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة : مخطوط خاص ص. 112.

يتوزع الحراطين بنسب مختلفة ومتفاوتة على طول واحات وادي درعة، ورغم أنه لا يوجد أي قصر أو أية زاوية بدرعة إلا وبه عدد من الحراطين فإن أهم تجمعات الحراطين بواحة مزجيطة في الشمال وبواحتي فزواطة ولكتاوة في الجنوب بالاضافة الى قصور حرطانية صرفة بواحات تينزولين وترناتة ومحاميد الغزلان.

وقد برع الحراطين في الاعمال الزراعية وصيانة وسائل الري مثل السواقي والآبار والخطارات وقد تجاوزت شهرتهم في فن البستنة حدود وادي درعة الى جهات اخرى من المغرب.

وتدل كل القرائن على أن الحراطين بوادي درعة كانوا هدفا لضغوط قبائل أيت عطا وغيرهم من قبائل الاحرار، فكانوا يضطرون الى التنازل عن جزء كبير من ممتلكاتهم لصالح القبائل التي كانت تتكفل بحمايتهم، كما كانوا يلتزمون بالعمل كخماسة في أراضي بعض الأعيان وأصحاب الزوايا مقابل حمايتهم من تعسفات الشيوخ الزمنيين وجور العمال المخزنيين.

وهكذا نستلخص مما سبق أن مشكل التراتب الاجتماعي بواحات وادي درعة كان واقعا اجتماعيا ساهمت في خلقه ونشأته وتطويره جملة من المعطيات الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية. فإذا كان الشريف يملك حق التبجيل بانتمائه للسلالة النبوية، فإن المرابط قد استفاد من كل الظروف لتعزيز وضعيته بين سكان وادي درعة الذين تغلب على جلهم الغفلة وحسن الظن بالناس. وإذا كان الجيل الأول من المرابطين المؤسسين للزوايا قد كرس كل وقته لنشر العلم ومبادىء التصوف، واستقطاب الاتباع لضمان استمرار الزاوية، فإن الاجيال اللاحقة من أصحاب الزوايا قد تظاهرت بالحفاظ على الطريق الذي رسمه الاسلاف وعملت على توظيف رصيد الأجداد بين القبائل، وركزت على تأثيل الاملاك وسَعْيِهِ الى اكتساب الجاه عند المخزن بتوطيد نفوذه بين القبائل في هذه المنطقة النائية عن مركز الدولة، وهي أمور لم يكن بالامكان تحقيقها ما لم يتوفر أصحاب الزوايا على قاعدة مادية متينة.

وبعد سلسلة من التطورات في العلاقة بين أصحاب الزوايا والمخزن تحول جل المرابطين بدرعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م الى العمل الى جانب المخزن بطريقة غير رسمية وسرية في بعض الاحيان، خاصة عندما يتعلق الامر بنقل بعض الاخبار السياسية والاجتماعية عن المنطقة[130] الامر الذي كان يسمح للمخزن بالتحرك في الوقت المناسب، وفي المقابل كان المخزن سخيا مع أصحاب الزوايا في مدهم بكل ما هم في حاجة اليه من عون مادي ومعنوي كما كان السلاطين يجددون لأصحاب الزوايا ظهائر التوقير والاحترام التي تعفى المرابطين واتباعهم وخدامهم عبيدهم وحراطينهم من كل الوظائف المخزنية بما في ذلك الجبايات وأعمال السخرة التي كان القواد المحليون يكلفون بها الرعية في غير ما مناسبة. ولن نبالغ في شيء إذا قلنا إن سياسة ظهائر التوقير والاحترام التي سلكها المخزن مع الاشراف

---

(130) نتوفر على عدد كبير من الرسائل والظهائر السلطانية التي كان المخزن يرسلها الى المرابطين بدرعة سمحت لنا بالكشف عن هذا الدور الاخباري الذي يقوم به أصحاب الزوايا في اطلاع السلطان أو خليفته بمراكش عما يجري في المنطقة من غليان اجتماعي واضطرابات قبلية، وقد كان السلاطين يشجعون المرابطين على الاستمرار في القيام بهذا الدور.

والمرابطين بدرعة تعتبر في واقع الأمر اعترافا من المخزن بما كان لهؤلاء من نفوذ واسع بين القبائل بواحات درعة وتعزيزا لوضعيتهم الاجتماعية وتكريسا لواقع التراتب الاجتماعي، وقد عجزت عائلة الكَلاوي وسلطة الحماية عن تجاوز هذا الواقع وتكسيره، خاصة أن قبائل الأحرار من أيت عطا وأولاد يحيى والروحة وغيرهم، لم يجدوا أي غضاضة في قبوله والتعامل مع الأشراف والمرابطين على أساسه.

الفصل السابع

الاتفاقيات التكفلية مع أصحاب الزوايا والحراطين

الاتفاقيات التكفلية مع أصحاب الزوايا والحراطين

تمكنا خلال جولاتنا المتكررة بقصور وزوايا وادي درعة من تجميع عدد كبير من الاتفاقيات بمختلف أنواعها[1]. وهذه الاتفاقيات لم يسبق استغلالها في الكتابة التاريخية.

وتدل كل القرائن والمعطيات التاريخية على أن سكان وادي درعة كانوا يتعاملون بهذه الاتفاقيات منذ قرون[2]. وتشكل هذه الاتفاقيات إطارا طبيعيا ومرنا قادرا على التكيف مع كل المستجدات الظرفية والمتطلبات اليومية، وتستجيب لرغبات المجموعات البشرية المتساكنة داخل أسوار القصر، ولا مشاحة إذا قلنا أن هذه الاتفاقيات، كانت تشكل الضمانة الحقيقية لاستمرار روح «الديمقراطية» التي وضعت قبائل القصور أسسها للحفاظ على التوازنات الداخلية وللتحكم في خيوط العلاقة التي كانت تربط قبائل القصور بقبائل الرحل، التي كانت تفاجيء سكان الوادي من حين لآخر.

كان سكان وادي درعة لا يلجأون الى التعامل الاتفاقيات الا في الحالات الخاصة منها مثلا :

أ ــ في حالة تراجع سلطة المخزن بالمنطقة، وما يصحب ذلك من فراغ سلطوي، ونذكر أن الفراغ السلطوي كان يطرأ على سير الحياة العامة بدرعة مع كل اضطراب على مستوى السلطة المركزية، وعجز المتولين على ضبط ما يجري في مناطق الأطراف مثل درعة وسوس وغيرها[3] وقد كانت المجموعات القبلية بدرعة في مثل هذه الاوضاع لا تتردد في مهاجمة العامل المخزني بالوادي وطرده لتتخلص مما سلف من سابق عسفه وجوره وتشدده في استجلاب الأموال باسم المخزن. وقد كانت القبائل المترحلة تستغل ظروف الفراغ السلطوي فتهاجم القصور داخل الواحات وتغصب المزروعات، وكانت هذه الهجومات المفاجئة تثير البلبلة والاضطراب بين قبائل القصور، فتعجل بعقد سلسلة من الاتفاقيات لتنظيم علاقاتها الداخلية من جهة وتنظيم علاقاتها مع قبائل الرحل من جهة ثانية.

ب ــ حالة هجومات قبائل الرحل من المناطق الصحراوية. وقد كانت هذه الهجومات تشتد بشكل خاص إبان فترات الأزمات الاقتصادية التي كانت تضرب المناطق الصحراوية مع كل تراجع للحركة التجارية، ومع دورات الجفاف، ومع كل أزمة اقتصادية. كانت قبائل الرحل تهاجم المنتوجات الزراعية، فكانت جموع الرحل «يخادعون تارة على التمر وتارة على الزرع»[4] وفي هذه الحال كانت قبائل القصور تضطر الى عقد سلسلة من الاتفاقيات التكفلية والصلحية مع قبائل الرحل في محاولة لوضع أسس للتعامل بين الرحل والمستقرين.

---

(1) سبق لنا أن عرفنا بهذه الاتفاقيات في المدخل الذي خصصناه للمصادر.

(2) ذلك ما نلاحظه في جل الاتفاقيات حيث كان المتفقون يحرصون على التذكير بما هو موجود في عقود الأسلاف.

(3) كان المخزن يعترف للقبائل في الجنوب بالتعامل بهذه الاتفاقيات مادامت لا تتعارض مع سلطته انظر : محمد بن عزوز : السيادة المغربية بالاقاليم الصحراوية : ج. 1 ــ ص. 102

(4) الحسن اليوسي : رسائل اليوسي ج. 1 ــ ص. 212.

1 ـــ البدايات الأولى لظهور الاتفاقيات بوادي درعة

سبق لنا أن رأينا في فصل سابق أن قبائل بني معقل قد وصلت الى الجنوب المغربي ابان الزحف الذي قامت به قبائل بني معقل نحو سوس ودرعة منذ بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري/13م، فانتشرت قبيلة ذوي حسان ببلاد سوس والصحراء المغربية الحالية وامتد مجال انتشارها جنوبا الى موريطانيا، وانتشرت قبيلة أولاد حسين ببلاد درعة والمناطق الممتدة ما بين وادي درعة وتافيلالت. ونستشف من كتابات ابن خلدون أن هذه القبائل قد أشاعت الفوضى والاضطرابات الاجتماعية بين سكان المناطق الجنوبية[5].

ورغم الجهود التي كانت الدولة المرينية تبذلها لضبط هذه القبائل، فإن الصراع الذي دار بين أبناء البيت الحاكم من المرينيين بعد منتصف القرن الثامن الهجري/14م، قد أطلق عنان القبائل المعقلية المترحلة في المناطق الجنوبية فخرجت كلية عن طوق الدولة، فقامت خلال القرن التاسع الهجري/15م بعمليات غزو واسعة لواحات وادي درعة وامتدت شمالا الى جبل صنهاجة[6]. وقد كانت قبائل الرحل تباغت واحات درعة فتهاجم المستقرين بالقصور وتنهب المحصولات الزراعية. وأمام الفراغ السلطوي الذي عرفته المنطقة خلال القرن التاسع الهجري/15م، كان السكان بوادي درعة يعقدون سلسلة من اتفاقيات «الرَّعْيَة»[7] مع بعض القبائل العربية المترحلة، لصد لصوص القبائل البدوية من الأعراب وغيرهم.

بالرغم من كوننا لا نتوفر على ما يساعدنا في تحديد الحقبة التاريخية التي انتقلت فيها الاتفاقيات من المرحلة الشفوية البسيطة الى المرحلة الكتابية المعقدة (تعدد أنواع الاتفاقيات) فإننا نعتقد أن كتابة الاتفاقيات قد تكون ظهرت بوادي درعة مع وصول تيار الطريقة الجزولية الى المنطقة خلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/15م. فقد كانت شيوخ هذه الطريقة بعد انتشارها بين سكان الجنوب، يتمتعون باحترام كبير لا مزيد عليه بين قبائل بلاد سوس ووادي درعة، للدور الكبير الذي كانوا يقومون به في التخفيف من آثار الفتن بين القبائل، حيث كانوا يشرفون على عقد الاتفاقيات الصلحية بين الفئات المتصارعة، ويتكلفون بالضمانات اللازمة لاستمرار السلم بين القبائل، وتزخر كتب المناقب بإشارات متكررة عن الأدوار التصالحية التي كان يقوم بها شيوخ الطرق الصوفية في الجنوب عامة ودرعة وسوس خاصة.

فقد ذكر محمد بن عسكر الشفشاوني أن سيدي محمد بن مبارك الأقَّاوي كان يضع للناس أياما معلومة في كل شهر تعرف بأيام سيدي محمد بن مبارك «لا يحمل فيها أحد سلاحا، ولا يقدر أحد على

---

(5) ابن خلدون : العبر ج. 6 ـــ ص. 89.

(6) انظر الفصل الثاني من هذا البحث.

(7) «الرَّعية» : كلمة مشتقة من الفعل رعى يرعى ورعيا بمعنى مراقبة الشيء وحفظه. وبهذا المعنى كان السكان بدرعة يطلقون لفظ الرعية على عملية مراقبة المحصولات الزراعية وحفظها وحمايتها من اللصوص. ولايزال الشخص الذي يقوم بهذه العملية بدرعة والى اليوم يعرف بـ «الرأعي» مما يؤكد على أن اتفاقيات الرعية ظهرت بوادي درعة منذ عهد الهيمنة المعقلية. وللرعية حضور في جل الاتفاقيات التنظمية التي عثرنا عليها بوادي درعة.

المشاجرة فيها، ويجتمع الرجل مع قاتل أبيه وولده وما يقدر أن يكلمه»[8]، ولعل ما يؤكد هذا الافتراض في ظهور الاتفاقيات المكتوبة على يد شيوخ الطرق الصوفية، أن عددا من أصحاب الزوايا بوادي درعة كانوا أنفسهم يتعاملون بنظام الاتفاقيات (الاتفاقيات التكفلية على الخصوص) لحماية مرافقهم التجارية والفلاحية من هجومات قبائل الرحل.

ويبدو أن تقليد كتابة الاتفاقيات قد انتشر على نطاق واسع بواحات وادي درعة خلال القرن العاشر الهجري/16م، وأصبح معمولا به حتى بعد قيام الدولة السعدية، فقد ذكرت جاك موني في أحد أبحاثها عن وادي درعة، أنها شاهدت أثناء زيارتها لواحة كتاوة في الاربعينات من هذا القرن، أقدم اتفاقية مكتوبة بواحة لكتاوة، وهي اتفاقية إغرم نايت سيدي يوسف ويعود تاريخها الى سنة 960هـ/1553م[9] ورغم ما بذلناه من جهود للاطلاع على هذه الاتفاقية فإننا لم نتمكن من الحصول عليها أو رؤيتها لأنها ضاعت في جملة الوثائق التي نهبها ضباط الشؤون الأهلية وباحثون فرنسيون اخرون إبان عهد الحماية[10].

وتعقد هذه الاتفاقيات «الرَّعْية» عادة مع بداية فصل الصيف حيث تبدأ التمور في النضج، ويستمر العمل بها الى غاية نهاية فصل الخريف.

وبمجرد ما يتم الاتفاق بين القبيلة المترحلة وقبيلة القصر، تحدد الضوابط بين المتعاقدين، فتعين القبيلة المترحلة مجموعة من عناصرها فينتشرون في قطة القصر، بعد أن يكونوا قد نصبوا خيامهم في نقط معينة من القطة بشكل يسمح لهم بمراقبة كل حركة داخلها. وتعتبر اتفاقيات «الرَّعية» أول نوع ظهر بدرعة من الاتفاقيات التكفلية وانطلاقا منها يمكن التأكيد على ملاحظتين :

1 ـــ أن اتفاقيات «الرَّعية» والاتفاقيات التكفلية بصفة عامة قد تكون ظهرت بوادي درعة خلال القرن التاسع الهجري/15م بعد التراجع الخطير الذي عرفته التجارة الصحراوية حيث اندلعت القبائل الصحراوية الى واحات درعة في محاولة للتغلب على الظروف الاقتصادية الصعبة، ولاشك أن هذه الاتفاقيات قد تطورت بشكل كبير خلال نهاية نفس القرن ومطلع القرن العاشر الهجري/16م، حيث تميزت هذه الفترة بتراجع نفوذ المخزن بدرعة لانشغال المرينيين في الصراع على السلطنة، وانشغال الوطاسيين بمقاومة المسيحيين الذين كانوا يهددون شواطىء المغرب.

وأمام هذا الفراغ السلطوي، اضطر سكان درعة، الذين اظهروا عجزا كبيرا في التصدي لهجومات القبائل الصحراوية، الى الاستعانة بقبائل قوية من الرحل أنفسهم لحماية المنتوجات الزراعية وخاصة منتوج التمور. ونرجح أن تكون هذه الاتفاقيات من ابتكار قبائل بني معقل التي كانت تهيمن أنذاك على واحات درعة وما جاورها. ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن لفظ «الرعية» ظل محافظا على صيغته العربية

(8) محمد بن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر ص. 114.

(9) D. Jacques Meunié : Hiérarchie au Maroc présaharien. Hespéris XLV : 1958, p. 242.

(10) حاولنا الحصول على بعض الاتفاقيات لواحة لكتاوة من السيدة موني دون جدوى إذ كانت تعتذر لنا بعد كل مراسلة بالعجز والشيخوخة.

في القرون المتأخرة، حيث كانت قبائل أيت عطا تتولى هذه المهمة بالوادي، ولاتزال «الرعية» تمارس على نطاق واسع في مختلف قصور درعة الى اليوم، إذ لا تزال قبائل تتعاقد في بداية فصل الصيف مع بعض القبائل المترحلة لحماية المنتوجات من اللصوص، وعبث الأطفال.

2 ــ أن اتفاقيات «الرعية» كانت وراء تحول كثير من القبائل المترحلة من الانتجاع والترحل الى الاستقرار والارتباط بالأرض. ذلك أن القبائل المترحلة المكلفة بالرعية كانت تشترط على قبائل القصور السماح لها ببناء مخازن خاصة، داخل القطّة التي تمارس فيها الرعية، لجمع التمور وتخزينها على عادة سكان القصور، ولا مشاحة إذا قلنا أن هذه المخازن تعتبر النواة الاولى لظهور مجموعة من القصور على طول واحات درعة، بناها المترحلون سواء من قبائل بني معقل أو من قبائل أيت عطا، وذلك خلال الفترة التي تمتد من القرن التاسع الهجري/18م الى القرن الرابع عشر الهجري/20م.

ورغم أننا لم نتمكن من الاطلاع على اتفاقية إغرم نايت سيدي يوسف، فإن تاريخ هذه الاتفاقية يثير جملة من الاسئلة منها مثلا : لماذا حافظ سكان وادي درعة على التعامل بالاتفاقيات رغم أن الدولة السعدية قد مضى على قيامها حوالي نصف قرن من الزمن ؟ هل عجز سلاطين الدولة السعدية على ضبط أحوال درعة فاستمر السكان في التعامل بالاتفاقيات على مرأى ومسمع من السعديين ؟

وكيفما كانت الأسباب التي جعلت سكان وادي درعة يستمرون في التعامل بالاتفاقيات رغم قيام الدولة السعدية، فإننا نعتقد أن وجود مثل هذه الاتفاقيات بوادي درعة، مهد العائلة السعدية، وفي هذا التاريخ بالذات (960هـ/1553م) لا يتنافى إطلاقا مع وجود الدولة السعدية مادامت هذه الاتفاقية لا تتعارض وأوامر الدولة، ومادامت لا تصادم الشريعة الاسلامية. ولا نستبعد أن يكون سلاطين الدولة السعدية قد حافظوا على نوع من التساكن بين مصالح الدولة والتعامل بالاتفاقيات ولو إلى حين للاعتبارات الآتية :

1 ــ أن السلطان مَحمد الشيخ السعدي، الذي عقد هذا الاتفاق في عهده، كان منشغلا عن مشاكل وادي درعة بتوطيد أركان الدولة في الشمال (وخاصة بفاس)[11].

2 ــ أن الاتفاقيات كانت تعقد برعاية أصحاب الزوايا وإشرافهم، ومن السياسة أن يتجنب محمد الشيخ السعدي في هذا الوقت بالذات نقض ما أبرمه أصحاب الزوايا[12].

3 ــ أن قبائل الرحل التي ظلت تعيش طليقة بهذه المنطقة منذ القرن الثامن الهجري/14م. كانت تتصرف مع سكان درعة على أساس انها القوة الفاعلة والمحررة من كل التزامات الدولة السعدية، وكان من الصعب على سلاطين الدولة السعدية أن يجعلوا حدا لتصرفات هذه القبائل دفعة واحدة، وتدل

---

(11) من جملة المشاكل التي شغلت مَحمد الشيخ السعدي، التهديدات التركية ومعارضة فقهاء فاس، والمحاولات المتكررة من الوطاسين لاسترجاع ملكهم.

(12) ما كاد مَحمد الشيخ ينتهي من المشاكل التي ذكرناها حتى عمل على تقليص دور شيوخ الزوايا في الجنوب انظر : الاستقصا، ج. 5 ــ ص. 26.

كل القرائن على أن الدولة السعدية لم تتمكن من إخضاع القبائل الرحل وارغامها على الانصياع لأوامر المخزن إلا بعد إقامة جملة من التحصينات على طول واحات درعة وشحنها بالمفرزات العسكرية لردع كل بادرة قد تظهر من قبائل الرحل في الهجوم على الوادي[13].

وقد أعطت هذه السياسة العسكرية أكلها، فحالت دون مواصلة قبائل الرحل هجوماتها على سكان الوادي، كما أعادت الشعور بالأمن والاطمئنان لسكان القصور، الأمر الذي جعلهم يتوقفون عن التعامل بالاتفاقيات وخاصة الاتفاقيات التكفلية، ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن الاتفاقيات قد غابت كلية عن مسرح الحياة الاجتماعية والسياسية بواحات درعة طيلة عهد الدولة السعدية بعد الشيخ، وردحا من عهد العلويين، ولم يعد سكان الوادي الى التعامل بالاتفاقيات التكفلية إلا مع ظهور غزاة قبائل أيت عطا في المناطق الجنوبية في نهاية القرن 11 هـ ومطلع القرن 12 هـ/نهاية القرن 17 م، وقد كان غزاة أيت عطا يستغلون انشغال السلطان مولاي اسماعيل بأحداث الثورات في الأطلس المتوسط وبعض المناطق الشمالية، وخلو بلاد درعة من عامل مخزني قوي حيث لاتزال في هذه الفترة تابعة إداريا إلى عمالة سجلماسة. وقد أدرك السلطان ما تشكله قبائل أيت عطا من خطر على استقرار بلاد درعة، فاستحدث بها عمالة خاصة سنة 1111 هـ/1699 م وكان يعهد بحكمها الى أبنائه الذين نجحوا في ردع قبائل الرحل عامة وقبائل أيت عطا خاصة، الأمر الذي جعل سكان وادي درعة يتوقفون عن التعامل بالاتفاقيات ولو إلى حين[14].

2 ــ ضغوط قبائل أيت عطا على درعة وعودة التعامل بالاتفاقيات

تعتبر وفاة مولاي الشريف سنة 1139 هـ/1727 وكان عاملا للسلطان على وادي درعة، إيذانا بدخول المنطقة في مرحلة من الاضطرابات الاجتماعية والسياسية الخطيرة، نسفت ما بناه مولاي الشريف من استقرار وأمن. فقد استأنفت القبائل المترحلة هجوماتها على قصور درعة، وتشددت في مضايقة سكانها.

ونستفيد من بعض الاشارات التاريخية أن قبائل أيت عطا التي كانت تجوب الهوامش الصحراوية. وقد استغلت أحداث محاميد الغزلان[15] وما نتج عنها من انهيار ديمغرافي واقتصادي[16] فاكتسحت الواحات الجنوبية لدرعة وخاصة محاميد الغزلان ولكتاوة وقد تمركزت بعض قبائل أيت عطا بهاتين الواحتين وتحولت جل عناصرها الى الاستقرار والارتباط بالأرض.

(13) .MARMOL : L'AFRIQUE - Tome III, pp. 12, 13, 14, 15, p. 16, 17.

(14) من الأمراء الذين تولوا الحكم بدرعة على عهد مولاي اسماعيل الأمير مولاي عبد الملك بن اسماعيل، والأمير مولاي الشريف (انظر الفصل السابق).

(15) فيما يتعلق بهذه الأحداث انظر الفصل السابق من هذا البحث.

(16) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa, p. 64.

ورغم أننا لا نتوفر على ما يساعدنا في التعرف على قبائل أيت عطا التي قد تكون تمركزت بواحتي محاميد الغزلان ولكتاوة فإننا نعتقد أن قبيلة أيت علوان تعتبر من أوائل قبائل أيت عطا التي استقرت بالمنطقة[17].

وفي واحة مزجيطة كانت قصور دْراوة بدورها تتعرض لهجومات قبائل أولاد يحيى التي كانت تهاجم واحات درعة من الجهات الغربية انطلاقا من الصحراء المغربية الحالية، وأمام الهجومات المتكررة على المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة استنجد سكان هذه المنطقة بقبائل أيت سَدْرات التي كانت تستوطن بلاد دادس[18]. وقد تنازل دراوة لقبائل أيت سدرات عن نصف ممتلكاتهم مقابل حمايتهم، والتكفل لهم بصدٍّ كل هجوم تقوم به قبائل أولاد يحيى وغيرها على منطقة تنسِّيخت في المدخل الجنوبي لمزجيطة، وقد تم الاتفاق بين دراوة وقبائل أيت سُدْرات برعاية سيدي منديل وهو شريف ادريسي كان يتمتع باحترام كبير في أوساط قبائل أيت سدرات[19]. وقد سمح هذا الاتفاق التكفلي، الذي تم على أساس تفويت الأرض لقبائل سدرات بالتحول من الرعي الى الاستقرار وأصبحت هذه القبائل السدراتية تشكل أهم مجموعة قبلية بربرية خارج اتحادية أيت عطا بوادي درعة منذ ذلك الحين[20] الى اليوم.

وفي سنة 1142هـ/1730م أرسل السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل قائد جيشه موسى الجراري في ألفين وخمسمائة رجل الى وادي درعة لجمع الضرائب وإعادة هيبة الدولة الى المنطقة، إلا أن السكان ثاروا على الجيش المخزني وأبادوا أكثريته، إذا لم يعد مع الجراري الى مكناس إلا مائة نفر وزيادة[21].

وبالرغم من كوننا لا نتوفر على كل المعطيات التي تسمح لنا بالكشف عن أخبار وادي درعة خلال هذه الحقبة المضطربة من تاريخ المغرب، فإن بعض الاشارات التي ساقها محمد المكي بن موسى الناصري في كتاب طليعة الدعة، تجعلنا نعتقد أن وادي درعة كان يعيش حالة من الاضطرابات الاجتماعية نتيجة الفراغ السلطوي من جهة وتوالي هجومات قبائل الرحل من أيت عطا والروحة وأولاد يحيى على قصور المستقرين من جهة ثانية. وقد أدت هذه الاضطرابات الاجتماعية الى تراجع خطير في الانتاج، فانتشر الجوع بوادي درعة وأتلف كثيرا من السكان، وتخربت العمارة «وبلغ السعر مبلغا عظيما، المُدِّي من التمر بخمسة مثاقيل والمُدِّي من القمح بأربعة وعشرين مثقالا، وربما بلغ في بعض

(17) تعتبر قبيلت أيت علوان من بقايا بني معقل بدرعة وقد انضمت إلى قبائل أيت عطا بعد تشكيل الاتحادية بصفة نهائية خلال القرن 11هـ/17م.

(18) ستعرف بهذه القبائل السدراتية في مكان آخر من هذا الفصل.

(19) لا يزال ضريح سيدي منديل قائما بمنطقة تنسيخت في المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة بجانب الطريق الذي يربط بين أكدز وزاكورة ويقام له موسم حفيل كل سنة ولا يزال حفدته بالمنطقة وفي الدار البيضاء وفي الرباط.

(20) يرجع سبلمان بالاعتماد على الرواية الشفوية وصول أيت سدرات الى درعة في سنة 1172هـ/1730م. وكان بالامكان تأكيد هذا التاريخ أو نفيه لو تمكنا من الاطلاع على الاتفاقية المبرمة بين دراوة وأيت سدرات، ومن سوء حظنا أن المالكين لهذه الوثيقة لم يسمحوا لنا حتى برؤيتها.

(21) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa p. 65, 66.

الاحايين خمسة عشر مثقالا... وانعدمت الأقوات وكثرت الأموات في الشوارع والطرقات... والله غالب على أمره»[22].

وفي غياب أخبار وادي درعة في كتب التاريخ العامة، وفي كتب المناقب المحلية، حاولنا الاعتماد على مجموعة من بطائق المداينة والرسوم العقارية التي جمعنا بعضها بقصور وزوايا درعة ويعود تاريخ كتابتها الى أواسط القرن الثاني عشر الهجري/18م فخرجنا منها بملاحظتين هامتين :

1 ـــ أن هذه البطائق والرسوم العقارية غير مذيلة بتوقيع القاضي الرسمي، الذي يبقى في جل الحالات أهم من يمثل المخزن بالمنطقة، ويكتفي كتابها بتوقيعهم وعطف بعض الطلبة على تلك التوقيعات.

2 ـــ ارتفاع أسعار المواد الأساسية كالشعير والقمح والتمور والفول وغيرها، وانخفاض أثمان الاملاك العقارية وأشجار النخيل، وان دل هذا على شيء فإنما يدل على اضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية، وأن السكان صاروا يعملون على التخلص من ممتلكاتهم مقابل قليل من الشعير أو التمر للتغلب على ظروف المجاعة.

وفي عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، حاول المخزن استرجاع نفوذه بوادي درعة، فوجه السلطان سنة 1172هـ /1758م حملة عسكرية بقيادة أبي العباس التينغراسي، فعمد إلى تخريب قصور القبائل الخارجة عن طاعة الدولة[23] إلا أن ظروف الغليان الاجتماعي التي كانت تسببها قبائل أيت عطًا جعلت مهمة القائد المخزني تبوء بالفشل الذريع.

وبعد عشر سنوات من هذه الحملة طلب أهل درعة من السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن «يعمل عليهم الباشا سعيد بن العياشي»[24] فوجهه إلى درعة سنة 1183هـ /1770 فنزل هذا القائد الجديد بقصبة أغلان، ثم بداله أن يطهر المنطقة من المشاغبين، فألقى القبض على محمد الحيوني الجراوي وعلي لكتاوي، فذبحت زوجة الحيوني على قبائل أيت عطًا وأولاد يحيى والروحة فحاصرت هذه القبائل سعيد بن العياشي نحو شهرين، حتى خلصه سيدي يوسف الناصري فرجع إلى الغرب[25]

ويتضح من حديث الضعيف الرباطي أن القبائل التي كانت تشغب على المخزن بواحات درعة هي قبائل أيت عطا وقبائل أولاد يحيى وقبائل الروحة، وهي القبائل التي ظلت تثير الاضطرابات الاجتماعية بواحات درعة منذ ذلك الحين (النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/18م). إلى وقت متأخر من النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري /20م وتؤكد هذه الحقيقة كتب الرِّحلات الحجية ووثائق الاتفاقيات التي قمنا بتجميعها بدرعة[26].

(22) محمد المكي الناصري : طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة : مخطوط خاص ص. 18.

(23) استقينا هذه المعلومات من وثيقة محلية يعود تاريخ كتابتها الى القرن 12هـ/18م.

(24) الضعيف الرباطي : مخطوط 1 خ. ع ـــ الرباط حرف د 758 ص. 92.

(25) سيدي يوسف الناصري هو شيخ زاوية تامكروت في وقته وتوجد له ترجمة وافية عند سليمان الحوات في الروضة المقصودة في مآثر بني سودة : مخطوط خاص ـــ ص. 425.

(26) سنتعرض لهذه الاتفاقيات بالتحليل في مكان لاحق من هذا الفصل.

فقد ذكر محمد بن عبد السلام الناصري[27] أن قبائل أيت عطا كانت تسيطر على الطريق الذي يربط بين تافيلالت ووادي درعة، ونصح الحاج أن يتخذ له، ألة حرب وبارود، وليحذر من تَرك الحراسة ليلا ونهارا لما عليه المكان من السرقة والاختلاس وشدة الخوف من أيت يَزّ من قبائل أيت عطا، وقد كانت هذه المناطق قبل هذا التاريخ (1196هـ /1781م) مقرا لقبائل بني محمد «فانتقم الله بظالم من ظالم»[28] وإن دلت هذه الاشارة على شيء فإنما تدل على أن قبائل أيت عطا كانت وراء تفشي الاضطرابات الاجتماعية بالواحات الجنوبية طيلة القرن الثاني عشر الهجري /18م.

وفي المرحلة الأخيرة من عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وخلال الحقبة التي كان فيها مولاي اسليمان مشغولا بثورات الخارجين عنه من إخوته، إستولت قبائل أيت عطا على مجموعة من القصور بالواحات الجنوبية من درعة وخاصة واحات لكتاوة وفزواطة الأمر الذي جعل السلطان مولاي اسليمان يعيد العمل بالمْحَلاَّت العسكرية المتنقلة، في محاولة من المخزن لإعادة هيبة الدولة بالمناطق الجنوبية، وردع قبائل أيت عطا، وجعل حد لهجوماتها المتكررة على واحات وادي درعة. وفي هذا الاطار نظم السلطان حملة عسكرية قوية سنة 1216هـ /1801م، وعهد بها إلى كاتبه إبي العباس أحمد التِّينَغْرَاسِي الذي كانت له معرفة بأهل درعة منذ عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، فأخرج العرب والبربر (الروحة، أولاد يحيى، وأيت عطا) من القصور المغصوبة ثم قام بتمهيد تلك النواحي حتى صار ما بين سوس ودرعة والفايجة مجالا للتجارة وممرا لأبناء السبيل[29] ويبدو أن أبا العباس التينغراسي قد نجح في مهمته بدرعة، فقد ذكر الضعيف الرباطي، أن الفقيه التينغراسي قد بعث إلى السلطان ثلاثين قنطارا[30] وستة عشر من الاماء وأربعة عبيد وحملين من الحناء[31].

وفي إطار تأكيد النتائج السياسية التي حققها التنغراسي، عين السلطان مولاي اسليمان سنة 1218هـ /1803م ابنه مولاي محمد عاملا على درعة ووجهه إلى المنطقة صحبة مفرزة عسكرية تحت قيادة محمد الزعري، ثم أصدر أوامره إلى عامل سجلماسة حَمَّان الصَرْيدي ليرافق مولاي محمد إلى درعة. كان الصريدي يقود محلة مخزنية قوية ويظهر أن مهمتها كانت تنحصر في إرهاب قبائل أيت عطا المنتشرة على طول الطريق من تافيلالت إلى درعة، وأرغام المستقرين على دفع الجبايات المستحقة عليهم للمخزن.

وفي ظروف غامضة غادر مولاي محمد وادي درعة فجأة إلى مراكش فأعلنت القبائل العصيان وامتنعت عن دفع ما تبقى من الجبايات إلى الصريدي، بل إن القبائل قد عولت على مواجهة المحلة المخزنية وقد نجح قائد المحلة في افشال حركة القبائل فقبض على عدد من كبار رجال وادي درعة وكبلهم في الحديد وأرسلهم إلى سجون سجلماسة ثم رحل في إثرهم. ما كاد الصريدي يتحرك من وادي درعة

(27) سبق لنا أن عرفنا برحلة مَحمد بن عبد السلام الناصري في الفصل الأول.

(28) محمد بن عبد السلام : الرحلة الناصرية : مخطوط الخزانة العامة حرف 2327 ص. 13.

(29) الناصري : الاستقصاء، ج. 8 — ص. 108.

(30) القنطار من المال يساوي 1000 مثقال فيكون مجموع ما أرسل 80.000 مثقال.

(31) انظر أخبار هذه الفترة عند الضعيف الرباطي في المصدر السابق ص. 320.

حتى خرجت عليه كائن قبائل أيت عطا، فاضطر إلى التخلي عن عدد من مدافع المحلة بأيدي هذه القبائل والإفلات بأموال المخزن وماخف من متاع إلى تافيلالت.

وبعد فشل كل المحاولات التي قام بها المخزن لردع قبائل الرحل عامة وقبائل أيت عطا خاصة دشن مولاي اسليمان سياسية جديدة بوادي درعة، وذلك بتعيين قواد محليين كان يعهد إليهم بحكم المنطقة وحمايتها من هجومات القبائل المترحلة، ومن هؤلاء القواد على عهد مولاي سليمان القائد ابراهيم الستوري[32] الذي عين على واحتي ترناتة وفزواطة ومما جاء في ظهير التعيين «فنأمرك أن تستوصي بهما خيرا [...] خدامنا ومحسوبون علينا [...] وتلين جانبك إليهم [...] رغبة ولا نظر لأحد من قبائل درعة إلا بجانب [...] ودع عنك التعنيف وفقك الله...»[33]. فإذا كان مولاي سليمان قد دشن سياسة القواد المحليين، فإن السلاطين من بعده خلال القرن الثالث عشر الهجري /19 عملوا على تطوير هذه السياسة، الأمر الذي سمح لعدد من عائلات وادي درعة بالإرتباط بالمخزن حتى صارت تعتبر من ركائز سلطته بالمنطقة. ومن هذه العائلات دار القائد المزجيطي بتامنكَالت، ودار القائد اليحياوي بقصبة أولاد عثمان، ودار المزواريين برباط تينزولين، ودار القائد الباردي والقائد المحمودي وغيرهم.

بالرغم من أن المخزني خلال القرن الثالث عشر الهجري /19م كان لا يتواني في شد عضد القواد المحليين بوادي درعة ومدهم بالسلاح والخيل من حين لأخر[34] فإن هؤلاء القواد لم ينجحوا في حماية الوادي من هجومات قبائل أيت عطا وعثيها وما كان ينتج عن ذلك من غليان اجتماعي واصطدامات بين قبائل القصور التي كانت لا تتردد في الاستعانة بقبائل أيت عطا للتغلب على السواقي والأراضي والقصور واغتصابها من أصحابها.

استغلت قبائل أيت عطا إنشغال المخزن بحماية وحدة البلاد بعد احتلال الجزائر سنة 1246هـ/1830م، فاندفعت في عمليات غزو واسعة للواحات الجنوبية بصفة عامة وواحات وادي درعة بصفة خاصة. وقد بلغ من غضب السلطان مولاي عبد الرحمان (1238ـ1276/ 1822ـ1859م) على قبائل أيت عطا لما كانت تقوم به من تشغيب بالجنوب، أن جعل جهادها وقتالها «أكد من قتال النصارى لفسادهم في الأرض وبغيهم واستطالتهم على المسلمين وتعجبهم في أنفسهم وطغيانهم على الضعفاء والمساكين»[35] أما خليفته على المناطق الجنوبية، فإنه كان يراسل الأعيان بوادي درعة ويستنهض هممهم «في القيام على ساق الجد والحزم في شد العضد... على قتال البغاة الفسدة أيت عطة»[36].

---

(32) نسبة الى قصر استور وهو من قصور دراوة بواحة ترناتة.

(33) الظهير مبتور في جل فقراته، ومن حسن حظنا أن الطابع الكبير الذي يحمل اسم مولاي سليمان لم يتعرض للاتلاف. وقد صورنا الظهير من مالكه السيد امْاد الستوري أحد حفدة القائد ابراهيم.

(34) وجه السلطان مولاي الحسن سنة 1299هـ/1881 حوالي 75 من الخيل وزعت على القواد المحليين (من وثائق دار القائد اليحياوي).

(35) من رسالة وجهها مولاي عبد الرحمان سنة 1844/1260 الى أحد أعيان الجنوب.

(36) من رسالة وجهدها خليفة مولاي عبد الرحمان بمراكش سنة 1257هـ/1841 الى الشيخ لحبيب الوشاحي بدرعة يشد عضد القائد اليحياوي..

لم يبق أمام سكان وادي درعة بعد عجز القواد المحليين على ردع قبائل أيت عطا، وحماية المحصولات الزراعية والقوافل التجارية في مسالك الوادي وطرقه، إلا العودة الى التعامل بالاتفاقيات من جديد خاصة الاتفاقيات التكفلية لحماية مصالحهم سواء داخل الوادي أو خارجه.

وبالرغم من أن أصحاب الزوايا كانوا يشكلون أهم دعائم المخزن بالمنطقة[37] فلم يكن بإمكانهم الانفلات من تعسفات قبائل أيت عطا، حيث كانت هذه الاخيرة لا تتردد في مهاجمة الزوايا في عقر ديارها والتسلط على قوافلها التجارية التي تجوب مختلف طرق الوادي، ولن نبالغ في شيء إذا قلنا أن أصحاب الزوايا كانوا من السباقين لعقد هذه الاتفاقيات التكفلية مع قبائل أيت عطا (انظر جداول الاتفاقيات التكفلية).

(37) انظر ما كتبناه عن علاقة المخزن بأصحاب الزوايا في الفصل السابق.

جدول بالاتفاقيات التكفلية مع أصحاب الزوايا بدرعة

تاريخ عقد الاتفاقية هـ/م	المتكفلون	اللف أو القبيلة التي ينتمي إليها المتكفلون	المتكفل له ومقر زاويته	ما تتكفل به الاتفاقية	ملاحظات عامة
1107 1695	ـ أعيان أيت مسكور ـ أعيان ايت سيليلو	من قبيلة ايت اونير خمس ايت وللال (أيت عطا)	مرابطو زاوية سيدي محمد بن يوسف الملياني	حماية هؤلاء المرابطين من أي هجوم قد يصدر من أيت اونير سواء في الطرق التجارية أو في مقر زاويتهم	يسرى الاتفاق على كل مكان وجدت فيه زاوية لأولاد سيدي محمد بن يوسف الملياني بفزواطة ومزجيطة وغيرهما.
1107 1695	ـ شيوخ قبيلة إجنون ـ شيوخ قبيلة إخرْزَنْ ـ شيوخ قبيلة إلمشان	من قبيلة أيت أونير التي سبقت الاشارة إليها من قبيلة أيت زمرو خمس أيت واحليم من أيت عطا	مرابطو زاوية سيدي مَحمد بن يوسف الملياني	حماية أموال الزاوية من النهب	يسري الاتفاق على كل مكان وجدت فيه زاوية لأولاد سيدي مَحمد بن يوسف تجرسيفت (فزواطة) أوبافرا (مزجيطة).
1189	الروحة السفلات	الروحة السفلات من بقايا بني معقل بواحة فزواطة ويستوطنون منطقة بني علي ولايزالون بها	مرابطو زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ الجزولي (فزواطة)	حماية الزاوية وسكانها المرابطون والحراطين من لصوص قبيلة الروحة	هي الاتفاقية الوحيدة التي تظهر لنا أن قبائل الروحة حافظت إلى حدود مطلع القرن 12هـ/نهاية القرن 17م على هذه العادة العربية التي كانت سائدة بدرعة منذ عهد الهيمنة المعقلية.
1207 1792	الشيخ عمرو بن حساين العزاوي	تشكل قبيلة أيت يُعزَّى مع قبيلة أيت خليفة وقبيلة أيت فرسي الخمس الخامس من قبائل أيت عطا	سيدي محمد بن عبد المولى اليعقوبي بزاوية ابن عبد المولى بترناتة (درعة)	حماية العبيد والحراطين الذين يخدمون الزاوية وممتلكات الزاوية نفسها من هجومات أيت يعزى ومن في لفهم	تسري هذه الاتفاقية على كل مكان وجد فيه عبيدا أو حراطين قصد خدمة الزاوية، وكذا في كل الطرق التي تمر بها قوافل تابعة لابن عبد المولى
1209 1794	الشيخ علي بن سعيد من أيت هكّو	قبيلة أيت هكّو واحدة من القبائل التي تشكل منها قبيلة مسوفة الكبيرة وهي من خمس أيت وللال في الاتحادية العطاوية	سيدي يوسف بن عبد الملك شيخ زاوية تِمْسلا في وقته وهي أم الزوايا القادرية بدرعة (مزجيطة)	التكفل للشيخ بحماية الزاوية الجديدة التي بناها بإخف نُوزْرو (رأس الحجر) بمزجيطة	تعتبر قبيلة مسوفة حليفة لقبائل أولاد يحيى التي ستبنى في بلادهم زاوية أخف نوزرو (رأس الحجر) لذلك فتكفل أيت هكو بالزاوية معناه الحيلولة دون هجومات أولاد يحيى على هذه الزاوية.

تاريخ عقد الاتفاقية هـ/م	المتكفلـون	اللف أو القبيلة التي ينتمي إليها المتكفلون	المتكفل له ومقر زاويته	ما تتكفل به الاتفاقية	ملاحظات عامـة
1209 1794	الحسن بن سعيد (بُسَيْو) !!؟	من قبيلة أيت أودينار من قبائل أيت سدرات استقرت بدرعة	سيدي يوسف بن عبد الملك شيخ زاوية تينمسلا القادرية (مزجيطة)	تكفل المتعاقد للشيخ بحماية الزاوية الجديدة، وحماية ساقية سيدي منديل	سبق لنا أن أشرنا إلى أن قبائل ايت سدرات قد جاءت الى وادي درعة لحماية قصور دراوه بمزجيطة من هجومات قبائل أولاد يحيى.
1209 1794	علي بن يشو احمد بن حدَّ احمد بن علي نايت حدَّا	أعيان قبيلة أولاد يحيى من بقايا قبائل بني معقل بوادي درعة.	سيدي يوسف بن عبد الملك شيخ زاوية تينمسلا (مزجيطة) (مزجيطـة)	تكفل هؤلاء الاعيان بحماية الزاوية الجديدة من قبائل أولاد يحيى نفسها	تعتبر قبائل أولاد يحيى من أهم القبائل التي تجاور زاوية تينمسلا ورغم أن شيخ الزاوية كان يحاول ألا يثير ضده هذه القبائل. فكثيرا ما تعرضت الزاوية لهجوماتها الى أن تزوج أحد الشيوخ إحدى بنات القائد اليحياوي فتوقفت النزاعات بين الزاوية وأولاد يحيى.
1220 1805	شيخ ايت سِيلِلُو اعيان إِغْرَّزَن أعيان أيت مَسْكور أعيان أم غجدين.	من قبيلة أيت اونير القوية، والواسعة الانتشار بوادي درعة (أيت عطا)	سيدي محمد بن عبد المولى زاوية بن عبد المولى ترناتة درعـة	حماية الزاوية وخدامها من العبيد والحراطين والقوافل التجارية	يسرى الاتفاق على كل مكان وجدت فيه هذه القبائل من أيت أونير.
1230 1814	اعيان إِزَخْنُونْ	من قبيلة ايت الربع خمس ايت وللال (أيت عطا)	سيدي مَحمد بن عبد المولى بزاوية بن عبد المولى (ترناتة درعة).	حماية خدام الزاوية في مختلف مجالات ترحل قبائل ازخنون	حماية مصالح الزاوية اليعقوبية.
1230 1814	اتفاقية مبتورة في أولها	من قبيلة ايت حسو من خمس ايت واحليم (أيت عطا)	مرابطو زاوية سيدي محمد بن عبد المولى (ترناتة ـــ درعة).	حماية القوافل التجارية للزاوية.	،، ، ،، ،،
1237 1821	شيوخ قبيلة مسوفة	قبيلة مسوفة من خمس ايت ولال من أيت عطا	أولاد سيدي محمد بن يوسف الملياني زاوية تجرسيفت (فزواطة ـــ درعة)	حماية مصالح الزاوية المليانية بفزواطة ومزجيطة	تعتبر قبيلة مسوفة من أقدم قبائل أيت عطا التي استوطنت واحات وادي درعة منذ عصور.

تاريخ عقد الاتفاقية هـ/م	المتكفلون	اللف أو القبيلة التي ينتمي إليها المتكفلون	المتكفل له ومقر زاويته	ما تتكفل به الاتفاقية	ملاحظات عامة
1241 1825	شيوخ قبيلة مسوفة	،، ،، ،،	أولاد سيدي يعقوب زاوية بن عبد المولى (ترناتة ـ درعة)	حماية مصالح الزاوية اليعقوبية بدرعة وهسكورة وأيت واوزكيت	لم توضح الاتفاقية الطريقة التي ستكفل بها قبيلة مسوفة لحماية مصالح الزاوية
1245 1829	شيوخ قبيلة أيت بوداوُود	من قبيلة ايت حسو خمس ايت واحليم (أيت عطا)	،، ،، ،، ،، ،، ،،	حماية مصالح زاوية بن عبد المولى	
1248 1832	ـ الطالب حساين اعلي اليزيوي ـ والشيخ علي واملي اليزيوي.	قبيلة أيت يزو من قبيلة أيت حسو ـ خمس ايت واحليم (أيت عطا)	،، ،، ،، ،، ،، ،، ،، ،، ،،	حماية مصالح زاوية بن عبد المولى	يؤكد الاتفاق على ضمان مصالح الزاوية في كل مكان وجدت فيه عناصر من أيت عطا
1248 1832	مجموعة من قبائل أيت عطا	لم نتمكن من تحديد انتماء هذه العناصر اللهم إلا ما كان من انتمائها لقبائل ايت عطا ككل	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،، ،،	تؤكد الوثيقة على حماية الفارين الى حرم الزاوية.
1250 1834	ـ جماعة ايت بُولْمان ـ جماعة أيت اوزين	من خمس ايت وللال من خمس ايت وللال (ايت عطا)	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،، ،، ،، ،، ،،	تؤكد الوثيقة على حماية كل القوافل التجارية التي يوجد فيها احد من أولاد بن عبد المولى.
1250 1834	بعض أعيان أيت خردي	من قبيلة ايت حسو خمس ايت واحليم من ايت عطا	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،، ،،	
1253 1837	شيوخ ايت وَزّين	قبيلة من أيت وللال (أيت عطا)	سيدي محمد بن عبد المولى زاوية بن عبد المولى (ترناتة ـ درعة)	حماية مصالح زاوية بن عبد المولى	لا شيء
1270 1853	جماعة أيت معرير	قبيلة المشان من خمس أيت واحليم (أيت عطا)	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،، ،، ،، ،، ،،	لا شيء
1290 1873	جماعة إِزَّخنُون	من قبيلة أيت الربع خمس أن وللال أيت عطا	،، ،، ،، ،، ،، ،،	،، ،، ،، ،، ،، ،،	لا شيء

تاريخ عقد الاتفاقية هـ/م	المتكفلون	اللف أو القبيلة التي ينتمي إليها المتكفلون	المتكلف له ومقر زاويته	ما تتكفل به الاتفاقية	ملاحظات عامة
1305 1887	اعيان ايت واحليم اعيان أيت بوداوود اعيان أيت يويكنيفن اعيان أيت زمرو	كلهم من خمس ايت واحليم من أيت عطا	قبائل الروحة (ترناتة)	تتكفل هذه القبائل بجماعة أكديم وهو برج كان يقام لحماية الطرق والسواقي	دليل على تدهور وضعية قبائل الروحة، فبعدما كانت تتكفل بحماية غيرها صارت تحتمي بغيرها.
1308 1890	بعض اعيان أيت بوداوود.	قبيلة ايت بوداوود خمس ايت واحليم (ايت عطا)	زاوية بن عبد المولى ترناتة درعة	حماية مصالح المرابطين اينما كانت وتعينت	لا شـيء
1314 1896	ـ قبيلة ازخنون ـ قبيلة مسوفة	من خمس ايت وللال من أيت عطا	السيد الحنفي الناصري زاوية تامكروت	التعهد بعدم الحاق أي ضرر بالزاوية الناصرية	أول اتفاق تكفلي حصلنا عليه فيما يخص الزاوية الناصرية.
1346 1927	اعيان ايت اسفول	تكون قبيلة أيت اسفول الى جانب قبيلة أيت علوان أحد الخماس ايت عطا بوادي درعة	الشيخ محمد بن الفاطمي خليفة المخزن بتينزولين	حماية كل ما هو داخل تحت حكمه ونفوذه من هجومات ايت اسفول.	جاءت هذه الاتفاقية بعد حملة محمد الكلاوي على وادي درعة.
1346 1927	ايت مشكوكوض	من قبيلة ايت حمو من ايت اسفول(أيت عطا)	الشيخ محمد بن الفاطمي خليفة المخزن بتينزولين	الالتزام بعد التعرض لكل من هو داخل في نفوذ حكم الشيخ ابن الفاطمي	

3 ــ نماذج من الاتفاقيات التكفيلية مع أصحاب الزوايا[38]

نص الاتفاقية رقم 1

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله

أشهدوا على أنفسهم جماعة أيْت أونيرْ أنهما اِكْتَسَوْا[1] لأولاد الوالي الصالح سيدي محمد يوسف، وتحملوا لهم بكل ضرورة[2] في الطرقات وتعد وتعدية[3] وكل شيء يضرهم من قبيلة أيت أونير، فإنهم تحملوا لأولاد سيدي محمد بن يوسف اين كانوا وتعينوا في زاوية تَكَرْسِيفْت[4] وزاوية أفرا[5] وغيرهما. الأول منهما أيت مسكور منهم الشيخ أحماد أخموش، وحم ويدير أُفرفاز، وحم وسعيد أُعمر أُفرفاز، وعلى نسَفَانْ، وعلي نايت فاق اِسليلوى وحمِ نايت واحْمَان، وحم أدور ابْحو ولد أُهَرْ مَحَّان !! ومن عظم ايت احمد أَيَشُّو المنقلب (الملقب) أعطًّا، وابراهيم أُحسين. وهو من إخوان حَمُّشِ إِخَرَّزن.

وكل ذلك قصدوا بذلك وجه الله العظيم وثوابه الجسيم والدار الأخرة والله لايضيع أجر المحسنين.

هذا ما أدوا به علينا ونقلنا عنهما ذلك وعرفناهما عينا وإسما وهم بحال كمال الإشهاد.

عام سبعة ومائة وألف عبيد ربه يعيش بن عبد الله التجر سيفتي المكنى بوحروز وبالعربية بخلد من ذرية سيدي محمد بن يوسف غفر الله ولوالديه ءامين.

---

(1) اكتسوا : بمعنى كسوا لهم اذا تكفلوا بحمايتهم. ورغم أن اللفظ ذو دلالة عربية من إكْتَسَى كَكَسِيَ (ابن منظور ج 3 ــ ص 260). وكساه كسوا فإنه استعمل هنا بمعناه الأمازيغي «إكسا» أي تكفل بحمايته.

(2) ضرورة : الضرر يلحقهم في الطرقات وغيرها من أيت أونير.

(3) تعد وتعدية : يقصد الاعتداء على المرابطين.

(4) تقع زاوية تكرسيفت بمنطقة بني علي بواحة فزواطة.

(5) زاوية افرا بواحة مزجيطة وهي فرع لزاوية تجرسيفت.

يستعمل الكاتب لفظ التثنية للجمع لانه اعتمد فيما يبدو على نسخة عقد بين شخصين وقلد الصياغة دون الانتباه إلى صيغة الجمع في الاتفاقية.

1 ــ التعريف بالاتفاقية.

هذه الاتفاقية تم عقدها ما بين أولاد سيدي محمد بن يوسف (الملياني) وبعض شيوخ قبيلة أيت أونير.

وهو واحدة من وثيقتين استنسخناهما من مجموعة السيد عبد الله حمودي الخبير بمكتب الاستثمار الفلاحي بورزازات والاستاذ بمعهد الحسن الثاني للزراعة والبيطرة بالرباط حاليا. وقد حررت هذه الوثيقة

---

(38) سبق لنا أن عرفنا بهذه الاتفاقيات التكفلية في الفصل الأول.

بلغة شبه عامية، وكاتبها كما يظهر من توقيعه من حفدة سيدي محمد بن يوسف الملياني، ويعود تاريخ كتابتها إلى سنة 1107 /1695م.

2 ــ التعريف بالمتعاقدين.

أ ــ **المتكلفون** : ينتمي المتكفلون بالاتفاقية والضامنون لها إلى قبيلة أيت أونير وهم عشرة أعيان بما فيهم الشيخ. وفرق أيت أونير المذكورين في الاتفاقية هم أيت مسكور وإفْرْفَزَنْ، وأيت سْلِيلُّو وإخَرزَن[39]. فقد التزم هؤلاء الاعيان لأولاد وحفدة سيدي محمد بن يوسف بزاويتي تكَرسيفت بفزواطة، وأفرا بمزجيطة، بألّا يلحقهم أي ضرر من قبائل أيت أونير بوادي درعة.

ونستنتج من هذه الاتفاقية رغم حجمها الصغير أن قبيلة أيت أونير تعتبر واحدة من أقوى قبائل أيت عطا التي تمكنت من فرض وجودها وهيمنتها على واحة فزواطة منذ مطلع القرن الثاني عشر الهجري /17م. الأمر الذي جعل مرابطي زاوية تكرسيفت يعقدون هذا الاتفاق مع هذه القبيلة حتى يتأتى لهم التنقل في أمان تام عبر واحات وادي درعة.

تعتبر قبائل أيت أونير من أهم قبائل أيت عطا بوادي درعة، وتشكل مع قبائل أخرى مثل مسوفة خمس أيت ولّال، أحد الاخماس المهمة والمؤسسة لإتحادية أيت عطا.

وينحدر أيت أونير من صنهاجة اللثام الصحراوية وصنهاجة الأطلس المتوسط من أهل الطبقة الثانية والثالثة حسب ترتيب ابن خلدون[40].

وتنتشر قبائل أيت اونير بوادي درعة من خمس لكتاوة الى خمس تينزولين، مرورا بفزواطة وترناتة. ويوجد مركز ثقلهم بوادي درعة بخمسي ترناتة وتينزولين، وقد تحولت جل عناصر أيت اونير الى الاستقرار والارتباط بالأرض وشكلوا قبائل قصور مستقلة في تسيير شؤونها الداخلية على عادة سكان وادي درعة. وقد تم تحول قبائل ايت أونير الى الاستقرار ببطء كبير، ويمكن القول بأن بوادر هذا التحول من الترحال الى الاستقرار، بالنسبة لأيت أونير قد بدأت منذ بداية القرن الثاني عشر/18م. ثم تزايدت بوتيرة متسارعة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري/19م ومطلع القرن الرابع عشر/20م.

ولا مشاحة إذا قلنا أن المغرب الجنوبي خلال هذه الحقبة التي ذكرناها قد عرف تحولات خطيرة، ليس فقط على مستوى الاحداث السياسية وانما على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي انعكست آثارها بشكل سلبي على سكان الواحات جنوب جبال الأطلس الكبير. فقد اندثرت بشكل نهائي أهم المراكز التجارية الصحراوية القديمة التي كانت تشكل صلة وصل بين جنوب المغرب وافريقيا السوداء كما

---

(39) حول تفرعات قبائل أيت اونير بوادي درعة انظر : G. Spillmann : les Ait Atta du Sahara p. 78.

(40) — G. Spillmann : Les Ait Atta du Sahara, p. 79.

— F. de la Chapelle : Moulay Ismaïl et les berbères Sanhaja du Maroc central. Archives Marocaines - volume 28, p. 59.

ــ ذ : التقي العلوي : مجلة البحث العلمي : اتحادية أيت عطا : عدد 23 ــ 1974 ص. 116.

تراجعت أهم الطرق التجارية الحيوية التي كانت تعتبر مصدر ثروة ورخاء بالنسبة للقبائل الصحراوية، فلم يبق أمام هذه القبائل إلا الاندفاع نحو واحات الجنوب المغربي للتزود بما هي في حاجة إليه من أقوات والمرور بقطعانها نحو مراعي جبال الأطلس.

وقد كانت القبائل الصنهاجية من أبرز القبائل التي تضررت من هذه التحولات الخطيرة التي طرأت على الجنوب المغربي، فتجمعت هذه القبائل في اتحادية أيت عطا، وقد كان اندفاع أيت عطا مصحوبا بنوع من العنف وممارسة اللصوصية في محاولة لتجاوز ظروف النقص في الأقوات. فقد ذكر الحسن اليوسي في رسالة له الى السلطان مولاي اسماعيل سنة 1096هـ/1684م. أن قبائل أيت عطا كانت تمارس نهب المزورعات بالواحات الصحراوية وتهاجم السكان، واتهم العمال المخزنيين في المناطق التي تهاجمها قبائل أيت عطا بالعجز التام عن التصدي لهجومات أيت عطا[41]. الامر الذي جعل سكان هذه المناطق يلجأون الى عقد الصلح مع هؤلاء الظلام على حد تعبير اليوسي. وهكذا يتضح أن السكان كانو يتعاملون بنظام الاتفاقيات مع ظهور كل عجز للعمال المخزنيين في حماية المنطقة. ورغم هذه الاتفاقيات، فإن قبائل أيت عطا كانت تقوم بالهجوم على قصور المستقرين واغتصابها بالقوة. ولاتزال الرواية الشفوية وذكريات الشيوخ المسنين تروي عن فظاعة هذه الهجومات وما كان ينتج عنها من صدامات دموية.

كان المخزن يجرد حملات ردعية قوية الى مناطق الواحات منذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/18م وطيلة القرن الثالث عشر الهجري/19م ويقوم بطرد قبائل الرحل من القصور المغصوبة واسترجاعها الى سكانها الأصليين[42] إلا أن فعالية هذه الحملات الردعية كانت تبقى محدودة وظرفية، إذ لا تكاد الحملة المخزنية تغادر المنطقة حتى تنقض قبائل أيت عطا على قصور المستقربين من جديد. وقد كانت قبائل أيت أونير ومسوفة من بين القبائل الاولى التي مارست نوعا من الضغوط على سكان قصور وادي درعة الأمر الذي جعل سكان وادي درعة يتجهون الى هذه القبائل لتتكفل بحمايتهم. وبعدما تحولت قبائل أيت أونير إلى الاستقرار ظهرت لهم مجموعة من القصور مثل قصور تِينانو اغْرَبَنْ، وإخرَّزَن بترناتة إضافة الى مجموعة من القصور التي اغتصبوها مثل تينَرْدَنْ، والزركَان، بتينزولين وتايَرْسُوت وغيرها بترناتة.

المتكفل لهم: هم أولاد سيدي مَحمد بن يوسف الملياني المستوطنون بزاويتي تجرسيفت (منطقة بني علي بفزواطة) وأفرَوا بواحة مزجيطة. ويظهر أن هذه الزاوية واحدة من تلك الزوايا التي ظهرت بواحات وادي درعة ما بين نهاية القرن التاسع الهجري/15م ومطلع القرن العاشر الهجري/16م عندما هبت على الجنوب المغربي عامة ودرعة وسوس خاصة موجة من المتصوفة والمتمشيخة لتجنيد المتجاهدين للرد على الهجمة المسيحية.

---

(41) ابو علي اليوسي : رسائل اليوسي مصدر سابق ج. 1 — ص. 212.

(42) سبق لنا أن أشرنا الى مجموعة من هذه الحملات في الفصل السابق (7).

وشخصية سيدي محمد بن يوسف الملياني، الجد الحقيقي أو المزعوم لمرابطي زاويتي تجرسيف وأفْرا بدرعة، تثير جملة من الأسئلة منها مثلا : ما هي الفترة التي عاش فيها هذا الرجل إذا كان موجودا فعلا ؟ وما علاقته بسيدي أحمد بن يوسف الراشدي الملياني المتوفى بمليانة في العشرة الثالثة من القرن 10هـ ؟[43] وما هي الطريقة الصوفية التي ينتمي اليها هذا الرجل ؟

إننا لم نفلح في الحصول على ما يساعدنا في الكشف عن شخصية سيدي محمد بن يوسف الملياني، خاصة أن كتاب الدرر المرصعة بأخبار أعيان وادي درعة لمحمد المكي الناصري (12هـ/17م) لم يتعرض لذكره لا من قريب ولا من بعيد، كما أن مؤلف الكتاب لم يشر قط لزاوية تجرسيفت رغم موقعها القريب من زاوية تامكَروت الناصرية[44]، وتاريخ كتابة الوثيقة الذي تقدم بحوالي نصف قرن من تاريخ كتابة الدرر المرصعة يجعلنا نؤكد بأن مَحمد بن يوسف الملياني، إن كان شخصا حقيقيا، قد يكون عاش قبل مؤلف كتاب الدرر. وقد يكون تجاهل صاحب الدرر لمحمد بن يوسف الملياني على اعتباره شخصية هامشية وليس له ما يذكر به من مشاركة علمية أو صوفية.

أما الفقيه سيدي محمد بن لحبيب التمنوكَالي، فيبدو أنه اعتمد على الرواية الشفوية في التعريف بسيدي مَحمد بن يوسف، فقد اكتفى بالقول أنه «المدعو عند العامة بَوَمَّاي» (؟) قبره بزاويته شهير (والمقصود بزاويته زاوية تجرسيفت بفزواطة) وبنوه بها، وله زاوية في مزجيطة يزعمون أن ضريحه بها والله أعلم»[45] ومما يزيد في غموض الملعومات حول مَحمد بن يوسف، أن كل زاوية من زاويتيه بفزواطة ومزجيطة تدعي أنه مدفون بها، وهذا ما جعل الفقيه بن لحبيب أثناء إشارته الى زاوية تجرسيف بمزجيطة[46] يقول إنهم «يزعمون أن ضريحه بها». ومما يؤكد هذا الغموض أننا حاولنا أثناء زيارتنا لمنطقة مزجيطة سنة 1982م، طرح بعض الأسئلة على أحد مرابطي زاوية أفرا[47] فيما يتعلق بأصل المرابطين وعلاقتهم بالطريقة المليانية التي وصلت الى المغرب في مطلع القرن العاشر الهجري/17م. إلا أن أسئلتنا قوبلت بفتور واضح، ذلك أن جل المرابطين بوادي درعة يتحاشون الخوض في مثل هذه المناقشات التي تثار عادة حول أصولهم لأن ذلك في نظرهم يؤدي الى التشكك في هويتهم وماضيهم وبالتالي يمس مسا مباشرا بعض مرتكزاتهم الاجتماعية والاقتصادية.

ويمكن القول أن الزاوية المليانية بدرعة قد تكون أسست على يد أحد مقدمي الطريقة المليانية[48] بدرعة، ولظروف اجتماعية واقتصادية وقد تكون سياسية انتسب أبناء المقدم الى مؤسس الطريقة، وما أكثر الذين ربطوا أنسابهم بأبناء الزاوية الحققيين وهم ليسوا إلا أبناء مقدمين أو مجرد أبناء لمريدين عاديين لهذه الزاوية أو تلك.

---

(43) محمد بن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر ص. 124.

(44) لابد من التذكير هنا أن محمد المكي بن موسى الناصري تجاهل كثيرا من زوايا درعة رغم قدمها على الزاوية الناصرية.

(45) الفقيه محمد بن لحبيب التمنوكَالي : العقود الجوهرية في الانباء الدرعية : مخطوط خاص ص.15.

(46) تعرف زاوية افْرا بمزجيطة بتجرسيفت تذكيرا بالزاوية الأم.

(47) هو الشيخ الزمني لمنطقة أفرا سيدي يوسف وقد كان حذرا حتى في رده على أجوبة جد عادية.

(48) حول هذه الطريقة انظر : الاستقصا ج. 5 — ص. 50 — 51.

نص الوثيقة الثانية

الحمد لله وحده

أشهد الشيخ اعلي الاجناوي من أيت تبرتين أنه اكتسى للمرابطين ءال تجرسيفت لزواياهم من نهب أموالهم أو نهب سكانهم، ياخدونها[1] من قبيلة إجْنَوْنْ كسوة صحيحة تامة إشهادا صحيحا.

بتاريخ عام سبعة ومائة وألف.

والشيخ حسين أعلي إخَرَّزْنْ النوري، والشيخ بلقاسم أخرزن، والشيخ حدَّ نايت القايد، والشيخ عدُّو سعيد بكزت (؟) كلهم إخَرَّزن. صح به لأجله، يعيش بن عبد الله كان الله له ءامين.

وفي نفس الوثيقة.

أشهد الشيخ إبراهيم أعلي اللمشي من أيت عطا كسا لأولاد سيدي محمد بن يوسف التجرسيفي نخص منهم سيدي بًّا، والسيد مَحمد بن عبد العالي وقبيلة المرابطين ءال تجرسيفت صغيرا وكبيرا، والشيخ أحمد الحسين اللمشي كسا للمرابطين المذكورين كساهما وتحملوا لهما بجميع الضرورة. صح به يعيش بن عبد الله بن... حسين لطف الله به ءامين.

(1) الضمير في يأخدونها يرجع على المنهوب. ويسمون المنهوب محليا بالنهبة، لذلك فقد تعامل كاتب الوثيقة مع المنهوب على أساس المعنى الحاضر في ذهنه «للنهبة».

وقد اعرضنا في هذه الوثيقة عن المفردات التي سبق لنا أن شرحناها في الوثيقة السابقة خاصة أن كاتبهما واحد ومصدرهما كذلك.

1 ـــ التعريف بالاتفاقية :

1) هذه الاتفاقية هي الوثيقة الثانية التي استنسخناها من مجموعة السيد عبد الله حمودي.

وهي عبارة عن اتفاقية تكفلية، وقد عقدت بين مرابطي زاوية تجرسيفت أولاد سيدي مَحمد بن يوسف المليَاني بفزواطة وبعض شيوخ قبائل أيت عطا من قبائل إجْنَون، وإخَرَّزنْ والمشان. وتتكون في الواقع من اتفاقيتين.

وقد حررت الوثيقة بلغة شبه عامية، ويعود تاريخ تحريرها الى عام 1107هـ/1695. وقد أغفل الكاتب إسم اليوم والشهر الذي أنجز فيه الاتفاق.

2 ـــ التعريف بالمتعاقدين :

أ ـــ **المتكلفون** : مجموعة من شيوخ بعض قبائل أيت عطا، ورغم أننا لا نتوفر على كل المعطيات التي تسمح لنا أن نعرف بطريقة شاملة بالقبائل التي وردت أسماؤها في هاتين الاتفاقيتين فقد حاولنا تحديد مجالات انتشار كل قبيلة بوادي درعة والمناطق المجاورة له انطلاقا مما كتبه جورج سبلمان ومن مراكز استيطانها التي لاتزال موجودة بها الى اليوم.

1 . **قبيلة إجْنَوَن أو إجْناون (بجيم معقودة)** : تعتبر هذه القبيلة واحدة من القبائل التي تشكل خمس أيت واحليم وتشكل الى جانب قبيلة المشان الثلث الثاني من هذا الخمس وتتكون قبيلة إجْنون من خمس فرق (قبائل صغرى) وهي على التوالي : أيت علي، وأيت بُوتَبْرَتين، وأيت سعيد، وأيت يَشُّو، وأيت حساين.

وتمتاز هذه القبيلة من بين قبائل أيت عطا، بلون بشرتها الذي يميل الى السمرة المفتوحة (القريب من لون الحراطنة). وقد دفع هذا اللون وأصل تسمية القبيلة (إجْنَوْن) بعض الباحثين الى القول بأن أصل قبيلة إجْنون يرجع الى أصول إفريقية سوداء[49]. ولا نستبعد أن يكون هذا التأويل صحيحا، خاصة إذا عرفنا أن واحات وادي درعة الجنوبية مثل لكتاوة ومحاميد الغزلان وفزواطة قد طرأت عليها عناصر إفريقية في أزمنة غير معروفة، وقد ظلت هذه الواحات تتلقى المزيد من أمواج الافارقة السود منذ الفتح الاسلامي الى وقت متأخر من القرن الماضي. وقد كانت الأمواج الجديدة تندمج بسرعة كبيرة مع الأمواج القديمة، إذن فليس من المعقول في شيء ألا تكون قبيلة إجْناون أو بعض فرقها من العناصر الافريقية. وقد تكون هذه العناصر بعد اندماجها قد أخذت اللهجة الشلحية عن العناصر الهسكورية المصمودية[50] والعناصر الصنهاجية بعدها، التي كانت تتحكم في الواحات الجنوبية قبل المد المعقلي الذي طرأ على المنطقة في أواسط القرن السابع العجري/13م.

فلما تشكلت الاتحادية العطاوية، وبدأت قبائلها في الاندفاع نحو مناطق الواحات، انحاشت العناصر الجناوية الى قبيلة المشان من خمس أيت واحليم، وتدل كل المعطيات التاريخية والبشرية التي لاتزال قائمة على شكل شواهد من الماضي بواحة فزواطة أن خمس أيت واحليم كان يتحكم في المدخل الجنوبي لفزواطة (فم تَاقَاتْ حيث يوجد قبر دادا عطا) وهو ممر حيوي في الحركة التجارية التي تربط بين واحتي لكتاوة وفزواطة من جهة وبين هاتين الواحتين وبلاد سوس وتافيلالت من جهة ثانية. ولعل وجود أربع قصبات لقبيلة إجْنَاوَنْ في شمال واحة لكتاوة، وعلى مرمى حجارة، من فم تاقات، لأكبر دليل على رغبة خمس أيت واحليم في مراقبة هذا الممر التجاري الحيوي[51]. وإذا كنا لا نتوفر على كل المعطيات

---

(49) G. Spillmann : op. cité, p. 82. —

— التقي العلوي : البحث العلمي — 23 — 1974 ص. 120.

(50) حدد ابن خلدون مجال مسكورة المعدودة في عصره ضمن تجمعات قبائل مصمودة من درن (الأطلس الكبير) الى تادلة من جانب الشرق الى درعة من جانب القبلة ج. 6 — ص. 203.

— أما الحسن الوزان في كتابه وصف افريقيا (ج. 1 — ص. 135 — 136) فقد أدخل الواحات الثلاث العليا من درعة (ترنانة تينزولين — مزجيطة) ضمن مجال انتشار قبائل هسكورة.

واذا ما أخذنا بعين الاعتبار ملاحظة الاستاذ التوفيق احمد (اينولتان ج 1 — ص. 74) الذي ذكر أن مجموعة من الأسماء المنتهية بالالف والتاء كانت توجد ضمن مجال الهساكر، فإن بعض الأسماء لاتزال تحمل هذه المواصفات بوادي درعة مثل : قصر تسركات، تكشطات، انكزاط الخ وهي قصور تمتد من مزجيطة الى فزواطة، وعلى هذا فإن الهساكرة قد يكون مجال انتشارهم ليس محصورا في الواحات الشمالية الثلاث وإنما يمتد أيضا الى الجنوب الأمر الذي سهل اندماج إجناون في عصور قديمة مع الهساكر والأخذ عنهم.

(51) توجد هذه القصبات الأربع في الضفة الشرقية لنهر درعة شمال لكتاوة وهي : قصبة أيت علي، وقصبة ايت بوتبرين، وقصبة أيت حدُّو والقصر الجديد. خريطة المغرب : 1/100.000 ورقة زاكورة.

التي تسمح لنا بتتبع مراحل تطور قبيلة إجْناون ضمن مجال انتشارها، فهذا لم يمنعنا من القول أن هذه القبيلة كانت تتعاطى للرعي والترحال في مجال يمتد من لكتاوة بوادي درعة الى تودغة مرورا بتازرين وصاغرو. كما أن غياب هذه المعطيات لم يمنعنا من القول بأن دور قبيلة اجناون ضمن خمس أيت واحليم ما هو في الواقع إلا دور ثانوي وتكميلي، إذ ليس من حق هذه القبيلة مثلا، أن ترشح أحد أفرادها للمشيخة الكبرى في إطار الخمس فبالأحرى أن تتطلع لمشيخة أيت عطا التي لا يترشح لها إلا من كان يعد من صميم صنهاجة. وقد تحولت جل عناصر تجمعات قبيلة اجنَّاون الى الاستقرار والارتباط بالأرض.

2 . **قبيلة إلَمْشان** : تعتبر هذه القبيلة أقوى قبيلة في خمس أيت واحليم الى جانب أيت بويكنيفسن وأيت حَسُّو. ولابد أن نشير هنا الى أن خمس أيت واحليم يتعبر من أقدم الأخماس التي ساهمت في وضع النواة الأولى للاتحادية العطاوية الى جانب خمس أيت وللَّال. وتنحدر تجمعات أيت واحليم مثلهم في ذلك مثل أيت وللَّالْ من صنهاجة اللثام الصحراويين وصنهاجة الأطلس المتوسط[52].

وتتكون قبيلة إلمشان من أربع فرق (قبائل صغرى) وهي حسب الترتيب المعترف به في أوساطهم، أيت مَعْرِيرْ، وأيت بُونُو، وأيت يشو، وأيت أو تَبْرتين. ولاتزال قبائل إلمشان بوادي درعة تحافظ على هذا التقسيم الى اليوم.

تنتشر قبائل المشان في مجال من الأرض يمتد من وادي درعة الى جبل صاغرو مرورا بتازرين التي تعتبر مركز ثقلهم بالدرجة الأولى.

يبدو من خلال هذه الوثيقة التي بين أيدينا أن قبيلة أَلَمْشَان كانت ضمن قبائل أيت عطا التي طرأت على هوامش واحات درعة منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م وقد كانت عناصرها تمارس الرعي والترحال كغيرها من قبائل أيت عطا، وتشارك من حين لآخر في الهجومات على القصور والمنتوجات لتعويض النقص الذي كانت تعاني منه هذه القبائل من الناحية الاقتصادية.

وانطلاقا من مناطق سكنى قبائل المشان الحالية، والوثيقة التي بين أيدينا، يمكن القون بأن المشان كانت تراقب المنافذ التجارية التي تربط بين وادي درعة (ترناتة ـــ فزواطة) وتافيلالت عبر تارزين وتاغبالت وقد تحولت جل عناصرها المشان الى الاستقرار والارتباط بالأرض، وأسست مجموعة من القصور مثل قصبة أيت معرير، وأيت يحيى وموسى، وقصر بن دلالة[53] في المنطقة الوسطى من ترناتة، وبإمكان هذه القصور مراقبة الحركة التجارية عبر تيزن تافيلالت وقم لخنك وفم ورثي، وهي ممرات تربط بين وادي درعة وتازرين.

وتكشف لنا هاتان الاتفاقيتان رغم صغر حجمها عن عمق الأزمة المجتمعية والسياسية التي كانت سائدة بواحات وادي درعة عند مطلع القرن الثاني عشر الهجري/نهاية القرن 17م اي إبان أوج عهد السلطان مولاي إسماعيل.

---

(52) G. Spillmann : op. cité, p. 82.

(53) خريطة المغرب : 1/100.000 ورقة زاكورة.

وتتعدد أسباب هذه الأزمة، فقد كانت قبائل أيت عطا بعد هزائمها بجبل صاغرو سنة 1089هـ/1778م تهاجم الواحات، وتزاحم سكان القصور في منتوجاتهم الزراعية، في محاولة من هذه القبائل لتجاوز النقص الكبير في الأقوات، وكثيرا ما تحولت هذه المزاحمة الى صدام مفتوح بين قبائل أيت عطا، وسكان القصور الذين انهكتهم الأحداث السياسية التي عرفتها بلاد درعة طيلة القرن الحادي عشر الهجري/17م، وما كان يصحب هذه الأحداث من عنف بين المتصارعين على السلطة بالمنطقة[54] بالاضافة الى تفشي الأوبئة والأمراض التي فتكت بمئات السكان ليس في وادي درعة فحسب[55] وانما في مجموع أنحاء المغرب[56].

ورغم ما كانت تتمتع به الزوايا من احترام وتقدير في أوساط القبائل بالجنوب المغربي، فإن ظروف الأزمة القاسية، قد تجاوزت كل الحدود وهدمت كل الاعتبارات، فصار لصوص القبائل من أيت عطا وغيرهم يهاجمون الزوايا، ويقطعون الطريق على القوافل التي تنقل الأقوات من مناطق تجميعها الى الزاوية الأم، فاضطر شيوخ الزوايا والمقدمون الى عقد سلسلة من الاتفاقيات التكفلية مع قبائل أيت عطا لحماية مصالح الزاوية حيثما وجدت سواء داخل واحات وادي درعة أو خارجها[57].

وعادة ما تعقد مثل هذه الاتفاقيات التكفلية في مناسبة موسم الزاوية، حيث كان الموسم فرصة لاجتماع الاتباع والزوار وأبناء السبيل من الفضوليين والجوعى والراغبين في بركة الشيخ حيا كان أم ميتا. وقد كان أصحاب الزوايا يستغلون هذه المناسبة لعقد سلسلة من الاتفاقيات التكفلية مع القبائل القوية من أيت عطا وغيرهم لحماية مصالح الزاوية وضمان استمرارها واحترامها حتى يتأتى لهم التفرغ لنشر التعليم الديني وتربية المريدين للاكثار من الاتباع، إذ بقدر ما يكون أتباع الزاوية كثيرين بقدر ما تكون الزاوية غنية وبالتالي تضمن لنفسها النفوذ الواسع والاستمرار في مجتمع كانت مصادره الاقتصادية تتسم أصلا بالقلة والشح.

نص الاتفاقية رقم 3

الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وءاله

لما اتفقت جماعة المرابطين أهل زاوية سيدي علي بن مَحمد نفعنا لله به وهم من ذرية القطب الرباني سيدي علي بن مَحمد الشيخ. نخص منهم سيدي عبد الله بن محمد وسيدي محمد بن الحسين وسيدي محمد بن اعلي بن يحي وكافة المرابطين وطلبوا الروحى (الروحة) السفلات على أن يكسوا الزاوية

---

(54) انظر الفصل السادس.

(55) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة مخطوط خاص ص. 121.

(56) الناصري : الاستقصا ج. 7. ص. 60.

(57) انظر الاتفاقيات التكفلية بين أيت عطا وزاوية بن عبد المولى في آخر الفصل.

المذكورة، لكون فساد الزمان وكثر النهب وغير ذلك. وطلبوا الكسوة منهم فكسوا لهم الزاوية كل من سكنها من حراطين[1] وغيرهم وتحملوا على أنفسهم كل ضرر يلحقهم من الروحى (الروحة) وغيرهم وكل من أتاهم بفضيحة[2] أو تعدية[3] وغيرها فهم خصمائهم[4] في كل حاجة ومن حضر يجزى الأخر منهم وأولادهم وأولاد أولادهم ما تناسلوا وممن تحمل بذلك.

ــ من أولاد منصور محمد بن يعنى الشيخ محمد بن عبو ومحمد بن علي بن دحان.

ــ ومن أولاد الحسين عيسى بن لغزال، علي بن أحمد من أولاد عيد، ومحمد بن دوا وابراهيم بن محمد، ودحّان من أولاد كروم. وعبد الله بن محمد من أولاد لعكَيد.

ــ ومن أولاد رزوكً يعيش بن محمد، ومن أولاد العكَيدان سعيد بن عبد الله وسيدي محمد بن الفقير وبلال بن عبد الله بن أعراب وبوجمع وعبد الكريم بن ديدي من أولاد عبد الله، ودحان بن موسى والخضر وأولاد عتو محمد بن جابر وسعيد بن عبو، وسعيد بن محمد، ومن الحجاج أحمد بن محمد بن دحان ومبارك بن جابر ومحمد بن العربي ومحمد بن القطيب ومحمد بن علال.

كلهم تحملوا بالكسوة التامة سواء طال الزمان أم قصر، وتكفلوا بذلك تكفلا لازما لأنفسهم ولأولاد أولادهم ما تناسلوا. وبه كتب من شهد بذلك وهم على الصحة والطوع والجواز وفي الرابع من الايام من شوال وبتاريخ عام 1189هـ (1775).

عبيد ربه تعالى علي بن عبد الرحمان بن علي بن محمد بن ابراهيم لطف الله به ءامين.

---

(1) سبق لنا أن عرفنا بحرطاني وحراطين في فصل سابق من هذا البحث.

(2) الفضيحة : العار والمقصود احراج قبيلة الروحة بالهجوم على المرابطين.

(3) سبق شرحها في الوثيقة الاولى.

(4) خُصَّماء : جمع خصيم، وفي الحديث (أنا خصيم من ...) ويقصد صاحب الوثيقة ان كل من أذى الزاوية، فإنه يعتبر خصما لقبيلة الروحة والمعنى واضح.

تعقيب على هذه الاتفاقية التكفلية بين مرابطي زاوية سيدي علي بن مَحمد الجزولي وقبيلة الروحة

1 ــ التعريف بهذه الاتفاقية :

1) نتوفر على نسخة مصورة لهذه الاتفاقية وقد تسلمناها من السيد الصديقي محمّاد بن عبد الله الساكن بزاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ الجزولي قبيلا البكري نسبا، اثناء زيارتنا لهذه الزاوية في ربيع 1982.

وهي عبارة عن اتفاقية تكفلية بين مرابطي الزاوية المذكورة بفزواطة وقبائل الروحة السفلات.

يرجع تاريخ تحريرها الى شهر شوال عام 1189هـ/1775م. وقد كتبت بخط مغربي عادي وهي على العموم قليلة الأخطاء الاملائية واللغوية.

2 ـــ التعريف بالمتعاقدين

أ ـــ جماعة المرابطين أهل زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ.

وقد خصَّت الوثيقة ثلاثة من أعيانهم كممثلين لأهل الزاوية وهم : سيديَ عبد الله بن محمد، وسيدي محمد بن لحسين، وسيدي محمد ابن علي بن يحيى، وقد أكد الكاتب بأن المرابطين من ذرية «القطب الرباني سيدي علي بن محمد الشيخ».

وتقع هذه الزاوية في خمسن فزواطة بمنطقة تامكَروت الشهيرة بزواياها مثل زاوية سيدي الناس الانصارية وزاوية سيدي علي هذه وزاوية تامكَروت الناصرية[58].

وقد أسس هذه الزاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ، بعد هجرته من سوس الى وادي درعة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م[59] واشتهرت منذ تأسيسها بارتباطها الوثيق بالدولة السعدية.

وبالرغم من أننا لا نعرف أي شيء عن بداية علاقة اسرة علي بن مَحمد الشيخ بالسعديين، وهل كان للعائلة السعدية يد في مجيء جد أسرة البكريين الى وادي درعة ؟ فإننا نعتقد أن هذه العلاقة بدأت منذ وقت مبكر، فالاسرتان معا تسكنان في خمس فزواطة، فقصر تاكَمادَّارت، حيث مقر السعديين قبل توليهم الامر، لا يبعد عن موقع زاوية البكريين إلا ببضع كيلومترات، ولا نستبعد أن تكون الطريقة الجزولية التي انتشرت بدرعة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م قد جمعت بين الأسرتين مما وطد العلاقة بينهما. وكيفما تطورت هذه العلاقة بين الاسرتين، فإن الأسرة السعدية المالكة كانت تنتدب في بعض مهامها الدبلوماسية الخاصة علماء من أسرة سيدي علي بن مَحمد الشيخ. وفي هذا الاطار أرسل السلطان عبد الله الغالب السعدي سنة 980هـ/1572م مُحمد بن مَحمد (بالفتح) بن علي سفيرا عنه الى الديار التركية. ولاشك أن الرجل قد نجح في مهمته الدبلوماسية، الأمر الذي جعل السلطان أحمد المنصور بعد سبع عشرة سنة من هذه السفارة يختار أخاه علي بن مَحمد سنة 997هـ/1588م في سفارة أخرى الى البلاط العثماني وقد دون علي بن مَحمد أخبار رحلته التي استغرقت خمسة وعشرين شهرا في كتابه الشهير «النفحة المسكية في السفارة التركية»[60] ورغم أن هذه المرحلة تزخر بالمعلومات الجغرافية

(58) فيما يتعلق بموقع هذه الزوايا انظر :
خريطة المغرب : 1/100.000 ورقة زاكَورة.

(59) د. محمد حجي : الحركة الفكرية في عهد السعديين الجزء الثاني : ص. 545.

(60) لا يزال كتاب النفحة المسكية في السفارة التركية مخطوطا. وقد اعتمدنا على نسخة مطبوعة بالصورة بعناية الضابط هنري دوكاستر بباريس (مغفولة من تاريخ التصوير) والكتاب يوجد بالخزانة العامة بالقسم العام تحت رقم A. 3887.
وقد أطلعنا على نسخة مختصرة عند السيد محمَّاد الصديقي من زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ. ويبدو أن هذه النسخة المختصرة قد نقلت حديثا من نسخة قديمة.

والاقتصادية عن البلدان التي مر بها، فإنه لم يتعرض بشيء من مثل هذا لوادي درعة اللهم إلا ما كان من اشارات مقتضبة تفيد تاريخ مغادرته لزاوية جده .وعودته إليها. وإلى جانب هذه المهمات الدبلوماسية التي أعطت لعلماء زاوية سيدي علي ميزة خاصة عند السعديين، فقد كانت لهم مشاركة علمية تجاوزت أفاقها النطاق المحلي والجهوي. وقد بدأت هذه الشهرة العلمية والتصوفية مع الشيخ سيدي علي بن مَحمد، أول مهاجر من هذه الأسرة، التي ينتهي نسبها الى ابي بكر الصديق الى وادي درعة[61] في مطلع القرن العاشر الهجري، وهو الذي أسس الزاوية التي لازالت تعرف باسمه الى اليوم.

وبعد وفاة الشيخ المؤسس للزاوية، قام مقامه ابنه مَحمد بن علي[62] وقد برز في الميدان العلمي خلال العقود الوسطى من القرن العاشر الهجري/16م فتجاوزت شهرته العلمية والصوفية حدود وادي درعة الى جهات أخرى من المغرب حتى وصفه ابن عسكر الشفشاوني في دوحته بأنه «كان من العلماء العاملين وأولياء الله المتقين، شيخا فاضلا من العارفين بالله تعالى»[63]. كان هذا الشيخ معاصرا لابي القاسم الشيخ استاذ زاوية سيدي الناس المجاورة لزاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ[64].

خلف من الأولاد بعده عالمان جليلان هما : مَحمد بن مَحمد سفير عبد الله الغالب السعدي الى تركيا. وعلي بن مَحمد صاحب كتاب النفحة المسكية. وبعد عودة مَحمد بن محمد من تركيا إسندت إليه مهمة تربية أبناء الأشراف السعديين ومن الآخذين عنه أحمد المنصور[65]، وقد ظل محمد مَحمد يقوم بالتدريس ويؤم بمسجد المشور بفاس إلى أن توفي سنة 988هـ/1580م.

أما أخوه أبو الحسن علي بن مَحمد فقد اشتهر أيضا بالعلم والتدريس والصلاح، وقد وصفه صاحب الدرر المرصعة بأنه «إمام المعارف روضة الأدب والصلاح الناعمة الأفنان والمطارف»[66]، وساق جملة من مرجزاته المنقولة أصلا من النفحة المسكية، وبالرغم من شهرته العلمية والأدبية فلم يعرف له من المؤلفات إلا كتاب النفحة المسكية. والواقع الذي لا غبار عليه أن علماء زاوية سيدي علي لم يخلفوا لنا من ورائهم أي إنتاج يذكر سواء في الميدان العلمي أو الأدبي على غرار ما خلفه لنا علماء زاوية تامكَروت الناصرية التي ازدهرت منذ أواسط القرن الحادي عشر الهجري/17م، فهل ضاع تراث

---

(61) حول نسبة مرابطي زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ الى أبي بكر الصديق انظر : محمد المختار السوسي : المعسول ج. 10 من ص. 172 الى 184.

(62) اغفلنا تاريخ وفاة مَحمد بن علي للاختلاف الكبير في تاريخ وفاته بين الذين ترجموا له. فهو في الدوحة لابن عسكر (تحقيق حجي) توفي في العشرة الثانية من القرن العاشر (ص 93) في حين أن الاستاذ المنوني في مقالته عن حضارة وادي درعة (دعوة الحق العدد. 2 — 1973 ص. 138 — جعل تاريخ وفاته في حدود 960هـ.
أما الدكتور حجي فقد جعل وفاته في عام 965هـ (الحركة الفكرية في عهد السعديين ج. — ص. 546) ولهذه الاختلافات اغفلنا تاريخ وفاته.

(63) — محمد بن عسكر الشفشاوني : دوحة الناشر ص. 93.

(64) — محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة مخطوط خاص ص. 192.

(65) — د.محمد حَجي : الحركة الفكرية في عهد السعديين ج. 2 — ص. 547.

(66) — محمد المكي الناصري : المرجع السابق ص. 217.

زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ ؟ أم أن علماء هذه الزاوية قد أعرضوا عن التأليف لاغراقهم في التصوف ولانشغالهم بالتدريس.

انتقل أبو الحسن في أخريات أيامه الى مراكش، ورغم أن أسباب انتقال هذا العالم من درعة الى مراكش غير معروفة، فإننا نعتقد أن أحمد المنصور كان ينوي أن يسند إليه بعض المهام كالتدريس والامامة مثل أخيه إلا أن المنية عاجلت الشيخ سنة 1003هـ/1594م فدفن بضريح القاضي عياض بمراكش(67).

واشتهر بالعلم أيضا من علماء هذه الزاوية عبد الله بن علي عم السفيرين ودفين تونس(68) وعبد الله بن مَحمد بن علي الأخ الثالث للسفيرين، وكان هذا الأخير فلكيا مشهورا رحل إلى المشرق لاتمام تعليمه، وبعد العودة انقطع للتدريس بزاوية جده الى أن وافته المنية سنة 963هـ/1556م(69).

وفي عصر زيدان السعدي (1012ـــ1603/1037ـــ1628) برز من هذه الأسرة أحد علمائها المرموقين في القرن 11هـ/17م محمد بن إبراهيم الجزولي. ولاشك أنه قد استفاد من وضع اسرته العلمي والاجتماعي ومن موقعها بالنسبة للدولة السعدية. فأصبح من أغنياء خُمْس فزواطة واثريائه في وقته. وفي هذا الصدد ذكر صاحب الدرر أن محمد ابن ابراهيم الجزولي عزم على الحج مرة، فاستصحب معه ثلاثين قنطارا من الذهب، خصص منها عشرة قناطر لشراء الكتب وأنشأ مكتبة عظيمة نهبها السلطان زيدان السعدي(70) ولاتزال ذاكرة الناس في زاوية سيدي علي تتحدث عن تعرض هذه الزاوية للنهب على يد أحد السلاطين. فهل كان محمد بن ابراهيم يخوض في السياسة مثل باقي المتصوفة من أهل تافيلالت وسوس المعاصرين له ؟ وإلا لماذا تعرضت الزاوية للنهب ؟.

بالرغم من أن الكثير من المؤرخين قد تناولوا بالبحث والتدقيق علاقة الدولة السعدية بالزوايا سواء في عز هذه الدولة أو في فترات انحطاطها خلال النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري/17م، فإن أحدا منهم لم يتطرق لحادثة نهب زاوية سيدي علي. وقد انفرد بذكر هذه الحادثة في عبارات جد مقتضبة، محمد المكي الناصري في الدرر المرصعة بأخبار أعيان وادي درعة، حيث ذكر أن زايدان قد نهب دار محمد بن ابراهيم الجزولي بسبب أمور يطول سردها(71) ورغم أننا لا نتوفر على كل المعطيات التي تساعدنا في تحديد هذه الأسباب التي تحاشي محمد المكي الناصري ذكرها، فإن الشيء الأكيد أن زيدان السعدي قد نهب هذه الزاوية لأسباب سياسية فهل كان محمد بن ابراهيم مثلا يعارض وجود زيدان بدرعة بعد عودته من تلمسان ؟ هل كان محمد بن ابراهيم ينوي تأسيس إمارة على غرار ابن أبي محلي وأبي حسون السملالي ؟ وإذا كانت مثل هذه الأفكار قد دارت بخلد محمد بن ابراهيم ماذا كان موقف سكان

---

(67) ـــ ابن الموقت المراكشي : السعادة الابدية الطبعة المختصرة ص. 45.

(68) ـــ علي بن مَحمد الجزولي : النفحة المسكية في السفارة التركية : مخطوط خاص ص. 30.

(69) د. محمد حجي : المرجع السابق ج. 2 ـــ ص. 547.

(70) محمد المكي بن موسى الناصري : المرجع السابق ص. 261.

(71) نفسه : نفس المرجع نفس الصفحة.

درعة منها ؟ وعلى كل فإننا لا نستبعد أن يكون زيدان قد نهب دار محمد بن ابراهيم أثناء مجيئه الى درعة سنة 1015هـ/1606م، وقد كان هم زيدان في هذا التاريخ هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأموال ليلبي رغبات أتراك الجزائر، ولحشد الجيوش لاسترجاع مراكش من يد أخيه.

وكيفما كانت الأسباب والدوافع التي جعلت زيدان السعدي ينهب زاوية سيدي علي بن مَحمد الشيخ، فإن هذه الحادثة كانت لها عواقب وخيمة على وضعية هذه الزاوية، فقد كانت الحادثة بداية لمرحلة التراجع لزاوية البكريين لصالح زاوية تامكَروت التي بدأ نجمها يتألق خاصة بعد استقرار الشيخ مَحمد بن ناصر بها وتصدره للمشيخة وتربية المريدين الى جانب مهامه التدريسية بعد اغتيال الشيخ سيدي احمد بن ابراهيم سنة 1052هـ/1642م. وحول اغتيال الشيخ احمد بن ابراهيم يقول الناصري : «وكان الذي قتله بعض الظلمة من رؤساء أهل درعة، حسده على ما أتاه الله من فضله وعلى بنائه المسجد الجامع بتامكَروت»[72].

كان قاتل الشيخ أحمد بن ابراهيم هو يحيي بن عمرو[73] أحد أعيان قصر أكَني الذي لا يبعد عن زاوية تامكَروت إلا بحوالي كيلومترين فقط وكان سكان هذا القصر هم الذين يقومون عادة بشؤون الزاوية البكرية. وتثير عملية اغتيال الشيخ أحمد بن ابراهيم جملة من الأسئلة منها مثلا : هل يمكن القول بأن اغتيال شيخ زاوية تامكَروت قد تم بايعاز من سكان زاوية سيدي علي، الذين اصبحوا يرون في نجاح زاوية تامكَروت، منافسة خطيرة لزاويتهم ؟ أم هناك دوافع اخرى وراء هذا الاغتيال ؟

وكيفما كانت الأسباب التي جعلت أهل أكَني يغتالون سيدي أحمد ابن ابراهيم، وسواء كانت زاوية سيدي علي تخشى على وضعها العلمي والاجتماعي من منافسة زاوية تامكَروت أم لا ؟ فقد كشفت الأيام عن حقيقة تخوف الزاوية البكرية من زاوية تامكَروت، ذلك أن هذه الأخيرة، قد تمكنت بعد فترة وجيزة من انطلاقتها من سحب البساط العلمي من مسجد زاوية البكريين الى مسجد زاوية الناصريين التي استطاعت أن تتحول الى مركز إشعاع لا يقل تألقه في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/17م عن تألق زاوية سيدي علي في النصف الثاني من القرن العاشر الهجري/16م.

ولكن هذا لا يعني القضاء نهائيا على الدور العلمي لزاوية سيدي علي وإنما هو تراجع فقط، حيث تؤكد كل الدلائل بأن تدريس العلم بهذه الزاوية قد استمر الى غاية الثلاثينات من القرن الثاني عشر الهجري/18م، فقد عثرنا عند أحدهم بدرعة على نسخة خطية من كتاب الشفاء لعياض استنسخها أحد علماء الزاوية البكرية وبهامشه طرر وتعاليق تحدد تاريخ تدريس هذا الباب أو ذاك من الكتاب وجل هذه التواريخ تعود الى العشرينات من القرن الثاني الهجري/18م.

سبق لنا أن أشرنا في فصل سابق الى التحصينات التي أقامها مَحمد الشيخ السعدي (ت964هـ/1557م) على طول واحات وادي درعة، من جملتها قصر أبرنوس بواحة مزجيطة، وقصر أفرا

(72) احمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري في النسب الجعفري — ج. 1 — ص. 143.

(73) G. DRAGUE : Esquisse d'histoire religieuse au Maroc p. 187.

بتينزولين[74] وقصبة تاكَمادارت في السفوح الجنوبية بجبل زاكَورة. وقد أسكن السعديون بعض فرق قبيلة الروحة في هذه القصور، وقد صارت قبيلة الروحة محسوبة على المخزن السعدي منذ ذلك الحين[75].

نزحت قبيلة الروحة من صحاري فركلة ودادس على شكل أمواج بشرية الى وادي درعة. ويمكن القول بأن قبيلة الروحة قد تسربت الى واحات درعة عبر محورين :

1 ــ **محور تيزن تافيلالت** : تقع تيزن تافيلالت في الذراع الشرقية لجبل باني في منطقة جبل «الغَارت» الذي يفصل بين واحة ترناتة بدرعة وسهل تازرين. وقد كانت تيزن تافيلالت ممرا تجاريا منذ القديم وطريق حجاج وادي درعة[76] وقد تفرعت الموجة التي دخلت عبر تيزن تافيلالت من الروحة الى فرعين :

1 . **الفــرع الأول** : وقد استقر بترناتة ويشكل ما أصبح يعرف محليّا بقبائل الروحة الوسطانيين [77].

2 . **الفــرع الثاني** : فقد عبر الخنكَ (ممر جبلي بين الرأس الشرقي لجبل أدفان وجبل الغارت) واتجه جنوبا نحو فزواطة. وقد استقرت هذه الموجة بمنطقة بني عْلي بالقرب من فم تاقّات، ومنها تشكلت ما أصبح يعرف محليا الروحة التحتانيين (الروحة السّفلات) وتعتبر قبائل الروحة السفلات أصغر تجمع لقبائل الروحة بوادي درعة. وأهم قصور الروحة السفلات هي قصور تاقشورت، وقصبة أولاد غانم. وقصبة أولاد عايد، وقصبة أيت بن جدّي بالضفة الشرقية لنهر درعة وقصري قابّو وتيكَيت في الضفة الغربية[78].

وحسب الوثيقة التي بين أيدينا فإن قبائل الروحة السفلات تتكون من عشرة عظام. وهم حسب ترتيبهم في الوثيقة عظم أولاد منصور ومنهم الشيخ، أما العظام الأخرى فهم أولاد لحسن، وأولاد عايد وأولاد كروم، وأولاد لعكَيد، وأولاد عكَيدان، وأولاد رزوك، وأولاد عبد الله وأولاد عتو، والحجاج. وقد شملت هذه العظام في الاتفاقية بنسب متفاوتة.

وفي القرن الثالث عشر الهجري/19م تعرضت قبائل الروحة التحتانيين لضغوط قوية من قبائل أيت عطا، وقد أضعفتها الحروب العنيفة والمواجهات الدامية التي خاضتها طيلة هذا القرن ضد قبائل أيت عطا الطارئة. وهكذا لم يبق من قبائل الروحة في مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20 إلا أعداد قليلة وأصبحت جل قصورها بيد قبائل أيت عطا التي تغلبت على المنطقة[79]

---

(74) MARMOL : L'AFRIQUE, Tome 3, p. 17

(75) G. Spillmann : les pays inaccessibles du Haut Draa, p. 59 - R.G.M. 1 et 2, 1929

(76) كان موكب الحجاج ينطلق من زاوية تامكَروت فيبيت الليلة الأولى بثنية الجلابين، وبعد عبوره لتيزن تافيلالت يتجه نحو بلاد تازرين ومنها الى سجلماسة.

(77) سنتعرض لانتشار الروحة الوسطانيين في مكان لاحق من هذا البحث.

(78) خريطة المغرب : 1/100.000 ورقة زاكَورة.

(79) .G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa, p. 160-161.

2 ــ **المحــور الثانــي** وقد وصل الى وادي درعة عبر فم ورتي، يقع فم ورتي شمال غرب تيزن تافيلالت في الذراع الشرقية لجبل باني بالطرف الشمالي الغربي لجبل الغارت. ويربط فم ورتي بين واحتي ترناتة وتينزولين بوادي درعة والسفوح الجنوبية والشمالية الغربية لجبل صاغرو ومن هناك الى دادس غربا وفركلة شرقا. وقد ظل هذا الفم يقوم بدوره التجاري الى ما بعد قيام عهد الحماية الفرنسية.

وبعد اجتياز تجمعات الروحة فم ورتي انقسمت الى موجتين، اتجهت إحداهما الى واحة تينزولين مشكلة ما أصبح يعرف محليا بقبائل الروحة الفوقانيين. أما الموجة الثانية وهي الأكبر فقد تمركزت بواحة ترناتة مشكلة قبائل الروحة الوسطانيين.

اتفاقية تكفلية بين زاوية تينمسلا وبعض ايت سدرات

نــص الاتفاقية :

الحمد لله وحده

أشهدنا على نفسه الحسين بن سعيد حرفته بُسَيْو في قبيلة ايت ادِنر (اودينار) وتحمل بقبيلة ايت ادنر (اودينار) كلهم. وتكفل وتحمل حدُّ أحدُّ بإخوانه ايت عمر وتكفل على أيشُّ من بني أيت يَشُّ (يَشُّو) أسعيد بإخوانه أيت ببكر (أبو بكر) أعيسى كلاهما ايت سحق (اسحاق) انهما تكفلوا وتحملوا للمرابط الخير السيد يوسف بن عبد الملك التمسلوي (التينمسلاوي) نفعنا الله ببركته بجميع ضرورة زويته (زاويته) الذي (التي) أراد أن يبناها (أن يبنيها) في رأس الحجر ومع سكنه (سكانها) وضرورة[1] الساقية السيد منديل نفعنا الله ببركته تكفيلا (تكفلا) تاما طال الزمان أو قصر شهد عليه (عليهم) بذلك من أشهدوه واكد الصحة والطواع (الطوع) والجواز.

وبتاريخ أواسط شهر شعبنان عام تسعة سنين ومائتين والف.

عبيد ربه سبحانه عبد الله بن محمد بن حمزة الخلفون لطف الله به ءامين.

---

(1) ضرورة أي الضرر الذي قد يلحق الزاوية.

1 ــ التعريف بالاتفاقية :

هذه الاتفاقية واحدة من من الاتفاقيات التي تسلمناها من السيد عبد الرحمان القادري، شيخ زاوية تيمنسلا حاليا، أثناء زيارتنا للزاوية (واحة تينزولين) في ربيع 1982. وهي عبارة عن اتفاقية تكفلية بين شيخ الزاوية في وقته السيد يوسف بن عبد الملك وبعض قبائل أيت سدرات بوادي درعة.

ومسطرتها حوالي 10 أسطر، ومقياسها 20/8سم وقد حررت هذه الوثيقة بخط مغربي رديء، وبلغة شبه عامية، وبها أخطاء إملائية ولغوية ونحوية متعددة.

يعود تاريخ تحرير هذه الاتفاقية الى سنة 1209هـ/1794م.

2 ــ التعريــف :

أ ــ السيد يوسف بن عبد الملك، شيخ زاوية تينمسلا في وقته وهذه الزاوية قادرية الطريقة، وقد أسسها أبو القاسم بن عبد الرزاق. فمن هو هذا الشيخ مؤسس زاوية تينمسلا ؟ وما هو العصر الذي عاش فيه ؟

هو أبو القاسم بن عبد الرزاق بن علي بن مسعود يتصل نسبه عن طريق عبد القادر الجيلاني بعلي بن أبي طالب[80] قدم جد سيدي اعمرو بن داوود من ماسة الى وادي درعة، واستوطن بقصر تيكَيت بواحة ترناتة شمال مدينة زاكَورة الحالية، ولاتزال عائلة سيدي اعمرو الى اليوم بقصر تيكَيت ويعرفون بئال المصدياني. ظهر أبو القاسم كواحد من صلحاء درعة ومن الذين يشار إليهم «بالولاية في زمانه وله كلام يحذو به حذو مناجاة الشيخ الجزولي بل فيه ما تشمئز منه النفوس وتمجه الفطر السليمة»[81].

عاش أبو القاسم في القرن العاشر الهجري/16م. وقد كان التظاهر بالولاية والمشيخة بوادي درعة أنذاك من الأشياء التي اثارت انتباه احمد ابن موسى السملالي، الذي كان يسأل زائريه من أهل درعة وفي تهكم واضح، بكم بياع عندكم الشيوخ بدرعة[82] إشارة الى اقبال المتصلحين على التظاهرة بالمشيخة والادعاء الكاذب بالولاية. وهذا معلوم في سياق الازمة المتعددة الجوانب التي نزلت بالمغرب خلال القرن العاشر الهجري/16م. فكان التظاهر بالصلاح والولاية من ردود الفعل التي ظهرت في المجتمع المغربي،

(80) ترجم لأبي القاسم بن عبد الرزاق كل من :
ــ محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة باخبار أعيان درعة ص. 115.
ــ المختار السوسي : المعسول ج. 19 ــ ص. 120-121.

(81) المختار السوسي : المرجع السابق نفس الصفحة.
عثرنا على كتيب صغير بعنوان «هدية السرور من الملك الخلاق في كرامات ولي الله سيدي أبي القاسم بن عبد الرزاق» فيه هذه الأشياء التي تمجُّها الفطر السليمة ــ من ذلك مثلا أن الانسان يكفيه أن يقول أنه من أصحاب أبي القاسم ليدخل الجنة دون حساب !!.

(82) المختار السوسي : المعسول ج. 12 ــ ص. 42.

فاعتبرها الناصري من عظام الأمور حيث «ادعى الخصوصية من لا ناقة له فيها ولا جمل وصعب على الناس التمييز بين النبهرج والابريز[83] لذلك لا غرو إن وجدنا الشيخ أبا القاسم بن عبد الرزاق يمتطي مطية التصوف ويتوشح وشاح المتمشيخين من أهل عصره، ويخرج في سياحة صوفية يبحث فيها عن شيخ يسلس اليه قياده مشترطا على نفسه اختبار الشيخ بارتكاب قبيح المعاصي، وكان ذلك دأبه مع كل شيخ يزوره حتى وجد نفسه بين يدي الشيخ احمد بن موسى السملالي المتوفى سنة 1971هـ/1563م، فأقبل كعادته على ارتكاب المعصية فردعه الشيخ، فاستسلم ابن عبد الرزاق لابن موسى وصار من كبار مريديه[84].

وكنا نهدف بإدراج اخبار ابي القاسم الى اثارة جملة من الأسئلة منها مثلا : لماذا نزحت هذه الموجة العارمة من متصوفة سوس الى درعة خلال القرن العاشر العجري/16م بالضبط ؟ ما علاقة ذلك بالهجومات المسيحية على الشواطىء المغربية الجنوبية ؟ وما علاقة ذلك بالتيار الشاذلي ــ الجزولي الذي اكتسح الجنوب المغربي كله في مطلع القرن العاشر الهجري/16م ؟.

وإذا لم يكن بإمكاننا أن نجيب بشكل دقيق على هذه الاسئلة، فإننا نلاحظ من خلال الاتفاقيات أن رجال التصوف وأسرهم في الحياة الاجتماعية بدرعة، سواء تعلق الأمر بحضورهم الفعلي والمعنوي في الاتفاقيات التكفلية والاتفاقيات الصلحية. وقد تكشف لنا الوثائق الأخرى عن المزيد من التأثير الصوفي السوسي وغيره في الحياة العامة بدرعة.

إن الذين ترجموا لأبي القاسم بن عبد الرزاق لم يتمكنوا من تحديد زمن ولادته ولا وقت مماته، إلا أن اتصاله بالشيخ أحمد بن موسى السملالي يجعلنا نرجح بأن الرحل قد عاش في عهد أوج الدولة السعدية أي في النصف الثاني من القرن العشر الهجري/16م. وقد أقبر أبو القاسم بن عبد الرزاق في زاويته بتينمسلا بواحة تينزولين.

تعتبر زاوية أبي القاسم قادرية الطريقة، ولها أوراد خاصة بها، وتأتي هذه الزاوية بعد زاوية تامكَروت مباشرة لما تملكه من أراض ولما لها من نفوذ واسع بين القبائل بدرعة ودادس وتازرين بالاضافة الى مالها من أتباع في ناحية فاس وفي بعض المناطق الصحراوية.

وإذا كانت هذه الزاوية قد تأسست في القرن العاشر الهجري/16م، فإنها عرفت تطورا كبيرا في القرون اللاحقة، وتربطها علاقة متينة بالدولة العلوية كما يظهر ذلك من خلال مجموعة من الظهائر العلوية التي لا تزال بين يدي أبناء الزاوية[85].

وأقدم هذه الظهائر يعود تاريخه الى سنة 1119هـ/1707م، وفيه يشكر السلطان مولاي اسماعيل الشيخ بن عبد الرزاق على ما قام به في حق المحلة السلطانية، ونستشف من الظهائر الأخرى أن سلاطين الدولة العلوية كانوا يلحون على عمالهم باحترام الزاوية، ويفوضون لشيخ الزاوية التصرف في

(83) احمد بن خالد الناصري : الاستقصا، ج. 4 ــ ص. 163 ــ 164.

(84) محمد المختار السوسي : المعسول ج. 19 ــ ص. 121.

(85) لقد سمح لنا السيد عبد الرحمان القادري مشكورا بتصوير مجموعة من هذه الظهائر السلطانية.

اعشار الزاوية. وإذا كان لنا من شيء نستخلصه من هذه الظهائر فهو التطور الكبير الذي عرفته زاوية تينمسلا منذ القرن الثالث عشر الهجري/19م، فبعد أن كانت ظهائر مولاي اسماعيل وابنه مولاي عبد الله لا تذكر لابن عبد الرزاق إلا زاوية واحدة هي زاوية تينمسلا، صارت في عهد السلطان مولاي الحسن (ت 1311هـ/1894م) تتحدث عن زوايا تينمسلا بوادي درعة وغيره. وفي إطار هذا التوسع تم عقد هذه الاتفاقية التي بين أيدينا بين شيخ زاوية تينمسلا في وقته السيد يوسف بن عبد الملك وأخيه السيد علي بن عبد الملك وقبيلته أيت اودينار من أيت سدرات، الذين يجاورون الموقع الذي اختاره السيد يوسف ابن عبد الملك في رأس الحجر (إِخَفْ نوزرُو) لبناء زاويته الجديدة بالمدخل الجنوبي لواحة مزجيطة.

ورغم أن الوثائق التي بين ايدينا لم تسعفنا بأية إشارة عن الأسباب التي جعلت سيدي يوسف بن عبد الملك يفكر في بناء هذه الزاوية الجديدة، فإننا نعتقد أن ذلك مرتبط بما أثلته هذه الزاوية من أملاك بمنطقة تنسيخت هو الذي جعل شيخ الزاوية يبني زاوية جديدة تكون مقرا لعبيد الزاوية وحراطينها الذين سيعملون في خدمة هذه الاراضي. ولعل ما يؤكد ما ذهبنا اليه أن اتفاقية أخرى عقدت مع ايت هكو بعد شهر فقط من الاتفاقية الأولى حرص فيها الشيخ على أن يتكفل أيت هكو بجماعة سكان الزاوية الجديدة، وحماية الساقية التي تستعمل لريّ الأراضي التابعة للزاوية.

ب ــ المتكفلون بالاتفاقية :

قبيلة قصر أيت أودينار ممثلة في أعيانها، وهو الحسين بن سعيد، وحدُّ أَحَدُّ (حدُّ بن حدُّ) نيابة عن اخوانه اعمرو وعلي أويش (علي بن يشو) نيابة عن إخوانه أيت بوبكر أوعيسى. ويتضح لنا أن قبيلة ايت اودينار تتكون من ثلاثة عظام وهي أيت اودينار الذي يحمل القصر اسمهم، وايت عمرو وأيت بوبكر أوعيسى.

وهذه القبيلة تستوطن القصر الذي يحمل نفس الاسم على الضفة الغربية لنهر درعة في واحة مزجيطة ضمن الأراضي التابعة لمجال قبائل أيت سدرات، وهي قبائل بربرية من غير الفصائل الصنهاجية التي تتشكل منها قبائل أيت عطا.

تنحدر قبائل أيت سدرات من التجمعات اللواتية الواسعة الانتشار في افريقيا الشمالية فيما بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي[86] وهذا يعني أن قبائل أيت سدرات شمالية بالاصالة والموطن على عكس قبائل أيت عطا الصنهاجية التي تعتبر من القبائل الجنوبية.

إلا أن وجود قبائل أيت سدرات في الجنوب المغربي على شكل شريط من الأرض يمتد من حوض دادس شمالا الى مزجيطة جنوبا يثير جملة من الاسئلة منها مثلا : ما هي الظروف التي غادرت فيها قبائل ايت سدرات مناطق انتشارها الاولى في العصور الوسطى ؟ ومتى انتقلت من هذه المناطق ؟ وما هو الطريق الذي سلكته حتى وصلت الى الجنوب المغربي ؟ وهل كان انتقالها من المناطق الشمالية دفعة

(86) فيما يخص التجمعات اللواتية انظر :
ذ : التقي العلوي : مجلة البحث العلمي : عدد 33 ــ 1983 ــ ص. 78 فما بعد.

واحدة أم كان على مراحل ؟ الى غير ذلك من الأسئلة التي قد تساعدنا في إلقاء بعض الأضواء الكاشفة على التجمعات السدراتية بالجنوب المغربي، خاصة أن قبائل أيت سدرات استطاعت أن تحافظ على كيانها وشخصياتها وسط محيط من قبائل أيت عطا، في وقت لم تستطع فيه قبائل من بني معقل الانفلات من الذوبان ضمن تجمعات قبائل أيت عطا.

وقبل الاجابة عن هذه الأسئلة يجدر بنا أن نؤكد منذ البداية أن تاريخ قبائل ايت سدرات يكتنفه نوع من الغموض ليس فقط بالنسبة لفرع قبائل أيت سدرات بوادي درعة وإنما أيضا بالنسبة لباقي قبائلها المنتشرة ببلاد دادس. ويرجع ذلك في اعتقادنا الى اعتماد الذين بحثوا في تاريخ أيت سدرات بدرعة ودادس على الرواية الشفوية، وغير خاف ما في الرواية الشفوية من مزالق ومخاطر، خاصة في غياب المكتوب أو ندرته كما هو الحال بالنسبة لقبائل أيت سدرات.

تؤكد الروايات التاريخية المكتوبة أن قبيلة سدراتة كانت ضمن المجموعات القبلية التي بايعت إدريس بن عبد الله بعد وصوله الى المغرب[87] مما يعني أن قبائل أيت سدرات كانت تستوطن في نهاية القرن الثاني الهجري/18م المجالات الممتدة ما بين فاس ومكناس، ونجد ما يدعم هذا الرأي في الرواية الشفوية التي ظلت متداولة عند قبائل أيت سدرات بوادي درعة ودادس الى حدود مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م[88] وبعد ذلك هاجرت هذه القبائل الى الأطلس المتوسط. ورغم أننا لا نتوفر على ما يساعدنا في تحديد الفترة الزمنية التي هاجرت فيها قبائل أيت سدرات من منطقة سايس الى الأطلس المتوسط، وكذا تحديد الأسباب التي كانت وراء هذه الهجرة، فإننا نعتقد أن هذه الهجرة قد تكون حدثت خلال القرن الثالث الهجري/9م وهو القرن الذي تميز بالصراع على السلطة بين بني ادريس. وفي مطلع القرن الرابع الهجري/10م ظهر بنو العافية على مسرح الأحداث فركزوا كل جهودهم في محو اثار الادارسة ومن في خدمتهم من القبائل من ناحية فاس[89] فاندفع الأشراف وقبائل أيت سدرات نحو الأطلس المتوسط فرارا من بني العافية المتغلبين على فاس ونواحيها.

أما فيما يتعلق بهجرة قبائل أيت سدرات الى دادس، فتذكر الرواية الشفوية. أن مولاي بوعمران، جد شرفاء إمَاسِنْ بوادي دادس، استقدم هذه القبائل من الأطلس المتوسط الى دادس. وقد أغفلت الرواية الشفوية تحديد الفترة الزمنية التي استقدم فيها أبو عمران أيت سدرات، إلا أنها من جهة ثانية تؤكد على النسبة الادريسية لهذا الشريف وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على الارتباط الوثيق بين قبائل أيت سدرات والأشراف الأدارسة.

---

(87) — أحمد بن خالد الناصري : ج. 1 — ص. 155.

— علي بن أبي زرع : روض القرطاس، ص. 20.

(88) حول هذه الرواية الشفوية انظر ما سجله سبلمان :

G. Spillmann : Les pays incaccessibles du Haut Draa. R.G.M. 1-2, R.G.M. 1 et 2 — 1929, p. 30.

(89) ابن أبي زرع : روض القرطاس.

استوطنت قبائل أيت سدرات بوادي دادس المنطقة المعروفة بأيت أربعمائة حيث يوجد مركز الشرفاء البوعمرانيين، وأيت يحيي وإشاحن.

وإذا كانت الرواية الشفوية قد عجزت في تقدير الزمن الذي استقرت فيه قبائل أيت سدرات الى وادي دادس، فإنها على العكس من ذلك، قدرت زمن استقدام هذه القبائل الى وادي درعة بحوالي مائتي سنة على الأقل وثلاثمائة سنة على الأكثر. ويجب ألا يغيب عن أذهاننا أن الحاكي للرواية الشفوية قد لا يستحضر في ذهنه السنوات المضافة ما بين زمن سماعه للرواية الشفوية الذي يكون في طفولته وزمن نقلها الى الغير والذي قد يكون في شيخوخته، علما بأن الباحثين كثيرا ما يعتمدون على المسنين من شيوخ القبائل للأخذ عنهم بعض ما لم يجدوه في المصادر المكتوبة. كما أن الحاكي قد يعمد الى المبالغة في تضخيم عدد السنوات لتأكيد قدوم وجود قبيلته في هذه المنطقة أو تلك أو يبالغ في عدد القرون لأسباب نفسية محضة.

ومعلوم أن مصدرنا المعتمد عن قبائل أيت سدرات بوادي درعة هي كتابات القبطان جورج سبلمان، الذي استطاع الدخول الى وادي درعة سرا في العشرينات من القرن العشرين، وجمع معلومات مهمة عن سكان وادي درعة عامة وقبائل أيت عطاو وأيت سدرات خاصة. وتتسم هذه المعلومات في جلها بالنقل الصحيح، إذ قابلنا كثيرا من الأخبار التي سجلها سبلمان مع المتداول عند سكان المنطقة الى اليوم فلاحظنا أن هذه الرواية الشفوية لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر.

تذكر الرواية الشفوية أن قبائل أولاد يحيي كانت تماري ضغوطا قوية على قصور دراوة في المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة[90] فاستنجد سكان هذه القصور بالشريف الادريسي سيدي منديل في بعض الروايات، أو بابنه سيدي موسى في رواية أخرى. فاستقدم هذا الشريف خدامه من قبائل أيت سدرات لحماية قصور دراوة مقابل تنازل هؤلاء عن جزء من ممتلكاتهم لصالح أيت سدرات.

وإذا ما ربطنا بين الرواية الشفوية التي حددت مجيء قبائل أيت سدرات بمائتي سنة[91] والأحداث التي عرفتها بلاد درعة قبل مائتي سنة، فإننا نلاحظ أن قبائل أيت سدرات قد تكون نزحت أو استقدمت الى وادي درعة في العقود الأخيرة من النصف الأول من القرن الثاني عشر الهجري/18م أي في خضم الأحداث التي عرفها الجنوب المغربي بعد وفاة السلطان مولاي اسماعيل، فقد تراجع نفوذ المخزن بوادي درعة بعد وفاة السلطان كنتيجة مباشرة للصراع الذي دار بين ابنائه على مستوى السلطة المركزية، فاشتدت هجومات قبائل الرحل على سكان درعة. سافر سيدي منديل أو ابنه موسى الى دادس واستقدم قوة قوامها 1900 رجل من أيت سدرات وإمغران. وقد نجحت هذه القوة في التصدي لقبائل أولاد يحيى، ومنذ ذلك الحين بدأت قبائل أيت سدرات تتحول بالتدريج الى الاستقرار والارتباط بالأرض.

---

(90) أكد لنا هذه الحقيقة الشيخ مسعود بن العربي اثناء زيارتنا المتكررة له بمقر سكناه بقصبة أولاد عثمان، وذلك فيما بين 1983 و1987م.

(91) على اعتبار ما سجله القبطان — جورج سبلمان في العشرينات من القرن الحالي، والا فستكون المدة حوالي ثلاثمائة سنة.

ينحصر المجال الذي تستوطنه قبائل أيت سدرات بوادي درعة في المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة ما بين القرن الجنوبي لجبل كيسان والسفوح الشمالية لجبل تُودْما[92]. وقد أسست قبائل أيت سدرات مجموعة من القصور في الضفتين الشرقية والغربية لنهر درعة، ولاتزال هذه القصور تحمل أسماء فرق آيت سدرات القديمة التي توافدت على المنطقة، مثل قصر أيت حمو وسعيد، وقصر أيت أودينار وقصر أيت واحي وقصر أيت سكت، وقصر أيت اسحاق الخ... وهي قصور صغيرة تنتشر على طول المنطقة التي كانوا يتكفلون بحمايتها والدفاع عنها بمقتضى الاتفاق الذي تم بين هذه القبائل وقصور دراوة برعاية سيدي منديل أو ابنه سيدي موسى.

وإذا ما القينا نظرة خاطفة على المنطقة التي تنتشر فيها قبائل أيت سدرات، نلاحظ أن هذه القبائل قد تمركزت في نقط تسمح لها بمراقبة المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة، ومراقبة كل السواقي التي تسقي بلاد أولاد يحيى في المدخل الشمالي لواحة تيزولين، اذ يكفي لقبائل أيت سدرات أن «تكسر» سواقي قبائل أولاد يحيى مع أول بادرة من هذه الاخيرة للهجوم على قصور دراوة، الذين هم في حماية أيت سدرات، لتصبح بلاد أولاد يحيى معرضة للجفاف والعطش.

وتساكن قبائل أيت سدرات مجموعة كبيرة من دراوة وأصحاب الزوايا، يستوطنون قصورا قديمة جدا، مثل قصر تامكاسَلْت وقصر تاركَان المال، وتوغزة، وزاوية تاكَرسيفت التي سبقت الاشارة اليها في اتفاقية أولاد سيدي محمد بن يوسف الملياني وزاوية سيدي منديل، وزاوية اخف نوزْرُو (رأس الحجر) التي عقدت من أجلها الاتفاقية التي بين أيدينا.

وقد انقسمت قبائل أيت سدرات بدرعة الى فرقتين كبيرتين كل فرقة تحتوي على مجموعة من قبائل القصور.

1 — **أيت محلي** : ومن قصورهم أيت علي وحسين، وأيت ادير، وأيت سكت وتتحالف قصور أيت محلي عادة مع قبائل الروحة، وأهل تينزولين، وأيت اوتير، وأيت اسفول.

2 — **أيت صولي** : ومن قصورهم أيت اودينار، وأيت اسحاق وأيت وافي وغيرها. وتتحالف قصور أيت صولي مع قبائل أولاد يحيى، وبعض أهل تينزولين وقبيلة مسوفة.

ب : الاتفاقيات التكفلية بين قبائل أيت عطا والحراطين

يختلف توزيع الحراطين بدرعة من واحة الى أخرى، ويتجمعون بشكل خاص في القصور الكبرى بواحات مزجيطة وفزواطة ولكتاوة[93].

---

(92) انظر خريطة المغرب 1/100.000 ورقة أكَدز.

(93) توجد هناك ببعض قصور الحراطين في منطقة التلت بواحة ترناتة مثل قصور استور، وبني صولي (زولي)، وتارغليل وغيرها.

وتدل كل المعطيات التاريخية على أن قصور الحراطين بهذ الواحات كانت تتعرض باستمرار لهجومات القبائل المترحلة فقد كانت قبائل أولاد يحيى تهاجم قصور المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة انطلاقا من الفايجة، كما كانت قبائل عْرِيبْ وبني محمد والغنانمة تهاجم باستمرار قصور الكتاوة، اما قبائل أيت عطا، فقد كانت في بداية الامر تركز هجوماتها على قصور لكتاوة ومحاميد الغزلان وفزواطة لتفتح هذه الواحات على المناطق الصحراوية.

ولا مشاحة إذا قلنا إن قصور الحراطين بدرعة، كانت ومنذ القرن الثاني عشر الهجري/18م والى غاية الثلاثينات من القرن الرابع عشر الهجري/20م، تشكل هدفا مفضلا للقبائل المترحلة تهاجمها كلما ارادت القيام بعمليات استعراض للقوة، أو في محاولة للتعرف على الامكانيات الدفاعية لقبائل القصور، وقد كانت قبائل الرحل تركز على قصور الحراطين لكون الكثير من قبائلها تعاني من ضعف الإمكانات لتوالي ظروف الجفاف والمجاعات ولما تعانيه من تفكك داخلي على مستوى قبيلة القصر.

كان الحراطين يدركون خطورة هذه الهجومات المتكررة التي كانت تقوم بها القبائل المترحلة، وما يصحب ذلك من اغتصاب للمزروعات ونهب للممتلكات، لذلك كان الحراطين يحتمون ببعض مخدومهم من أصحاب الزوايا، فيعقدون لهم سلسلة من الاتفاقيات التكفلية مع بعض القبائل القوية التي تتكفل بحمايتهم، وفي هذا الاطار أشرف الشيخ سيدي يوسف الناصري في نهاية القرن الثاني عشر الهجري/18م، على عقد اتفاقية تكفلية بين حراطين قصر أمزْرو وقبيلة مسوفة القوية. كما عقد الشريف سيدي منديل[94] اتفاقية تكفلية بين قبائل أيت سدرات وحراطين منطقة تنسيخت جنوب واحة مزجيطة لحمايتهم من هجومات قبائل أولاد يحيي.

كانت الاتفاقيات التكفلية بين الحراطنة وقبائل أيت عطا وغيرهم تعقد على أساس تفويت جزء من ممتلكات الحراطين لصالح القبيلة الحامية، وكان هذا النوع من الاتفاقيات التكفلية مع الحراطين اكثر انتشارا في الواحات الجنوبية لتفتحها على المناطق الصحراوية ولضعف أشكالها التضاريسية حيث كانت القبائل المترحلة لا تجد أدنى عائق بينها وبين مهاجمة قصور المستقرين.

قمنا غير ما مرة بالاتصال ببعض العائلات بفزواطة ولكتاوة حيث يعتقد أنها تتوفر على نسخ لهذه الاتفاقيات التكفلية، وقد كنا نفاجأ برغبة هذه العائلات في تجنب ذكر هذه الاتفاقيات وتنكر وجودها بالمرة بين وثائقها وكأني بهذه العائلات تحاول جاهدة تجاهل هذا الماضي الذي كان يذكرها بظروف أسلافها وأجدادها القاسية !!

ومن حسن حظنا أن السيد يير أزام أحد ضباط الشؤون الأهلية في عهد الحماية بمنطقة تاكَونيتْ (واحة لكتاوة) قد قام بنشر اتفاقية تكفلية على أساس تفويت الأرض بين قبيلة قصر بين هْنِيتْ بلكتاوة

(94) سبق لنا أن عرفنا بسيدي منديل في مكان سابق من هذا الفصل.

وقبيلة أيت حسُّو العطاوية[95] وبعدما فشلنا في الحصول على النسخة الأصلية لهذه الاتفاقية في عين المكان حاولنا ترجمتها وإعادة نصها الى صيغتها العربية بصورة تقريبية، وقد استعنا في ذلك بعدد من نصوص الاتفاقيات التي جمعناها رغبة منا في إعادة إخراج هذه الاتفاقية التي تبقى النموذج الوحيد الذي تمكنا من الحصول عليه للاتفاقيات التكفلية على أساس تفويت الأرض بين الحراطنة وقبائل أيت عطا.

1 ــ نص الاتفاقية بعد إعادة ترجمتها الى العربية

الحمد لله

أشهدونا جماعة بني هْنِيتْ[1] وهم المدني بن اعلي أبراهيم ومحمد ابن با حفيظ، ولحسن بن الجيلالي، والجيلالي بن حيطو كل واحد ينوب عن إخوانه أو فرقته، أنهم أعطوا لقبيلة أيت حسو[2] ربع ما يملكون من الأرض والنخيل والدور والأملاك المرهونة[3] والأراضي الميتة والحية[4] والبهائم والأثاث والمنازل الموجودة داخل قُطَّة[5] قصر بني هْنيتْ أو خارجها من حدود أملاك نَصْراطْ[6] الى حدود أراضي خَسوان[7] ويستثنى من ذلك أملاك الشيخ محمد بن الشيخ عبد الملك[8] بما في ذلك ما يملكه بقُطَّةِ نَصْراطْ، وأملاك الجهابِلة التي بنَصْراط بعد انضمامهم الى سكان بني هْنيتْ، وأملاك المختار بن حفصة بابني حيُّون[9] ويقسم هذا الربع على أيت حَسُّو هكذا :

قسمتان لأيت خَرْدِي[10] وقسمتان لأيت بُودِاوُودْ[11].

والقسمة الثانية مناصفة بين أيت يَزُّ[12] وأوزْلِيكَن[13] وقد أعطت قبيلة بني هْنيت هذا الربع من أملاكها لأيت حَسُّو رعيا لمصلحة البلاد وحماية القبيلة من أعدائها ويتعاون البربر والعرب ودرواة في رد الأعداء.

واشترط سكان قصر بني هْنيتْ على أيت حسُّو أن تبقى لهم خمسة وثلاثون تاكُورَا[14] من الربع المذكور الى أن يختار أيت حَسُّو عتبة أخرى تجنبا لأي خصام أو مشاجرة.

ومن شروط رسامة[15]، أيت عطا (يقصد أيت حسُّو) أنه إذا أراد أحد من أيت حسُّو بيع بعض الأملاك وغيرها فإنه يدللها ثلاث جمع وتنزل على أقرباء الرسامة وجيرانه. أما إذا لم يرد الرسامة شراءها فتباع لسكان بني هنيت ولا تباع أبدا للبراني[16]. ومن شروط ايت حسُّو أيضا أن سكان بني هنيت لا يتدخلون في أمورهم داخل العتبة[17] ولا يعطون من عشور الشعير اكثر من حَلَّابْ[18] لكل من يسكن داخل العتبة. والذين يسكنون داخل العتبة يعطون حلَّابْ للقَبيلة الى أن يبنوا العتبة الجديدة ويخرجون من القديمة.

---

(95) ترجمت هذه الاتفاقية كملحق في الدراسة التي قدمها السيد بير أزام لمكتبة C. H. E. A. M. بباريس سنة 1946 بعنوان Les cités rurales du KATAWA
انظر نص الاتفاقية في الدراسة المذكورة الملحق رقم 3 ــ ص. 44. وقد قام بترجمة هذه الاتفاقية الضابط كَيزول S. GUIZOL.

وإذا اختار المتعاقدون مكانا للبناء، فليس من حق أي واحد أن يمنعهم من البناء ولا يؤدون للقبيلة إلا التَّامْنة[19] وقد وافق الكل على هذه الشروط.

ويبقى لسكان بني هْنيتْ ربع الرعية[20]، ولا يأخذ سكان بني هْنيتْ شيئا من تاكَورْتي أيت خردي. وتؤخذ ثلاث تاكَورات من جهة حَسْيّان بني هنيت.

وقد وافق المتعاقدون على هذه الشروط بحضور أعيان أيت حسُّو وهم من أوزْليكَن : محمد أويديرْ، ومن أيت يَزُّ : باسُّو أوخيٍّ من أيت يشو. ومن أيت خردي : عمرو اوباقسو، محمد أُوعلي، أحماد اوباسو، مَحمد اويدير نايت لغازي، ومن أيت بوداوود موحا أوحمو أوسعيد نايت خردزي، احماذ أُمَحمد اوُفاسكا نايت بن حمو. وقد قبض أيت حسُّو الربع المذكور، وأدوا علينا بقبول هذه الشروط ورضوه رضاء تاما. وكل واحد ينوب عن إخوانه. وهم بحال كال يتم به الاشهاد. وكتب في شهر رمضان المعظم عام 1314هـ (1897). عبيد ربه سبحانه محمد بن سالم بن صالح المحجراوي.

تفسير لبعض الاعلام والمصطلحات الواردة في الاتفاقية

(1) قصر بني هنيت : يقع قصر بني هنيت في الضفة الغربية لنهر درعة بواحة لكتاوة، وتدل كل القرائن على أن سكان هذا القصر كانوا من الحراطنة ثم تغلب عليهم بنو مَحمد. وفي القرن 13هـ/19م فقدتَ قبيلة بني مَحمد بعض خصائها البدوية وتحولت الى الاستقرار الى جانب بني هنتت، وفي نهاية القرن المذكور، ومطلع القرن 14هـ، كان هذا القصر يتعرض لهجومات قبائل أيت عطا، فذبحوا على قبيلة أيت حسُّو التي تكفلت بحماية قبيلة قصر بني هنيت مقابل تنازل هؤلاء لأيت حسُّو عن ربع ممتلكاتهم.

(2) قبيلة أيت حسو : تعتبر قبيلة أيت حسُّو من أقوى قبائل خمس أيت واحليم. وتتشكل قبيلة أيت حسو من أربع فرق وهي على التوالي أيت بوداوود، وأيت علي اوحسُّو، وأيت يَزّو، وأُوشنْ، واوْزلكَين وأيت خَرْدي.
وتنتشر قبائل أيت حسو في مجال الأرض يمتد من وادي درعة الى وادي حصية شرق تازرين بالاضافة الى وجود بعض تجماعاتهم القوية بجبل صاغرو وتازرين وتاعبالت انظر :

.G. Spillmann : Les Aits Atta du Sahara p. 81

(3) الأملاك المرهونة : أي الأراضي التي رهنها أصحابها من سكان قصر بني هْنيتْ مقابل الحصول على نقود أو أقوات أو غيرها لمواجهة ظروف صعبة.

(4) الأراضي الميتة هي الأراضي التي لا تسقى. وقد يكون القصد هنا هي الأراضي الصالحة للرعي وغيره.
والأراضي الحية : هي الأراضي الزراعية التي تسقى إما بالسواقي أو الابار. وتشكل الأراضي الحية المجال الذي يمكن استغلاله.

(5) القُطة : سبق لنا أن عرفنا بهذا المصطلح في فصل سابق.

(6) نصراط : يقع قصر نصراط في الضفة الغربية لنهر درعة بواحة لكتاوة. وقد زار هذا القصر الضابط الفرنسي دولاشايل. ونشر مقالة عن التنظيمات الاجتماعية والسياسية لسكان نصراط تحت عنوان : Une cité de l'oued Draa sous les protectorat des nomades

NESRAT. Hesperis - IX - 1929 - pages 29-42

(7) قصر خسوان : من القصور المهمة بواحة لكتاوة، ويقع في الضفة الغربية لنهر درعة. وتسكنه اغلبية حرطانية.

(8) لم نتمكن من تحديد هوية هذا الشيخ.

(9) قصر بني حيون : من القصور المهمة بواحة لكتازة ويقع في الضفة الغربية لنهر درعة. وقد لعب هذا القصر دورا حيويا على عهد السعديين خاصة بعد فتح السودان فقد كان السعديون يختارون بعض رجالات قصر بني حيون لتولي بعض المسؤوليات في تومبكتو انظر : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي من ص 646 إلى ص 654.

(10) فيما يخص الارقام (10) ـــ (11) ـــ (12) ـــ (13) انظر رقم (2).

(14) تاكَورا لفظ أمازيغي ويعني النصيب. وتستعمل هذه الكلمات على نطاق واسع بين سكان وادي درعة.

(15) الرَّسَّامة : أي الذين أشرفوا على توقيع الاتفاقية فهم المتحملون والمتكفلون بالاتفاقية.

(16) البراني: المقصود به الأجنبي عن قصر بني هنيت.

(17) العَتَبَةُ لغة هي باب الدار ومدخلها، والمقصود بها هنا هي باب قصر بني هنيت، وقد اطلقت على القصر نفسه في الاتفاقية.

(18) الحَلَّابُ : أصل اللفظ هو الاناء الخشبي الذي يحلب فيه، وقد تطور استعمال اللفظ فصار يطلق على الأواني الخزفية التي تستعمل لأغراض منزلية. وقد ابتكر بعض الخزفيين بدرعة أنواعا خاصة من الحلاليب فكانوايتصدقون بها على المساجد حيث تستعمل للوضوء، ولا يزال استعمالها ساريا بكل مساجد وادي درعة الى اليوم، ونظرا لكون مسجد القصر يكون دائما عند مدخله. فقد كان الأمين الذي يتم اختياره للاشراف على جمع العشور، يختار بدوره حلابين من المسجد، حلاب كبير وحلاب صغير، يستعملها كأداة لأخذ قدر معين من كل بهيمة دخلت محملة بالتمور أوالحبوب من باب القصر، فكان الحلاب الكبير يستعمل كمقدار لحمولة البغل والحلاب الصغير يستعمل كمقدرا لحمولة الحمار، وبعد أن ينتهي اليوم تجمع التمور وتوضع في دار القبيلة (سنستعرض تنظيم دار القبيلة في فصل لاحق من هذا البحث).

(19) الثامن أي 1/8 من كل منتوج.

(20) سبق لنا أن عرفنا بالرُّعية بشكل موسع في فصل سابق من هذا البحث.

2 ـــ ظرفية التعامل بالاتفاقيات التكفلية على أساس تفويت الأرض

رأينا في أول هذا الفصل أن ضغوط قبائل أيت عطا على سكان واحات وادي درعة قد تضاعفت بشكل تصاعدي منذ نهاية العقد الراقع من القرن 12هـ/18م وتدل كل القرائن على أن المخزن ـــ ورغم ما كان ينظمه من حَرْكات عسكرية الى درعة ـــ لم يستطع منذ ذلك التاريخ والى القرن 14هـ/20م التحكم بشكل نهائي في المنطقة لعوامل التشغيب التي كانت تثيرها قبائل المنطقة عامة وقبائل أيت عطا خاصة. وأمام ضغوط قبائل أيت عطا، وضعف ممثلي المخزن من القواد المحليين وغيرهم، عاود السكان العمل بنظام الاتفاقيات في محاولة منهم لتنظيم علاقاتهم بقبائل أيت عطا.

ونستشف من نصوص الاتفاقيات التكفلية من نوع «تاكْسا» أن أصحاب الزوايا من الأشراف والمرابطين كانوا أسبق الى التعامل مع قبائل أيت عطا بهذه الاتفاقيات التكفلية، إذ بفضل هذه الاتفاقيات كان أصحاب الزوايا يضمنون وصول الوعدات والزيارات من مناطق نائية الى الزاوية الأم. ورغم أن الاتفاقيات التكفلية مع أصحاب الزوايا تظهر وكأن المرابطين لم يقدموا أي مقابل لأيت عطا، مقابل قبول هؤلاء باحترام الزاوية وأتباعها وقوافلها التموينية والتجارية حيثما وجدت، فإن قبائل أيت عطا كانت تجد في هذه الزوايا الضيافية والمأوى أثناء تحركاتها من صاغرو في اتجاه المناطق الصحراوية أو العكس وبذلك يكون أصحاب الزوايا يقدمون لقبائل أيت عطا مقابلا ماديا لحماية زواياهم واحترام قوافلهم التجاية وقصور خدامهم من الحراطنة وغيرهم.

أما القصور الأخري التي لا ترتبط بآيت عطا أو أصحاب الزوايا برابطة مًا فقد كانت تشكل الهدف المفضل لهجومات القبائل المترحلة، وقد كان سكان هذه القصور يضطرون الى البحث عن قبيلة قوية فيذبحون عليها ويعقدون معها اتفاقية تكفلية يتنازلون بمقتضاها عن جزء هام من ممتلكاتهم لصالح

القبيلة الحامية، وفي هذا الاطار عقدت قبيلة قصر بني هنيت بواحة لكتاوة هذه الاتفاقية التي بين أيدينا مع قبيلة أيت حسُّو مقابل تنازل القبيلة الاولى للثانية عن الربع كاملا من ممتلكاتهم بما في ذلك الارض والمنازل والأشجار والأثاث وغيره.

والواقع أن الاتفاقيات التكفلية على أساس تفويت الممتلكات مقابل التكفل بالحماية، تعتبر آخر مرحلة من مراحل تطور الاتفاقيات، وتكشف لنا عن ضعف القواد المخزنيين المحليين وعجزهم عن ردع القبائل المتسيبة عامة وقبائل أيت عطا خاصة والتصدي لهجوماتها على واحات وادي درعة.

استغلت قبائل أيت عطا ضعف القواد المحليين، وانشغال المخزن في شمال البلاد بمشاكل الدول الاوروبية التي صارت تهدد وحدة المغرب بعد سقوط ما تبقى من هيبة للدولة المغربية في معركتي إسلي (1844/1260) وتطوان (1860/1279)، فاندفعت في عمليات غزو واسعة لواحات وادي درعة.

تركزت هجومات قبائل أيت عطا بشكل خاص في الواحات الجنوبية الثلاث (محاميد الغزلان ولكتاوة وفزواطة) لتفتح هذه الواحات على المناطق الصحراوية وسهولة السيطرة عليها من جهة، ولكثرة الخلافات بين سكانها «إذ لا يكاد يصدر منهم على مرؤوس اتفاق»[96] من جهة ثانية. وتدل كل القرائن على أن هجومات أيت عطا على هذه الواحات قد بدأت منذ القرن الثاني عشر الهجري/19م لتحتد خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م، وتعتبر قبائل أيت عيسى وابراهيم من خمس أيت واحليم[97] أول من نزل من أيت عطا بواحة فزواطة، لكن قبيلة أولاد سلطان المعقلية، قد تصدت لآيت عيسى وابراهيم وجعلتهم يتراجعون نحو الجنوب في اتجاه محاميد الغزلان.

استنجدت قبائل أيت عيسى وابراهيم بقبائل أيت إسفول، فتشكلت قوة قبلية قوية من أيت واحليم وأيت اسفول وتمكنت بعد صراع طويل من القضاء على قبيلة أولاد سلطان وطردها من فزواطة[98] ونظرا للدور الذي قامت به قبائل أيت إسفول[99] في هذه الصراعات القبلية، فقد احتفظت لنفسها بالبقاء في غير ما نقطة بفزواطة في حين تراجعت قبائل أيت واحليم نحو الجنوب.

وتدل كل القرائن على أن قبائل أيت واحليم قد تحولت الى الاستقرار والارتباط بالأرض بعد عقد سلسلة من الاتفاقيات التكفلية على أساس تفويت الأرض كما هو الحال بالنسبة لقبيلة أيت حسُّو التي تعتبر من أهم قبائل أيت واحليم، التي تكفلت بحماية قصر بني هنيت مقابل الربع من أملاك وعقارات قبيلة بني هنيت. أما قبيلة أيت إسفول فقد ظلت محافظة على طبيعتها البدوية وما يستدعي ذلك من تنقل وانتجاع، الامر الذي ساعدها في التغلب على قبائل أيت واحليم والدفع بها نحو واحة محاميد الغزلان.

(96) محمد بن لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية مخطوط خاص ص. 7.

(97) يعتبر خمس أيت واحليم من الأخماس المهمة في اتحادية أيت عطا. ويتشكل هذا الخمس من قبائل أيت بواكنفين ــ وأيت وعيسى وابراهيم، والمشان، وأيت حشو، وإكنون وكل قبيلة من هذه القبائل تتفرع الى فرق متعددة
(G. Spillmann : Les Ait Atta, p. 81)

(98) لا تزال أطلال قصور هذه القبيلة في النبش بالقرب من زاكورة الحالية وبفزواطة.

(99) أيت اسفول : تتكون قبائل أيت اسفول من عدة قبائل تنحدر من أصول غامضة ومبهمة وتشكل مع قبائل أيت علوان أحد الأخماس المهمة في اتحادية ايت عطا انظر : G. Spillmann : Les Ait Atta du Sahara, p. 85.

كانت للاتفاقيات التكفلية بين الحراطنة وقبائل أيت عطا على أساس تفويت الأرض نتائج سلبية على البنية العقارية بدرعة.

فبالرغم من أن البقع الأرضية الصالحة للزراعة بالوادي كانت تتميز بحجمها المجهري، حيث كانت جل البقع الأرضية المستغلة لا تتجاوز في جل الأحيان بضعة أمتار مربعة، فإن هذه الاتفاقيات التكفلية قد زادت من تفتيت هذه البنية الأمر الذي أثر على المردودية بصفة عامة ناهيك عن المشاكل العويصة التي كانت تطرأ عندما ينضب الماء بين قبائل أيت عطا التي تعتبر نفسها قوية وحامية وقبائل القصور الحرطانية التي كانت ترى نفسها أضعف من أن تواجه القبائل المكلفة بحمايتها[100].

وهكذا نستخلص مما سبق أن الهجومات التي كانت تقوم قبائل أيت عطا على واحات درعة منذ العقود الأولى من القرن الثاني عشر الهجري/18 الى غاية العقود الاولى من القرن الرابع عشر الهجري/20م. كانت لها عواقب وخيمة على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بالوادي. ولن نبالغ في شيء إذا قلنا أن هذه القبائل كانت تشكل مصدر تشغيب على الدولة ومصدر تعب ومشقة بالنسبة لسكان درعة، وقد بلغ من غضب المخزن على قبائل أيت عطا أن السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام يرى قتال هذه القبائل أوكد من قتال النصارى[101].

وأمام ممارسة قبائل أيت عطا وعجز القواد المحليين والمخزن بصفة عامة عن وضع حد لهجوماتها المتكررة، عاود السكان التعامل بنظام الاتفاقيات. فعقد أصحاب الزوايا من الاشراف والمرابطين سلسلة من الاتفاقيات التكفلية مع قبائل أيت عطا في محاولة من شيوخ الزوايا لحماية القوافل التجارية والتموينية التابعة لهم. أما الحراطنة فقد كانوا يعقدون الاتفاقيات التكفلية مع قبائل أيت عطا على أساس تفويت جزء من ممتلكاتهم لصالح القبائل التي كانت تتكفل بحمايتهم من أيت عطا. ولا مشاحة إذا قلنا أن هذه الاتفاقيات التكفلية على أساس تفويت الأرض كانت وراء تحول الكثير من قبائل أيت عطا الى الاستقرار والارتباط بالأرض والتخلي بطريقة تدريجية عن الترحل والانتجاع.

---

(100) كان سكان وادي درعة كثيرا ما يتحسرون على عقد مثل هذه الاتفاقيات مع قبائل أيت عطا حيث كانت هذه الأخيرة لا تحترم كل التزاماتها مع القبائل المحمية ولاتزال الذاكرة الشعبية تردد بعض الأزجال التي تسجل هذا التحسر ومنها على سبيل المثال قول بعضهم :

يَـا جُـايَبْ لَقْبِيلَـةْ رَغْـدَةْ وغْجَـاجْ   يَـا هَدَّامْ خِيمْـةْ بَغْـدِ بْنَاهَـا

يـا يْنَّـاع كَطِيفَـةْ لِيهَـا مَحْتَـاجْ   كَيفْ يديـرْ لَحـازُو بَرْدْ الشتـا لُغْطَاهَـا

كِيفْ الِلاَ مَدْ صَبْعُو لِعِينُو وغْماها

(101) انظر الهامش رقم 35 من هذا الفصل.

الفصـل الثامـن

أسس التنظيمات السياسية والاجتماعية عند قبائل القصور بدرعة

أسس التنظيمات السياسية والاجتماعية
عند قبائل القصور بوادي درعة

سبق لنا أن رأينا في فصل سابق[1] أن القبائل الصحراوية عامة وقبائل أيت عطا بصفة خاصة[2] ظلت تشغب على المخزن بالمناطق الجنوبية حيث كانت تقوم بهجومات مباغتة ومتكررة على واحات وادي درعة طيلة ما يزيد على قرنين من الزمن تقريبا أي منذ العقود الاولى من القرن الثاني عشر الهجري/18م الى غاية العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري/20م. وقد كانت وطأة هذه الهجومات تشتد على سكان القصور إبان سنوات الجفاف الحاد[3] أو عندما تعاني المنطقة من حالات الفراغ السلطوي، وكانت هذه الحالات تظهر مع كل أزمة سياسية على مستوى السلطة المركزية، أو مع ظهور الصراع بين القواد المحليين وشيوخ القبائل من أجل توسيع مناطق النفوذ.

وبالرغم من الحركات القوية التي كان المخزن يبعث بها الى وادي درعة لردع قبائل الرحل وجعل حد لهجوماتها على قصور المستقرين، فإن حالات التشغيب ما تكاد تختفي حتى تظهر من جديد. ولعل هذه الحالات من التشغيب هي التي حدت بمؤرخي الحقبة الاستعمارية، أن يصنفوا واحات درعة ضمن المناطق السائبة، في إطار التمييز بين ما كانوا يسمونه «ببلاد المخزن وبلاد السيبة»[4].

كان هؤلاء المؤرخون يعتمدون على جملة من المعايير اتخذوها قاعدة عامة للتمييز بين سكان مناطق بلاد المخزن، وسكان بلاد السيبة، منها مثلا، أن قبائل بلاد المخزن هي القبائل التي تؤدي للمخزن اللوازم الجبائية وترتبط بشخص السلطان بالولاء والبيعة[5] في حين أن القبائل التي لا تؤدي اللوازم الجبائية — في نظرهم — تعتبر من القبائل السائبة.

وانطلاقا من هذه المعايير التي حددها مؤرخو الحقبة الاستعمارية، فإن تصنيفهم لواحات وادي درعة ضمن المناطق السائبة، تصنيف بجانب الصواب، ذلك أن كل المعطيات التاريخية تؤكد على أن

---

(1) انظر الفصل الذي خصصناه لاتحادية أيت عطا.

(2) من القبائل الاخرى التي كانت تهاجم واحات وادي درعة قبائل بني محمد، والغنائمة، وقبائل عُرَيبْ وقد تحولت الى الاستقرار بواحتي لحاميد ولكتاوة.

(3) وصف أحد الطلبة المدريين حالة من حالات الجفاف بالصحراء سنة 1212هـ/1797م فقال : «ثم إن مالك الملك سبحانه... قضى على تلك البلاد بالشصوب وعلى اهلها بالمساغب فكثر الهول والهرج.. وصار بعض أهلها لبعض ما بين محارب ومشاغب وسارق وغاصب وناهب» المعسول ج. 6 — ص. 41.

(4) — Dr WEISGERBER : Au Seuil du Maroc Moderne (1947), p. 37

— Augustin Bernard : le Maroc - Paris 1922, p. 237.

— Henri Terrasse : Histoire du Maroc, Tome I, p. 356

(5) — Augustin Bernard : le Maroc, p. 238.

سكان واحات وادي درعة كانوا على ارتباط وثيق بالمخزن منذ قيام الدولة العلوية خلال القرن الحادي عشر الهجري/17م الى غاية توقيع معاهدة الحماية سنة 1330هـ/1912[6] ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه، ذلك العدد الكبير الذي تراكم عند مختلف الأسر بواحات درعة من ظهائر التوقير والاحترام وظهائر الاقطاعات الأرضية، وظهائر تولية وعزل القضاة والقواد المحليين، وتحرص هذه الأسر على عدم ضياع هذه الظهائر. بالاضافة الى عدد كبير من الرسائل المخزنية التي تلقاها أهل درعة من رجال المخزن، ولوائح تسجيلات النخيل وغيره من الأشجار لأغراض جبائية[7].

صحيح أن قبائل وادي درعة، خاصة سكان الواحات الجنوبية، كانت تنتفض في بعض أوقات جمع اللوازم الجبائية[8] ولكن هذه الانتفاضات لا تعني رفض الانصياع للأوامر المخزنية ولكنها تعني رفض تعسفات المكلفين بجمع هذه اللوازم، حيث كان هؤلاء يتجاوزون الحدود المرسومة لهم، ويكلفون القبائل ما لا يطيقون، فكانت هذه القبائل تنتقض ضد المكلفين وتطردهم من مناطق انتشارها. فكان المخزن على مستوى السلطة المركزية يتدارك الأمور باستبدال الجباة المتعسفين بجباة آخرين بعد أن يزودهم بتعليمات واضحة في الرفق بالرعية.

وفي إطار سياسة «تهدئة الخواطر» كان المخزن بعد كل انتفاضة من قبائل درعة يبعث إلى أعيان المنطقة من الأشراف والمرابطين والقواد، فيجدد لهم ما بأيديهم من الظهائر، وبالمقابل كان هؤلاء الأعيان يجددون ولائهم للسلطان.

بالرغم من وجود هذه الروابط بين المخزن وسكان المخزن وسكان وادي درعة وحرص السلاطين على تعيين القواد والشيوخ على رأس مختلف القبائل، فإن المخزن كان يترك لقبائل القصور الحرية الكاملة في اختيار الطريقة التي تلائمها في تدبير أمورها السياسية الداخلية في إطار مؤسسة القصر، وتنظيم علاقاتها الاجتماعية. إذن فما هي أسس هذه التنظيمات السياسية والاجتماعية عند قبائل القصور بواحات درعة ؟ وما هي انعكاسات هذه التنظيمات على واقع الاستقرار بالمنطقة ؟ وما هي التطورات التي طرأت عليها إبان زخم ضغوط قبائل أيت عطا على قصور المستقربين ؟

I ـ أسس التنظيمات السياسية والاجتماعية عند قبائل القصور

ترتكز التنظيمات السياسية والاجتماعية عند قبائل القصور بواحات وادي درعة على جملة من الاتفاقيات التنظيمية[9] وهذه الاتفاقيات عبارة عن جملة من الشروط والضوابط العرفية التي كانت قبائل

---

(6) لم تتوقف عملية تسليم ظهائر التوقير والاحترام لبعض أعيان وادي درعة حتى بعد توقيع معاهدة الحماية. وبعد الاستقلال أيضا.

(7) نتوفر على نسختين لتسجيلات جبائية احداهما من توقيع عامل السلطان على الجنوب محمد بوستة، والاخرى بتوقيع الجيلالي بن حم الجراوي.

(8) نذكر هنا بانتفاضة القبائل ضد جباة السلطان مولاي اسماعيل بمحاميد الغزلان. وانتفاضتهم ضد حمان الصريدي في عهد مولاي السليمان انظر الفصول السابقة.

(9) سبق لنا أن عرفنا بالاتفاقيات التنظيمية في المدخل الذي خصصناه للتعريف بمصادير البحث.

القصور تحرص على وضعها لتنظيم الحياة العامة للعناصر المتساكنة داخل أسوار القصر. وتعكس هذه الاتفاقيات الى حد كبير مختلف مراحل التطورات التاريخية التي مرت بها قبائل القصور بدرعة من خلال علاقاتها مع القبائل الصحراوية من جهة والقبائل الجبلية من جهة ثانية.

وبالرغم من أن هذه الاتفاقيات في إطارها العام قد وضعت لتنظيم الحياة اليومية على أسس متينة ومرنة في آن واحد لضمان استمرار حالات التوازن الاجتماعي بين مختلف عظام قبيلة القصر، فإن شروط هذه الاتفاقيات على اعتبارها ضوابط عرفية بمثابة قانون مكتوب يخضع له الجميع قد وضعتنا إمام إشكال المشروعية، مشروعية الجماعة وما تضعه من شروط تعتبر ملزمة لكل فرد من قبيلة القصر. وهل يعتبر وجود هذه الاتفاقيات مضادا للشرع أم لا ؟ وما هو موقف الفقهاء من هذه الشروط على اعتبار أن هؤلاء هم ممثلو الشريعة والمدافعون عنها.

نلاحظ من خلال كتب الأجوبة أن آراء الفقهاء قد تضاربت حول قضية التعامل بالاتفاقيات التنظيمية والقوانين العرفية، ليس في درعة فحسب وانما في الجنوب المغربي. وحسب ما نعلم فقد اثيرت هذه المسألة أول الامر بمدينة مراكش في بحر القرن الحادي عشر الهجري/17م وذلك من خلال سؤال وجهه أهل مراكش للقاضي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني[10] «فيما يفعله أهل البادية... من أنهم يجتمعون عن آخرهم ويجعلون منهم أهل الحل والعقد ويصدر منهم الاتفاق على ضوابط ومصالح عندهم من أن كل من قطع الطريق على الصادر والوارد ببلادهم يستردون منه ما سلبه من الأموال إن كانت قائمة العين والا يعاقب بالأموال أيضا ويسمون ذلك إنصافا عندهم... يأخذون ذلك من الفقير والغني والأيتام والأرامل. فما الحكم في ذلك» ؟[11].

وبالرغم من أن السؤال قد وجه الى أبي مهدي السكتاني باعتباره قاضيا من قضاة سوس بتارودانت خلال القرن الحادي عشر الهجري/17م، وأن هذه الاتفاقيات كانت أكثر انتشارا بسوس والمناطق المجاورة لها مثل درعة وغيرها[12] فقد تطوع للاجابة عنه مفتي مراكش في وقته عبد الواحد ابن أحمد الرجراجي[13] وقاضي مراكش في وقته سيدي محمد بن عمر[14].

فإذا كان الرجراجي قد اعتبر هذه الاتفاقيات من البدع الشنيعة يجب المبادرة لسدها، فإن القاضي محمد بن عمر اعتبرها كفر صراح ويجب على من مكنه الله في الأرض أن يحسم مادة اولائك الفجرة ويردهم الى الشرع العزيز ولو بقتالهم»[15]. أما القاضي عيسى بن عبد الرحمان السكتاني فيرى في

---

(10) انظر ترجمة السكتاني عند القادري في نشر المثاني ج. 2 — ص. 59 — 60.

(11) السؤال نقله احمد بن داوود المشتكي في رحلته هداية الملك العلام ضمن مجموع بالخزانة العامة — الرباط رقم ق. 147 ص. 108 — 109.

(12) انظر ما ذكره الفقيه المانوزي عن هذه الضوابط في المعسول ج. 3 — ص. 276.

(13) لم نتمكن من العثور على ترجمته.

(14) لم نتمكن من العثور على ترجمته أيضا.

(15) احمد بن داوود المشتوكي : هداية الملك العلام ص. 110 — 111.

هذه الاتفاقيات ما هو جائز، ومنها ما هو غير جائز. فالجائز منها من باب التعاون على البر والتقوى، على اعتباره وظيفا دينيا ويجب على القائمين به أن يتعلموا ما يتوقف عليه ذلك.. وأما الأنصاف بالمال فليس في المذهب المالكي إلا في مسائل.. فإن فعلوا ذلك رعيا للمصلحة العامة فالخطب سهل... ثم ما يجمع من ذلك يصرف مصرف الفي، ويكون في المصالح والسلام[16].

أما فقهاء أهل درعة فقد انطلقوا في قبولهم التعامل بالاتفاقيات على أساس التعامل مع واقع قبائل القصور، فالقبيلة تختار الجماعة والجماعة هي التي تسهر على وضع شروط الاتفاقيات، وهذه الشروط لا تتطرق إطلاقا الى المسائل الشرعية المفروضة بالكتاب والسنة وانما تبقى محدودة في المستجدات اليومية التي لا يحتاج في البت فيها الى القاضي، لذلك كانت الأسئلة التي توجه الى فقهاء المنطقة محصورة في إطار «شرعية» ما تقوم به الجماعة وقد أجاز الفقهاء عمل الجماعة[17]، وكان بعض المتحذلقين من طلبة وادي درعة يذيلون بعض هذه الاتفاقيات بقولهم «انه تقوم الجماعة في عدم الامام كحكم الامام» (انظر الاتفاقية رقم 1 من هذا الفصل).

وفي مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م اتفق ثلاثة من كبار قضاة وادي درعة على جواز العمل بالاتفاقيات وهم القاضي سيدي محمد بن البخاري[18] والقاضي سيدي محمد بن محمد بن الشافعي[19] والفقيه علي بن أحمد[20] فقد ذيلوا ثلاثتهم على اتفاقية تنظيمية عقدها الأشراف بمختلف قصورهم بواحة لكتاوة[21] واتفق هؤلاء الفقهاء على القول بأن المسلمين على شروطهم كما في الحديث. ويعم ذلك كل من سكن فلا مخرج لأحد عن ذلك قال تعالى : «ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ــ الاية»[22].

وهكذا يتضح أن سكان وادي درعة قد استندوا في تعاملهم بالاتفاقيات التنظيمية الى فتوى الفقهاء الذين أجازوا تعامل قبائل القصور بهذه الضوابط العرفية درءا للمفاسد وحفاظا على التساكن لما في ذلك من المصلحة العامة.

تتكون قبيلة القصر بوادي درعة من عناصر بشرية متنوعة الأصول، تعتبر في الواقع بقايا التجمعات القبلية التي عمرت بلاد درعة في العصور الغابرة. وقد اندمجت هذه العناصر في بعضها البعض وشكلت ما سميناه «قبيلة القصر» بعدما فقدت كل ارتباط بالشعور القبلي بمعناه العرقي أو ما يذكرها بأصولها القديمة. وترتكز قبيلة القصر على الاستقرار والارتباط بالأرض داخل قُطَّة القصر. ويعتبر القصر أهم مؤسسة سياسية واجتماعية ترتكز عليها الاتفاقيات التنظيمية.

---

(16) المشتوكي : نفس المرجع صص. 111 ــ 112 ــ 113.

(17) وردت أسئلة في عمل الجماعة في أجوبة فقيه درعة محمد الديلمي (ق. 12هـ/18م).

(18) ترجمته عند محمد بن لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية ــ مخطوط ص. 10.

(19) ترجمته عند محمد بن لحبيب التمنوكالي : المرجع السابق ص. 9.

(20) انظر ترجمته عند محمد بن لحبيب التمنوكالي : المرجع السابق ص. 18.

(21) نتوفر على نسخة مصورة من هذه الاتفاقية وتاريخها مبتور.

(22) الاية رقم 251 من سورة البقرة.

1 ــ القصر كمؤسسة سياسية ــ اجتماعية بدرعة

تنتشر على طول واحات وادي درعة مجموعة من القرى السكنية تعرف «بالقصر»[23] ونستفيد من بعض الاشارات التاريخية أن القصور بوادي درعة خلال القرون الوسطى لم تكن مسورة كما كانت عليه في العصور المتأخرة. فقد ذكر الشريف الادريسي (عاش في القرن السادس الهجري/12م) وهو يصف درعة بأنها «ليست مدينة يحوط بها سور ولا حفير، وإنما هي قرى متصلة وعمارات متقاربة»[24]. ولا نستبعد أن فكرة تحصين القصر بسور خارجي وخندق يحيط به، قد ظهرت مع بوادر وصول قبائل بني معقل الى وادي درعة مع بداية النصف الثاني من القرن السابع الهجري/13م، حيث كانت هذه القبائل تستولي على المزروعات وتغتصب الحصون والقلاع على حد تعبير ابن ابي رزع[25] فهل يمكن القول بأن هجومات قبائل الرحل الصحراوية ــ قبائل بني معقل ثم قبائل أيت عطا بعدها ــ هي التي ارغمت سكان وادي درعة على تصميم القصور كما كانت عليه منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م الى غاية القرن الرابع عشر الهجري/20م ؟ وكيفما كان الجواب على مثل هذا السؤال وغيره فإن سكان المنطقة قد صمموا قصور سكناهم بشكل يتلاءم والظروف الدفاعية والمناخية التي يتطلبها موقع واحات درعة على مشارف الصحراء.

وبالرغم من كوننا لا نتوفر على إحصاء دقيق لعدد القصور بواحات درعة خلال الفترة التي حددها البحث، فإن الشيء الأكيد وحسب الاشارات التاريخية المختلفة[26] أن هذه القصور كانت كثيرة العدد وقد تجاوز عددها ثلاثمائة قصر في مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م[27] تتفاوت من حيث الحجم وعدد السكان. ولاشك أن هذا الرقم ينقص عما كان عليه الامر في العصور الماضية[28].

والقصر كمؤسسة استقرارية، يقوم بأدوار سياسية واجتماعية واقتصادية متداخلة يعتبر في الواقع نتاج ظروف تاريخية معقدة تأثرت بشكل أو بآخر بموقع بلاد درعة في نقطة التقاء بين المناطق الصحراوية حيث النشاط الرعوي والقبائل المترحلة باستمرار، وبين المناطق الجبلية حيث تسود الزراعة والاستقرار.

وإذا كانت الخربات والأطلال المنتشرة بين حقول النخيل في مختلف واحات الوادي تقوم دليلا على أن القصور الاولى قد بنيت وسط الحقول، حيث كان السكان ليسوا بحاجة الى حماية هذه القصور والدفاع عنها، فإن القصور التي لاتزال قائمة الى اليوم تؤكد أن السكان قد اضطروا خلال الفترة التي حددها البحث الى تحويل مواقع هذه القصور واقامتها في أماكن مرتفعة، كما كانوا يحيطونها بأسوار خارجية

---

(23) ينطق بكاف معقودة.

(24) الشريف الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق ــ الجزائر 1957 ص. 38.

(25) علي بن ابي زرع : روض القرطاس ــ الرباط 1973 ــ ص 307.

(26) سبق لنا أن تعرضنا لذكر بعض هذه القصور في فصل سابق من هذا البحث.

(27) محمد بن لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية ــ مخطوط خاص ص. 3 .

(28) تعد خربات القصور وأطلالها المنتشرة على طول واحات وادي درعة بالعشرات ناهيك عن ما هو مطمور منها تحت الرمال لذلك نعتقد أن عدد قصور درعة في القرون الماضية يتجاوز بكثير ما هو عليه الامر الآن.

تتخللها أبراج عالية للمراقبة والحراسة بالاضافة الى حفر خندق خارجي يحول دون تسرب المهاجمين الى أسوار القصر. وقد ظل الشكل الخارجي للقصر كما هو عليه لعدة قرون لم يطرأ عليه أي تغيير إلا بعد نهاية عهد الحماية، حيث عرفت هذه القصور تطورات كبيرة على أثر التحولات العمرانية التي عرفتها واحات وادي درعة مع بداية عهد الاستقلال[29].

والقصر عبارة عن بناء متماسك ومتصل تخترقه أزقة تتفرع كلها عن المدخل الرئيسي للقصر. ويحمل كل زقاق من هذه الأزقة والذي يعرف «بالدرب»[30] اسم «العظم» الذي يسكنه من العظام المشكلة لقبيلة القصر.

وتتنوع أسماء القصور بواحات وادي درعة تبعا للمراحل التاريخية التي بنيت خلالها، فالقصور القديمة عادة ما تحمل أسماء أماكن جغرافية مثل قصر أغلاوَدْرار (أعلى الجبل) وقصر تازروت (قصر الصخرة) في حين أن القصور الحديثا نسبيا تحمل أسماء بعض العظام التي أنشأتها مثل قصبة أولاد بلعيد قصر أولاد علي بن مولود وهكذا.

ويتوفر كل قصر على ثلاثة مرافق عامة.

1 ـــ المسجد للصلاة وتعليم القرآن والتدريس بصفة عامة.

2 ـــ أَرَحْبِي وهو عبارة عن ساحة واسعة في المدخل الرئيسي للقصر. ويخصص أَرَحْبي للتجمعات العامة للقبيلة وفيه تقام الحفلات العامة في الأعياد وفي أوقات اختيار شيخ القبيلة كما تنزل فيه قوافل التجار والمسافرين.

3 ـــ تِكَمِّي نْتَقْبِيلْتْ (دار القبيلة) وتلحق في العادة بأرحبى كما تقام بالقرب من المسجد. وتقوم دار القبيلة بأدوار اجتماعية واقتصادية هامة على مستوى قبيلة القصر.

2 ـــ دار القبيلة أو «تِكَمِّي نتاقْبِيلْت».

استحدثت هذه الدار أصلا لاستقبال الغرباء وأبنا السبيل وكانت تعتبر على الخصوص نزلا لرسل المخزن الذين كانوا يتجولون بقصور الوادي لجمع اللوازم الجبائية أو لتبليغ السكان بأوامر مخزنية ذات طبيعة عمومية.

كانت دار القبلة في بداية الامر تحت إشراف دُوَّابْ القصر[31] المكلف بفتح الأبواب في الصباح الباكر وإغلاقها في المساء وقد كان هذا الدُّوَّابْ يقوم بحراسة باب القصر ومراقبة الغرباء الوافدين على القبيلة واخبار الجماعة بوجودهم لتقوم القبيلة بعد ذلك بواجب الضيافة.

(29) حول التحولات التي طرأت على القصر بدرعة انظر :

— Abdellah Hammoudi : L'évolution de l'Habitat dans la vallée du Draa. R.G.M. N° 18 — 1970, pp. 33-45.

(30) الدرب لغة هو الممر الضيق في الجبال وقد وصفت به أزقة القصور بدرعة لضيقها تشبيها لها بدروب الجبال.

(31) الدَّواب لغة هو الملازم لأمر هام، والمقصود به هنا هو الشخص الذي تكلفه قبيلة القصر بملازمة باب القصر لحراسته ومراقبة الوافدين عليه.

وفي القرون الاخيرة تطورت وظيفة دار القبيلة فتحولت الى مخزن لجمع أعشار القبيلة وصرفها في المصالح العامة لقبيلة القصر وتحولت من إشراف دوّاب القصر الى إشراف صاحب السّارُوت[32] وهو أمين خاص يتم اختياره من بين سكان القصر المعروفين بالامانة والصدق بعد أن يحرر من كل التكاليف الداخلية للقبيلة[33].

وبعد اختيار صاحب الساروت تقوم الجماعة بعقد اتفاقية خاصة تحدد من خلالها كل الشروط التي تنظم دار القبيلة لتقوم بوظائفها الاجتماعية كاملة. ومن خلال بعض الاتفاقيات الخاصة بتنظيم دار القبيلة يمكن القول بأن شروط اتفاقيات دار القبيلة ترتكز على ثلاثة محاور :

ـ الشروط تتعلق بتحديد المقادر التي تفرضها جماعة القصر على كل منتوج فلاحي. وتحدد هذه المقادير على ضوء الأدوات المستعملة في نقل الانتاج من البساتين الى داخل القصر (انظر الاتفاقية رقم 2 من هذا الفصل). ويعهد الى دوّاب القصر باستخلاص هذه المقادير وجمعها ثم تسليمها مساء كل يوم الى صاحب الساروت.

ـ شروط تتعلق بتحديد المرافق التي تصرف فيها هذه المقادير (الضيافات العمومية ـــ الكلف المخزنية الخ).

ـ شروط تتعلق باختيار صاحب السّاروت وتحريره من الوظائف والتكاليف الداخلية التي تفرضها الجماعة على القبيلة.

يتمتع صاحب الساروت بالحرية الكاملة في تدبير شؤون دار القبيلة ولا يخضع لأي سلطة (سلطة الشيخ مثلا) إلا سلطة القبيلة، وتحدد قبائل القصور ذعيرة ثقيلة قد تزيد على عشرين مثقالا في بعض الأحيان كعقاب لمن يتهم صاحب الساروت بالسرقة أو يطعن في إمانته.

يسهر صاحب الساروت على تصريف موارد دار القبيلة في ضيافة القوافل التجارية التي تضطر الى الوقوف بالقصر، وعلى أبناء السبيل والغرباء الذين يتوافدون على القصر. فإذا كان أصحاب القوافل التجارية قد لا يحتاجون الى الكشف عن هويتهم فإن الغرباء وأبناء السبيل الذين يتواردون على القصر عادة فرادى فإنهم يخضعون لاستفسار الدّواب، الذي كان يسأل كل غريب عن هويته وقبيلته ووضعيته الاجتماعية (شريف، مرابط عامي الى غير ذلك من الأسئلة التي تحدد طريقة ضيافته) وبعد هذه الاستفسارات يقوم الدُّوابُ بإخبار صاحب الساروت إذا كان الغريب عاديا، والجماعة إذا كان ممن يستحقون عناية القبيلة. وبعد ذلك يقوم صاحب الساروت بتحديد المقادير الكافية لاطعام الضيف من القمح والشعير والزيت والقديد والخضر المجففة[34] فيذهب به الى منزل صاحب نوبة الضيافة. فإذا كان

(32) السّاروت : هو المفتاح.

(33) إذا اختلفت عظام القبيلة على رجل واحد فإن كل عظم يتخذ له مفتاحا وقفلا إذ يتعذر على عظم واحد أن يستفيد مما تجمع بدار القبيلة أو يختلس منه.

(34) كان سكان الواحات يجفّفون الخضر مثل اللفت والجزر والبصل وغيره والقيام بتخزينها الى وقت الحاجة.

الضيف من قبيلة معروفة أو حليفة لقبيلة القصر فإنه يستدعى الى منزل صاحب نوبة الضيافة، وإذا كان إنسانا مجهولا فإن الطعام يحمل اليه.

وفي بعض الأحيان تضطر قبائل القصور الى الانفاق على الضيافات الكبرى من دار القبيلة، مثل الضيافات التي تقام لجماعات القبائل المتحالفة أو التي يجمعها مع قبيلة القصر لَفّ واحد، أو إقامة موسم صالح القصر[35] الى غير ذلك من الضيافات التي تتجاوز الطاقة الفردية.

وقد ظلت دار القبيلة تقوم بوظائفها كاملة طيلة عهد الحماية ولم تتوقف عن مهامها الاجتماعية في بعض قصور وادي درعة إلا في السنوات الأولى من عهد الاستقلال.

II ــ نماذج من الاتفاقيات التنظيمية

سبق لنا أن أشرنا في المدخل الى خصصناه للتعريف بمصادر البحث الى حصولنا على حوالي عشرين اتفاقية تنظيمية بمختلف واحات وادي درعة (انظر الجدول المرفق) وتغطى هذه الاتفاقيات مرحلة تاريخية تمتد من سنة 1822هـ/1807م إلى سنة 1350هـ/1932م. وهي السنة التي تمكن فيها الجيش الفرنسي من إتمام احتلاله لواحات درعة[36] واخضاع قبائل المنطقة لنفوذه.

ويمكن القول بأن التعامل بهذه الاتفاقيات، بشكل نظري، قد انتهى مع الاحتلال حيث عمدت فرنسا الى إعادة تنظيم المنطقة بشكل يسمح لضباط الشؤون الأهلية بمراقبة كل شاذة وفادة عند قبائل القصور، ولكن عمليا ظلت روح هذه الاتفاقيات مسيطرة وحاضرة في السلوك اليومي لقبائل القصور سواء على مستوى العظام المتساكنة داخل أسوار القصر أو على مستوى التعامل مع ممثلي الاستعمار الفرنسي ويتجلى ذلك في سيطرة فكرة «العادة» في مواجهة المشاكل اليومية والبت فيها على ضوء العادة. ونستفيد من روايات الشيوخ المسنين بقصور درعة أن ضباط الشؤون الأهلية كثيرا ما كانوا يضطرون الى العودة الى الاتفاقيات التنظيمية لحل الكثير من المشاكل التي واجهتهم بين قبائل القصور، أو بين مختلف عظام القصر الواحد. وقد أدى هذا العمل الى ضياع مئات الاتفاقيات التنظيمية.

أما طريقة تعاملنا مع النماذج التي اخترناها للتحليل، فقد حرصنا على إعادة نقل نص الاتفاقية بأخطائه الاملائية واللغوية والنحوية، ذلك أن تصحيح النص يستدعي في جل الحالات إعادة الاتفاقية كلها وهو الأمر الذي قد يؤدي الى طمس المعنى الحقيقي لبعض المصطلحات ذات الدلالة المحلية. ولعل ما يؤكد ما ذهبنا اليه أن عددا كبيرا من هذه الاتفاقيات قد كتبت بلغة أقرب الى العامية منها الى اللغة

---

(35) نكاد نجزم أن لكل قصر من قصور وادي درعة صالحه الذي يعتبر ضريحه مكانا للاستحرام والاستقسام بالنسبة لافراد القبيلة. ويكون هذا الصالح محط تقدير واحترام ويقام له موسم خاص في كل سنة.

(36) فيما يخص ظروف اتمام احتلال واحات وادي درعة انظر :

– G. Spillmann : les Souvenirs d'un colonialiste, p. 93 à p. 125.

العربية لما تحتوي عليه من مفردات «مدرجة» أو أمازيغية في بعض الأحيان. وبالرغم من أن كاتب الوثيقة قد تكون له المعرفة الكافية لاخراج الاتفاقية بلغة عربية فصيحة، فإنه يضطر في غالب الاحيان الى كتابة الاتفاقية باللغة التي يمليها عليه المتعاقدون.

1 ـ الاتفاقيات التنظيمية

تاريخ عقد الاتفاق	قبيلة القصر التي عقدت الاتفاق	القبيلة الكبرى التي تنتمي إليها قبيلة القصر	عدد شروط الاتفاقية	أهم محاور الاتفاقية	ملاحظات عامة
1222 1807	قبيلة قصبة المخزن (واحة تيزولين) .	قبيلة تيزولين	7	1 ـ تنظيم العلاقة الداخلية للعناصر البشرية المتساكنة بالقصبة 2 ـ الاهتمام بشؤون المرأة 3 ـ اختيار شيخ القبيلة	قصبة المخزن : يعتبر هذا القصر من أقدم القصور المعروفة بواحة تيزولين وقد كانت من القصور التي مارست السلطة بدرجة منذ عهد السعديين الى عهد الحماية.
1252 1836	قبائل القصور بتزولين وهي: ـ قبيلة قصر الرباط ـ قبيلة قصبة المخزن ـ قبيلة قصر أمردول ـ قبيلة قصر الحدان ـ قبيلة قصبة أيت رحو ـ قبيلة زاوية أمداغ	قبيلة تيزولين	1	اختيار الشيخ الكبير لقبائل تيزولين	ـ الشيخ الصغير هو الشيخ الذي يبقى نفوذه وسلطته على قبيلة قصره. أما الشيخ لكبير فهو الذي يمثل مجموعة من قبائل القصور في إطار التحالفات المحلية ضمن قبيلة كبرى
1267 1850	قبيلة زاوية سيدي اعمرو بن أحمد السفلى (واحة ترناتة)	قبيلة الروحة	3	1 ـ مقاطعة أحد سكان الزاوية 2 ـ تنظيم الشؤون العامة للزاوية	تعتبر هذه الزاوية من الزوايا القادرية بدرجة وهي اليوم عبارة عن اطلال في طريقها الى الاندثار.
1268 1851	قبيلة قصبة المخزن (واحة تيزولين)	قبيلة تيزولين	8	1ـ اختيار شيخ القبيلة 2ـ تحديد مقادير عقوبة القتل والجرح 3 ـ تنظيم العلاقة الداخلية بين سكان القصر.	الوثيقة الوحيدة التي عثرنا فيها على عقوبة الجلد والضرب في حالة إفلاس المتهم وعدم قدرته على تأدية الصائرات الواجبة عليه.

تاريخ عقد الاتفاق	قبيلة القصر التي عقدت الاتفاق	القبيلة الكبرى التي تنتمي إليها قبيلة القصر	عدد شروط الاتفاقية	أهم محاور الاتفاقية	ملاحظات عامة
1270 1853	قبيلة قصر بوخلال (واحة ترناتة)	من قبائل الروحة الوسطانيين (ترناتة)	8	1 ــ اختيار جماعة القبيلة 2ــ تنظيم شؤون دار القبيلة	تحدد الوثيقة على الخصوص المقادير التي تؤخذ عن كل منتوج فلاحي دخل الى القصر كالتمور والحبوب ووضع ما تجمع منه بدار القبيلة لصرفه على أبناء السبيل والشؤون العامة للقبيلة.
1278 1861	قبيلة قصر بوخلال (واحة ترناتة)	من قبائل الروحة الوسطانيين (ترناتة)	8	1ــ تنظيم شؤون دار القبيلة 2ــ تحديد النصافات المفروضة على على كل من يعارض تنظيم دار القبيلة	تكشف الوثيقة عن الصرامة والقوانين الردعية التي كانت جماعة القبيلة تتخذها ضد كل من يحاول الخروج عن إجماع القبيلة وسكان القصر.
1292 1875	قبيلة قصر بُوخلالْ (واحة ترناتة)	من قبائل الروحة الوسطانيين (ترناتة)	6	1ــ تحديد وقت جني التمور 2ــ تنظيم شؤون الرعية.	تبرز الوثيقة قطة قصر بوخلال.
1321 1903	قبيلة أولاد كرزاب (قصر ملال) (واحة ترناتة)	من قبيلة أولاد يحيى بواحة (ترناتة)	36	1ــ اختيار الشيخ وجماعة القبيلة 2ــ تنظيم العلاقات العامة بين سكان القصر.	تمنع الوثيقة على سكان القصر أن يرفعوا دعاوي بعضهم البعض الى المخزن.
1321 1903	قبيلة قصر بوخلال (واحة ترناتة)	من قبائل الروحة الوسطانيين	29	1ــ اختيار شيخ القبيلة والجماعة 2ــ تنظيم شؤون القبيلة 3 ــ تحديد النصافات.	الوثيقة مبتورة في بعض جوانبها ولكن هذا البتر لم يخل بالاتجاه العام لشروط الاتفاقية.
1323 1905	قبيلة قصبة المخزن (واحة تيزولين)	من قبيلة تيزولين	لم تحدد بكيفية مدققة	اختيار جماعة القبيلة	يظهر من الصيغة العامة للاتفاقيات أنها كتبت لتجاوز ظروف فتنة داخلية بين سكان القصر.

تاريخ عقد الاتفاق	قبيلة القصر التي عقدت الاتفاق	القبيلة الكبرى التي تنتمي إليها قبيلة القصر	عدد شروط الاتفاقية	أهم محاور الاتفاقية	ملاحظات عامة
1324 1906	قبيلة أولاد كرزاب بقصر ملال (واحة ترناتة)	من قبائل أولاد يحيى (ترناتة)	2	اختيار شيخ القبيلة وجماعة القصر	عقد هذا الاتفاق أصلا لتجديد الطريقة التي يتم بها توزيع المقادير المالية التي فرضها قائد أولاد يحيى على قبيلة أولاد كرزاب.
1324 1906	قبيلة قصر بوخلال (واحة ترناتة)	من قبائل الروحة الوسطانيين (ترناتة)	1	الالتزام بطرد عظم أولاد بوجمعة من قصر بوخلال	حسب الرواية الشفوية فقد كسرت قبيلة قصر بوخلال عظم أولاد بوجمعة من القصر عندما حاول الاستبداد بأمور القبيلة.
1331 1912	قبيلة أولاد الحاج وقصورها هي : ـ قصبة أولاد لعكيد ـ قصبة أولاد الباشا ـ زاوية سيدي احمد بن علي (ترناتة).	من قبائل الروحة الوسطانيين (بترناتة)	7	الالتزام باحترام زاور زاوية سيدي أحمد بن علي.	تقع زاوية سيدي احمد بن اعلي جبار المكسور بواحة ترناتة، ويعتبر سيدي احمد بن اعلي من شيوخ الطريقة الغازية التي تحولت الى الطريقة الناصرية
1332 1913	قصر طلحة (واحة المحاميد)	من قبائل عريب (واحة محاميد الغزلان)	لم تحدد بكيفية واضحة	قبول عناصر بني محمد ضمن تجمعات قبائل عريب	هذه الاتفاقية حددت الطريقة التي يتم بها ادماج بعض العناصر البشرية في قبيلة قوية.
1341 1924	قبيلة قصر اخلوف (واحة تينزولين)	من قبائل الروحة الفوقانيين (تنزولين)	1	اختيار شيخ القبيلة والجماعة	هذه الوثيقة تحيل على وثيقة اخرى لاتمام شروطها ولم نتمكن من الحصول على الاتفاقية الثانية.

تاريخ عقد الاتفاق	قبيلة القصر التي عقدت الاتفاق	القبيلة الكبرى التي تنتمي إليها قبيلة القصر	عدد شروط الاتفاقية	أهم محاور الاتفاقية	ملاحظات عامة
1344 1925	قبيلة أولاد بشيخ وقصورها هي : ـ قصر السواكن ـ قصر أولاد سليمان ـ قصر أولاد ملوك ـ قصر لكراير ـ قصر أولاد موسى ـ قصر أولاد مكدم ـ قصبة أولاد عثمان وغيرها. (واحة تينزولين).	تشكل قبيلة أولاد بشيخ أهم تجمع قبلي أولاد يحيى بدرعة	4	1ـ تحديد المنطقة التي يطالب فيها القاتل بدم المقتول 2ـ تحديد طريقة حل المشاكل الطارئة بين مختلف قبائل وقصور أولاد بشيخ قبل اللجوء الى العنف	تكشف لنا هذه الوثيقة عن المماحكات التي كانت تقع بين القبائل بالرغم من انتمائها الى لف واحد. وقد عقد هذا الاتفاق برعاية قائد أولاد يحيى في وقته.
1347 1928	قبيلة بونانة (واحة تينزولين)	من قبائل الروحة الفوقانيين (تنزولين)	4	1ـ اختيار جماعة القبيلة. 2ـ تنظيم شؤون القصر.	
1348 1929	قبيلة قصر أستور (واحة ترناتة)	من قبائل أهل الثلث (واحة ترناتة)	7	1ـ اختيار الشيخ 2ـ تنظيم أمور الرعية	عقد الاتفاق بين أهل استور بحضور بعض أعيان أيت وللال وللتذكير فان ايت وللال كانوا يرتبطون مع أهل الثلث ضمن نظام اللفوفية السائد انذاك بدرعة.
1350 1932	قبيلة قصر طلحة (واحة محاميد الغزلال)	من قبائل عريب (واحة محاميد الغزلان)	3	ـ انهاء مشكل الدماء بين سكان قصر طلحة وبعض الأشراف	أول وثيقة تنص على اليمين بأربعين فردا.
التاريخ مبتور	قبيلة قصر طلحة (محاميد الغزلان)	من قبائل عريب (محاميد الغزلان)	15	ـ اختيار الشيخ وجماعة القبيلة ـ تنظيم الشؤون العامة لسكان القصر.	تطبيق نظام النصافات على الأشراف وهو أمر لم نعثر عليه في الاتفاقيات السابقة.

تاريخ عقد الاتفاق	قبيلة القصر التي عقدت الاتفاق	القبيلة الكبرى التي تنتمي إليها قبيلة القصر	عدد شروط الاتفاقية	أهم محاور الاتفاقية	ملاحظات عامة
الوثيقة مبتورة	قبائل القصور الاتية ـ قصر تزْجينْ ـ قصر بُونانة ـ قصر أخلُوفْ. ـ قصر الزُّرْكان ـ قصر الدويرة.	تشكل هذه القصور قبائل الروحة الفوقانيين بواحة تينزولين	10	ـ اختيار الشيخ الكبير ـ تحديد النصافات بين سكان هذه القصور	تم عقد هذا الاتفاق برعاية سيدي عبد المولى اليعقوبي من واحة ترناتة.
دون تاريخ ايضا (مبتور)	قبيلة قصر بوخلال (ترناتة)	من قبائل الروحة الوسطانيين (ترناتة)	8	ـ اختيار الشيخ لكبير وجماعة القبيلة.	
دون تاريخ	قبيلة قصر بوخلال (ترناتة)	من قبائل الروحة (ترناتة)	23	1ـ تحديد حرم القصر 2ـ تحديد النصافات الزجرية	تدخلت بعض شروط هذه الاتفاقية في الشؤون الداخلية لسكان القصر. وهذا أقصى حد للصرامة في المحافظة على العلاقات العامة بين المتساكنين داخل أسوار القصر.

الاتفاقية رقم 1

«اتفاقية تنظيمية بقصبة المخزن ــ تِنْزولين»

الحمد لله وحده

بحول الله وقوته اتَّفقت جماعة أعيان ءال القسبة[1] صغيرهم وكبيرهم حرسهم الله خصوصا وعموما. وافقوا كلهم على سيدي عبد الله بن مَحمد بن مهدي[2] وقبل فيهم ثلاثة رجال[3] أن يقفوا معه على ءال القسبة أولهم :

ـ الفقير مبارك بن عبد النبي أن يقف على الحراطين ءال القسبة[4].

ـ والسيد المدني بن أحمد أن يقف على ءال تجْداء.

ـ والسيد محمد بن سعيد أن يقف على المزْوار[5] على الحقوق يعني :

1 ــ من خطَّى السُّور القصر[6] مثقالين ونصف[7].

2 ــ ومن تنافس على أحد حين الخصومة بخمسة اواق[8].

3 ــ ومن دخل العتبة[9] من غير حاجة بمثقالين ونصف.

4 ــ ومن هاجم امرأة بمثقالين ونصف.

5 ــ ومن سبته المرأة بعد الرجال[10] بخمسة أواق.

6 ــ ومن تزوَّج امرأة التي كانت في الحرام[11] من غير اتِّفاق القبيلة بخمسة مثاقيل.

وشهد بذلك من أشهدوه وهم بحال كال وفي أوائل جمادى الثانية عام 1222هـ عبد ربه تعالى الحسين بن مَحمد ءال سي وغْيَ لطف الله به ءامين.

وحكى عن ابن مغيث أنه تقوم الجماعة في عدم الامام كحكم الامام[12] نص عليه غير واحد. وعبيد ربه عبد الله بن مَحمد ءال سي وَغْيَ. كان الله له ءامين.

I ــ تعريف ببعض أعلام الاتفاقية وتوضيح لبعض عباراتها

(1) القسبة : كثيرا ما كان كتاب الاتفاقيات بوادي درعة يكتبون «القصبة» بالسين وهو خطأ بين إذ لا وجود للقسبة بالسين في اللغة العربية، والصحيح أن تكتب بالصاد كما ورد في لسان العرب لابن منظور (مادة قصب). والقصبة هي جوف القصر، أو القصر نفسه. وقصبة البلد مدينته، وقصبة السواد مدينتها، والقصبة ايضا القرية : لسان العرب لابن منظور ج 1 ــ ص 676ــ677 دار صادر دون تاريخ.

والمقصود في الاتفاقية هي قصبة المخزن الشهيرة بواحة تينزولين، وسنعرف بها في الاتفاقية الثانية من هذا الفصل.

(2) عبد الله بن محمد بن مهدي من عائلة المزواريين، وهي من الأسر العريقة بواحة تينزولين. وقد كان بعض أفراد هذه الأسرة يمارسون بعض المهام الادارية بدرعة طيلة عهد السعديين والعلويين. وفي عهد الحماية استطاع المزواريون الحفاظ على وضعيتهم الاجتماعية والسياسية بواحة تينزولين وكان آخر من تولى الحكم من هذه الاسرة بالمنطقة هو الشيخ محمد بن الفاطمي المزواري[37].

(3) هؤلاء الثلاثة كانوا يشكلون جماعة قبيلة القصر بالقصبة ويبدو من خلال الاتفاقية أن قبيلة قصبة المخزن سنة 1222هـ/1807م تتشكل من ثلاثة عظام : عظم الحراطين ويمثلهم في الجماعة الفقير مبارك بن عبد النبي. وعظم آل تجدا ويمثلهم المدني ابن أحمد وعظم المزواريين، ويمثلهم محمد بن سعيد. وقد اختير الشيخ من المزواريين.

(4) أن يقف على الحراطين : يمثل الحراطين في الجماعة ويقف على حقوقهم ويبلغهم ما اتخذته الجماعة من تدابير لصالح القبيلة.

(5) أن يقف على المزواريين : يمثلهم في الجماعة ويقف على حقوقهم.

(6) خطى السور : من المعروف أن القصور بوادي درعة لظروف أمنية، تحيط بها أسوار خارجية، ولا يتوفر القصر إلا على مدخل واحد هو باب القصر، وتعهد القبيلة الى دواب خاص يفتح الباب في الصباح الباكر ويغلقه في المساء ويراقب بدقة كل الداخلين والخارجين من القصر. وحتى تمنع القبيلة إدخال السرقات وغيره الى الداخل عبر الأسوار، فقد جعلت شرطا خاصا (الشرط الأول) وحددت من خلاله ذعيرة كبيرة لمن تسور سور القصر.

(7) مثقالين ونصف : هي مقدار الذعيرة التي حددتها القبيلة كعقاب لمن تسور سور القصر.

والمثقال عملة نقدية كانت متداولة بوادي درعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م.

كان المثقال في البداية يعتبر عملية ذهبية ويعادل في قيمته الدينار كما يساوي عشر أوقيات أو عشرة دراهم[38] وقد حدد وزنه في 3،549 غرام في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر الهجري/18م. كما عوض بالمثقال الفضي. وقد ظل المثقال الفضي يصرَّف بعشر اوقيات منذ ذلك التاريخ الى غاية مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م بقطع النظر عن التقلبات النقدية التي تعرض لها الوضع الاقتصادي المغربي خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/19م.

وندرك أهمية هذه الذعيرة التي حددتها قبيلة قصبة المخزن كعقاب لمن ضبط وهو يتسور سور القصر، اذا ما عرفنا أن بقعة من الأرض الزراعية بقطة قصبة المخزن وخروبة من الماء[39] بعيتا في سنة 1223هـ/1803م أي بعد سنة من عقد هذه الاتفاقية بثلاثة مثاقيل. وهكذا يتضح أن الشروط التي كانت تضعها قبائل القصور بدرعة تهدف بالأساس الى ردع أفراد القبيلة بهذه الذعائر الثقيلة لفرض ظروف الأمن والاستقرار داخل أسوار القصر وتجنب كل ما من شأنه أن يؤدي الى انهيار أسس التوازنات داخل القبيلة.

(8) أواق : جمع أوقية وهي عملة نقدية كانت متداولة بوادي درعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م. والأوقية تساوي درهما واحدا أو أربع مزونات[40].

(9) العتبةُ : العتبة لغة أسْكُفَّةُ الباب كما في لسان العرب لابن منظور (مادة عتب). والمقصود بالعتبة هو الباب، ويعني أن كل من دخل دارا من دور القصر من غير حاجة فإنه يعاقب بذعيرة قدرها مثقالين ونصف.

(10) ومن سيَّنه المرأة بعد الرجال : لم نتمكن من فهم المعنى الحقيقي لهذه الجملة (بعد الرجال).

(11) المرأة التي كانت في الحرام : المرأة التي تمارس البغاء.

---

(37) — Georges Spillmann : les Ait Atta du Sahara et la pacification du Haut Draa, p. 116.

(38) عبد العزيز بن عبد الله : معلمة الفقه المالكي ص. 301.

(39) سنعرف بمصطلح «خروبة من الماء» في فصل لاحق.

(40) — عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص. 280.

— محمد المختار السوسي : المعسول ج. 3 — ص. 281.

الإتفاقية رقم 2

اتفاقية تنظيمية بقصبة المخزن بتِيزْوُلين

الحمد لله وحده

بحول الله وقُوّته وإرادته اتّفقت جماعة الخير والبركة ءال قسبة مخزن تينزولين بوادي درعة[1] على السَّدد والصلح بينهم وحين جعلوا أخيهم الشاب الأرض وهو المزوار[2] سيدي محمد بنْ عبد الله من بني سيدي علي بن مهدي[3]. جعلوه شيخا عليهم في شؤون أمور أنفسهم وأولادهم وأموالهم وما يصلح بهم إن شاء (الله)[4] فالله يصلحه ويصلح به ءامين وجعلوا له في الحقوق :

1 ـــ لمن قدر الله عليه روحْ ءادمي يُعطي خمسين مثقالا دراهيم[5] ضعيرته[6] للشيخ المذكور وأرباب الروح يتبع معهم ما ظهر له[7] وإلا فالعادة تفصل بينهم[8].

2 ـــ ومن خرج يُعطي خمسة وعشرون أوقية للشيخ ويعطي للمجروح اثني عشر أوقية دراهيم وصحفة[9] وستة أمدود قمحا[10] وستة أمدود شعير.

3 ـــ ومن دخل لدار غيره على سبب السرقة أو الهُجُم يعطي عشرين مثقالا لكل عتبة[11] جلَتْ أو قلَتْ[12] لربِّ الدار ويعطي للشيخ عشرة مثقالا ضعيرته.

4 ـــ ومن تخاصم مع أحد بالمشاحنة واعتراك يعطيان كلاهما أربعة أو جوه[13] لكل واحد. ومن تعاون[14] على أحدهما يعطي خمسة وعشرون أوقية دراهيم كلاهم للشيخ.

5 ـــ ومن سرق دابَّة أو شاة أو كَدوما[15] أو تلّيسا[16] أو غير ذلك من حوائج القصر في رْحايَبْ[17] القصر أو زُنقته يعطي خمسة وعشرون أوقية دراهيم للشيخ صغيرته ويغَرِّم[18] ما سرق. ومن تفلّس[19] ولم يكن عنده شيء يغرِّم به ما يلزمه فليتجلّد[20] بالضرب ويرتحل[21] من حينه.

6 ـــ ومن كسر الدعوة[22] للشيخ يعطي خمسين أوقية درهيم من كسران دعوته للشيخ.

7 ـــ ومن ضربه بالرَّكْبة[23] أو عاند له[24] يعني للشيخ. يعطي خمسة وعشرون مثقالا دراهيم صْغيرته للشيخ كذلك.

وكل من أحدث أو وقع إن لم يجدوه مكتوبا هناي[25] فينظروا ما رسموه الأولين في عقدهم فيفصلوا به ما وقع. فمن تحمل له بما ذكر أعلاه :

ـ الشريف الحسني ملاي عمار بن محمد.
ـ وتحمل سيدي الحسان بن مَحمد بن سعيد المزوار.
ـ وتحمل أبًّا سعيد بن عبد القادر احُماد بني الدعكر.
ـ وتحمل ابن عمه المداني بن محمد.

ـ وتحمل الفقير مبارك بن عبد النبي.
ـ وتحمل الفقير مَحمد بن احماد البرجي.
ـ وتحمل الحبيب بن محمد الحاري.
ـ وتحمل بَّحَمُّ بن علي بن يعيش.
ـ وتحمل لمعلم سعيد الحداد.

وهذا كله بمرضاتهم بعد المشاورة والموافقة رضا تاما بحضور شيخ ءال تينزولين[26] وهو سيدنا علي بن محمد المبارك الزواري الرباط الشامي[27] وكذا سيدي الحسين ابن عبد الله المزواري وأخيه بالأم سيدي مَحمد بن محمد ءال الحج الحسين[28] وبحضور كافة أعيان قبيلة تينزولين. وباستدراكه بأن الشيخ المذكور شرطت عليه القبيلة مهمى أراد أن يطرح الشياخة[29] من غير عذر له من أجل القبيلة يعطي مائة مثقالا للقبيلة.

ـ ومن تعاند له فيما ذُكر أعلاه من الحقوق تجمع عليه القبيلة حتى يستوفوا منه الحق بما أمكن. والله سبحانه يوفق لما يحبه ويرضيه اشهادا تاما عرفوا قدره وشهد به من عرفهم وهم بحال كال. وبتاريخ ءاخر شهر الله جمادى الثاني عام ثمانية وستون ومائتين وألف. عبيد ربه تعالى المدني بن عبد الخالق البرجي الله وليه. وعبيد ربه سبحانه أحمد بن عبد الخالق البرجي وليه الله ءامين. واستدرك.

ـ بمن سَّل الجنْوى[30] على خصيمه يعطي خمسين أوقية.

ـ ومن طلع المُكحلة[31] على خصيمه بالعمرة[32] البَرُودْ يعطي عشرة مثقالا.

ـ ومن مْنَقَرَ[33] المُكْحلة على خصيمه يعطي عشرين مثقالا.

وبه تكرار اسمه عبد ربه تعالى المدني بن عبد الخالق البرجي.

I ـ تعريف ببعض أعلام الاتفاقية وتوضيح لبعض عباراتها

(1) قسبة مخزن تينزولين : هي قصبة المخزن الشهيرة بواحة تينزولين وقد سبق لنا أن عرفنا بها في اتفاقية سابقة من هذا الفصل.

(2) المزوار : مو مقدم القوم وكبيرهم عند بعض القبائل الأمازيغية ويبدو من خلال ما ورد عند البيدق في كتاب «المقتبس» من كتاب الانساب»[41] أن كلمة المزوار أو أمزوار، كانت سائدة الاستعمال عند القبائل الامازيغية بالجنوب المغربي منذ عهد الموحدين. وقد صارت كلمة المزوار علما لعائلتين كبيرتين بواحة تنزولين منذ العهد الوطاسي الى عهد الحماية.

(3) تنقسم عائلة المزواريين بتنزولين الى عائلة بّا علي، وعائلة بّا الحسين. وينتمي هذا الشيخ الذي اختارته قبيلة قصبة المخزن الى عائلة بّا علي.

(4) اضفنا اسم الجلالة (الله) ووضعناه بين قوسين لأن سياق الاتفاقية يقتضي ذلك.

(5) المثقال عمله نقدية كانت سائدة بواحات وادي درعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م. وقد عرفنا بالمثقال في اتفاقية سابقة من هذا الفصل.

---

(41) البيدق الصنهاجي : المقتبس من كتاب الانساب ص. 44 ـ 45 تحقيق عبد الوهاب بن منصور ـ المطبعة الملكية ـ الرباط ـ 1971.

(6) ضعيرته : ذعيرته

(7) وأرباب الروح يتبع معهم ما ظهر له : حددت الاتفاقية ذعيرة الحق العام الذي يمثله الشيخ بحوالي خمسين مثقالا كذعيرة لردع القاتل. أما فيما يتعلق بالحق الخاص الذي يمثله أرباب المقتول فقد تركت الاتفاقية الباب مفتوحا بين عائلة القاتل وعائلة المقتول.

(8) فالعادة تفصل بينهم : وفي حالة عدم توصل أرباب المقتول الى حل مع القاتل فإن القبيلة تتدخل. وتطبق على القاتل وأرباب المقتول ما كانت العادة تجري عليه، وهو الحكم على القاتل بالنفي ومغادرة القصر الى زاوية للاستحرام بها الى حين يعفى عنه أو تتوصل عائلته الى إرضاء أرباب المقتول.

(9) الصَّحفة : مكيال محلي تبلغ سعته حوالي 72 عبرة[42] وحسب الاتفاقية التي بين أيدينا، فإن على كل من ارتكب جريمة جرح أحد أفراد قبيلة قصبة المخزن أن يؤدي ذعيرة عينية تقدر بما يقرب من ستة عشر قنطارا من الحبوب بالاضافة الى الذعيرة النقدية التي حددتها الاتفاقية في سبعة وثلاثين أوقية منها خمسة وعشرين أوقية للشيخ واثنى عشر أوقية للمجروح. فالصَّحفة من الشعير حسب المكاييل القديمة المعتمدة بدرعة تقدر باثنى عشرا مدا. والمقادير التي يجب على من جرح غيره تقديمها للمجروح هي كما يلي حسب الاتفاقية صحفة وستة أمدود من القمح وستة أمدود من الشعير وهكذا يكون مجموع الذعيرة كما يلي :

ـ القمح صحفة + 6 أمدود = 18 مُدا

ـ الشعير 6 أمدود.

والمجموع بالعبرات على اعتبار أن المدّ يساوي ست عبراتٌ :

18 + 6 = 24 × 6 = 144 عبرة.

وإذا كانت العبرة تساوي حوالي ثلاثة عشر كيلوغراما بالتقريب فإن الذعيرة بالكيلوغرام تساوي 144 عبرة × 13 1572 كيلوغرام من الحبوب أي ما يقدر بحوالي ستة عشر قنطارا. وهكذا يتضح لنا أن شروط الاتفاقية التي حددتها جماعة قبيلة قصبة المخزن تنطلق من منطلق ردعي للحفاظ على التعايش بين مختلف عظام القبيلة.

(10) المُدُّ : مكيال محلي قدر بست عبرات في بعض قصور وادي درعة وبأقل من ذلك بكثير في غيرها. ولابد من التذكير هنا أن لكل واحة مُدَّها. إذ يقولون المد الترناتي (نسبة الى واحة ترناتة) والمُد لكتاوي (نسبة الى واحة لكتاوة) والمُدّ المزجيطي (نسبة الى واحة مزجيطة). ومن الصعب جدا تحديد المقادير بدقة لكل مد.

وقد كان الاختلاف بين مقادير المُدّ في كل منطقة قديم انظر مثلا ما ورد عن هذا الاختلاف في لسان العرب (مادة : مدد).

(11) العتبة هي مدخل البيت أو مدخل الغرفة، وواضح من الذعيرة النقدية المحددة في عشرين مثقالا لكل عتبة في المنزل كأداة ردعية لكل من تجرأ على الدخول إلى أي منزل بالقصر دون إذن صاحبه، ذلك أن حرمة المنزل داخل القصر لا تقل عن حرمة القصر نفسه.

(12) جلت أو قلت : كثير عدد العتبات في المنزل أو قل.

(13) أوْجُوة : مفرده وَجْهُ : عملة نقدية كانت متداولة بواحات وادي درعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م. والوجه يساوي مُوزُونة أو رُبع أوقية[43].

(14) ومن تعاون : أعان بعض المتخاصمين على الآخر.

(15) كَـدوم : هو عبارة عن فأس رأسه مدبب.

(16) تليس : الغرارة، والعدل والجوالق.

(17) رحايب القصر : جمع رحبة وهو عبارة عن فضاء واسع داخل أسوار القصر يستغل للتجمعات العامة للقبيلة.

(18) يغرم ما سرق : يعوض ما سرق نقدا.

(19) ومن تفلس : بمعنى أفلس ولم يجد ما يغرم به.

(20) فليتجلد : في حالة إفلاس السارق ولم يبق عنه ما يغرم السرقات التي قام بها داخل أسوار القصر فإنه يجلد علانية وينفى من القصر.

(21) ويرتحل : يرحل من حينه من القصر بعد تنفيذ العقوبة عليه.

(22) كَسرَ الدَّعوة لِلشَّيخ : رفض الحضور أمام الشيخ للاحتكام.

---

(42) تختلف صحفة الشعير والقمح عن صحفة التمر وتعتبر الاخيرة أقل بكثير عن الاولى.

(43) ــ محمد المختار السوسي : المعسول ج. 3 ــ ص. 281.

ــ عبد العزيز بن عبد الله : معلمة الفقه المالكي ص. 280.

(23) ضربَه بالرُّكْبة : ضرب الشيخ، وهنا لا يعني الضرب الفعلي، وإنما العبارة كناية عن رفض أوامر الشيخ. ويمكن أن نقرأ العبارة هكذا «ومن رفض أوامر الشيخ». لذلك فالضرب بالركبة فيه تحد صارخ لسلطة الشيخ وبالتالي لسلطة القبيلة باجمعها.

(24) عائد له : عائده.

(25) مكتوبا هُنايَ : أي في هذه الاتفاقية التي بين أيدينا.

(26) شيخ ءال تينزولين : هو الشيخ الفوقاني أو الشيخ لكبير الذي كانت تختاره مجموعة من قبائل القصور التي يجمعها لف واحد. وشيخ قبائل القصور بتينزولين أنذاك هو المزوار علي بن محمد المبارك.

(27) الشامي : لم نتمكن من الكشف عن نسبة المزواريين الى الشام.

(28) ءال الحاج الحسين : لا يزال قصر الحاج الحسين قائما الى اليوم بواحة تينزولين ولم نتمكن من تحديد هوية هذا الشخص أو تحديد الفترة الزمنية التي يكون قد عاش خلالها.

(29) مهما أراد أن يطرح الشياخة : أن يتخلى عن مشيخة القبيلة.

(30) بمن سل الجَنْو : الجَنْو هو الخنجر ويعرف محليا بالكُمِّيَة وقد كان سكان واحات وادي درعة يحملون هذه الخناجر ويضعونها في غمد خاص مزين بالفضة، ويعتبر الجَنو رمزا للرجولة عند سكان المنطقة.
وسلُّ الجنو معناه أخرج الخنجر من غمده بقصد الحاق الأذى بالخصم. لذلك فإن القبيلة قد فرضت على كل من يَسُلُّ الجنو من غمده ذعيرة تقدر بحوالي خمسين أوقية.

(31) ومن طلّع المُكُحْلة : المكحلة هي البندقية وهي سلاح ناري معروف. ويقصد كاتب الاتفاقية أن من رتب ءالة المكحلة كالقرص والزناد استعدادا لاطلاق النار على خصمه فذعيرته عشرة مثاقيل.

(32) الغَمْرة (الغُمارة) وهو مخزون المكحلة من البارود.

(33) ومن مَنْقر المُكُحْلة : يقصد كاتب الوثيقة أن الشخص الذي يحرك قرص المكحلة استعداد لإرسال الزناد على مخزون البارود فإنه يعطي ذعيرة تقدر بعشرين مثقالا.

II ــ التعريف بالاتفاقية وبقبيلة قصبة المخزن

1 ــ التعريف بالاتفاقية :

هذه الاتفاقية واحدة من مجموعة وثائق قصبة المخزن بواحة تينزولين. وقد تمكنا من الحصول على هذه الوثائق بفضل العون الكبير الذي قدمه لنا العم السيد البصري المدني المدير الحالي بمدرسة القدس الابتدائية بمدينة ورزازات.

وهذه الاتفاقية من الاتفاقيات التنظيمية (اختيار شيخ القبيلة) ويعود تاريخ كتابتها إلى شهر جمادى الثانية عام 1268هـ/1851م.

ابتدأت الاتفاقية بالحمدلة والديباجة المعهودة في اتفاقيات وادي درعة «اتفقت جماعة الخير والبركة»(44) ثم بعد ذلك استعرض الكاتب اسم الشيخ الجديد الذي اختارته قبيلة قصبة المخزن وهو المزوار محمد بن عبد الله من بني سيدي علي بن مهدي.

---

(44) في الواقع أن هذه الديباجة لم تكن مقصورة على بلاد درعة وحدها بل نجدها في كل الاتفاقيات التنظيمية في جهات أخرى من المناطق المغربية انظر مثلا :
ــ بنعلي محمد بوزيان : واحة فكيك : تاريخ وأعلام : ص. 85.
— Robert Montagne et Ben Daoud : Hesperis - 4e Trimestre 1927
مجموعة من الاتفاقيات بمناطق الأطلس الكبير «توجد صور منها عند الاستاذ عبد الله حمودي وقد سمح لنا باستنساخ بعضها مشكورا.

تركزت هذه الاتفاقية على جملة من الشروط التي حددت ذعائر الدماء كالقتل والجروح وأنواع المخالفات التي قد تحدث داخل القصبة على عهد هذا الشيخ. وقد حددت الشروط النصيب الاوفى من الذعائر للشيخ (انظر مثلا الشرط الأول والشرط الثاني). وتخصيص النصيب الأكبر من الذعائر التي حددتها الشروط المنصوص عليها في الاتفاقية لشيخ القبيلة، يخالف عادة كثير من قبائل القصور بواحات درعة، ذلك أن العبارة تقضي بتفويت الذعائر والنصافات لصالح القبيلة الممثلة في الجماعة التي تعتبر مسؤولة عن كل ما يجري داخل أسوار القصر، اذ بفضل هذه النصافات والذعائر تغطي جماعة القصر المصروفات والكلف التي تتطلبها المصالح العامة للقبيلة.

وتمتاز هذه الاتفاقية عن غيرها من نماذج الاتفاقيات التي جمعناها بدرعة بجلد المفلس العاجز عن تأدية ما ترتب عليه من ذعائر وترحيله من القصر (الشرط الخامس). ونتساءل لماذا اختصت قصبة المخزن بتينزولين بهذه الاجراءات الردعية القاسية دون غيرها من قصور وادي درعة ؟

فهل هو تقليد مخزني ورثته هذه القصبة عن العمال المخزنيين الذين كانوا يستقرون بها على عهد السعديين والعلويين ؟

وكيف ما كان الأمر، فإن هذه الاتفاقية تكشف لنا عن الشروط الردعية التي كانت جماعة قبيلة القصر تضعها لضبط سكان القصر والحيلولة دون تفشي عوامل الفوضى والتسيب بينهم. الاتفاقية من جهة خرى، عن باقي الاتفاقيات التنظيمية بوادي درعة، بكون قبيلة قصبة المخزن قد اختارت شيخ القبيلة بحضور الشيخ «الفوقاني»[44] لقبائل تينزولين[45]، وهذا أمر غير مؤلوف عند قبائل القصور بالمنطقة إذ كانت كل قبيلة في إطار قطتها وقصرها، تعمل جهد إمكانها للحفاظ على نوع من الاستقلال في تسيير شؤونها الداخلية وتجنب كل تأثير من القبائل الأخرى حفاظا على وضعية التوازنات الداخلية بين مختلف «العظام» التي تتشكل منها قبيلة القصر.

وإذا ما عرفنا أن الشيخ «الفوقاني» لقبائل تينزولين إن عقد الاتفاقية التي بين أيدينا هو الشيخ علي بن محمد المبارك المزواري الرباطي[46]، فإننا ندرك أن الهدف من حضور الشيخ الفوقاني في اختيار شيخ قصبة المخزن، هو التأثير على سكان القصبة لاختيار رجل من عائلة المزواريين. وهذا ما تم فعلا.

وتدل كل المعطيات التاريخية على أن المزواريين سواء في قصر الرباط، أو في القصبة، وبالرغم مما كان يظهر من تنافس بين الفرعيين، كانوا يحرصون على بقاء الأمر بأيديهم، وعدم السماح لأي كان من القبائل الخاصة لنفوذهم أن يزاحمهم في المسؤولية عن تينزولين.

(44م) الشيخ الفوقاني : هو الشيخ الكبير الذي تختاره القبيلة الكبرى للبت في المشاكل التي قد تطرأ بين قبائل القصور التي تنضوي تحت اسم القبيلة الكبرى.

(45) تتكون قبائل تينزولين التي يشملها حكم المزواريين من ثمانية قبائل قصور هي :
ــ قبيلة قصبة المخزن ــ قبيلة قصر الرباط ــ قبيلة قصر أمْزْدول ــ قبيلة قصر الخَدَّان ــ قبيلة قصر زاوية أمداغ ــ قبيلة قصبة أيت رحو ــ قبيلة قصر الحاج الحسين ــ قصر الدرب.

(46) نسبة الى قصر الرباط الذي يقع جنوب قصبة المخزن في الصفة الغربية لدرعة.

2 ــ قبيلة قصبة المخزن :

سبق لنا أن رأينا في الاتفاقية الأولى أن قبيلة قصبة المخزن تتكون من ثلاثة عظام سنة 1222هـ/1807م. وأن الجماعة تتكون من ثلاثة أفراد كممثلين للعظام الثلاثة. ويبدو من خلال الاتفاقية التي بين أيدينا أن أفراد القبيلة قد تكاثروا سنة 1268/1851 (تاريخ عقد الاتفاقية الثانية) لذلك اقتضى رأى القبيلة أن توسع من الجماعة، فصارت تضم تسعة أفراد، من بينهم شريف هو مولاي عمر بن محمد.

وبالرغم من كوننا غير متأكدين من وجود عظم خاص بالأشراف بقصبة المخزن، فإن اختيار هذا الشريف ضمن المتحملين لشيخ القبيلة، يعتبر في الواقع تدعيما لسلطة الشيخ لما للشريف من نفوذ معنوي على جماعة القبيلة كما أن الشريف لا يمكن له على كل حال أن ينحاز الى الجانب المعارض للشيخ في حالة ظهور نزاع بين الجماعة والشيخ.

2 ــ تقع قصبة المخزن في الضفة اليمنى لنهر درعة بواحة تينزولين، ويعزى وجود هذه القصبة وارتباطها بالمخزن منذ القرن التاسع الهجري/15م الى العائلة المزوارية، التي ظلت تمارس السلطة بواحة تينزولين، سواء في ارتباطها بالدولة المركزية أو في إطار المشيخة المحلية، منذ العقود الأخيرة من القرن التاسع الهجري/15م الى نهاية عهد الحماية.

وفي مطلع القرن التاسع الهجري/15م كانت العائلة المزوارية انطلاقا من قصبة المخزن، تعارض بقوة امتداد نفوذ العائلة السعدية على بلاد درعة وبلغ الأمر بالمزوار ابن عمر شيخ تينزولين في وقته إلى التحالف مع البرتغاليين المسيطرين على أكادير ضد محمد الشيخ السعدي (923 ــ 964هـ/1518 ــ 1557م)[47] إلا أن عزم هذا الأخير على إخضاع بلاد درعة لنفوذ الدولة السعدية، جعل ابن عمر يراجع مواقفه تجاه هذه الدولة وينضم إلى صفوفها، وبالمقابل فإن سلاطين الدولة السعدية تركوا للمزواريين كل ما كانوا يتمتعون به من امتيازات اجتماعية وسياسية بتنزولين، بل إن سلاطين هذه الدولة قد عرفوا كيف يستفيدون من خبرة شيوخ العائلة المزوارية في الميدانين الحربي والتنظيمي[48] وفي هذا الاطار عين السلطان عبد الله الغالب (965 ــ 1557/982 ــ 1574م) المزوار حمو بن علي حاكما على مدينة تاركالة بواحة محاميد الغزلان[49]. إذن فما هي التطورات التي عرفتها قصبة المخزن على عهد السعديين والعلويين ؟

نستفيد من إشارات مارمول في كتابه افريقيا أن السعديين كانوا يمارسون الحكم على واحات وادي درعة انطلاقا من مجموعة من القصبات المحصنة كقصبة تامْنُوكَالت بمزجيطة، وقصبة المخزن، وقصبة أفْرَا بواحة تينزولين، وقصبة تَاكَمادَّارْت وقصبة تامكَروت بفزواطة، وقصبة تركَالة بالمحاميد وغيرها من

---

(47) MARMOL : L'Afrique, Tome II, p. 125.

(48) Dj Jacques Meunié : le Maroc Saharien Tome I, p. 329

(49) MARMOL : op. cité. Tome III, p. 15.

القصبات المنتشرة على طول واحات درعة[50]. كان سلاطين الدولة السعدية وعمالهم بدرعة يحرصون على شحن هذه القصبات بالحاميات العسكرية لحماية سكان القصور من هجومات القبائل الصحراوية، خاصة بقايا القبائل المعقلية مثل أولاد سليم وأولاد منصور وأولاد عمران[51].

وبالرغم من أن مقر العامل المخزني بالوادي على عهد عبد الله الغالب السعدي، كان بقصبة تامنوكَالت بمزجيطة، فإن قصبة المخزن كانت تعتبر من أهم القصبات التي يعتمد على حاميتها لحماية المنطقة من هجومات قبائل الرحل.

ولما ثار الأمير عبد الملك بدعم من أتراك الجزائر على ابن اخيه السلطان محمد المتوكل (981 — 983هـ/1574 — 1576) وطرده من فاس ثم مراكش، التجأ المتوكل إلى قصبة تينزولين وحاول التحصن بها إلا أن قوة عمه فاجأته من ناحية سوس فغادر القصبة وانسحب نحو شمال البلاد[52] ولما أعاد السلطان أحمد المنصور الذهبي (986 — 1578/1012 — 1603م) تنظيم واحات وادي درعة استعادت قصبة تينزولين بعض ما كان لها من نفوذ على واحة تينزولين واسترجعت العائلة المزوارية قوتها على الواحة بمباركة السلطان الذي كان بحاجة إلى توفير ظروف الاستقرار بالوادي، اعتمادا على المزواريين وغيرهم من العائلات القوية بالمنطقة لما كان ينتظر هذا الوادي من دور في عملية فتح بلاد السودان[53].

وبعد وفاة المنصور السعدي سنة 1012هـ/1603م) تعرضت قصبة المخزن لتطورات خطيرة على اثر الاحداث التي عرفتها بلاد درعة طيلة النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م[54]. وتحولت إلى قصر عادي لا يختلف عن باقي قصور المنطقة.

ولما ثار أحمد بن محرز على السلطان مولاي اسماعيل، وانحصرت تحركاته ما بين واحات وادي درعة وبلاد سوس[55] كثيرا ما كان هذا الثائر ينزل بقصبة تينزولين، وكان اختيار ابن محرز لقصبة تينزولين دون غيرها من قصبات درعة يرتكز على اعتبارين اساسين :

1 — أن المتحكم في قصبة المخزن بتينزولين بامكانه مراقبة الطرق التي تربط بين شمال الوادي وجنوبه، وبالتالي مراقبة كل حركة عسكرية قد تطرأ على المنطقة من الناحيتين الشرقية أو الشمالية.

2 — أن تفتح واحة تينزولين على بلاد سوس وضعف أشكالها التضاريسية من الناحية الغربية، كان يسهل على ابن محرز عمليات الاتصال بسوس عامة وتارودانت بصفة خاصة[56] وبالرغم من كوننا

---

(50) MARMOL : L'Afrique. Tome III, pp. 14, 15, 16, 17.
G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa — A.M. Volume 9, Tome II, p. 50-51

(51) MARMOL : op. cité p. 12.

(52) محمد العربي الخطابي : مجلة المناهل عدد 13 سنة 19 — ص. 84 — 85.

(53) — G. Spillmann : op. cité, p. 48, 49.

(54) انظر الفصل الذي خصصناه لصراع المتصوفة على السلطة بدرعة.

(55) السلطان مولاي اسماعيل : الى ولدي المامون : ص. 24.

(56) نذكر هنا بأن الثائر ابن محرز قد قتل بتارودانت سنة 1098هـ/1687م.

لا نتوفر على الوثائق الكافية للكشف عن أخبار قصبة المخزن إبان سيطرة أحمد بن محرز على المنطقة، فإننا نعتقد أن المدة التي قضاها هذا الرجل ثائرا ضد عمه بالجنوب قد سمحت له بتأثيل بعض الأملاك بواحة تينزولين. ولعل ما يدعم ما ذهبنا اليه هو ما ورد في رسم عقاري يعود تاريخ تحريره إلى أوائل شعبان عام 1138هـ / ابريل 1276[57] فقد جاء في هذا الرسم بعد الحمدلة «اشترى بحول الله وقوته سيدي أحمد بن يوسف المزواري من أولاد بًا الحسين التينزوليني مع أخيه السيد يوسف بن يوسف من البائع لهما الفقير محمود بن عبد الله المْكَتْرِي (نسبة إلى قصر لَمْكَاتْرَة الذي لا يزال قائما إلى اليوم شمال واحة تَرنَاتة) نائبا عن الشريف مولاي محرز بن أحمد القاطن بتنسيطه ترناتة بدرعة... جميع الربع في البحائر التي بيد مسعود بن علي الرُّوحِي بأيت جَدِّي بتمَكْشَادْ (لايزال القصر تِمَكْشَادْ قائما إلى اليوم بواحة تِينزولين)... وبما اشتمل عليه من أرض ونخيل وفسلان مثمرة وغيرها.

واذا كانت هذه الوثيقة من جهة تجعلنا أمام مجموعة من الأسئلة حول علاقة هذا الشريف بالثائر ابن محرز وبداية استقرار بعض الأشراف العلويين بدرعة، فإنها من جهة ثانية تكشف لنا عن عودة العائلة المزوارية إلى واجهة الأحداث بدرعة خلال القرن الثاني عشر الهجري /18م بعد أن غابت عنا أخبارها في غمرة الأحداث الخطيرة التي تعرضت لها واحات درعة ابان الصراع على السلطة طيلة القرن الحادي عشر الهجري /17م.

ويبدو لنا من خلال ما تجمع لدينا من وثائق المزواريين بتينزولين أن هذه العائلة قد انقسمت إلى عائلتين متنافستين في وقت مبكر من القرن الثاني عشر الهجري /18م، عائلة أبًا الحسين وتستوطن قصر الرباط، وعائلة ابًا علي وتستوطن قصبة المخزن التي تقع على مقربة من قصر الرباط بنفس الواحة.

وقد حاولنا انطلاقا، من المجموعة الوثائقية التي بين أيدينا، اثبات اي من العائلتين يعتبر الأصل وأيهما يعتبر الفرع، فاتضح لنا أن عائلة ابًا الحسين هي الأصل، وأن عائلة أبًا اعلي قد تفرعت عنها.

وكشفت لنا الاتفاقية التي بين أيدينا، أن عائلة أبًا الحسين، كانت تمارس نوعا من الوصاية على واحة تينزولين عامة وسكان قصبة المخزن بصفة خاصة، اذا كانت عائلة أبا الحسين تحتفظ لنفسها بمنصب «الشيخ الفوقاني» لقبائل القصور بتينزولين، الأمر الذي كان يسمح لهذه العائلة بأن تحضر في كل مناسبة اجتماعية او سياسية تهنيء قبائل القصور بالمنطقة، وعلى أساس هذه الوصاية حضر شيخ تينزولين في وقته السيد علي بن محمد المبارك الرباطي عملية اختيار شيخ قبيلة قصبة المخزن لعام 1268هـ/1851م.

وفي العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجري/19 بدأت تلوح في الافق بوادر النزاع بين عائلة المزواريين بقصر الرباط وفرعها بقصبة المخزن، وتكمن أسباب النزاع في محاولة مزواريي القصبة، التخلص من وصاية مزواريي الرباط، ورغبتهم مقاسمة الرباطيين النفوذ على واحة تينزولين وهو الامر الذي لا تقبله عائلة أبًا الحسين الرباطية.

(57) من أرشيف السيد عبد الله حمودي وقد سمح لنا مشكورا باعادة اخراج صور لبعض وثائق تينزولين.

تفاقم النزاع بين شيوخ العائلتين وتطلب الأمر تدخل السلطان مولاي الحسن بنفسه، فقد ورد في رسالة سلطانية يعود تاريخها إلى شهر ربيع الأول عام 1293هـ/مارس 1886 «... أن العذر الذي عاقكم عن القدوم... هو ما أوقعه الشيطان بينكم من العداوة والشحناء والفتنة واتباع عادة الجاهلية ... فاقتضى نظرنا السديد أن تقدم جماعة من أعيانكم وعرفائكم إلى حضرتنا العالية بالله في أمان الله تعالى وأماننا لنباشر أمركم مشافهة لما يكون فيه صلاحكم وصلاح بلادكم عاجلا وآجلا .. فنأمركم أن تقدموا على اعتابنا الشريفة بقصد ذلك وقد جعلنا لكم الهنا والعافية بينكم ثلاثة أشهر ريثما ترجعوا من حضرتنا...»[58]

وبالرغم من كوننا لا نعرف أي شيء عن تلبية المزواريين أو عدم تلبيتهم للدعوة الصلحية التي اقترحها السلطان عليهم، فإن كل المعطيات التاريخية تؤكد أن هوة النزاع قد تعمقت بشكل خطير بين العائلتين يتجلى ذلك في انقسام قصور واحة تينزولين إلى فرقتين متناحرتين طيلة العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري / نهاية القرن 19م ومطلع القرن 20م. وبدا واضحا أن كل عائلة صارت تبحث لها عن حليف قوي ولو من خارج واحة تينزولين، وهكذا تحالفت العائلة الرباطية مع قبائل أيت انير من أيت عطا وقبائل الروحة، في حين تحالفت العائلة المزوارية بقصبة المخزن مع القائد العربي اليحياوي[59] وبواسطته مع قبائل أولاد يحيى المتمركزة بشكل خاص في واحة تينزولين بالاضافة إلى قبيلة مسوفة المحسوبة في خمس ايت ولّال[60] لم تنجح سياسة الاحلاف التي نهجتها العائلتان المزواريتان في ترجيح كفة أي منهما على الأخرى، بل على العكس من ذلك امتدت آثار النزاع إلى الواحات الأخرى وإلى أي مكان آخر بدرجة تتواجد فيه القبائل المتحالفة، الأمر الذي أدى إلى عمليات اغتصاب القصور وكسر السواقي سواء من هذا الجانب أو ذاك.

ونستفيد من بعض إشارات الفقيه محمد بن لحبيب التمنوكَالي أن المتنازعين والمتحالفين معهم قد جنحوا إلى السلم وعقد الصلح لتجنب المزيد من إثارة النزاعات وإراقة الدماء وتخريب السواقي والقصور، إلا أن هذا الصلح لم يعمر طويلا، ذلك أن شيخ قصبة المخزن في وقته أعلي أواحمد المزواري، استغل هذا الصلح ليتخلص من خصمه، فقد استضاف اليه سنة 1330هـ الشيخ عبد الرحمان المزواري، شيخ العائلة الرباطية إلى قصبته ثم غدر به وعذبه قبل أن يقتله شر قتلة ثم أوقع بأعيان قصر الرباط[61].

كانت عملية اغتيال شيخ المزواريين الرباطيين إيذانا بانهيار عقد الصلح بين المتنازعين وحلفائهم.

نصب المزواريون بالرباط الشيخ محمد بن الفاطمي خلفا للشيخ عبد الرحمان فاستدعى حلفاؤه من قبائل أيت أونيرْ وسمح لهم بالسكنى بواحة تينزولين لمواجهة قبائل أولاد يحيى وحليفهم الشيخ علي

---

(58) نتوفر على نسخة مصورة ومبتورة لهذه الرسالة السلطانية.

(59) توفي القائد العربي بن محمد اليحياوي سنة 1350هـ/1931م وخلفه على رأس القيادة ابنه محمد بن العربي الذي ظل يحكم قبائل أولاد يحيى الى أن عصفت به ريح الاستقلال حيث اعتقله جيش التحرير ومات مقتولا بمعتقله بتازناخت.

(60) G. Spillmann : Les Ait Atta du Sahara, p. 75.

(61) الفقيه محمد بن لحبيب التمنوكَالي : العقود الجوهرية مخطوط خاص ص. 70.

أوحمد القصبي الذي اضطر إلى الاختفاء عن الانظار عدة شهور[62] كما تداعى المتحالفون إلى الحرب والنزوع إلى الانتقام والدخول في عمليات اغتصاب قصور الاخر وكسر سواقيه والتضييق عليه.

استغرقت هذه الحالة المضطربة بتينزولين عدة سنوات ولم تنته إلا بتدخل شيخ أيت واحليم في وقته حموا ولحسن بن مرغي سنة 1335هـ/1916م[63]

صادفت هذه الاضطرابات التي عصفت بواحة تينزولين توقيع معاهدة الحماية بين المغرب وفرنسا سنة 1330هـ/1912م وما استتبع ذلك من عمليات «التهدئة» التي كانت تقوم بها فرنسا باسم المخزن. كما صادفت من جهة أخرى صعود عائلة الجلاوي ورغبة قوادها في السيطرة على المناطق الجنوبية حيث نجحت هذه العائلة في ربط الاتصال عن طريق المراسلات بأهم العائلات الحاكمة في وادي درعة مثل عائلة القائد اليحياوي وعائلة القائد المزجيطي وعائلة المزواريين بالرباط بالاضافة الى اتصالها بأصحاب الزوايا منذ ظهور المدني الجلاوي إلى جانب السلطان مولاي عبد الحفيظ. وهكذا وبعد اغتيال الشيخ عبد الرحمان المزواري لم يتردد خلفه محمد بن الفاطمي في تقوية اتصالاته بالقائد حمو الجلاوي وعمه الحاج التهامي باشا مدينة مراكش.

ويبدو من خلال بعض الرسائل التي حصلنا عليها بواحة تينزولين أن الشيخ محمد بن الفاطمي قد نجح في التقرب من الحاج التهامي الجلاوي فعينه خليفة للمخزن على واحة تينزولين وبعض قبائل ترناتة وفزواطة وهو أمر ما كان ليروق شيخ قصبة المخزن أعلي أوحمد المزواري فبدأ يبحث عن وسيلة يتخلص بها من وصاية الخليفة محمد بن الفاطمي، إلا أن رد الحاج التهامي المزواري باشا مراكش كان واضحا فقد ورد في إحدى رسائل الباشا إلى الشيخ اعلي اوحمد.. «وبعد فقد بلغنا انك غير متوافق مع الخليفة السيد محمد بن الفاطمي في الاشغال التي تجري على يده من جانب المخزن ولم يعجبنا ذلك لأن السيد محمد بن الفاطمي خليفة ولابد من أن تتمشى معه على قاعدة الاشياخ مع الخلائف في تنفيد الأوامر المخزنية التي ترد على يده وعليه فلتكن معه يدا واحدة في ذلك ولا تخرج عن هذا العمل بوجه من الوجوه لأن المصلحة في التوافق لا التخالف[64] وقد تكررت الإنذارات للشيخ اعلي اوحمد القصبي مما يؤكد أن خطة الشيخ محمد بن الفاطمي قد نجحت في افشال مخططات العائلة المزوارية بالقصبة في قيادة واحة تينزولين، وقد ظلت العائلة المزوارية بالقصبة خاضعة لنفوذ رباط تينزولين طيلة عهد الحماية.

---

(62) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa. A.M. Volume 9 Tome II p. 78.

(63) G. Spillmann : op. cité. p. 78.

(64) من رسالة باشا مراكش الحاج التهامي المزواري الى شيخ قصبة المخزن اعلي اوحمد يعود تاريخها الى شهر صفر عام 1351هـ. ونتوفر على حوالي عشرين رسالة تعكس كلها هذا التنافس بين القصبة والرباط.

الاتفاقية رقم : 3

اتفاقية تنظيمية لدار القبيلة بقصر بوخلال ـــ ترناتة

الحمد لله وحده

التَّفَقَاتْ جَمَعَةُ ءَالْ بُخْلَالْ[1] كَافَةً مِنْ غَيْرِ خَصِيصٍ أُصْلَحَ اللَّهُ الجَمِيعَ وَوَفَّقَنَا اللَّهُ وَ إِيَّاهُمْ لِمَا يُحِبُّوهْ وَيَرْضَاهُ

ـ وَتَحَمَّلَ فِي أُوْلَد مَنْصُورْ مُحمد بَن لُغْزَالْ بِإِخْوَانه.

ـ وتحمل في أُوْلَد عَبُّ محمد بن حمُّ الشمْلِي وبلقاسم بن أحمد بإخوانهما.

ـ وتحمل في أولاد سعيد محمد بن لَعْقِدْ[2] ومحمد بادٌ بإخوانهما

ـ وتحمل في أولا حدُّ صالح بن حدو بن أحمد والعربي بن لحسن بإخوانهما.

ـ وتحمل في أولاد حمو علي الفقير محمد بن لحسن بإخوانه

وتعقدوا عقدة صحيحة تصلح بهم :

1 ـــ فَمَنْ حَرَثَ على السَّاقِيَةِ يُعْطِي خَمْسَةَ أَمْدُودْ[3] لِكُلِّ أَمْدِي[4] من الغَلَّةِ[5] سَوَاء مِنَ القَمْح وَالشَّعِيرِ والفُولِ وَالكِيكَرْ[6] والأَعْدَاسْ !!

2 ـــ ومن حَرَثَ على أَغْرُورْ[7] فِي الأَبْيَارْ[8] يَعْطِي مَدْيِي ونِصنْفْ لِكُلِّ مْدِي فِي مَا ذَكَرْنَا.

3 ـــ وأما الخُضْرَة[9] والابَصَال يُعْطِي فيه جُرُورَة[10] لكل مائة.

4 ـــ والحَنَّةُ أَرْطَلْ[11] قِنطَارٍ[12] سواء الحنة والاحْرُورْ[13]

5 ـــ وأما الفِصَّةُ[14] أربع قُرْطَات[15] لِكُلِّ مَايةٍ.

6 ـــ وأمَّا التَّبَانْ سَلَةٌ[16] لكل دَرْسَة[17].

7 ـــ وأما التَّمر حَلَّبَ[18] لِزَنْبِل[19] الحِمَارْ وَاثْنَيْنِ لَمَتَاعِ البِغَالْ.

وذلك ما يَنْبَضْ[20] فِيهِ الشيخ ولا أُصحابه[21] إلا من أرادته القبيلة[22]. ومن تَكَلَّفَ به يَتَحَرَّرُ مِن كُلِّ كُلفَةٍ ومن قال من القبيلة لم نجمعوا شيئا[23] أوقال نَفَرْقُوا يعطي عشرة مثاقيل.

وبه شهد عليهم بما فيه وبتاريخ أوائل جاد الثاني عام 1270هـ. عبد ربه.... محمد بن العربي الحروشي ستره الله ءامين.

I — التعريف ببعض أعلام الاتفاقية وتوضيح لبعض عباراتها.

(1) بخلال : هو قصر بُخْلاَلْ أو بُوخلاَلْ، ويقع هذا القصر بوسط واحة ترناتة في الضفة الشرقية لنهر درعة. وسنعرف بهذا القصر وبسكانه في التعريف بالاتفاقية فيما بعد.

(2) يجب أن يقرأ هذا الاسم هكذا محمد بن لمكيد.

(3) امْدودْ : جمع مُدّ من المكاييل المستعملة بوادي درعة وقد سبق لنا أن عرفنا به في الاتفاقية الثانية لقصبة المخزن انظر الشرط الثاني رقم (10)

(4) امْدي : وحدة حسابية تستعمل في كيل الحبوب والقطاني والتمر بواحات وادي درعة. ويساوي لمْدي حوالي اثني عشر صحْفة (وقد سبق لنا أن عرفنا بالصحفة). فكم من عبرة توجد في لمْدي ؟[64]

الصَّحْفَةُ الواحدة = ستة أمْدوذ

المُدُّ الواحد = ست عبرات من القمح أو الشعير اذن فالمْدي = 12 صحفة × 6 أمدود = 72 مُداً 72 مدا × 6 عبرات = 432، فالمْدي من القمح أو الشعير يقدر بحوالي أربعمائة وإثنان وثلاثون عبرة. وهكذا حددت جماعة القبيلة المقدار الذي يجب تسليمه لدار القبيلة في ثلاثين عبرة من الحبوب لكل مْدي. وهو مقدار قد لا يتحقق إلا لعائلتين أو ثلاث من سكان كل قصر.

(5) الغلة : المنتوج من الحبوب والشعير على الخصوص

(6) الكِيكَرْ : هو نوع من القطاني أشبه بالجلبان ولكنه مخالف له في الحجم والشكل وليس هو كرْسانة كما يعتقد البعض وينطق به في اللهجة الأمازيغية ب «إكِيكر» وتعتقد السيدة جاك موني ان اصل الكلمة لاتيني من CICER وهو ما ذهب إليه ايضا إميل لاوست في كتابه MOTS et choses Berbers. انظر :

— EMIL LAOUST : Mots et choses berberes p. 258.

— Dj. Jacques Meunié : le Maroc Saharien des origines aux XVI^{e} S Tome I p. 171

(7) أَغْرُوزْ : طريقة من طرق ري الأراضي عن طريق استخراج الماء من الآبار بواسطة الدلو.

ويسحب الدلو من البئر بواسطة الدواب (البغال، الحمير) أو بواسطة الثيران أو الإبل، وفي حالة انعدام هذه الدواب فبواسطة الإنسان اذ يتعاون ثلاثة فلاحين أو أربعة على سحب الدلو الذي قد تصل سعته في بعض الأحيان إلى أكثر من خمسين لترا في المرة الواحدة.

وقد ادخل الحرث الذي يسقى بأغْرُوزْ ضمن المنتوجات التي تسقى بالآلة، لذلك نلاحظ أن الجماعة في قبيلة قصر بوخلال شرطت على سكان القصر الذين يسقون أراضيهم بأغْرُوزْ أن يدفعوا نصف المقدار الذي يدفعه من يعتمد في سقي أراضيه على ماء الساقية أي الماء الحي، والتأثير الفقهي عن طريق القياس واضح في هذا الشروط لا يحتاج إلى توضيح.

(8) الابيار : وهي الابار.

ومن الأمور المعروفة بالواحات الجنوبية بوادي درعة من واحة تينزولين إلى محاميد الغزلان، أن الاراضي الزراعية منها ما يسقى بواسطة السواقي التي تسحب من نهر درعة، ومنها أراضي من المستحيل ان تستفيد من مياه هذه السواقي، لذلك عمد السكان إلى حفر مجموعة من الابار لاستغلالها في ري هذه الاراضي عن طريق أغْرُوزْ كما هو الحال بتينزولين وترناتة وفزواطة. أو عن طريق «لَكْثِينَة» كما هو الحال في واحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان.

وسحب الماء من البئر عن طريق «لَكْثِينَة» لا يتطلب اكثر من شخص واحد يعمل على تفريغ الدلو وإعادته إلى البئر.

(9) الخضرة : الخضر التي تزرع بدرعة مثل اللفت والجزر وغيرهما

(10) جْرُورة : الحوض الصغير. وقد كان الفلاحون يقسمون بساتينهم إلى احواض صغيرة (جْرَايْرْ) لتسهيل سقيها وتسهيل اقتسامها بين الملاكين والخماسة والمكلفين بالرَّعْيَة، أو الاستخراج الأعشار.

---

(65) هذه التعريفات حسب مكاييل واحة ترناتة التي يقع فيها قصر بوخلال، وإلا فإن هذه المكاييل تختلف من واحة الى أخرى.

وقد اعترض الفقيه ابراهيم بن هلال السجلماسي[66] في أجوبته على اقتسام أحواض اللفت والبقول بين صاحب الحائط (البستان) والخماس أو المساقي[67] وهو رأي الشيخ محمد بن ناصر أيضا في أجوبته[68]

(11) الرّطل : الرطل بفتح الراء وكسرها في لسان العرب الذي يوزن به ويوكل. ونستشف من خلال وثائق الاتفاقيات وغيرها بوادي درعة أن الرطل يستعمل للوزن أكثر مما يستعمل للكيل.

وتختلف أوزان الرطل من سلعة إلى أخرى[69]. ولكن وزن الرطل بدرعة يقدر بحوالي نصف كيلو غرام بعد مقارنة ادوات استعمال الوزن القديمة مع الأدوات الحديثة التي ظهرت مع الاحتلال الفرنسي.

(12) القِنْطار : وحدة للوزن وقد حدد بوادي درعة بعد مقارنة الاوزان القديمة بأدوات الوزن الحديثة في عهد الاحتلال، بحوالي ستة وخمسين كيلو غراما. ويظهر أن سكان درعة قد ورثوا هذا الوزن عن العصور الماضية، ذلك أن القنطار بدرعة يتجاوز بقليل القنطار الافريقي[70]. أو القنطار المغربي بصفة عامة.

(13) الاحرور : الفلفل

(14) الفصة : البرسيم.

(15) القَرْطَاتْ : جمع قُرْطَة، وهي الخزمة أو الإبَالة من الفصة المجففة المعدة للعلف.

وقد كان السكان بدرعة يعمدون إلى الفصة فيحصدونها وينشرونها شرائط في الشمس حتى إذا تكسر يبست شيئا مّا حزموها بأصرعة من خوص النخيل وخزنوها كعلف للدواب حيث تكسر وتخلط مع التبن.

(16) سلة : هي القفة من القصب ومن الصعب جدا تحديد سعتها بدقة.

(17) دَرْسَة : عن كل مرة يتم فيها درس البيدر، كبيرا كان، أم صغيرا.

(18) حلَب : يكتب في الواقع «حلاّب» وهو الإناء الذي يحلب فيه، وكان يصنع في غالب الأحوال من الخشب. ومع انتشار الصناعات الفخارية انتشرت حلاليب الفخار كأدواة للاستعمال اليومي. قد كان من العادة أن صناع الفخار بكل واحة من واحات وادي درعة يتبرعون كل سنة بمجموعة كبيرة من هذه الأواني لمساجد القصور، حيث تستغل في الوضوء والغسل. وتختلف احجام حلاليب المساجد فمنها الكبير والصغير.

وتجنبا لكل حيف أو نزاع بين سكان القصر، كانت الجماعة تختار حلابا من المسجد يتفق عليه الجميع ويتخذ كوحدة كِيَّالية لاستخلاص واجب دار القبيلة عن حمولات التمر التي تدخل كل يوم من باب القصر.

والاتفاقية التي بين ايدينا حددت حلاّب واحد لحمولة الحمار وحلابين لحمولة البغل، ومن الصعب جدا تحديد سعة الحلاّب، خاصة أن الحلاب يستبدل مع موسم كل خريف[71] ولا ندري هل الحلاّب الذي اتفقت عليه الجماعة في هذه الاتفاقية من النوع الصغير أو الكبير.

(19) الزَّنْبيل : لغة في الزَّبِيل كما في لسان العَرَب (مادة زبل وزنبل) وهو الجراب. والزنبيل في واحات وادي درعة ينسج من سعف النخيل أو قَدِمِهِ ويحمل فيه التمر من البساتين إلى المنازل أو من القصور إلى الاسواق وتستعمل الزنابيل لاغراض أخرى حسب الاستعمال اليومي وحاجة الناس. ومنها زنبيل الحمار وزنبيل البغل وقد يستعمل أيضا على ظهور الإبل.

(20) ما يَنْبَض فيه الشيخ : بمعنى أن شيخ القبيلة لا سلطة له على كل ما يجمع من مواد لصالح دار القبيلة، لان التصرف في هذه المواد ليس من اختصاصاته.

(21) ولا أصحابه : يعني الجماعة التي تعتبر مساعدة للشيخ في تسيير امور القبيلة.

(22) إلا من أرادته القبيلة : كانت القصور تختار أمينا خاصا لدار القبيلة وتحرره من كل كلفة كيفما كان نوعها.

(23) لم نجمع شيئا او قال نفرقوا : المقصود من هاتين العبارتين أن من عارض هذه المصلحة العامة، أو حاول ممارسة أي ضغط لتوزيع كل ما جمع من مواد بدار القبيلة فانه يعطي ذعيرة تقدر بحوالي عشرة مثاقيل.

---

(66) انظر ترجمته عند ابن عسكر الشفشاوني في دوحة الناشر تحقيق د. محمد حجي ص. 89.

(67) ابراهيم بن هلال : الأجوبة. طبع فاس — 1310 ص. 99.

(68) الشيخ محمد بن ناصر : الأجوبة. طبع فاس — دون تاريخ ص. 75.

(69) عبد العزيز بن عبد الله : معلمة الفقه المالكي — دار الغرب الاسلامي — 1403 — 1983 — ص. 224.

(70) — عبد العزيز بن عبد الله : المرجع السابق ص. 290.

— الحسن الوزان : وصف افريقيا : ج. 1 — ص. 22.

(71) حدد الضابط بير أزام سعة الحلاب الكبير بخمس ليترات انظر : P. AZAM : les cités rurales dans l'Ktawa, p. 45.

II ــ التعريف بالاتفاقية وبقبيلة بوخلال.

أ ــ التعريف بالاتفاقية

هذه الاتفاقية واحدة من عدة اتفاقيات عثرنا عليهما بقصر بوخلال، ويعود تاريخ كتابتها إلى سنة 1270هـ /1853. وتتعلق بتنظيم دار القبيلة.

كتبت هذه الاتفاقية بلهجة عربية مدرجة مليئة بالاخطاء الاملائية والنحوية، وحفاظا على النص الأصلي للاتفاقية فقد نقلناها كما كتبت باخطائها

ب ــ التعريف بقبيلة قصور بوخلال :

سبق لنا أن أشرنا إلى القول بأن هذا القصر يقع على مشارف النخيل بالضفة الشرقية لنهر درعة بواحة ترناتة. وحسب وثيقة محلية يعود تاريخ كتابتها إلى مطلع القرن الثالث عشر الهجري /19م[72] فإن قصر بوخلال بني لأول مرة وسط قطة القبيلة في حقول النخيل سنة 1176هـ /1762م. وقد كان سكان القصر يسكنون في قرى صغيرة متناثرة داخل القطة ولا تزال بعض اثارها قائمة إلى اليوم حيث لا يزال العملة يعثرون على بعض القبور القديمة وعظام الموتى في بعض بساتين قطة بوخلال.

ونظرا للاضطرابات الاجتماعية والفراغ السلطوي الذي عرفته بلاد درعة بعد وفاة السلطان مولاي اسماعيل سنة 1139هـ/1727م وما اعقب ذلك من صراع على كرسي الحكم على مستوى السلطة المركزية، فإن قبيلة بوخلال اضطرت إلى الاجتماع في قصر واحد ليسهل الدفاع عنه.

ويبدو أن الموقع الذي اختارته القبيلة داخل البساتين لم تتوفر له كل الظروف الدفاعية الملائمة، لذلك نجد القبيلة قد غيرت هذا الموقع حيث تؤكد الوثيقة التي أشرنا إليها «أن البنيان وقع في بخلال البراني سنة 1185هـ/1771م.» أقيم البناء الجديد لقصر بوخلال خارج حقول النخيل فوق تلّ صغير من الصخور الشيسية وتحيط به أسوار خارجية تتخللها مجموعة من الابراج العالية للمراقبة والحراسة حسب الطريقة المتبعة بقصور واحات درعة، كما يحيط به خندق كبير يعرف بـ «أُحْفِيرْ» لم يندثر إلا بعد التوسع العمراني الذي عرفه هذا القصر بعد الاستقلال[73]

تتشكل قبيلة قصر بوخلال حسب الاتفاقية من خمسة عظام هي :

1 ــ عظم أولاد منصور ويمثلهم في الجماعة محمد بن لغزال الذي تحمل باخوانه.

2 ــ عظم أولاد عبُّو (عبد الله) ويمثلهم محمد بن حمُّ الشملي وبلقاسم ابن احمد.

3 ــ عظم أولاد سعيد ويمثلهم في الجماعة محمد بن لعكَيد ومحمد بن بادٌ.

---

(72) كتب هذه الوثيقة في عهد شيخ قبيلة قصر بوخلال في وقته عمر بن الشيخ. ولاتزال الوثيقة الأصلية في حوزتنا.

(73) Abdellah Hammoudi : L'évolution de l'habitat dans la vallée du Draa, R.G.M N° 18, 1970, p. 37.

4 ــ عظم أولاد حدُّو صَالَح ويمثلهم في الجماعة حدَّ (أحمد) بن أحمد والعربي بن لحسن.

5 ــ عظم أولاد حمُّو علي ويمثلهم في الجماعة الفقير مَحمد بن لحسن.

وكل هذه العظام لاتزال قائمة إلى اليوم بقبيلة بوخلال وكل منها منعزل في درب من دروب القصر تحمل نفس الاسماء. ومن الصعب جدا ــ في غياب الوثائق ــ الوصول إلى الأسس الاجتماعية التي بنيت عليها هذه العظام، خاصة أن اسرها تتجدد باستمرار بمن كان ينحاش اليها من الطارئين على القصر، وكثيرا ما كان هؤلاء الطارئون يحملون اسم العظام التي انضافوا إليها، بالرغم من أن الكل يعرف انهم ليسوا منها في شيء.

تعد قبيلة بوخلال من قبائل الروحة الوسطانيين التي تنتشر بشكل خاص بواحة ترناتة حيث يوجد مركز الثقل لهذه القبائل بدرعة[74]. وتتكون قبائل الروحة بترناتة من ثلاث فرق هي :

1 ــ فرقة أولاد صالح :

وإلى هذه الفرقة تنتمي قبيلة قصر بوخلال ومن قصور أولاد صالح بالاضافة إلى قصر بوخلال، قصر بُوزَرْكَانْ، وقصر العَرُّومِيَّاتْ، وقصر أولاد حَرُّوش، وقصر أُغَلَا وسيف، وقصر كُبَّان، وقصبة الأوْفَى، وقصر توغْزَة، بالإضافة إلى مجموعة من الزوايا التي كانت تحسب على فرقة أولاد صالح مثل زاوية سيدي مَحمد بن مهدي[75] وزاوية سيدي محمد المغراوي، وزاويتي سيدي اعمرو بن أحمد العليا والسفلى، وهذه الزوايا لاتزال قائمة إلى اليوم باستثناء زاوية سيدي اعمرو بن أحمد التي لم يبق منها إلا الاطلال.

2 ــ فرقة أولاد بوزيد

تنتشر فرقة أولاد بوزيد في وسط واحة ترناتة، وتتقاسم المجالات الزراعية والرعوية وسواقي الري مع فرقة أولاد صالح، كما تقوم بحراسة أكوكات سواقي أولاد فاضل.

ومن قصور فرقة أولاد بوزيد : القصر الجديد (قصر الدعنيين) وقصر أولاد علي بن مولود، وقصر البرشات، وقصر حارة أولاد حريز، وقصر ابن خليل (زاوية سيدي البغداد) وقصر أولاد العشاب[76] وقصر تمجوط، وقصبة الاوفى، وقصر أولاد بلعيد وقصبة باردة.

3 ــ فرقة أولاد فاضل

تتمركز هذه الفرقة في المدخل الجنوبي لواحة ترناتة حيث تقوم بمراقبة فم زاكورة الذي يربط بين ترناتة وفزواطة وتتقاسم بدورها أيضا المجالات الزراعية والرعوية وسواقي الري مع فرقة أولاد صالح.

---

(74) سبق لنا أن عرفنا بقبائل الروحة في الفصل الذي خصصناه للاتفاقيات التكفلية.

(75) انظر ترجمة الشيخ محمد بن مهدي الجراري في الدرر المرصعة ص.

(76) نسبة الى الحاج عبد الله العشابي الذي هاجر من الأندلس الى درعة خلال القرن التاسع الهجري/15م. وقد ترجم له محمد المكي الناصري في الدرر : ص. 151.

ومن قصور أولاد فاضل، قصور أولاد الحاج الثلاثة (قصبة أولاد لعكَيد، قصبة أولاد الباشا، زاوية سيدي أحمد بن علي الحاجي[77]) وقصر المنصورية، وقصر تَمَزيرْت[78] وقصبة سيدي مبارك.

ج ــ التنظيمات السياسية عند قبائل الروحة.

بالرغم من أن قبائل الروحة بوادي درعة قد تحولت من الترحل والانتجاع إلى الاستقرار والارتباط بالارض منذ عهد السعديين[79] فإن هذه القبائل ظلت محافظة على طبيعتها البدوية، وعلى الخصوص في تنظيماتها السياسية والاجتماعية، ذلك أنها تخضع لنظام المشيخة سواء على مستوى قبيلة القصر، أو على مستوى الفرقة، أو على مستوى القبيلة الكبرى في إطارها التحالفي الواسع.

يرتكز نظام المشيخة على أساس اختيار الشيخ بطريقة «دمقراطية». وكانت هذه الطريقة تسمح لكل عظم على مستوى قبيلة القصر أن يتولى الشياخة بشكل دوري، كما تسمح لكل قصر أن يتولاها على مستوى الفرقة، ولكل فرقة على مستوى القبيلة الكبرى.

حالت هذه الطريقة، دون استئثار عائلة بعينها بالشياخة عند قبائل الروحة على عكس ما وقع عند قبائل أولاد يحيى حيث نجحت عائلة أولاد عثمان في السيطرة على الشياخة وتحويلها إلى قيادة وراثية منذ أواسط القرن الثالث عشر الهجري /19م[80] وقد كانت قبائل الروحة تجهض مثل هذه المحاولات الاستبدادية و«تكسر» أصحابها وتنفيهم من مجالات انتشارها. وآخر هذه المحاولات هي التي قامت بها عائلة أولاد بوجمعة وأولاد بن عْرِيبْ (تصغير للعربي) بقصر بوخلال من فرقة أولاد صالح سنة 1324هـ /1906م. فتعاهدت فرقتي أولاد صالح وأولاد بوزيد على مقاطعة هذه العائلة ونفيها من أراضهما وذلك بمقتضى الاتفاقية الاتية :

الحمد لله.

فالذي شهدوا به ءال قصر الجديد الفاطمي بن المدني مع أخيه المحجوب بن المدني أنهم اتفقوا وتعاهدوا مع أولاد بوزيد وءال بخلال وقبيلة المنصورية على من سكَن أولاد بوجمعة مع أولاد عريب في بلاده ومن تكلم معهم على السكنى بعشرة قناطر[81] وعشرة مزاوك[82]. وتحملوا قبيلة البرشات مع قبيلة أولاد علي ابن مولود بئال قصر الجديد على يد الشيخ الكبير عبد الله ابن ابراهيم.

فمن البرشات :

ــ عبد الله بن ابراهيم.

ــ مع الفقبر عبد الرحمن.

ــ مع عمر بن الهاشمي.

---

(77) ترجمته عند محمد المكي بن موسى في الدرر المرضعة ص. 8.

(78) نذكر الرواية الشفوية أن قصر تمزيرت قد بناه عبد الله أوعياد أحد قواد الدولة السعدية. ولم نتمكن من تحقيق ذلك عن طريق الوثائق.

(79) انظر ما كتبناه عن الروحة في الفصل الذي خصصناه للاتفاقيات التكفلية.

(80) سنعرف بقبائل اولاد يحي وقيادتهم في الاتفاقيات الصلحية.

(81) القنطار يساوي الف مثقال.

(82) المزاوك : هو الذي يضطر الى مغادرة قبيلته الاصلية واللجوء الى زاوية أو أي مكان يستحرم به.

ومن اولاد علي بن مولود :

- المعطي بن عيسى.
- وعلي بن غبد المولى.
- بًعلي بن محمد.

ومن قصر الجديد :

- الفاطمي بن المدني.
- وأخيه المحجوب بن الاب.

ومن المنصورية :

- خليفة بن قدور.

ومن بـخــلال :

- الهاشمي بن لغزال.
- وابراهيم بن مبارك.

ومن أولاد العشاب :

- الهاشمي بن الطيب.

عرف قدره شهد عليهم بذلك من أشهدوه وعرفهم بحال كماله. وبتاريخ عشرين شوال عام : 1324هـ /(1906)

عبد ربه محمد الهاشمي بن لحبيب لطف الله به.

وقد اضطرت هذه العائلة إلى اللجوء إلى قصر أخلوف بواحة تينزولين عند قبائل الروحة الفوقانيين ولم تعد إلى ترناتة إلا بتدخل مرابطي زاوية سيدي البغداد.

كان سكان كل قصر من قصور قبائل الروحة يشكلون قبيلة خاصة بهم هي «قبيلة القصر». وتحمل هذه القبيلة اسم القصر الذي تسكنه مثل قبيلة قصر العروميات، قبيلة قصر بوزركان، أو تحمل اسم عظم من العظام المؤسسة للقصر مثل قبيلة قصر أولاد اعلي بن مولود، قبيلة قصبة أولاد بلعيد.. الخ..

تتشكل قبيلة القصر عادة من العظام المتساكنة داخل أسوار القصر، وتتكون الجماعة التي تسهر على تدبير الامور العامة للقبيلة من ممثلي العظام، ويتناوب هؤلاء الممثلون على شياخة القبيلة بطريقة دورية تساعد على التماسك الداخلي للقبيلة وتحافظ على التوازنات بين مختلف العظام.

تمارس قبيلة القصر سلطتها وسيادتها كاملتين على قطتها (المجال الزراعي والرعوي) وتتعامل مع القبائل المجاورة على قدم المساواة، سواء كانت هذه القبائل من فرقتها أو من غيرها. ولكل قبيلة اتفاقياتها الخاصة (الاتفاقيات الخاصة باختيار الشيخ، واتفاقيات تنظيم دار القبيلة، واتفاقيات تنظيم موسم الانتاج

الخ..) وهذه الاتفاقيات تتجدد على رأس كل سنة حتى يكون بإمكان شروطها أن تساير المستجدات اليومية. وتحدد اختصاصات شيخ القبيلة بحضور الجماعة ثم تكتب في عقد الشروط. ولابد من التذكير هنا أن التنظيمات الداخلية لقبائل القصور بدرعة لا تختلف في إطارها العام عن التنظيمات السائدة عند القبائل في جهات اخرى من المغرب مثل بلاد كَير الاعلى وجبالة والأطلس الكبير(83).

وتتم عملية اختيار الشيخ الكبير (الشيخ الفوقاني) عند قبائل الروحة الوسطانيين في تجمع عام لجماعات وشيوخ قبائل القصور، وتتناوب الفرق الثلاث التي تتشكل منها قبائل الروحة الوسطانيين عن الشياخة الكبرى.

تحدد مهام الشيخ الكبير تبعا لجملة من الشروط تتفق عليها جماعات قبائل القصور ثم تدون في نظائر تحتفظ كل فرقة بنسخة، وهكذا يقوم الشيخ الكبير بتنظيم العلاقات بين قبائل القصور وذلك بتنسيق اعمال شيوخ القبائل، واليه يعود الأمر في حل المشاكل التي كانت تطرأ بين الفرق، وهي مشاكل لا تخرج عن إطار المحاكات اليومية لتداخل المجالات الزراعية والرعوية وما يرتبط بها. وهو الذي يشرف على عقد التحالفات مع قبائل الرحل باسم قبائل الروحة. إلا أن أهم مهمة تناط بالشيخ الكبير هي قيامه بدور الوسيط بين المخزن والقبائل التي اختارته كما يقوم بالدفاع عن مصلحتها أمام نواب السلطان وعماله بالمنطقة، خاصة في أوقات جمع الأعشار واللوازم الجبائية.

قد ظل نظام الشياخة الكبرى قائما عند قبائل وادي درعة إلى ما بعد عقد الحماية بحوالي عشرين سنة، حيث تعتبر واحات درعة ما بين المناطق التي لم تتمكن فرنسا من السيطرة عليها بصفة نهائية إلا في أواسط العقد السادس من القرن الرابع عشر الهجري / العقد الرابع من القرن 20م(84). ومن حسن حظنا اننا عثرنا على وثيقة بقصر بوخلال يعود تاريخ كتابتها إلى بداية عام 1347هـ /1928م(85) وبالرغم من أن هذه الوثيقة حديثة نسبيا، فإنها تكشف لنا الطريقة التي يسير بها الشيخ الكبير أمور قبائل الروحة الوسطانيين وكيفية تحديد الافراد الذين تسري عليهم التكاليف المخزنية من كل قصر. والوثيقة عبارة عن رسم التزم فيه أعيان قبائل القصور بعد حلفهم، بتحديد عدد الرجال الذين يكلفون كلفة المخزن في قبائلهم. وهذا نص الوثيقة :

الحمد لله وحده

فبحول الله وقوته اجتمعوا أعيان الروحى باجمعهم من أولاد العشاب إلى أولاد الحاج وشيخهم لحسن بن عيسى بن لغزال البخلالي وجعلوا أعيانهم كل واحد يعد إخوانه بعدما حلفوا بالحرام(86) على عدد إخوانه الذين يكلفون كلفة المخزن وغيرها.

---

(83) Robert Montagne : les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc, p. 236-237.

(84) G. Spillmann : Souvenirs d'un colonialiste, p. 93 à 123.

(85) هذه الوثيقة بحوزة ورثة المرحوم علي بن عيسى الذي كان يعتبر الساعد الأيمن لأخيه لحسن به عيسى يوم كان شيخا كبيرا على الروحة.

(86) صيغة القسم بالحرام هي قولهم «عليَّ بالحرام».

ـ فالشيخ أحمد بن عبد الدائم يعدد إخوانه أولاد الحاج باجماعهم مائة رجل وثمانية وثلاثين.

ـ وامبارك بن حدَّ حَلف على إخوانه أهل تمزيرت وهم خمسة وأربعين رجلا.

ـ وحلف الزوين على إخوانه أهل المنصورية عددهم سبعين رجلا

ـ وحلف عبد الله بن ابراهيم بن مبارك البخلالي على إخوانهم كافة عدد أهل بخلال مائة وعشرة رجلا. وعدد أهل زاوية الامام المهدي[87] سبعون رجلا.

ـ وحلف محمد بن ابراهيم البرشي على إخوانه أهل البرشات سبعة وعشرون رجلا.

ـ وحلف سالم بن المعطي على إخوانه أهل الحارة على تسعة وعشرين رجلا.

ـ وحلف باري بن الحسين على أولاد إخوانه أولاد علي بن مولود عددهم سبعة واربعين رجلا.

ـ وحلف بن الحاج على إخوانه أهل قصبة الأوفى عددهم ثلاثة عشر رجلا.

ـ وحلف محمد بن لحسن الأغلا وسيف على إخوانه عددهم ثلاثين رجلا.

ـ وحلف أبَّا حَدَّ بن المدني على إخوانه أهل قصبة سيدي امبارك عدده ستة وثلاثين رجلا.

ـ وحلف محمد بن لحبيب على إخوانه قصبة أحصَّار عددهم أربعين رجلا.

ـ وحلف بجمع بن الفطمي على إحوانه أهل بادرة تسعة وثلاثين رجلا وواحد.

ـ وحلف عبد الدائم بن بَّعْزِزْ وعبد الله بن الحاج على إخوانهم ابن خليل على ستين رجلا قل واحد (إلا واحد)

ـ وحلف محمد بن عبد الله التغزوي على إخوانه اهل تُغْزَى عددهم اربعة وخمسون رجلا.

ـ وحلف بجمع بن المدني على اخوانه أهل قصر الجديد على أربعة وعشرون رجلا. وأهل العَرُومِيَّات عددهم مائة وخمسة وثلاثون رجلا. هذا ما شهدوا به المذكورين أعلاه وعرفهم باتمه في تاريخ أول المحرم فتح عام 1347 عبيد ربه تعالى العربي بن الهاشمي الاستوري لطف الله به ءامين.

كانت هذه آخر مرة اختارت فيها قبائل الروحة الشيخ الكبير قبل احتلال فرنسا لواحة ترناتة عام 1351هـ /1932م. وقد اختفت هذه الطريقة بعد الاحتلال بصفة نهائية.

ـ جاء اختيار الشيخ الكبير لقبائل الروحة في شخص لحسن بن عيسى البوخلالي[88] بعد أزمة حادة بين هذه القبائل وخليفة حمو الجلاوي على ترناتة، الحاج مَحمد بن عبد الله العسري.

---

(87) هو الامام سيدي مَحمد بن مهدي الجرري وقد سبقت الاشارة اليه.

(88) توفي هذا الشيخ في نهاية رمضان عام 1370هـ/1950.

يبدو أن بعض اتباع أحمد الهيبة وبعد فشلهم بسوس[89] حاولوا استنهاض القبائل بدرعة لمواجهة النفوذ الفرنسي المتخفي وراء الحركات الجلاوية بالمنطقة، فقد ذكر السيد الطيب بن لحبيب في حوادث سنة 1337هـ/1918 أن الشريف مولاي الحاج جاء من عقبت[90] ونزل تَغُغْت وهي زاوية بجبل تِيفَرْنينْ (ما بين أكَدز وواززازات) «وشاع خبره بدرعة ونواحيها وجعل يقول أنا مرسل من صاحب الوقت وأمرني نقيم هنا حتى ياتي ويفعل باجلاوة كذا وكذا»[91] وقد انضم إليه كثير من قبائل المنطقة، فاهتم القايد حمو الجلاوي بأمره وأرسل إليه كتابا يستوضحه الأمر الذي هو مقدم عليه فقبض الشريف «على الرقاصين[92] وسوطهم وسجنهم وأجاب القايد بالسفه وقال عن قريب نرى رأسك مقطوعا بين يدي إن شاء الله»[93] وأمام هذا التحدي الخطير لنفوذ عائلة الجلاوي، نظم القائد حمو الجلاوي حركة قوية في اتجاه تيفرنين من الشمال وأمر حليفه بدرعة القايد العربي بتنظيم حركة مماثلة من الجنوب، فتفرقت كل القبائل المجتمعة حول الشريف مولاي الحاج الذي فر إلى أيت بوكَماز بالاطلس الكبير ومن هناك إلى تافيلالت[94].

وبعد فرار مولاي الحاج قام القايد حمو الجلاوي بحملة استعراض القوة بعد نزولها بقصبة تامنوكَالت بمزجيطة وارسل عدة طلقات بالمدفعية «فترعد أهل درعة كلهم ودخلهم الجزع والرعب لما سمعوا من عظيم قوة تلك الحركة»[95] لم تتجاوز هذه الحركة الجلاوية التي أرعبت أهل درعة، واحة مزجيطة بل توجهت مباشرة نحو بلاد سكتانة، واكتفى حمو الجلاوي بتوجيه حلفائه إلى باقي الواحات الأخرى فعين على واحة ترناتة الحاج مَحمد بن عبد الله العسري، فصحبه القايد العربي حتى نزل بقصبة ايت اونير بالقرب من بني صولي. وذلك في منتصف شهر جمادي الثاني عام 1337هـ /مارس 1919م. وقد أجحف هذا الخليفة في معاملته مع سكان ترناتة، حيث فرض عليهم كضيافة له ومؤنة «الف ريال[96] والف مُدْ من الشعير، وستمائة مُدْ من القمح، ومائة كبش، وستة قناطير من السكار، وقنطار من الاتاي، وقنطار من الشمع وستمائة مدي من التمر، وثلاثين صاعا من السمن، والف غرارة من التبن»[97].

وبالرغم من أن قبائل الروحة قد دفعت نصيبها من ضيافة خليفة القايد حمو الجلاوي كباقي القصور الأخرى بترناتة، فإن هذا الخليفة قد تعسف على قبائل الروحة وكلفها بما لا تطيق «من الاموال

---

(89) ثار أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين بسوس عام 1330هـ/1912م بعد توقيع معاهدة الحماية المباشرة، واحتل مراكش ثم طرد منها على يد الفرنسيين فعاد الى سوس وظل يناوش الفرنسيين ومن في ركابهم الى أن توفي عام 1337هـ/1918م.

(90) يقع قصر عقبت بواحة تينزولين.

(91) الطيب بن لحبيب : كتيب في تاريخ وادي درعة : مخطوط خاص ص. 4.

(92) الرقاص في عرف المغاربة هو الذي يحمل البريد من جهة الى أخرى.

(93) الطيب بن لحبيب : المرجع السابق ص. 6.

(94) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa, p. 80.

(95) الطيب بن لحبيب : المرجع السابق ص. 15.

(96) يقصد هنا الريال الحسني ويعادل مبدئيا المثقال.

(97) الطيب بن لحبيب : كتيب في تاريخ درعة. مخطوط خاص ص. 17.

والمؤنة، وجعل لهم عبد الدايم بن لعكَيد شيخا،[98] واستلزمهم بذعائر قديمة وصار بعضهم يقرض في بعض... تيقظ الروحة ودخلتهم الانفة فتلوموا واجتمعوا وخرجوا عن طاعة شيخهم، وثقلوا[99] على من وصل دار الخليفة أو اعطاه شيء أو ضيف مخزني، وبقوا على تلك الحالة بدءا من شوال»[100]

كانت قبائل الروحة سباقة إلى رفض تعسفات الحاج محمد العسري ثم بعد ذلك تبعتها باقي القبائل الاخرى التي لم تتحمل تعسفات هذا الخليفة في وقت كانت وفيه المنطقة تعاني من الجفاف وارتفاع الاسعار[101] فاضطر القايد حمو باستبداله بأحمد بن لحسن آمزدو، الذي نزل إلى ترناتة، فأخرج الحاج مَحمد العسري من القصبة وأركبه «على بغل أعرج ولم يحمل معه قلامة ظفر مما قبض من أموال أهل درعة واعشارهم»[102]

وتدل كل القرائن على أن قبائل الروحة الوسطانيين، ظلت خاضعة لنفود الخليفة الجديد ومن جاء بعده إلى حين احتلال وادي درعة بصفة نهائية سنة 1351هـ /1932م.

(98) الشيخ عبد الدايم بن لعكيد من قصبة أولاد لعكَيدْ فرقة أولاد فاضل.

(99) ثقلوا : جعلوا ذعيرة ثقيلة لمن تعامل مع خليفة الجلاوي.

(100) الطيب بن لحبيب : المرجع السابق ص. 18 ـــ 19.

(101) الطيب بن لحبيب : المرجع السابق ص. 17.

(102) الطيب بن لحبيب : نفس المرجع : ص. 23.

الفصل التاسع :

تنظيم العلاقات بين قبائل وادي درعة في ضوء اتفاقيات تَيَسَّى والاتفاقيات الصلحية

تنظيم العلاقات بين قبائل وادي درعة في ضوء اتفاقيات تَيَسَّى والاتفاقيات الصلحية

تعتبر اتفاقيات تَيَسَّى والاتفاقيات الصلحية[1] من الاتفاقيات التي كانت تعقد بين المستقرين من قبائل القصور بواحات درعة أو بين هذه القبائل وقبائل الرحل الصحراوية لجعل حد لحالات الفتن الداخلية أو لحالات الصراع على الماء والأرض، وما كان يصحب هذه الحالات من عمليات النهب والاغتصاب وكسر الاسواق اليومية وتخريب السواقي.

فإذا كانت قبائل القصور تلجأ إلى الاتفاقيات التنظيمية لتنظيم العلاقات العامّة بين العناصر المتساكنة داخل أسوار القصر وتقوية أسس التوازنات الداخلية بين مختلف «العظام» التي تتشكل منها قبيلة القصر وبطريقة تسمح للقبيلة في إطار مؤسسة القصر بالحفاظ على استقلالها واستقرارها واستمرار وجودها بين القبائل الأخرى، فإن هذه القبائل نفسها كانت تلجأ أيضا إلى اتفاقيات تَيَسَّى والاتفاقيات الصلحية لتدعيم التكتلات الداخلية وتنظيم العلاقات بين قبائل القصور في إطار التحالفات المرتكزة على اللفوفية[2] من جهة، وبين قبائل القصور وقبائل الرحل الصحراوية من جهة ثانية.

كانت قبائل الرحل لا تتردد في الزحف على واحات وادي درعة في أوقات الازمات السياسية التي تطرأ على المنطقة مع كل فراغ سلطوي، أو مع كل أزمة سياسية على مستوى الدولة المركزية، كما كانت قبائل الرحل تزاحم المستقرين في بساتينهم ومراعيهم في أوقات دورات الجفاف الحادة التي كانت تضرب المناطق الصحراوية. وهكذا يمكن القول بأن اتفاقيات تَيَسَّى والاتفاقات الصلحية كانت تظهر على الخصوص في أوقات الازمات السياسية والاجتماعية، ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن النماذج التي نتوفر عليها من هذه الاتفاقيات، قد كتبت فيما بين سنة 1210هـ /1795م وسنة 1348هـ /1929م، وهي مرحلة قد تميزت بالتأزم واضطراب الأوضاع الاجتماعية والسياسية في المناطق النائية والبعيدة عن عاصمة الدولة، حيث يتمركز الجهاز المخزني. وفي الوقت الذي كان المخزن مشغولا في مواجهة الأطماع الاوروبية كانت قبائل أيت عطًا تقوم بعمليات غزو واسعة لمناطق الواحات الممتدة جنوب جبال الاطلس الكبير، وقد شعر السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام (1238 ـــ 1276هـ /1822 ـــ 1859م) بخطورة ما تقوم به هذه القبائل من تشغيب بالجنوب، فانتدب قبائل المنطقة لقتالها[3].

---

(1) سبق لنا أن عرفنا بهذه الاتفاقيات في المدخل الذي خصصناه للمصادر.

(2) تنقسم قبائل وادي درعة الى لفين كبيرين : مملوك ومجبوب.
يجمع أحدهما قبائل ايت اونير والروحة وبعض قبائل أهل تينزولين ومزجيطة ويجمع الآخر قبيلة مسوفة وقبيلة أولاد يحي وبعض قبائل اهل تينزولين ومزجيطة، ويمتد هذا التقسيم الى نواحي سوس انظر :
محمد المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 238 ـــ 239.

(3) ورد في رسالة من السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام يعود تاريخها الى سنة 1844/1260م وموجهة الى مولاي أحمد بو مسهول من زاوية بوعمران بدادس ما يلي : «فقد وجب قتالهم (أيت عطا) على الذين يلونهم وأخذهم حيثما كانوا فجدوا في جهادهم وابتغوا ما عند الله في جلادهم».

وبالرغم من جهود المخزن في الحد من زحف قبائل ايت عطا على مناطق الواحات، فإن العجز الذي أظهره القواد المحليون في مواجهة هجومات قبائل الرحل الصحراوية عامة وقبائل أيت عطا خاصة على واحات درعة كان من وراء انتشار عوامل الاضطرابات الاجتماعية بالمنطقة. وأمام عجز هؤلاء القواد تصدى أهل الصلاح من الاشراف والمرابطين إلى التخفيف من وقع هذه الاضطرابات وذلك بالعودة إلى دورهم التقليدي في الصلح بين القبائل والسعي في إقناع المتصارعين بالتوقف عن الفتنة.

كان الصلح في مرحلته الأولى يرتكز على اتفاقيات تَيَسَّى ثم في مرحلة لاحقة على الاتفاقيات الصلحية. وتثير هذه الاتفاقيات جملة من الاشكاليات لعل أهمها هو الاطار الذي تتطور فيه هذه الاتفاقيات من اتفاق محدد في الزمان والمكان إلى اتفاق صلحي ينظم العلاقات بين قبائل القصور وقبائل الرحل الصحراوية ؟ ثم كيف تطورت هذه الاتفاقيات إلى اتفاقيات تحالفية تأمل قبائل القصور أن تتحول إلى اتفاق «أبدي سرمدي» على حد تعبير متكرر عند كتاب الاتفاقيات الصلحية والتحالفية بدرعة ؟

1 ـــ من اتفاقيات تَيَسَّى إلى الاتفاقيات الصلحية

يذهب بعض الباحثين في التاريخ الاجتماعي بمناطق الواحات إلى القول : بأن لفظ تَيَسَّى مشتق من الفعل الامازيغي «إكَسْ»(4) ومعناه «رَعَى يرْعى رَعْياً» وراعي الماشية هو الذي يحوطها ويحفظها ويقوم بحمايتها. وعن فعل «إكس» اشتقت كلمة «تَاكْسَا» وتعني الحماية(5) وهذا المعنى هو الذي نصادفه في الاتفاقيات التكفلية التي كانت زوايا وادي درعة تعقدها مع قبائل الرحل الصحراوية، إذ كثيرا ما نقرأ في هذه الاتفاقيات التكفلية «أنهم بحول الله وقوته كسوا ورفدوا وتحملوا»(6) فهل يمكن القول بأن كلمة «تَيَسَّى» هي تحريف لكلمة «تاكسا» أو اشتقاق منها على اعتبار أن حرف الكاف في الامازيغية قد يقلب ياء ؟(7). نلاحظ أن الجذر اللغوي لفعل إكْسَ يتركب من حرفين فقط «ك، س» في حين لو قبلنا جدلا، أن لفظ تَيَسَّى مشتق بدوره من نفس الفعل، فإن الجذر الاصلي يقتضي أن يكون مشكلا من ثلاثة أحرف «ك، س، س».

وبالرغم من هذا الاشكال اللغوي بين كلمتي تَيَسَّى» وتاكسا فإننا نلاحظ أن لكلمة تَيَسَّى بوادي درعة معنيين يختلف أحدهما عن الآخر :

(4) انظر على سبيل المثال :

1. E. LAOUST : Contribution à une étude de la Toponymie du Haut-Atlas, p. 44

2. LARBI MEZINE : Contribution à l'histoire du Tafilalt : Aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est Marocaine, T. 1, p. 359.

3. CLAUDE LEFEBVRE : Ayt Khabbach du Sud-Est présaharien — B.E.S.M. N° 159, 160, 161 — 1988, p. 25.

(5) LARBI MEZINE : op. cité. Tome I, p. 49.

(6) انظر الفصل الذي خصصناه للاتفاقيات التكفلية.

(7) ذلك ما استفدناه من الاستاذ احمد أكْوَاو أحد المتخصصين في اللهجات الامازيغية والاستاذ بكلية الآداب بفاس.

1 — المعنى الأول :

وهو التكفل والحماية وذلك ما لاحظناه في اتفاقية يعود تاريخ كتابتها إلى عام 1284هـ /1867م. عقدت هذه الاتفاقية بين قبيلة أيت أُنيرْ من قبائل أيت عطا، وشيخ زاوية تينمسلا السيد محمد بن عبد السلام ومما جاء في هذه الاتفاقية بعد البسملة «وبعد فهذا رسم عقد تَيَسَّ من قبيلة الخير والبركات قبيلة أيت أنير يعني أيت مسكور على أعيانهم فقد اتفقوا واجتمعوا بين يدي البركات الولي الصالح والقطب الواضح الأمجد الانجد من سماه الله خيرا السيد محمد بن سيدنا عبد السلام بن الشيخ نفعنا الله بالفروع والأجداد وجعلوا له تَيَسَّ لجميع زواوي أسلافه، فلَوَّلْ من المتحملين بذلك الشيخ لحسن بن حدَّ نيت اتبغت... »

وبعدما أورد كاتب الوثيقة أسماء الشيوخ المتحملين بتَيَسَّ ذكر بأن قبيلة أيت مسكور «كست كلها من وراء المتحملين المذكورين أعلاه، وكل من حضر من قبيلة ايت مسكور يقف موقف الجد على الجد وكذلك كسوا لجميع البهائم الذين يجعلون الزرع والقمح والتمر وغير ذلك للزاوية المذكورة في كل موضع كل واحد من المتحملين المذكورين أعلاه [...] تحملوا بذلك على كافة قبيلة أيت اُونير

يتضح من خلال ديباجة هذه الاتفاقية وجملة الشروط التي تحمل بها شيوخ قبيلة أيت مسكور للسيد محمد بن عبد السلام القادري، أنها لا تختلف في جوهرها ومضمونها عن اتفاقيات «تاكسا» التكفلية التي كان أصحاب الزوايا بمختلف واحات وادي درعة يحرصون على عقدها مع قبائل أيت عطا وغيرها لحماية مصالحهم الاقتصادية.

تبقى هذه الاتفاقية هي النموذج الوحيد الذي يطالعنا فيه لفظ تَيَسَّى من بين ما يزيد على عشرين اتفاقية تكفلية عثرنا عليها بدرعة. فهل يمكن القول وانطلاقا من هذا النموذج الوحيد بأن كلمة «تَيَسَّى» مشتقة من «تاكسا» ؟

2 — المعنى الثاني لِتَيَسَّى بدرعة

نلاحظ من خلال مجموعة من اتفاقيات تَيَسَّى التي عثرنا عليها بواحتي ترناتة وتينزولين، إن لتَيَسَّى معنى آخر يخالف المعنى الأول، الذي حددناه من الاتفاقية التي عقدها شيخ زاوية تينمسلا مع قبيلة أيت مسكور لحماية مصالح الزاوية. وينحصر هذا المعنى في جملة من المترادفات التي تتكرر في هذه الاتفاقيات كالهدنة و«الراحة» و«الهنا» و«الهدانة» و«الاستماتة» و«الصلح» والاستكانة» إلى غير ذلك من الالفاظ التي تعني الصلح وانهاء الفتنة.

واذا ما تأملنا في اتفاقيات تيسَّى والاتفاقيات الصلحية، فإننا نلاحظ انها نتاج ظرفية تاريخية تميزت بالغليان الاجتماعي ليس في وادي درعة فحسب وانما في كل الواحات الجنوبية نتيجة اندفاع قبائل أيت عطا كما سبق وأشرنا إلى ذلك.

واذا كانت اتفاقيات تيسى تمثل المرحلة الأولى على طريق الصلح بين المتعاقدين، فانها من جهة ثانية تتميز بالبساطة من حيث بنيتها، ذلك اننا اذا استثنينا التركيز على ممثلي المتعاقدين والمجال المكاني

والمدة الزمنية المتفق عليها، فإن شروط تيسى لا تتجاوز ثلاثة شروط أو أربعة على الأكثر. في حين ان الاتفاقيات الصلحية التي تشكل في الواقع مرحلة النضج في اتفاقيات تيسى فإنها ترتكز على مجموعة من الشروط التي تنظم مختلف جوانب العلاقات بين المتعاقدين من المستقرين وقبائل الرحل.

3 ــ طريقة تعاملنا مع اتفاقيات تيسى والاتفاقيات الصلحية هذه الاتفاقيات مثل باقي أنواع الاتفاقيات التي عثرنا عليها بدرعة كتبت بلغة أقرب إلى العامية منها إلى اللغة العربية الفصحى كما تتخللها بعض الألفاظ الأمازيغية، وهي مليئة بالأخطاء الاملائية واللغوية والنحوية.

ورغبة منا في الحفاظ على طبيعة نصوص الاتفاقية فقد حرصنا على إعادة كتابة هذه الاتفاقيات كما هي دون أن نتدخل لتصحيح أخطائها.

ونظرا لعدم تمكننا من تحليل كل الاتفاقيات بنوعيها تيسى والصلحية فقد لخصنا هذه الاتفاقيات في جداول خاصة.

1 ـــ اتفاقيات تيسي

تاريخ عقد الاتفاقية	القبائل المتعاقدة	اللف أو القبيلة الكبرى التي تنتمي اليها القبائل المتعاقدة	الواسطة في عقد الاتفاقية	الضامنون لعقد الاتفاقية	الأسباب الداعية لعقد الاتفاقية	مدة الاتفاقية
1304 1886	ـــ قبيلة بني صوني ـــ قبيلة أولاد كرزاب	ـــ من قبائل أهل الثلث بترناتة ـــ من قبائل أولاد يحي.	أعيان القبيلتين	أعيان القبيلتين	وضع حد لأعمال النهب واللصوصية.	عامان كاملان.
1314 1896	ـــ قبيلة إجنون ـــ قبيلة أولاد كرزاب (ترناتة)	ـــ من قبائل أيت اونير بواحة ترناتة ـــ من قبائل أولاد يحيى	أعيان القبيلتين	أعيان القبيلتين	انهاء الصراعات بين القبيلتين المتجاورتين ووضع حد لاعمال النهب واللصوصية.	عشرة أعوام
1315 1897	ـــ قبيلة بوخلال ـــ قبيلة مسوفة (ترناتة)	ـــ من قبائل الروحة الوسطانيين ـــ من أيت عطا خمس أيت ولّان	أعيان القبيلتين	أعيان القبيلتين	إنهاء أعمال النهب واللصوصية بين القبيلتين	حددت في المكان دون الزمـان.
1326 1908	ـــ قبائل قصور أولاد بنيح الثانية (تيزولين)	ـــ من قبائل أولاد يحيى بواحة تينزولين	القائد محمد بن العربي اليحياوي. وشيخ زاوية تينمسلا القادرية	أعيان كل قصر من القصور الثانية برعاية القائد محمد	وضع حد لظروف الفتنة	ثلاثة أيام من طلوع شمس يوم الاثنين الى غروب يوم الأربعاء.
1333 1914	1ـــ قبائل الروحة الفوقانيين 2ـــ أيت أونير 3ـــ أولاد يحي تنزولين 4ـــ قبيلة قصبة المخزن.	ـــ من قبائل الروحة ـــ من أيت عطا ـــ من قبائل أولاد يحيـــى ـــ من قبائل تينزولين	أعيان القبائل المتعاقدة	وجوه وأعيان القبائل المتعاقدة	وضع حد لأعمال النهب واللصوصية والفتنة بواحة تيزولين	أربع سنوات في الخلاء، والعمارة على حد تعبير الاتفاقية.

2 ـ الاتفاقيات الصلحية والتحالفية

تاريخ عقد الاتفاقية	القبائل المتعاقدة	اللف أو القبيلة الكبرى التي تنتمي اليها القبائل المتعاقدة	الواسطة في عقد الاتفاقية	الضامنون لعقد الاتفاقية	الأسباب الداعية لعقد الاتفاقية	مدة الاتفاقية
1210 1795	ـ قبيلة أيت عبد الله ـ قبيلة أيت محلي (واحة مزجيطة)	ـ من قبائل أهل مزجيطة ـ من قبائل أيت سدرات	سيدي يوسف بن عبد الملك. شيخ زاوية تينمسلا في وقته	أعيان القبائل المتعاقدة برعاية سيدي يوسف ابن عبد الملك	انعقد الصلح لجعل حد لما سلف بين هذه القبائل من القتل والنهب والفتنة.	تعتبر هذه القبائل من خدام زاوية تينمسلا القادرية.
1252 1836	ـ مختلف قبائل القصور بواحة تينزولين	ـ قبائل تينزولين	سيدي ادريس التمسلاوي	أعيان المتعاقدين برعاية سيدي ادريس التمسلاوي	اصلاح البلاد وجلب الخير إليها.	كانت القبائل المتعاقدة المجاورة لزاوية تينمسلا وكل فتنة بينها تؤثر ولا شك على وضعية الزاوية.
1258 1842	ـ قبائل أهل مزجيطة ـ قبائل أولاد يحيى (بتنزولين ومزجيطة)	أهل مزجيطة قبائل أولاد يحيى	القائد الحسن بن أحمد التموكالي الشيخ عثمان بن مسعود اليحياوي	القائد الحسن والشيخ عثمان بن مسعود	وضع حد لأعمال النهب واللصوصية والفتنة	يبدو أن أهل مزجيطة رغبوا في عقد هذا الصلح مع قبائل أولاد يحيى لجعل حد لأطماع الشيخ عثمان بن مسعود في بلاد مزجيطة المجاورة لبلاد أولاد يحيى
1258 1842	ـ قبيلة أيت علي بن يوسف ـ قبيلة أولاد يحيى (تينزولين)	ـ من قبائل أيت عطا بتنزولين ـ أولاد يحيى	ـ الشيخ احميد العطاوي ـ الشيخ عثمان بن مسعود اليحياوي	اعيان المتعاقدين برعاية الشيخين المذكورين	اعتبار باقي قبائل أيت عطا بدرعة أعداء المتعاقدين	هذه الاتفاقية تدخل في اطار البحث عن أطراف لعقد تحالفات بين القبائل المتجاورة.
1277 1860	ـ قبيلة أولاد شعوف ـ قبيلة أسوخد (ترناتة)	ـ من قبائل أولاد يحيى ـ من خمس أيت ولان ـ من قبائل أيت عطا	أعيان القبيلتين المتعاقدتين	شيخ قبيلة أولاد شعوف وأعيان قبيلة أسوخد.	تجديد التحالف بين المتعاقدين.	

تاريخ عقد الاتفاقية	القبائل المتعاقدة	اللف أو القبيلة الكبرى التي تنتمي اليها القبائل المتعاقدة	الواسطة في عقد الاتفاقية	الضامنون لعقد الاتفاقية	الأسباب الداعية لعقد الاتفاقية	مدة الاتفاقية
1293 1276	ـ قبيلة أولاد كرزاب ـ قبيلة أولاد أوشاخ (ترناتة)	ـ من قبائل أولاد يحيى ـ هذه القبيلة تكون دائما الى جانب الغالب	أعيان القبيلتين	شيخ وجماعة أولاد كرزاب. وشيخ وجماعة أولاد اوشاخ	تجديد الأخوة والمشاورة وعقد شروط على عادة القبائل	تعزيز التحالف بين القبيلتين لحماية المتوجات الزراعية ومصادر الري.
1306 1888	ـ قبيلة أولاد حرُوش ـ قبيلة بوخلال ـ الدرب (ترناتة)	ـ من قبائل الروحة الوسطانيين	بعض مرابطي زاوية سيدي البغداد. وبعض أعيان الروحة الفوقانيين	مرابطو زاوية سيدي البغداد وأولاد مُهنا	انهاء عوامل الفتنة بين هذه القبائل.	
1310 1892	ـ قبيلة أولاد اوشاح ـ قبيلة تسركات (ترناتة)	هاتان القبيلتان لا تنتميا للف معين معين وإنما يكون انتاؤهما حسب مصلحتهما.	عبد الرحمان بن اعلي المزواري شيخ قصبة المخزن بتنزولين.	عبد الرحمان المزواري وأعيان القبيلتين	عقد الأخوة.	
1320 1902	كل قبائل واحة لكتاوة	ـ قبائل لكتاوة بأجمعها	شرفاء واحة لكتاوة	أعيان كل قبيلة من قبائل لكتاوة	لمواجهة التسرب الفرنسي من الصحراء الشرقية	ترتكز هذه الاتفاقية على مجموعة من الشروط التي الزمت بها قبائل لكتاوة نفسها لمواجهة التسرب الفرنسي.
1325 1908	ـ قبيلة قصر بوخلال ـ قبيلة قصر المنصورية ـ قبيلة ايت يزُو (ترناتة)	ـ من قبائل الروحة الوسطانيين ـ من أيت عطا خمس أيت واحليم	أعيان المتعاقدين من القبائل الثلاثة	أعيان القبائل المتعاقدة	وضع حد لأعمال النهب واللصوصية	تؤكد الوثيقة على التزام أعيان كل قبيلة بالحلف في ضريحي سيدي دف وسيدي احمد بن علي.
1324 1907	ـ قبيلة قصر بوخلال (ترناتة)	ـ من قبائل الروحة الوسطانيين	المرابط سيدي عبد القادر من زاوية سيدي البغداد	مرابطو زاوية سيدي البغداد	وضع حد للفتنة بين سكان قصر بوخلال.	

تاريخ عقد الاتفاقية	القبائل المتعاقدة	اللف أو القبيلة الكبرى التي تنتمي اليها القبائل المتعاقدة	الواسطة في عقد الاتفاقية	الضامنون لعقد الاتفاقية	الأسباب الداعية لعقد الاتفاقية	مدة الاتفاقية
1328 1910	1ـ أولاد ادريس 2ـ أيت علوان 3ـ أيت حسو	ـ من قبائل محاميد الغزلان ـ من أيت عطا ـ من أيت عطا	أعيان القبائل المتعاقدة	أعيان القبائل المتعاقدة	إصلاح البلاد	
1329 1911	ـ قبيلة اهل بوخلال ـ أيت يُعزَى	ـ من قبائل الروحة ـ من قبائل أيت عطا	أعيان القبيلتين	أعيان القبيلتين	وضع حد لأعمال النهب واللصوصية.	
1331 1912	ـ قبيلة قصر بوخلال ـ ايت انير	ـ من قبائل الروحة ـ من أيت عطا	أعيان القبيلتين	أعيان القبيلتين	تجديد العهد بين القبيلتين	تكشف لنا جل الاتفاقيات التي بملكية قبائل الروحة أن هذه القبائل كانت تتحالف باستمرار مع قبائل أيت اونير.
1334 1915	1ـ قبيلة قصر الرباط 2ـ أولاد يحى 3ـ قبائل الروحة 4ـ ايت انير	من قبائل تيزولين من قبائل أولاد يحى ـ الروحة الفوقانيين ـ من قبائل أيت عطا.	خليفة الكلاوي في وقته الحاج محمد بني أيت العيسى	أعيان القبائل المتعاقدة	الهنا ـ الراحة	بالرغم من وجود خليفة الكلاوي بالمنطقة فإن القبائل ظلت تتعامل بالاتفاقيات.
1339 1920	1ـ الشيخ محمد بن الفاطمي المزواري 2ـ القائد محمد بن العربي اليحياوي	يمثل قبائل تينزولين الخاضعة لنفوذ قصر الرباط عن قبيلة أولاد يحى	الشيخ محمد بن الفاطمي والقائد محمد بن العربي اليحياوي	الشيخ بن الفاطمي والقائد محمد بن العربي اليحياوي	تجديد الاخوة. كما كانت بين الأسلاف.	

تاريخ عقد الاتفاقية	القبائل المتعاقدة	اللف أو القبيلة الكبرى التي تنتمي اليها القبائل المتعاقدة	الواسطة في عقد الاتفاقية	الضامنون لعقد الاتفاقية	الأسباب الداعية لعقد الاتفاقية	مدة الاتفاقية
1346 1927	ـ قبيلة ايت اونير ـ قبيلة أيت اسفول	ـ من قبائل ايت عطا	اعيان المتعاقدين	أعيان المتعاقدين	رغبة قبيلة ايت اسفول في الانضمام الى لف ايت أونير	تكشف لنا هذه الاتفاقية الطريقة التي كان يتم بها توسيع لف ما بضم قبائل أخرى إليه.
1346 1927	ـ قبيلة إخرّزن ـ قبيلة أولاد كرزاب ـ قبيلة لمكترى	ـ من قبيلة ايت اونير ـ من قبائل أولاد يحيى من قبائل الروحة.	أعيان القبائل المتعاقدة	اعيان القبائل المتعاقدة	الرغبة في الراحة والهناء	
1346 1927	ـ قصر بونانة ـ قصر تزّجين ـ زاوية تزجين	ـ من قبائل الروحة الفوقانيين (تنزولين)	اعيان قبائل الروحة	أعيان كل قصر من القصور المذكورة	حماية البلاد من الفساد والفتنة	
1348 1929	ـ قبيلة لكعابة 1ـ تمكّشاد 2ـ أفـرا 3ـ القصبة. 4ـ تغزوت 5ـ أولاد أيوب. 6ـ الشيخ محمد بن الفاطمي	من قبائل أولاد يحيى شيخ تينزولين في وقته	أعيان قصور لكعابة والشيخ محمد بن الفاطمي	أعيان المتعاقدين والشيخ محمد بن الفاطمي	تجديد الاخوة	

I ــ اتفاقيات تيَسَّى

الإتفاقية تيَسَّى بين قبيلة قصر بُوخْلاَلْ وقبيلة مسوفة.

الحمد لله وحده.

فبحول الله وقوته اتَّفَقُوا واجْتَمَعُوا جَمَاعة ءال بُخْلاَل[1] مع جماعة ءال مَسُّوفَة[2] بعد حُضُورِهِمْ بِقَصْرِ بُخْلاَلْ فمن جماعة ءَال بخلال :

- العربي بن الراضي.
- وسعيد بن علي بن عبد الله.
- وعلي بن مبارك.
- والتهامي بن علي.
- وعيسى بن محمد بن لغزال.
- ومبارك بن لحسن.

ومن جماعة ءال مسوفة

- بَهَ بن سعيد متاع أيت بو ضُوَّارْ
- وعمر أُ الحاج.
- وسعيد أُحْمِيدْ متاع أيت بَعَدِّين.
- وبَهَ بن الحاج مُنَى.
- وحمُّ أُعيسى متاع أيت حَمُّ اُهْرَى.
- ومحمد أُحماد الهَكيوي.
- ومحمد أُعْلِي ولد أُعلي أُحَدُّ الهَكِّيوِي.
- ويوسف اسعيد من أيت علي.
- وسعيد أُيشو متاع أيت أُعْرَابْ
- وبَهَ وعلي من أيت علي.
- وحمو أُسعيد متاع أيت دُهُو.

وبعد ان اجتمعوا المذكورين قد أمَر اللَّهُ بالرَّاحَةِ والهَدَانَةِ[3] بَعْدَ الفِتْنَةِ بَيْنَهُمْ وَجَعَلُوا :

تَيسَّى مِنْ حُدُودْ لَحْدَبْ[4] الذي خَلْفَ تِيدْسِي[5] يَعْنِي مِنْ رَاسْ لَحْدَبْ المَعْرُوفْ بِالاكْرِيَّعْ. وَنَزَلَتْ مَعَ الطَّرِيقْ إلَى مَجْرَى مَاءْ وَادْ الفَارَغْ[6] وَنَزَلَتْ مَعَهُ إلَى حُدُودْ تَيَسَّ الذِي جَعَلُوا أوْلاَدْ

الحَاجْ[7] مَعَ ءَالْ مَسُّفَةْ. وَرَجَعَتْ عَلَى انْدَارْ[8] الزَّاوِيَة المَهْدَوِيَة[9] التي فيهم أكُدِّيمْ[10] وَقَدِمَتْ عَلَى الطَّرِيقِ النَّافِذَةِ لِقَصْرِ تَمَزِّيرْت[11] وَجَزَتْ عَلَى الصُّورْ الفُوقِي[12]وَقَدِمَتْ إلى مَجْرَى مَاءْ الوَادْ الحَيْ[13] وَقَدِمَتْ مَعَ مَجْرَى المَاءْ المَذْكُورْ إلى حُدُودْ مَا ذُكِرَ لَاوْلَادْ الحَاجْ مَعَ ءَالْ مَسُّوفَةْ وَبَعْدما تَقْبَضْ عَلَيْهَا مِنْ أسْفَالِهَا وَتَقْدِمْ مَعَ مَجْرَى مَاءْ الوَادْ المَذْكُورْ، وَتَنْزِلْ مَعَهُ إلَى أمَامْ قَصَبَةَ سْعِيدْ ابْرَهِيمْ[14] التِي بِتُلْكِي[15] وَتَصْعَدْ أمَامَهَا عَلَى شَاطِيء نَخِيلْ أغْلَاوْدْرَارْ[16] إلَى أنْ تَقْطَعَ الجِبَالْ[17] وَتَصْعَدْ مَعَهُ عَلَى مَكْفَى المَاءْ بِجِهَةِ الفُوقْ[18] وَتَجُوزْ عَلَى ثَنْيَةِ الرَّمْلَةْ[19] إلَى أن تَصِلَ فُمْ لخْنِيكْ[20] وَتَصْعَدْ مَعَ الطَّرِيقِ يَعْنِي طَرِيقْ بَنْ دْلَالَةْ[21] إلى أكَدِّيمْ الذي جَعَلُوه إلْمْشان[22] وَتَرْجِعْ مع الطَّرِيقِ التي قَدَمَتَ لأرُوي[23] التي في جَبَلِ بُودْهِيرْ[24] إلى أن تصلَ شَعبه مجرى ما، أرُوي المذكورْ إلى أمامْ رَاسْ لَحْدَبْ المذكور بتِيذْسي وتصعد أمامَه إلى أن تصله كما ذكر أعلاهْ أول مرةً.

وكل واحد من المذكورين تحمل بإخوانه ولفّه[26] كلٌّ من ضرب معه بالبرود، ومن كسر الهْنا[27] في موضع تَيَسَّ المذكور فعليه مائة مثْقال النصف ءالالِ بُوخْلال والنصف ءلآل مسُّوفَةْ ويرُدَّ ما نهب :

ومن كسر له لفه تيَس المذكورة فيردُّ ما نهب كما ذُكر فإنْ كان من ءآل مسُّوفة أو لفُّهم فَيَثْبتْ عليه[28] ءال مسُّوفة، فيتْبَعه المقْتول والمَجْروح إن كان جرحٌ أو موت[29] وإن كان من ءال بُخْلالْ أو لفُّهم مثل ذلك. وأمَّا ءال مسُّوفة مع إخوانهم أيت ولَّانْ[30] قط[31].

وءال بُخْلال ولفهم كافة زادَتْ بهمْ تَيَسَّ المذكور[32] بعدما ذكر الى جبل ثَنْيَةِ تافيلالَتْ[33] وتقديم[34] مع مكفَى القاءْ ثَنْيَة مذْجُوكَ[35] تجيءُ مع الطريق إلى جهة الغروب[36] إلى أكَديم المذكور لِإلَمْشَانْ.

وكما شهد ءال بُخَلَالْ مَع الشيخ اعْمَر أو الحاج المذكور أعلاه أنَّ من كَسَر له لفَه الهْنا في تيَّس المذكور ولم يرِد أن يعطي الحقَّ[37] فهم عليه سواء لم يتأخر على الآخر في عيبه وفِتْنته[38].

وأما أيت حسٌ[39] لم يدخلوا في ما زاد على تيَسَّ الاولى شهد على إشهادهم بما ذكر أعلاه بما فيه وعرفهم بحال كمال في تاريخ السادس والعشرين من صفر الميمون عام 1315. عبيد ربه سبحانه محمد العربي بن محمد بن ابراهيم بقصر بخلال سَتَرهُ الله في الدارين ءامين.

I ـــ تعريف ببعض أعلام الاتفاقية وتوضيح لبعض عباراتها

(1) جماعة من ءال بخلال : جماعة قبيلة قصر بوخلال، الذي سبق أن عرفنا به في الفصل الخاص بالاتفاقيات التنظيمية.

(2) جماعة ءال مسوفة : هي قبيلة مسوفة إحدى قبائل مسوفة إحدى قبائل أيت عطا بوادي درعة (انظر الفصل الخاص بالاتفاقيات التكفلية).

(3) الراحة والهَدانة : الهُدنة.

(4) لَحْدَب : لحدب في اللغة ما غَلُظَ في الأرض، ويطلق في وادي درعة على كل أرض حرشاء لا تستغل للزراعة ولا للرعي.

(5) تِيلِدسِي : قصر صغير من قصور درعة بترناتة في الضفة الغربية لنهر درعة.

بني هذا القصر بالقرب من قصر قديم متهدم (يعرف بالقصر الخالي) ويسود الاعتقاد أن هذا القصر الخالي هو قصر تيدسي القديم الذي كان مقر للأشراف السعديين قبل انتقالهم إلى تاكَمادَّارت بفزواطة[8]. ويرى الاستاذ المَنُّوني أن مقصود ابن خلدون في إحدى اشاراته عن تادَنَّسْت ذلك المركز التجاري الكبير بدرعة، هو قصر تيلدسي القديم[9].

وأطلال القصر الخالي توجد الى اليوم بحدب الحاج عبد الله العشابي، ولا نستبعد أن يكون هذا القصر هو قصر تادنست أو تيدسي، ذلك أننا عثرنا في وثيقة بزاوية سيدي أحمد بن علي، أن هذا الرجل قد مر في مطلع القرن العاشر الهجري/16م بسوق حدب سيدي الحاج عبد الله العشابي، وهو في طريقه للقاء شيخه سيدي الغازي[10] وإن دلت هذه الاشارة على شيء فإنما تدل على أن القصر الخالي حافظ على دوره التجاري الى حدود القرن العاشر الهجري/16م.

ونلاحظ من خلال موقع القصر الخالي أنه منفتح على كل الطرق التجارية التي تربط بين درعة وتافيلالت عبر تيزنتا فيلالت وبين درعة وفركلة ودادس وهسكورة عبر فم وَرْتِي. ولحد الآن لم نتمكن من العثور على العلاقة بين تيدسي الدرعية وتيدسي السوسية.

(6) الواد الفارغ : هو الواد الميت الذي بنى فيه الشيخ مَحمد بن مهدي الجراري زاويته خلال القرن العاشر الهجري/16م. ينحدر من جبل بوزروال ويصب في نهر درعة ما بين جبل زاكَورة وزاوية الفتح الناصرية.

(7) أولاد الحاج : من الروحة فرقة أولاد فاضل (انظر الاتفاقيات التنظيمية).

(8) اندار : هي البيادير التي يجمع فيها القمح والشعير قبل درسهما.

(9) الزاوية المهدوية : زاوية الشيخ مَحمد بن مهدي الجراري.

(10) أكديم : البرج المخصص للمراقبة والحراسة.

(11) قصر تَمزيرْت : سبق أن عرفنا به في الاتفاقيات التنظيمية.

(12) الصور الفوقي : السُّور الشَّمالي لقصر تمزيرت.

(13) الوادي الحي : نهر درعة.

(14) قصبة سعيد ابراهيم : تقع هذه القصبة في المدخل الشمالي لواحة فزواطة بالقرب من قصر أمزْرُو.

(15) تلكي : أحد المرتفعات بالمدخل الشمالي لواحة فزواطة.

(16) أغْلا وَدْرَار : أحد قصور جهة تاكَمادارت بالمدخل الشمالي لفزواطة وقد اشتهر قصر أغلا ودرار بأسره العلمية منذ القرن العاشر الهجري/16م وبه مدفن عبد الله بن عمرو المضغري[11] عالم درعة وشيخ الأسرة السعدية. كما كان اغلا ودرار مقر لعائلة الدليميين الشهيرة التي أنجبت مجموعة من فطاحل العلماء خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين/18 و19م. وقد انتقل جل علماء الأسرة الدليمية الى ورززات ومراكش واستقر بعضهم بتطوان حيث لا يزالون يعرفون بالوزازيين. ويكفي هذه العائلة فخرا أنها انجبت علماء أمثال محمد بن أحمد الصغير المتوفى بمصر سنة 1138هـ/1726[12] وفقيه درعة الشهير صاحب النوازل محمد بن محمد بن عبد الله المتوفى سنة 1166/1752[13] وكان آخر علماء قصر اغلا ودرار السيد الحسن بن علي المتوفى سنة 1339هـ/19[14].

(17) ان تقطع الجبال : الى أن تمر بجبل الغارت الذي يفصل بين واحة ترناتة شمالا وفزواطة جنوبا.

(18) لجهة الفوق : لجهة الشمال.

(19) ثنية الرَّملة : تقع هذه الثنية بجبل الغارت وبها آثار بناء قديم مطمور تحت الرمال.

---

(8) محمد اليفرني : نزهة الحادي ص. 7.

(9) ذ. محمد المنوني : حضارة وادي درعة من خلال النصوص والاثار — دعوة الحق : العدد 2، السنة 18 — 1393 — 1973 ص. 132.

(10) هو أبو القاسم بن أحمد الدرعي، ولد بقبيلة هرغة السوسية واستقر في نهاية المطاف بتافيلالت حيث لقب بالغازي وهو شيخ الطريقة الناصرية — الغازية — وحول ترجمته انظر أحمد بن دواوود الهشتوكي : هداية الملك العلام خ. ع. ق 147 — ص. 47 — 48.

(11) محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة ص. 168.

(12) عباس بن ابراهيم : الاعلام ج. 6 — ص. 33.

(13) أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ج. 2 — ص. 14 — 15.

(14) محمد بن لحبيب التمنوكَالي : العقود الجوهرية في الأنباء الدرعية : مخطوط خاص — ص. 18.

(20) فم لخنيك : تصغير خنك. والخنق هو الممر الضيق بين جبلين. وتشير هذه الاتفاقية الى فم لخنق الذي يفصل ما بين الرأس الشرقي لجبل الغارت وجبل باني، ويعتبر فم لخنق ممرا تجاريا مهما يربط بين فزواطة وبلاد تازرين عبر ممر تيزنتافيلالت. وهو الطريق التقليدي لركب الحاج منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م، حيث كان الموكب ينطلق من زاوية تامكروت تحت قيادة شيخ الزاوية الناصرية.

(21) طريق بن دلالة : طريق تجاري قديم يسير محاذيا لجبل باني ويربط واحة ترناتة ببلاد تافتشنا عبر ممر فم ورتي.

(22) إلمشان : من قبائل أيت عطا التي تستوطن قصور ابن دلالة وقد سبق لنا أن عرفنا بقبيلة المشان في الاتفافيات التكفلية.

(23) أزْوى : يقع قصر أزْو في الطرف الشمالي لتلال بودهير وقد كان خلال القرن التاسع الهجري ومطلع القرن العاشر الهجري/15 و16م موطنا لقبائل الروحة. حيث لاتزال بعض آثارهم على أسماء الاماكن مثل تيِنْ نُوغرابنْ (آبار الأعراب) وحجرة المودن وغيرها. وقد تخلت قبائل الروحة عن هذه المواقع لقبيلة ايت اونير من أيت عطا.

كان أزْو في أواسط القرن 11هـ/17م مسرحا لمعارك قوية بين قوة مولاي محمد بن الشريف العلوي وأبي حسون السملالي في غمرة الصراع على بلاد درعة ولاتزال الذاكرة الشعبية تحتفظ ببعض آثار هذه المعارك بقولهم : «الأيدْيلك لازو والكلاب يتهاْزو».

(24) بودهير : تشرف تلال بودهير على واحة ترناتة من الناحية الشرقية وقد كانت أيضا مسرحا لمعارك ضارية بين مولاي محمد بن الشريف وابي حسون السملالي خلال القرن الحادي عشر الهجري/17م[15].

(25) التوميت : لم نتمكن من تحديد موقعها.

(26) لفه : اللّفُ هو الحلف، وقد سبق أن أشرنا الى كون سكان وادي درعة من واحة مزجيطة شمالا الى محاميد الغزلان جنوبا ينقسمون الى لفين كبيرين هما محبوب وملول. يجمع لف محبوب، قبائل الروحة بتينزولين (الروحة الفوقانيين) وترناتة (الروحة الوسطانيين) وفزواطة (الروحة التحتانيين) . والعائلة المزوارية بقصر الرباط، وبعض قبائل أيت سدرات (أيت مَحْلّي) وأهل مزجيطة الخاضعين لنفوذ القايد التمنوكالي. وقبائل أيت اونير ومن في حسابهم من أيت عطا.

ويجمع لف ملول قبائل أولاد يحيي حيثما وجدت بدرعة وقبائل أيت صولي (زولي) السدراتية، قبائل أهل الثلث بترنانة (قصر بني صولي، وقصر تارغليل، وقصور استور وجل الحراطين المحسوبين على أهل الثلث بالاضافة الى قبيلة مسوفة ومن في حسابها من قبائل ايت عطا. ويرى محمد المختار السوسي في انقسام سكان درعة الى لفين كبيرين استمرارا لما عليه الأمر بمناطق سوس الجنوبية[16].

والواقع أن نظام اللفوفية الذي كان سائدا بوادي درعة يعكس لنا الى حد كبير رغبة القبائل بالمنطقة في الحفاظ على التوازنات العامة على مستوى القبائل الكبرى للحفاظ على مصالحها المرتبطة بالأرض والماء والأنشطة التجارية.

(27) كسر الهُنا : نقض شروط الهدنة التي نصت عليها اتفاقية تيسي.

(28) فيثبت عليه : بمعنى أن القبيلة التي قام أحد أفرادها أو أحد المتحالفين معها بكسر «الهنا» هي التي تتكفل به وتثبت على الشروط التي اتفقت عليها القبيلتان المتعاقدتان.

(29) ان كان جرح أو موت : اذا انكسرت تيسًّى بالجرح أو الموت فإن القاتل أو الذي جرح هو الذي يتبع بالدية وحقوق الجرح.

(30) أيت ولّان : هو خمس أيت ولّال أحد الأخماس القوية في اتحادية أيت عطا وأهم فرق أيت ولال أيت اوزْين، وأيت الربع، وأيت مُولّال (وهي أقوى فرقة في خمس أيت ولال ومنها قبيلة مسوفة) وأخيرا فرقة ايت بوبكر[17].

(31) قط : معنى ذلك أن شروط الاتفاقية لا تتجاوز إخوان قبيلة مسوفة من أيت ولال وإلى غيرهم.

(32) زادت بهم تيس المذكورة : بمعنى أن أهل بخلال قد وسَّعوا من مجال تيسًّى المذكورة إلى أن تصل حدودها الى جبل باني الذي يشرف على واحة ترناتة من الناحية الشرقية.

(33) تثنية تافيلالتْ : هي تيزن تافيلالت التي تربط بين واحة ترناتة وبلاد تافيلالت عبر بلاد تازرين. وتقع هذه الثنية في الذراع الشرقي لجبل باني[18].

(34) تقديم : تقدم.

(35) ثنية مَلجُوك : تقع في الطرف الشرقي لجبل الغارت.

(36) الى جهة الغروب : أي غروب الشمس والمقصود هو جهة الغرب.

---

(15) المختار السوسي : ايليغ قديما وحديثا ص. 125.

(16) المختار السوسي : نفس المرجع ص. 239.

(17) G. Spillmann : les Ait Atta du Sahara, p. 75.

(18) خريطة المغرب : 1/100.000 ورقة زاكورة.

(37) أن يعطي الحق : ما وجب عليه من الذعائر التي نصت عليها شروط الاتفاقية.
(38) في عيه وفتنه : في تشغيبه على القبيلتين المتعاقدتين :
(39) أيت حسُ : فرقة من خمس أيت واحليم من قبائل أيت عطا وقد سبق لنا أن عرفنا بقبائل أيت حسو ومجالات انتشارهم في الفصل الذي خصصناه للاتفاقيات التكفلية.

II ــ التعريف بالاتفاقية والتعليق عليها

1 ــ التعريف بالاتفاقية :

هذه الاتفاقية من الاتفاقيات التي عثرنا عليها بقصر بوخلال وأمَزْرو، وهي مكونة من نسختين ــ نسخة قبيلة بوخلال، ونسخة قبيلة أمزرو. كتبت الاتفاقية بحضور جماعة قبيلة بوخلال وجماعة قبيلة مسوفة في شهر صفر سنة 1315هـ/1897م.

تهدف هذه الاتفاقية الى عقد هدنة بين قبيلتي بوخلال (من قبائل الروحة) وقبيلة مسوفة (من أيت عطا) أي بين قبيلة مستقرة وأخرى مترحلة.

2 ــ التعليق على الاتفاقية :

تتكون هذه الاتفاقية من ثلاثة محاور أساسية :

أ ــ **المحول الاول** : وقد بدأه كاتبا الاتفاقية بالديباجية المعهودة في الاتفاقيات «فبحول الله وقوته اتفقوا واجتمعوا..» الخ ثم ذكر أسماء ممثلي القبيلتين المتعاقدتين ستة أسماء من جماعة بوخلال ويمثلون عظام القبيلة، وعشر اسماء من قبيلة مسوفة.

ب ــ **المحور الثاني** : يرتكز هذا المحور من الاتفاقية على تحديد المجال المكاني الذي اتفق عليه ممثلو القبيلتين، وعليه تسري شروط الاتفاقية. وفي قلب هذا المجال يقع قصر بوخلال مما يجعلنا نعتقد أن قبيلة بوخلال هي التي رغبت في عقد تيسًّى مع قبيلة مسوفة.

يمثل المجال المكاني الذي حددته تيَسًّى كل الأراضي الواقعة في الضفة الشرقية لنهر درعة، التابعة لقبائل الروحة الوسطانيين. وهو مجال حيوي لقبيلة بوخلال لتفتحه على الطرق التجارية التي تربط بين ترناتة وفزواطة مثل فم زاكَورة، وثنية الرملة وثنية مَدجْوكً، ومنفتح على بلاد تازرين وتافيلالت عبر ثنية تافيلالت، وعلى بلاد دادس وتَاقَّشنة عبر فم ورتي، كما يوجد بهذا المجال سوقين اسبوعيين بأولاد الحاج وأمزرو حيث يمكن لقبيلة بوخلال أن تتزود بما هي في حاجة اليه ويبيع منتوجاتها الزراعية.

ج ــ **المحور الثالث** : يرتكز على جملة من الشروط الرادعة اتفق عليها المتعاقدون، وقد حددت الاتفاقية ذعيرة ثقيلة تقدر بمائة مثقال لكل من «كسر الهنا».

وهذه الاتفاقية واحدة من اتفاقيات تَيَسَّى والاتفاقيات الصلحية التي ظهرت بوادي درعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م وطيلة النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري/العقود الثلاثة الاولى من القرن العشرين الميلادي. وتمثل هذه المرحلة أوج اندفاع قبائل أيت عطا نحو الواحات الصحراوية الممتدة جنوب الاطلس الكبير وما صحبه من تأزم في الأوضاع الاجتماعية والسياسية. وهكذا يتضح أن اتفاقيات تيسَّى تعتبر في الواقع أرضية لتنظيم العلاقات بين المستقرين وقبائل الرحل، ورد عفوي تفرضه ارادة الجماعة، سواء على مستوى قبائل القصور أو على مستوى قبائل الرحل لتعوض الفراغ السلطوي التي ظلت تعاني منه بعض المناطق بدرعة، في وقت كان المخزن منشغلا في المناطق الشمالية بهموم المحافظة على الاستقلال الوطني أمام الاطماع الاوربية.

الاتفاقية رقم 2

اتفاقية تَيَسَّى بين قبيلة قصر بني صولي والكرازبة

الحمد لله

اتفقت قبيلة بني صولي[1] وقبيلة أولَادْ كَرْزَابْ[2] على عَقْدِ الإِصْلَاح والأمان على حدود بِلادهم مدة عامين كاملين، وجعلوا فيه حقوقا وشروطا وتحمل كل واحد بإخوانه فمن الحقوق :

— من جرح أحدا يذبح عليه ويعطي خمسة مثاقيل

— ومن ضرب أحدا بعشرة مثاقيل، فإن قتله يخرج للزَّواكَ ويعطى ما وجب عليه بالعرف

— فمن ضاع له شيء فوجده في بلاد آخر فإنه يرده له ولا يعطي عليه شيء فإن ثبت عليه أنه سرقه فيعطي عشرة مثاقيل ويرد ما نهب، فإن وقع الانكار فيحلف صاحب المتاع مع المتحملين من إخوانه، وإن نكر الناهب فيحلف مع إخوانه والمتحملين على حسب العرف[3].

وحدود الامان في بلاد بني صولي من قطع الواد[4] في جدر النخيل[5] إلى فوق سور تافراوت[6] إلى تَمْدَتْ تَزَمُّتْ فيخرج على الطريق وراء القَسْبَةِ[7] إلى طريق المْصَلَّى[8] التي بينهم وبين تَرْغَلّيلْ[9] فتخرج على فم الأَرْبِعَاءْ[10] إلى نهاية البلاد فيسر معه الوَادْ إلى أُكَدِيمْ أولاد أُوْشَاح[11] فَيَسِيرُ مع مَكْفِحْ المَاءْ[12] بقطع أُوْلَادْ يَحْيَى[13] بَأَمَرْدُولْ[14] إلى العُشْشْ[15] النُوبِين الثمِيَّات[16]

فمن أراد أن يحط[17] ما تحمل به فليعلم صاحبه، وبعد الإعلام خمسة عشر يوما.

فمن المتحملين من أولاد كرزاب

ــ شيخهم الخْلِيفَ بن الدَّحْمَانْ، ومحمد بن صَّمْتْ، وحمُّ بن حدَّ، والخضر بن أحمد، واعْبِيدْ بن أحمد، ومحمد بن عبد المولى.

ومن المتحملين من بني صولي :

ــ التهامي بن السبع، وعبد الله بن الطيب، والمدني بن الطيب مع عمِّ عمرو، وعبد الرحمان مع بَابَا بني الحاج، والغندور بن الصالح، والعرابي بن احمد، وسالم بن لحسن، وعمر بن موسى ومحمد بن أحمد، والهاشمي من بني عز.

هذا ما تَرَاضَوا عليه وعقدوه بينهم شهد عليهم من أشهدوه به وعرفهم بحال كال. وبتاريخ فاتح ربيع النبوي عام 1304 ــ عبد ربه محمد بن ابراهيم الصولي امنه الله ءامين. على بن عبد الله أضراب الجولي إمام مسجد أو لاكرزاب في وقته لطف الله به ءامين.

I ــ تعريف ببعض أعلام الإتفاقية وتوضيح لبعض عباراتها

(1) **قبيلة قصر بني صولي : تتشكل هذه القبيلة من عدة عناصر قد تحولت إلى الاستقرار والارتباط بالارض، وشكلت ما سميناه في بحثنا بقبيلة القصر. وجل عناصر هذه القبيلة من الحراطين تساكنهم عدة عناصر ينحدرون من أصول متباينة الاعراق فمنهم من ينحدر من قبائل أيت خديدُو، وأيت يفلمان[19] كما جاء بعضهم من وادي دادس واخرون من تادلة[20]**

يقع قصر بني صولي في المدخل الشمالي لواحة ترناتة بالضفة الشرقية بنهر درعة. ويعتقد أن هذا القصر قد بني في أواخر القرن العاشر الهجري /16م بأمر من السلطان أحمد المنصور السعدي[21].

وبالرغم من كوننا لا نتوفر على ما يسمح لنا بتأكيد هذا الاعتقاد أو نفيه، فلا نستبعد أن يكون هذا القصر قد بني فعلا في عهد أحمد المنصور السعدي، ذلك أن هذا السلطان، قد اعتنى عناية خاصة بوادي درعة بعد فترة وجيزة من توليه أمر المملكة بعد معركة وادي المخازن، ويرجع هذا الاهتمام ببلاد درعة إلى الدور الذي لعبته هذه المنطقة في سياسة المنصور السعدي بعد فتح بلاد السودان[22] ويتمتع موقع قصر بني صولي بمجموعة من المميزات الاستراتيجية، فالقصر بني على مقربة من فم أزْلاكْ الذي يربط بين واحة تِيِنْزُولِينْ شمالا وواحة ترناتة جنوبا، وبامكان المتحكم في هذا القصر أن يراقب الحركة التجارية بالمنطقة، كما يراقب من جهة أخرى حركة المرور بفم وَرْتِي الذي يربط بين وادي درعة ومنطقتي دادس وهسكورة وشمالا.

وتدل كل المعطيات التاريخية أن قصر بني صولي، كان مقر للعامل المخزني على بلاد درعة في أواخر العهد السعدي وردحا من العهد العلوي قبل أن يتحول المقر إلى قصبة أغلان في العقدين الثالث والرابع من القرن الثاني عشر الهجري /18م عندما عين السلطان مولاي اسماعيل ابنه مولاي الشريف عاملا على درعة[23] وقد عاد مقر العمالة مرة أخرى إلى قصر بني صولي خلال

---

(19) فيما يتعلق بقبائل أيت خديدُو، وأيت يفلْمان ومجالات انتشارها انظر :

ــ التقي العلوي : أصول المغاربة : القسم البربري : مجلة البحث العلمي ع. 23 ــ 1974 ص. 122.

(20) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa, in A.M., Volume 9, Tome 2, p. 96

(21) السيد عبد الكريم المزريوي : المذكرة : مخطوط خاص ص. 8.

(22) انظر الفصل الرابع من هذا البحث.

(23) انظر الفصل الخامس من هذا البحث.

القرن الثالث عشر الهجري. وكان القائد مبارك بن الطاهر الرحماني آخر من تولى مسؤولية القيادة بقصر بني صولي قبل توقيع معاهدة الحماية[24]. وقبل أن تتمكن فرنسا من بسط سيطرتها الكاملة على وادي درعة ظل سكان قصر بني صولي يقومون بدورهم العادي والموالي للمخزن وذلك بتفانيهم في خدمة القايد حمو الجلاوي الذي حاول من خلال حملاته الردعية إخضاع قبائل وادي درعة[25] وقد كان القايد حمو ينزل خلفاءه على درعة بقصر بني صولي[26] وبعد تأسيس مركز زاكورة سنة 1352هـ /1932 ميلادية فقد قصر بني صولي أهميته السياسية وتحول إلى قصر عادي من قصور وادي درعة[27].

(2) قبيلة أولاد كرزاب : تحسب هذه القبيلة على قبيلة أولاد يحيى بل إنها تعد من صميم هذه القبيلة. تسكن منذ وقت غير معروف قصر ملال في الضفة الغربية لنهر درعة، حيث تتقاسم المجال الزراعي والرعوي مع قبيلة قصر بني صولي.

تتشكل قبيلة أولاد كرزاب الكبرى من اربعة فرق كبرى وهي : فرقة ملال، وفرقة النشاشدة، وفرقة خشاع، وفرقة لمهايل. وتنتشر قبائل أولاد كرزاب في منطقة لكرارة التي تفصل بين وادي درعة وسوس، حيث توجد بعض تجمعاتها بفم الواد بزكيط والخريبوعة وبوكير وغيرها[28].

(3) العُرْف : حسب العادة المتعامل بها بين القبائل بدرعة

(4) قُطعُ الواد : الجانب الآخر للواد، والمقصود هنا هو الضفة الغربية لنهر درعة حيث تتصل حدود بلاد قبيلة قصر بني صولي بحدود بلاد قبيلة أولاد كرزاب.

(5) جدر النخيل : جدر الشيء هو أصله، والمقصود هنا الاكمة من النخيل، كعلم بآرز في المنطقة يعتبر كحد يسرى فيه مفعول اتفاقية تيسّى بين قبيلة بني زولي وقبيلة أولاد كرزاب.

(6) تافراوْث : قصر من القصور القريبة جدا من قصر بني جولي.

(7) وراء القسبة : المقصود وراء القصبة، وقد تكون هي قصبة ايت أونير التي ورد ذكرها عند الطيب بن لحبيب[29]

(8) المصلي : المصلي خارج القصر هو المكان الذي تؤدي فيه صلاة العيدين.

(9) قصر تِرْغليلْ : قصر ترغليل من القصور القديمة بوادي درعة وتؤكد كل القرائن انه كان مشهورا بالمنطقة منذ القرن العاشر الهجري /16م، ونستشف من بعض إشارات صاحب الدرر المرصعة أنه كان مقرا للعامل المخزني قبل تأسيس قصر بني صولي[30] وجل سكانه من الحراطين، وقد كانت تستوطنه طائفة يهودية كبرى، كما كان هذا القصر مشهورا بصناعة دباغة الجلود.

(10) فم الاربعاء : هو المكان الذي كان يقام فيه سوق قديم ويعقد هذا السوق يوم الاربعاء. وقد تحول مكان هذا السوق إلى خارج لحدب من جهة الشرق بالنسبة لقصر بني زولي، ويعرف بسوق الخميس، ولايزال هذا السوق يعقد كل يوم خميس إلى اليوم.

(11) قصر أولاد أوْشاخ : من القصور المهمة بترناتة على الطريق الرابط بين زاكورة وأكدز، وقد اشتهر خلال القرن الثالث عشر الهجري /19 بالعلم والفقه.

(12) مَكْفحُ المَاءْ : الكلمة مدرجة كما هو واضح، لذلك فالمقصود بمكفح الماء هو المكان الذي يسيل منه الماء أي ماء المطر.

(13) بقطعْ أوْلاد يَحْيَى : أي الشط الغربي لنهر درعة المقابل لقصر بني صولي، وتستوطنه قبائل أولاد يحيى مثل لكرازنة وغيرها.

(14) أمَرْدُولْ : أمردول هي الارض المنبسطة في اللهجة الأمازيغية.

(15) الغَشْشْ : مفرده غشٌ وهو صغار النخيل كما في لسان العرب لابن منظور.

(16) النوبين التّيات : لم نتمكن من تحديد معنى الكلمتين.

(17) أن يَحُطّ : من أراد أن ينقض عقد الصلح من القبيلتين.

---

(24) استفدنا ذلك من رسالة سلطانية بتاريخ 2 جمادى الاولى عام 1305/1887م.

(25) فيما يخص حملات القايد حمو الكلاوي الى درعة انظر :

G. Spillmann : Souvenir d'un colonialiste p.

(26) الطيب بن لحبيب : كتيب في تاريخ درعة : من ص. 17 — الى ص. 24.

(27) بالرغم من انتقال مركز السلطة السياسية في عهد الحماية الى زاكورة فإن قصر بني صولي ظل محتفظا بسوقه الاسبوعي (يوم الخميس) وقد تحول هذا القصر في السنوات الاخيرة الى مقر بجماعة بني صولي القروية ثم الى قيادة.

(28) الطيب بن لحبيب : المرجع السابق ص. 17.

(29) الطيب بن لحبيب : المرجع السابق ص. 17.

(30) محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة : مخطوط خاص ص. 8.

II ـــ التعريف بالاتفاقية والتعليق عليها.

هذه الاتفاقية واحدة من الوثائق التي عثرنا عليها عند قبيلة أولاد كرزاب بمَلاَلْ، ويعود تاريخ تحريرها إلى سنة 1304 /1886م.

وتعتبر هذه الاتفاقية من اتفاقيات تَيَسَّى المحددة في الزمن (عامان كاملان) والمحددة في المكان، حيث يسري مفعول شروطها في المجالين الزراعي والرعوي لقبيلتين بني صولي وأولاد كرزاب.

واذا كان من الصعب علينا أن نكشف عن الاسباب الحقيقية التي جعلت القبيلتين يعقدان هذا الصلح، فإننا نعتقد أن هذه الاتفاقية قد جاءت لتضع حدا لحالة من التوتر بين القبيلتين المتجاورتين.

II ـــ الإتفاقيات الصلحية

اتفاقية صلحية بين قبيلة قصر ايت عبد الله وايت مَحَلِّي من ايت سدرات (1795/1210 م)

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد واله

بحول الله وقوته فقد اتفقوا الفريقين بنو عبد الله مزجيطة[1] وبني مَحَلِّي[2] قبيلة السَّدْرَاتِي[3] على الصلح الصَّمِيم والخير الدائم لِمَا سَلَف بينهما من القتل والنهب وغير ذلك من الفعل الذميمة (الأفعال الذميمة)

حضروا لدى السيد يوسف بن عبد الملك[4] نفعنا الله ببركته ءامين وونجهم على الفتنة والظلم والتعدى وتابوا واسترجعوا (رجعوا) وضمن الله تعالى والسيد بلقاسم بن عبد الرزاق[5] ضمنهم على انفسهم بني السدراتي على قتلهم وعلى غدرهم وعلي سوء حالهم[6] ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسنوتيه اجرا عظيما[7]. وأخذ منهم المتحملين[8] فأول المتحملين منهما

ـ يَشُّ أُحَمَّ[9] بني أيت داود الوفي[10] تحمل بإخوانه.

ـ وعلي بن أحمد بني أيت أحمد أُعلي تحمل.

ـ ومحمد بن أحمد بني أيت لحسن تحمل.

ـ ومحمد بن سعيد امهوش وتحمل.

ـ وكذلك يَشُّ بن لحسين وَخْدَش تحمل.

ـ ومحمد بن حم الملقب عَلّا وَخْدَش تحمل.

ـ وكذلك لحسن بن حمّ وَخْدَش تحمل.

ـ وأخيه سعيد بن حم وخدش تحمل.

فهؤلاء بني هَمّ.

ومن بين السُكتي(11) منهما.

ـ على وعلى(12) السكتى الغربوز تحمل

ـ وكذلك حدُايَشُ السكتى الغربوز تحمل

ـ وكذلك يش أحم بني أيت سعيد أهَك تحمل

ـ وكذلك حْمَد أعلي بني حَدُّ او موسى السكتى الغربوز تحمل

ـ وكذلك سعيد بني أيت بتقرسُت السسُّكتى تحمل.

ـ وكذلك الفقير(13) يش وعلي بني على أيْدِيرْ السكتي تحمل.

ـ وكذلك الحسين الحسن بني لحسن أيدَير بني أيت عَتُّ السكتي تحمل.

ـ وكذلك ابن أخيه لحسن بن محمد السكتى تحمل.

فقد ضمن الله تعالى لبني عبد الله على ما ذكرنا في هذا الرسم أعلاه وذلك كله بحضور السيد يوسف المذكور، وبسط لهم رداءه وجعل المصحف عليه وأتوا المتحملين المذكورين وجعلوا أيديهم على المصحف(14) وأقسموا بالله بكل ما في المصحف على ضرورة(15) بنو عبد الله. وحضروا جماعة بنو عبد الله وقالوا يا بني محلي نحن ما قدرنا على ضر وحط(16) ضرورتكم ولا نتبعها أضلا(17) فقد ألزمنا عارنا لله تعالى(18) ثم السيد بلقاسم بن عبد الرزاق نفعنا الله ببركته ءامين وأشياخه وأولاده. فقد التقينا مع إبنه السيد يوسف في وقتنا، وحملنا انفسنا وعارنا(19) وتكفلنا بهؤلاء وجعلنا من جملة أعياله(20) يجلب لنا النفع ويدفع عنا المضرة بالله تعالى والأشياخ. أول منهما من قبيلة المذكورين من بني عبد الله :

ـ ابراهيم بن لحسن أزْمَامِي

ـ والمقدم حمد بني السيد علي بلقاسم

ـ واحمد بن محمد بن حدّ بن عياد العبدلاوي

ـ والسيد عبد الله بن محمد بن عياد

ـ وكذلك لمعلم(21) عبد الله بني أيت حسن العبدلاوي.

ـ واحمد بن محمد المهر به يعرف

ـ والسيد عبد الله بن على بني عيسى بن با سيدي. وكلهم العبدلاويين، وكلاهما من أعيال الولي الصالح السيد يوسف والسيد بقاسم بن عبد الرزاق. هذا أدى علي ونقلنا بعد تاديتهم في يوم مسّة وعشرين يوما في شهر الله صفر من عام عشرة ومائتين وألف.

عبيد ربه سبحانه عبد الله بن لحسن بن علي بن عبد الله ابَّعلِي العبدلاوي إمام مسجد بنو عبد الله في الوقت أمنه الله ءامين.

I ــ تعريف ببعض اعلام الإتفاقية وتوضيح لبعض عباراتها

(1) بنو عبد الله مزجيطة : سنعرف بهذه القبيلة في الفقرة رقم II والتي خصصناها للمتعاقدين.

(2) بنو مَخلِّي : أحد فرق قبائل أيت سدرات

(3) قبيلة السدراتي : يقصد قبيلة أيت سدرات وقد سبق لنا أن عرفنا بقبائل أيت سدرات في الفصل الذي خصصناه للإتفاقيات التكفلية.

(4) السيد يوسف بن عبد الملك من ذرية الشيخ أبي القاسم بن عبد الرزاق، مؤسس بن عبد الملك وزاوية تينمسلا في الفصل الذي خصصناه للإتفاقيات التكفلية

(5) سبق لنا أن عرفنا في فصل سابق من هذا البحث بأبي القاسم ابن عبد الرزاق.

(6) يقصد الكاتب أن الشيخ أبو القاسم هو الذي سيضمن قبائل ايت سدرات حتى لا يعودوا مرة أخرى بعد هذه الإتفاقية الصلحية إلى ممارسة النهب والتقتيل ضد «بنو عبد الله»

(7) الآية رقم 10 من سورة الفتح.

(8) أعيان قبائل أيت سدرات وعلى الخصوص من أيت خَمُّ وأيت سَكت.

(9) أُ = أو تعني في اللهجة الامازيغية «بن»

(10) الوَفِّيِّ نسبة إلى عظم أيت وَفِّي وهو أحد عظام قبائل ايت سدرات بوادي درعة.

(11) السكتي نسبة إلى عظم أيت سكت وهو أحد عظام قبائل أيت سدرات بوادي درعة. وقد أسس أيت سكت قصرا خاصا بهم يعرف بهذا الإسم في الضفة الشرقية من نهر درعة في المدخل الجنوبي لواحة مزجيطة. انظر خريطة المغرب 1/100.000 ورقة أكَدز.

(12) يقوم حرف الواو في اللهجة الأمازيغية مقام «ابن» والمقصود علي بن علي.

(13) الفقير : يقصد به المُريد صاحب السبحة من أتباع طريقة من الطرق الصوفية.

(14) القسم على المصحف الكريم : من الأمور المعهودة بدرعة ولا يستحضر المصحف إلا إذا كان الأمر عظيما. ولأهمية هذه الاتفاقية الصلحية فقد حرص شيخ زاوية تينمسلا سيدي يوسف بن عبد الملك على استحضار المصحف الشريف لإرهاب أعيان قبيلة أيت سدرات واقناعهم باحترام التزامهم مع قبيلة أيت عبد الله.

(15) بالرغم من أن منطوق الجملة يقصد إلحاق الضرر بأيت عبد الله، فإن الكاتب يقصد في واقع الأمر، أن قبائل سدرات قد أقسمت بالمصحف الكريم على عدم الحاق أي ضرر ببني عبد الله.

(16) وحط : من حط يحط أي وضع يضع كما في لسان العرب لابن منظور. والمقصود أن بني عبد الله قد تخلوا عن إلحاق أي ضرر بقبيلة ايت سدرات.

(17) العبارة تعني أن بني عبد الله لم يفكروا أصلا في إلحاق أي ضرر بقبيلة ايت سدرات.

(18) ألزمنا عارنا لله تعالى : العار في اللغة هو السُّبة والعيب. وهذه الجملة متممة لمعنى ما قبلها يعني أن بني عبد الله قد حطوا كل ما من شأنه أنْ يلحق ضرر بالمتعاقدين معهم من قبيلة أيت سدرات. والدليل على ذلك انهم الزموا أنفسهم عارا إذا خرقوا الاتفاقية والضامن لذلك هو الله والشيخ أبي القاسم بن عبدالرزاق !!

(19) يقصد كاتب الوثيقة أن الشيخ سيدي يوسف بن عبد الملك يتحمل ويتكفل بني عبد الله.

(20) الجملة بالرغم من عدم وضوحها تقتضي بأن بني عبد الله يعتبرون أنفسهم عيال سيدي يوسف بن عبد الملك لذلك فإنهم يفوضون لهذا الشيخ أن يعقد الصلح باسمهم مع قبيلة ايت سدرات.

(21) لمْعَلِّم هو الذي يتقن حرفة من الحرف في قصور واحات وادي درعة كالحدادة، والنجارة وغيرها.

II — التعريف بالمتعاقدين

1) التعريف بالوثيقة

هذه الوثيقة تعتبر من الوثائق التي تسلمناها من السيد عبد الرحمان القادري شيخ زاوية تينمسلا في الوقت الحالي وقد سمح لنا مشكورا بتصويرها.

يعود تاريخ الوثيقة الى سنة 1210هـ/1795م. وقد كتب بخط رديء جدا وبلغة عامية في جل مضامينها. وقد أشرف على عقد هذا الصلح بين قبيلة أيت عبد الله وقبيلة أيت سدرات شيخ زاوية تينمسلا القادرية في وقته سيدي يوسف بن عبد الملك.

2) المتعاقدون

أ — قبيلة أيت سدرات وقد سبق لنا أن عرفنا بها بشكل مفصل في مكان سابق من هذا البحث.

ب — قبيلة بنو عبد الله : هي قبيلة قصر أيت عبد الله، من حراطنة مزجيطة.

يقع قصر أيت عبد الله في الضفة الشرقية لنهر درعة في المنطقة الجنوبية من واحة مزجيطة. وقد كانت قبائل هذه المنطقة خلال الفترة التي أعقبت وفاة السلطان مولاي اسماعيل (1139هـ/1727)، تتعرض لهجومات قبائل أولاد يحيى انطلاقا من واحة تينزولين فاستنجدت قبيلة أيت عبد الله وغيرها من قبائل المنطقة بالشريف سيدي منديل[31] الذي سافر إلى دادس واستقدم قوة مشكلة من مختلف عناصر قبائل أيت سدرات لحماية المدخل الجنوبي من واحة مزجيطة وسكانه من هجومات قبائل أولاد يحيى وقد تنازل سكان هذه المنطقة عن جزء من ممتلكاتهم لقبائل أيت سدرات مقابل هذه الحماية، الأمر الذي يسمح لهؤلاء الوافدين بالاستقرار والارتباط بالأرض. وقد تحولت قبائل أيت سدرات بعدما أسست مجموعة من القصور مثل قصر أيت وفي، وقصر أيت اودينار وقصر أيت اسحاق وغيرها الى قبائل تزاحم السكان الأصليين على المراعي والماء والأرض وقد كانت هذه المزاحمة تتحول الى صدام مصلح بين أيت عبد الله وغيرهم وأيت سدرات، وفي إطار جعل حد لمثل هذه الصدامات عقد هذا الصلح بين أيت عبد الله وأيت محلي السدراتيين برعاية سيد يوسف بن عبد الملك.

---

(31) G. Spillmann : Districts et tribus de la haute vallée du Draa p. 65.

اتفاقية صلحية بين قبيلة أولاد يحيى وقبيلة مزجيطة

الحمد لله وحده

اتفقت فرقتين من المسلمين وهم أهل مزجيطة(1) وقبيلة العرب أولاد يحيى(2) جميعا على اختلاف أفخاذها(3) وأنسابها أصلح الله الجميع وألف بين قلوبهم وأذهب غيظ قلوبهم على الهنا والعافية والأمان وأخوة الإسلام وعلى دين الله أعوانا وعلى لف واحد ولامة(4) صالحة دائمة ووقف على حدود الله وشريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وتعاقدوا فيما بينهم بأن :

1 — من ترامى على أحد بغير حق بنهب وعلى وجه الحرابة واللصوصية وأخذ الأموال أو إذاية النفوس فقد عصي الله ورسوله فإنه يعطى عشرة مثاقيل لكل واحد من المحاربين انصافا(5) وعقوبة. ويرد ما أكل قل أو جَلّ، وإذا دعي لشريعة الله وكسرها(6) وامتنع فإنها تضعَّف بمثيلها.

2 — وحقوق النفس من قتل نفسا بغير حق فيلزمه خمسين مثقالا أنصافا للقبيلة ويتبعه أولياء المقتول بما بدالهم من قصاص أو تغريب(7) أو عفو.

3 — ومن جرح ببندقة الرصاص(8) وأدمى بحديد فعليه عشرة مثاقيل انصافا، وما جرى به العرف للمجروح(9) من أكل في لحم وآدام وغير ذلك.

4 — ومن جرح بحجارة يعطي خمسة مثاقيل.

5 — ومن أخذ مال الغير في غيبته على وجه السرقة يرد ما دعي عليه ويعطي خمسة مثاقيل انصافا.
وذلك على يد عين أعيان مزجيطة وحاكمها القائد الأجل الفقيه الأكمل الأعز الأفضل السيد لحسن بن أحمد التملجالي(10) وأكابر دولته من إخوته، وعين أعيان العرب المذكورين الشيخ الفاضل الشيخ عثمان بن مسعود العثماني(11) وأكابر إخوته وشيوخ دولته.

6 — ومن دعي عليه شيء مما ذكر فأنكر ولم تكن عليه البينة فإنه يحلف معه عشرة من اخوته في عظمه(12) على اختيار الطالب وتعيينه وذلك عن إذن من ذكر.
وألزموه أنفسهم وجميع قبائلهم من معهم حاضرا أو غائبا ولأولادهم ومن يأتي بعدهم ما هم يفسخوا ذلك على الدوام والاستمرارية في جميع البلاد من أراضيهم كلهم في الحضر والبادية من خلاء وعمارات وطرقات ليلا ونهارا عرفوا قدره.
بل وأن من التف معهم في بلدة تِينْزُولين وترنَاتة(13) وغيرهم من أهل درعة فقد دخل في هذه الحقوق ولهم ما عليهم جميع ما ذكر من الشروط كلها وكذلك عظم بني علي بن يوسف العطاوي(14) فقد دخلوا فيه كلهم.

شهد بما فيه عنهم من أشهدوه بحال كماله وعرفهم وفي شهر ربيع النبوي سنة ثمانية وخمسين ومائتين وألف. عبيد ربه تعالى محمد بن محمد الكاملي. وعبيد ربه سبحانه وتعالى محمد بن ابراهيم لطف الله به ءامين.

والحق به عن أداء المذكورين.

7 ــ بأن من خرج من إخوته وفر منهم وعصى أمرهم من إحدى الفريقين فإن الآخر لا يقبله ولا ينزله ولا يسكنه مادام عاصيا لإخوته.

مكررا اسمه محمد بن محمد الكامل.

وعبيد ربه سبحانه وتعالى محمد بن ابراهيم لطف الله به ءامين.

I ــ تعريف ببعض أعلام الاتفاقية وتوضيح لبعض عباراتها

(1) أهل مزجيطة : هي مجموعة قبائل القصور التي تستوطن واحة مزجيطة أي من منطقة أفلّا ندري (أعلى درعة) إلى منطقة اخف نُوزْرْو (رأس الحجر)، وسنعرف بأهل مزجيطة بشكل موسع اثناء التعريف بالاتفاقية.

(2) قبيلة أولاد يحيى : هي القبيلة الكبرى المعروفة بدرعة بقبائل أولاد يحيى. ويمتد مجال انتشارها من مزجيطة شمالا إلى ترناتة جنوبا وسنعرف فيما بعد بقبائل أولاد يحيى.

(3) الفخذة في القبيلة هي الفرقة وتتكون «الفخدة» من مجموعة من العظام.

(4) لامة صالحة : اللّامةُ هي الجمع الكبير، والمقصود أن هدف هذا الصلح بين قبائل مزجيطة، وأولاد يحيى هو توحيد القبيلتين في جمع واحد صالح لا فرق فيه بين أهل مزجيطة وقبيلة أولاد يحيى.

(5) النصاف : هي الذعائر المالية التي كانت تفرضها قبائل القصور على مرتكبي المخالفات.

(6) وإذا ما دعي لشريعة الله وكسرها : أي رفض التحكيم والحضور أمام الشخص أو الجماعة التي تعينه القبيلتين لحل المشكل الطارىء.

(7) أوْتُغريب : من العقوبات الردعية التي كانت قبائل القصور في حق مُرْتكبي جرائم القتل التغريب من القصر. ويعرف المغرَّب «بالمزاوك» حيث يلتجىء إلى إحدى الزوايا للاستحرام بها.

(8) بندقية الرصاص : أي بالسلاح الناري.

(9) من أكل في لحم وآدم وغير ذلك : من العقوبات الردعية التي كانت قبائل القصور تتخذها في مرتكبي جرائم الجروح. أن القبيلة كانت تفرض على مرتكب هذه الجريمة مؤونة المجروح، ويختلف تقدير هذه المؤونة من واحة إلى أخرى بل من قصر إلى آخر. فمثلا قدرت قبيلة قصبة المخزن في أواسط القرن الثالث عشر الهجري/19م دية المجروح باثنى عشر اوقية دراهيم وصحفة وستة امدود من القمح وستة امدد شعيرا،(32) وهو قدر كبير ولاشك.

(10) السيد الحسين بن أحمد التملجالي : هو قائد قبائل مزجيطة في وقته. ويذكر الفقيه محمد لحبيب التمتوكالي أن القايد الحسن هذا قرأ بفاس. وقد توفي يوم 28 شوال 1279هـ/1862(33).

(11) الشيخ عثمان بن مسعود : هو شيخ قبائل أولاد يحيى في وقته وقد ظل على رأس مشيخة أولاد يحيى الى حوالي سنة 1293هـ/1876م(34) ويعتبر الشيخ عثمان أول شيخ مخزني على قبيلة أولاد يحيى خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م.

---

(32) انظر الاتفاقية رقم 2 من الاتفاقيات التنظيمية.

(33) محمد بن لحبيب التمتوكالي : العقود الجوهرية مخطوط خاص ص 76.

(34) استفدنا ذلك من ظهير تعيين ابنه العربي بن عثمان على رأس مشخة أولاد يحيى سنة 1293هـ/1876م.

(12) العَظْمُ : يتشكل العظم عند قبائل القصور من عدة أسر ويقابله عند قبائل الرحل «أخص». وتتكون قبيلة القصر في العادة من مجموعة عظام تتناوب على مشيخة القبيلة بطريقة «دمقراطية» وبشكل يحافظ على التوازنات الداخلية للقبيلة.

(13) من التف معهم في بلدة تيزولين وترناتة : أي قبائل القصور الاخرى التي يجمعها لف واحد بقبائل أولاد يحيى وقبائل أهل مزجيطة. وقد سبق لنا أن أشرنا إلى نظام اللفوفية السائد بواحات درعة (انظر اتفاقية تيسّى بين قبيلة بوخلال وقبيلة مسوفة من هذا الفصل).

(14) بنو علي بن يوسف العطاوي : لم نتمكن من تحديد قبيلة بني علي في أيت عطا ولا نستبعد أن يكون هؤلاء من قبيلة مسوفة. لكون هذه القبيلة ومن في حسابها تتحالف في العادة مع قبيلة أولاد يحيى.

II ـــ التعريف بالاتفاقية والتعليق عليها

هذه الاتفاقية واحدة من وثائق دار القايد اليحياوي، وقد سمح لنا مالكها الشيخ مسعود بن العربي بتصويرها.

وتمتاز هذه الاتفاقية عن باقي جل الاتفاقيات التي عثرنا عليها بوادي درعة بكونها كتبت بعربية فصيحة وخالية من الأخطاء الإملائية والنحوية واللغوية مما يوحي بأن كاتبها يتمتع بحظ وافر من المعرفة.

والاتفاقية تندرج ضمن الاتفاقيات الصلحية، وهي عبارة عن اتفاق صلحي عقد بين قبيلتي مزجيطة وأولاد يحيى. ويعود تاريخ كتابتها الى عام 1258هـ/1842م.

وتتجلى أهمية هذه الاتفاقية في كونها عقدت بين قبيلتين ترتبط كل منهما بطريق مباشر بالمخزن ويتولى ممارسة السلطة عليهما قائد مخزني (القايد الحسن التمنوكالي بالنسبة لأهل مزجيطة) وشيخ مخزني (الشيخ عثمان بن مسعود بالنسبة لقبيلة أولاد يحيى). وان دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن المخزن، كان يترك لقبائل وادي درعة نوعا من الحرية في تنظيم العلاقات العامة فيما بينها مادام الأمر لا يتعارض ونفوذ المخزن على هذه القبائل.

1 ـــ التعريف بقبائل أهل مزجيطة :

تطلق كلمة «أهل مزجيطة» على مجموع قبائل القصور التي تنتشر على طول واحة مزجيطة من قصر تانَمْروت بأَفَلاَّنَدْرى (أعلى درعة) إلى زاوية إخف نوزْرُو (رأس الحجر) بفم تانسًّخْت[35]. وتتكون قبائل أهل مزجيطة من مجموعات من الفرق أهمها :

1 ـــ أيت أوفلاَّنَدْرى : وتضم هذه الفرقة قصر تِيزْكَي، وأَنَسَّايْ، وتَاغْرُوتْ، وإِسْفَالنْ، وتِيِنغِيلْ، وحَارْت نْتِينيغِيل وغيرها.

(35) انظر خريطة المغرب : 1/100.000 ورقة أكذز.

2 ــ فرقة أيت التَّلتْ : وتضم قصور : الرباط، وتَارْمَسْتْ، وقصر اكَدز، وأُسَلِّيمْ، وزاوية إكَرنوْرِيرن، وتَلوِينْ، وَوْرِيزْ.

3 ــ فرقة أيت تمْنُوكَالين : وتضم قصور تامْنُوكَالَتْ، وتَافَرْكَالْتْ وأسَليمْ نَزْدَار، وأبو صَاصْ، وتالمْزِيتْ، بالاضافة الى مجموعة من الزوايا مثل زاوية السوق، وزاوية سيدي مولود وغيرها.

4 ــ فرقة أيت تِسَرْكَّاتْ : وتضم فصر تكَيت (يعرف أيضا بقصر تسركَات) وقصر تلَاتْ نْتِينُوفَلَّا، وقصر أيت القايد المِيرْ وإغْرَم أُزُوكَاغْ، وإكَمُّوضَنْ ومجموعة من الزوايا مثل زاوية سيدي الشرقي، وزاوية سيدي بومدين.

5 ــ أفْرا : وتضم قصور تِمِضَرْتْ، وإغْرْغَرْ، وتامكَّاسَلْت وتاركَانلمال، وقصور أيت عبدالله (قصر أيت مْلَكت)، وقصر أيت خَلْفُون، وقصر أيت عبد الله) وتانَسِّيخْت، والحارث ومجموعة من الزوايا مثل زاوية أبو الحسن، وزاية تكَرسيفت وغيرها[36]. إلا أن هذه الفرقة الأخيرة والتي كانت خلال القرن الحادي عشر الهجري/17م كانت تُحْسب على أهل مزجيطة[37] تعرضت لضغوط قبيلة أولاد يحيى التي كانت تجاور أهل مزجيطة من الناحية الجنوبية، فقام سيدي منديل، أحد صلحاء المنطقة باستدعاء أيت سدرات من دادس للتصدي لهجومات أولاد يحيى وذلك في العقود الاولى من القرن الثاني عشر الهجري/18م[38] وبنزول أيت سدرات بمنطقة أفرا لم تعد هذه الفرقة تحسب على أهل مزجيطة وتحولت إلى مسرح للصراع بين قبائل أيت سدرات، والقايد المزجيطي، وقبيلة أولاد يحيى وظلت بعض قصورها، التي لم تخضع لقبائل أيت سدرات مثل قصر إغرغر وتمضرت تتناوب الولاء بين قبيلة أولاد يحيى والقايد المزجيطي[39] الأمر الذي كان يؤدي غير ما مرة الى صدام مسلح بين القايد اليحياوي والقايد المزجيطي كان آخرها صدام 1330هـ/1911م والذي انتهى بمقتل القايد العربي اليحياوي[40] وبالرغم من مقتل القايد العربي، فإن قبائل أولاد يحيى لم تتوقف عن زحفها نحو شمال واحة مزجيطة، ومزاحمة القايد المزجيطي في مناطق نفوذه، وقد أسفر تقدم أولاد يحيى نحو الشمال عن تحول مجموعة من القصور مثل تاكَتَرت وقصر وريز، بعد أن كانت تعد من أهل مزجيطة إلى قبائل أولاد يحيى.

والواقع أن عملية زحف قبيلة أولاد يحيى في مناطق نفوذ القايد التمنوكَالي، جاءت نتيجة تراجع قيادة تامنوكَالت بعد ما ظلت تمارس الحكم على واحة مزجيطة منذ القرن الثاني عشر الهجري/18م[41] وهكذا يمكن القول أن ظهور قبيلة أولاد يحيى، وقبائل أيت سدرات في المناطق الجنوبية من واحة مزجيطة ومزاحمتها لقيادة تامنوكَالت في مناطق نفوذها، قد قلص من أعداد قبائل القصور المحسوبة في أهل مزجيطة، بعدما أصبح عدد من هذه القبائل يحسب على أيت سدرات أو أولاد يحيى.

(36) اكتفينا بذكر مجموعة قليلة من قصور كل فرقة فقط، وإلا فإن عددها يتجاوز بكثير ما ذكرناه.

(37) ذلك ما استفدناه من بعض المقيدات التي أوردها المختار السوسي : ايليغ ص. 117.

(38) سبق أن استعرضنا أخبار مجيء أيت سدرات الى درعة في فصل سابق.

(39) محمد بن لحبيب التمنوكَالي : العقود الجوهرية : مخطوط خاص ص 73.

(40) محمد بن لحبيب التمنوكَالي : نفس المرجع ص 73.

(41) ذلك ما استفدناه من اشارة عند ابن لحبيب التمنوكَالي في العقود ص 73.

2 ــ التعريف بقبيلة أولاد يحيى

تنتشر قبيلة أولاد يحيى، في إطارها الكبير، بوادي درعة في منطقة تمتد من قصر ورِيْز بواحة مزجيطة الى قصور تنسيطة في المدخل الجنوبي لواحة ترناتة، كما تمتد مجالات انتشارها إلى فم زكيدة غربا.

تعتبر قبيلة أولاد يحيى أهم تجمع بشري بوادي درعة حافظ على تقاليده العربية من حيث الترحل والبداوة، فقد ظلت عناصر هذه القبيلة ــ والى وقت قريب ــ تجمع ما بين الترحل والاستقرار ويسود الاعتقاد أن قبيلة أولاد يحيى، مثلها في ذلك مثل قبيلة الروحة، من بقايا بني معقل بدرعة[42]. وإذا كانت مصادر القرن العاشر الهجري/16 قد أوردت إسم قبيلة الروحة كتجمع بشري يستوطن صحاري دادس وفركلة المجاورة لبلاد درعة[43] فإننا لم نعثر في هذه المصادر على اسم قبيلة أو فرقة تحمل إسم أولاد يحيى، مما يوحي بأن هذه القبيلة قد ظهرت بعد القرن العاشر الهجري/16م. ويبقى التساؤل المطروح : من أين جاءت هذه القبيلة ؟ وما هي الظروف التي ساعدت على تشكيلها ؟ وهل يمكن عدها فعلا من بقايا بني معقل بدرعة ؟

تعود أقدم إشارة عثرنا عليها لقبيلة أولاد يحيى إلى العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر الهجري/17م، فقد ذكر صاحب الدرر أن رجلا من أولاد يحيى قد أخذ الورد على الشيخ محمد بن ناصر، فلما كبر أبناؤه اخذوا يقطعون الطريق[44]، وإذا كانت هذه الاشارة لم تحدد لنا بالضبط مواطن قبيلة أولاد يحيى، فإن أحمد بن داوود الهشتوكي فقد أشار إلى موطن أولاد يحيى ببلاد الفايجة (أي الأراضي الواقعة ما بين وادي درعة وسوس مرورا بمنطقة اقايغن الحالية التابعة لاقليم طاطا)، وذلك أثناء رحلته من بلدته ببني منصور قرب اقّايْغنْ الى تامكَروت على نية السفر إلى الحج عام 1119هـ/1707م[45]. وهذا يعني أن قبائل أولاد يحيى كانت تستوطن نفس المناطق التي لاتزال فيها الى اليوم منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م. ثم بدأت تتقدم ببطء نحو واحات وادي درعة في المراحل اللاحقة.

تتشكل قبيلة أولاد يحيى من مجموعة من الفرق كل فرقة تتكون من عدد من قبائل القصور وأهم هذه الفرق المستوطنة بدرعة هي :

1 ــ فرقة أولاد بَشّيحْ : وهي التي تتولى قيادة قبيلة أولاد يحيى في شخص أسرة أولاد عثمان. وتتمركز هذه الفرقة بواحة تينزولين بمنطقة أولاد جْري، وأهم قصورها قصبة أولاد عثمان (مقر قيادة أولاد يحيى) وقصر أولاد مكَدم، وقصر أولاد سليمان، وقصر أولاد موسى، وقصر السَّواكن، وإكَداون وغيرها. وتتساكن فرقة أولاد بشيح مع مجموعة من قصور الحراطنة مثل قصر تينمسلا، وتاعقيلت وتينكَزا وغيرها بالاضافة الى مجموعة من الزوايا أهمها الزاوية القادرية بتينمسلا.

---

(42) G. Spillmann : Les pays inaccessibles du Haut Draa, R.G.M. n° 1 et 2, 1929, p. 55.

(43) الحسن الوزان : وصف افريقيا : ج 1 ص 44.

ــ مارمول : افريقيا ــ ترجمة احمد التوفيق وصحبه ص 106.

(44) محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة ص 290.

(45) احمد بن داوود الهشتوكي : هداية الملك العلام. ص 290.

2 ــ فرقة الكُرَازْبة (أولاد كرزاب) تنتشر فرقة أولاد كرزاب بشكل خاص في منطقة فم زكيد والمناطق المجاورة لها، ولا يوجد لهم بدرعة إلا قصور قليلة مثل قصر مَلَالْ، وتنسيطة خشاع وتنسيطة النْشَاشدة بواحة ترناتة[46].

3 ــ فرقة الكعابة : ومن قصور هذه الفرقة قصبة لكعابة، وقصر أولاد ايوب، وقصبة أولاد أحمد بن علي في المدخل الجنوبي لواحة تينزولين.

4 ــ فرقة أولاد شعوف : لم يبق من هذه الفرقة إلا قصر واحد هو قصر تكَيت بترناتة.

كانت قبيلة اولاد يحيى، قبل القرن الثالث عشر الهجري/19، لا تختلف من حيث تنظيماتها السياسية الداخلية، عن جل قبائل واحات وادي درعة فكانت تخضع للشيخ الكبير على مستوى تنظيم العلاقات بين فرق قبيلة أولاد يحيى ومن يجاورها من قبائل الرحل أو من المستقربين. كما كانت قبائل القصور تخضع للجماعة ولشيخ القبيلة الذي يتم اختياره من بين ممثلي العظام المشكلة لقبيلة القصر.

ومع بداية النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري/19م، تمكن الشيخ عثمان بن مسعود، شيخ قبيلة أولاد يحيى من تعزيز وضعيته ومكانته عند المخزن، خاصة أن هذا الأخير، ونظرا لانشغاله في مواجهة التدخل الأوربي، كان يعمل على تقوية نفوذ الشيوخ والقواد المحليين في المناطق النائية مثل وادي درعة وغيرها. وفي هذا الإطار اقرَّ السلطان مولاي عبد الرحمان (1238ــ1276هـ/1822ــ1859) الشيخ عثمان بن مسعود في الشياخة على إخوانه أولاد يحيى أينما كانوا بظهير سلطاني يعود تاريخه الى شهر شوال عام 1262هـ/1845م[47]. أما السلطان مُولاي الحسن (1290ــ1312/1873ــ1894)، فقد رقى شيخ قبيلة أولاد يحيى في وقته الشيخ العربي بن عثمان الى قايد من قواد درعة. وقد ظلت القيادة في حفدة القايد العربي إلى أن عصفت بآخرهم (القايد محمد) أحداث جيش التحرير بعد الاستقلال.

وبالرغم من أن قبائل أولاد يحيى قد ارتبطت بالمخزن منذ القرن الثالث عشر الهجري/19م فإن هذا الارتباط لم يمنعها من الدخول في عمليات تغالب وصراع مع القبائل الأخرى بدرعة مثل قبائل الروحة وقبائل أهل مزجيطة، من أجل السيطرة على مصادر الثروة كالأرض والماء وبسط النفوذ، وقد كانت هذه القبيلة تضطر الى عقد سلسلة من الاتفاقيات الصلحية لتنظيم علاقاتها بالقبائل الأخرى بالمنطقة[48].

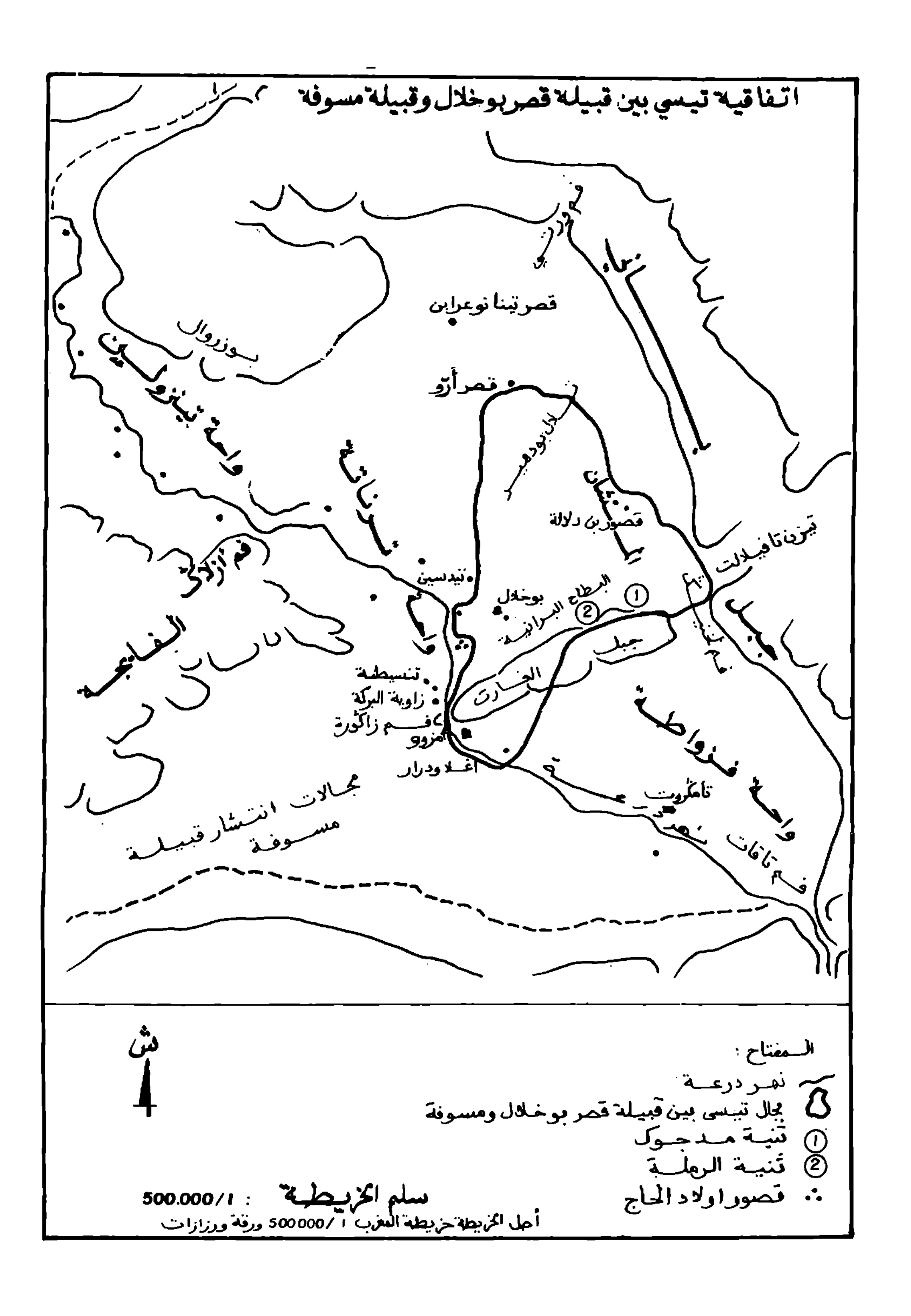
وهكذا يتضح أن اتفاقيات تيسَّى والاتفاقيات الصلحية كانت تظهر بواحات وادي درعة في أوقات الأزمات الاجتماعية والسياسية التي كانت تطرأ بين القبائل نتيجة الصراعات على بسط النفوذ والسيطرة على الأرض والماء.

---

(46) استقينا معلوماتنا عن تفرعات قبيلة اولاد يحيى على بعض الشيوخ المسنين من قصبة أولاد عثمان أثناء زياراتنا المتكررة لهذه القصبة.

(47) نتوفر على نسخ مصورة لأكثر من عشرين ظهيرا سلطانيا تكشف لنا الروابط المتينة التي كانت قائمة بين المخزن ودار القايد اليحياوي.

(48) انظر ملخص هذه الاتفاقيات في الجدول الذي خصصناه لاتفاقيات تيسِّي والاتفاقيات الصلحية في بداية هذا الفصل.



اتفاقية تيسي بين قبيلة قصر بوخلال وقبيلة مسوفة
قصر تينا نوعرابن
قصر أرّو
بوزروال
فم أزلاك
الفايجة
تنسيطة
زاوية البركة
فم زاكورة
أمزرو
أغلاودرار
بوخلال
قصور بن دلالة
تيزن تافيلالت
جبل
تامكروت
واحة فزواطة
فم تاقات
مجالات انتشار قبيلة مسوفة
المفتاح :
نهر درعة
مجال تيسي بين قبيلة قصر بوخلال ومسوفة
ثنية مدجوك
ثنية الرملة
قصور اولاد الحاج
ش
سلم الخريطة : 1/500.000
أصل الخريطة خريطة المغرب 1/500000 ورقة ورزازات

الفصل العاشر

الحياة الاقتصادية بواحات وادي درعة

الحياة الاقتصادية بواحات وادي درعة

نستفيد من بعض الاشارات التاريخية في كتابات الرحالين خلال العصور الوسطى[1] وفي كتابات الحسن الوزان ومارمول الإسباني خلال القرن العاشر الهجري/16م[2] إن بلاد درعة كانت تتمتع بوضع اقتصادي مزدهر، لا من حيث النشاط الزراعي وتنوع المنتوجات واستخراج المعادن وبعض الصناعات المحلية فحسب، وإنما أيضا من حيث الحركة التجارية الدائبة سواء على مستوى الأسواق المحلية المنتشرة على طول الواحات الست، أو على مستوى حركة القوافل مع المناطق المجاورة كسوس وتافيلالت ودادس وبلاد هسكورة، أو مع المناطق البعيدة بشمال البلاد، وبالخصوص مع بلاد السودان جنوبي الصحراء.

ويبدو من خلال الإشارات التي تمدنا بها كتابات ما بعد القرن العاشر الهجري/16م[3] والوثائق المحلية أن واحات درعة قد فقدت أهميتها الاقتصادية، حيث ظلت الأوضاع الإقتصادية تتقهقر باستمرار وذلك منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م إلى غاية العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري/20م. ولم تستطع المنطقة أن تسترجع إطلاقا ما عرفته من إزدهار اقتصادي في فترة ما قبل القرن الحادي عشر الهجري/17م. وتتأكد لنا هذه الحقيقة من خلال ما تراكم بقصور الوادي من بطائق المداينة ورسوم رهن الأملاك العقارية[4] حيث كان السكان يضطرون الى الاستدانة ورهن أملاكهم مقابل الحصول على القليل من القوت لمواجهة الظروف القاسية في أوقات الأزمات الاقتصادية العصيبة. ويبقى السؤال المطروح هو كالتالي : ما هي أسباب هذا التراجع الذي عرفته الأوضاع الاقتصادية بواحات وادي درعة ؟ فهل يرجع ذلك لبعض العوامل الطبيعية مثل دورات الجفاف الحادة وزحف عوامل التصحر على المنطقة ؟ وما علاقة هذا التراجع بالصراعات السياسية التي كانت تعرفها بلاد درعة منذ مطلع القرن الحادي عشر الهجري/17 الى غاية العقود الاولى من القرن الرابع عشر الهجري/20م ؟[5] وما هي دور

(1) انظر على سبيل المثال :

— أبو عبيد البكري : المغرب في ذكر افريقيا والمغرب — باريس 1965 ص 152.

— الشريف الادريسي : وصف افريقيا وهو جزء من نزهة المشتاق — الجزائر 1957 ص 38.

— مجهول : كتاب الاستبصار : نشر د. سعد زغلول عبد الحميد — البيضاء — 1985 ص. 206 — 207.

(2) — الحسن الوزان : وصف افريقيا ج 1 ص 137 ج. 2 ص. 120.

Marmol : L'AFRIQUE, Tome II, p. 125.

(3) انظر على سبيل المثال :

— أحمد بن صالح لكتاوي : تجديد المراسم البالية — مخطوط خاص ص 52.

— المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة : مخطوط خاص ص 18.

(4) تغطي هذه البطائق ورسوم الأملاك العقارية المدة الزمنية التي تمتد من سنة 1152هـ/1739م إلى 1350/1930م.

(5) نذكر هنا بالأحداث التي عرفتها بلاد درعة خلال النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م إبان تصارع رجال التصوف على السلطة بالمنطقة، وأحداث محاميد الغزلان في العقد الرابع من القرن الثاني عشر الهجري/18م، والصراعات التي كانت تندلع بين الحين والآخر بين مزواريي قصر الرباط وقصبة المخزن بتنزولين، والصراعات من أجل توسيع مناطق النفوذ بين دار القايد اليحياوي، ودار القايد التمنوكالي خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م وطيلة العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري/20م.

قبائل الرحل بهجوماتها المتكررة على قصور الوادي في هذا التراجع ؟ خاصة أن كل الدلائل تؤكد على أن هجومات قبائل الرحل غالبا ما تكون مصحوبة بنوع من العنف، واغتصاب المزروعات وقطع الطرق عن قوافل التجار وأخيرا ما علاقة هذا التراجع بالأمراض الفتاكة التي كانت تنزل بسكان الوادي ؟[6].

وعلى كل حال ومهما كانت الاجابة على مثل هذه الأسئلة وغيرها، فإن الشيء الأكيد، أن ما يتصور من تراجع خطير في الأوضاع الاقتصادية بدرعة، لا تكمن أسبابه في هذه العوامل التي سبقت الاشارة إليها فقط، وإنما تكمن الأسباب العميقة لهذا التراجع في جملة من العوامل التي يمكن تمييزها عن العوامل السابقة بالعوامل الداخلية، ويمكن حصر هذه العوامل الداخلية في النقط الآتية :

1 ــ التنظيم العقاري للأراضي الزراعية.
2 ــ التقنيات الزراعية وطرق الانتاج.
3 ــ ملكية الماء وطرق توزيعه.

يضاف إلى هذه العوامل الرئيسية الثلاث الجمود الكبير الذي ظل يخيم على المنطقة، والذي يعتبر حاجزا قويا يعرقل كل تطور قد تستفيد منه المنطقة، ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه أن سكان الوادي قد ظلوا يحافظون وإلى بداية عهد الاستقلال، في أساليبهم الزراعية وطرق تفليح الأرض وسقيها، على تقنيات أقل ما يقال عنها أنها موروثة عن العصور الوسطى إن لم نقل أنها ترجع في جل مظاهرها وأشكالها الى العصور القديمة. كما أنهم ظلوا عاجزين على تجاوز مشكل تفتت البنية العقارية للأراضي الصالحة للزراعة، وظلت البقع المنزرعة في جل الحالات لاتتجاوز بضعة أمتار مربعة.

ولهذه العوامل كلها يمكن القول بأن اقتصاد واحات وادي درعة خلال هذه المرحلة التاريخية التي حددها البحث، يعتبر في الواقع اقتصادا معاشيا، يقوم على نشاط فلاحي محدد (سواء على مستوى الزراعة أو على مستوى ممارسة الرعي)، وعلى نشاط تجاري بسيط يرتكز على تبادل البضائع والمنتوجات الفلاحية، واستجلاب البضائع الاستهلاكية. كما يقوم على صناعات يدوية بسيطة لا تتجاوز آفاق شهرتها دائرة الأسواق الأسبوعية المحلية.

I ــ النشاط الزراعي والرعوي

1 ــ الزراعــة :

كانت الزراعة ولاتزال هي الحرفة الثابتة والنشاط الأساسي لسكان القصور بوادي درعة، وخاصة الحراطين، الذين اكتسبوا شهرة كبيرة وخبرة عالية في البستنة وصيانة سواقي وآبار الري، وقد توطدت العلاقة بين الأرض والحرطاني منذ عشرات السنين حتى أصبحت أمثالهم الشعبية تؤكد هذه

(6) وصفت رسالة أوردها صاحب الدرر (ص 121 ــ 122) نزول الوباء بدرعة فقال صاحبها «وألح بالنا كرب الوباء ووباله حتى أفنى اكثر من الخلق به (...) واجتازت طائفة منه بترناتة وفصواطة والاكتاوة».

الحقيقة بقولهم «حْريقْ البْطان، ولا خْروجْ لَمْكان» وكيف لا، وملكية الأرض في مناطق الواحات هي أساس العلاقات الاجتماعية لا من حيث الجاه فحسب وإنما أيضا من حيث اكتساب الثروة والوضعية الاجتماعية المتميزة. وتعاني الزراعة بوادي درعة من عدة مشاكل أهمها التنظيمات العقارية المعقدة، ومشكل الماء من حيث قلته وتنظيماته، ودورات الجفاف الحادة وعوامل التصحر.

I ــ نظام الأراضي والتنظيمات العقارية المعقدة

ينحصر المجال الزراعي في الشريط الرسوبي الضيق الذي تكون على ضفتي نهر درعة، ويختلف اتساع هذا المجال من واحة إلى أخرى بحيث يصل أحيانا إلى كيلومترين فأكثر وأخرى لا يتعدى بضع مئات من الأمتار كما هو الحال في واحة فزواطة[7]، ويتعرض هذا الشريط الأرضي الصالح للزراعة للتقلص من واجهتين : الواجهة الخارجية (أي خارج الواحة) حيث تزحف الرمال وعوامل التصحر كما هو الحال بشكل خاص بواحتي محاميد الغزلان ولكتاوة، فقد غطت الرمال مساحات شاسعة وقتلت آلاف النخيل، ولاتزال جذوع النخيل مطمورة في غير ما منطقة من هاتين الواحيتن.

الواجهة الداخلية : فقد كان نهر درعة في فيضاناته الكبرى يجرف الأراضي الزراعية التي ترسبت خلال عشرات السنين حول ضفتي النهر وتحويلها إلى أراضي حصوية غير صالحة للزراعة. وقد كانت عملية جرف التربة الزراعية تتكرر مع كل فيضان كبير لنهر درعة. وفي هذا الاطار ذكر أحمد بن صالح لكتاوي في كتابه : **تجديد المراسم البالية**، بأن نهر درعة قد سال في أيام السلطان مولاي رشيد (1075ــ1082/1665ــ1672) «فهدم حصونا كثيرة بأعلى درعة وأفنى عقارا وبساتين وأحاط بكل حصون لكتاوة»[8] ونجد مثل هذه الاشارات عن الأضرار التي كان يلحقها فيضان واد درعة بالأراضي الزراعية، وسواقي الري، وأشجار النخيل عند كل من الفقيه محمد بن لحبيب التمنوكالي، وكذا في كتيب الطيب بن لحبيب عن تاريخ وادي درعة[9] ولا يخفى أن تكرار هذه الفيضانات من شأنه أن يزيد من تقليص المساحات المنزرعة وبالتالي التأثير بشكل سلبي على وضعية الفلاحين والنشاط الزراعي بشكل عام.

وحسب المعلومات التي استقيناها من رسوم الأملاك العقارية وبعض الوثائق الخاصة، نلاحظ أن نظام ملكية الأراضي بواحات وادي درعة يخضع لثلاثة أنواع من الملكية.

---

(7) L. TRANIER : Aperçu économique sur la vallée du Draa, R.G.M. N° 3 et 4, 1935, p. 261.

(8) أحمد بن صالح لكتاوي : تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنية العالية ص 52.

(9) ــ محمد بن لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية في الأنباء الدرعية ص 2.

ــ الطيب بن لحبيب : كتيب في تاريخ وادي درعة ص 28.

أ ــ التمليك بالاقطاع وهو نوعان :

1 ــ إقطاع الدولة لبعض القبائل.

بالرغم من كوننا لا نتعرض للحيثيات التاريخية التي ظهر فيه الإقطاع وكذا تحديد معناه والمراحل التي تطور من خلالها، فإننا نؤكد بأن الإقطاع قديم بالمغرب[10] ويعود ظهوره بوادي درعة إلى العهد المريني، حيث يؤكد بن خلدون (من رجال القرن الثامن الهجري/14م) أن السلطان ابا عنان (749ــ759/1348ــ1358م) قد أقطع قبيلة أولاد حسين المعقلية بعض الأراضي بدرعة[11] ولا نستبعد أن تكون هذه الأراضي المقتطعة بواحات محاميد الغزلان ولكتاوة، على اعتبار أن هذه القبيلة، ظلت تسيطر على الواحات الجنوبية من درعة طيلة الفترة التي تمتد من أواسط القرن السابع الهجري/13م إلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري/16م.

كان هدف المرينيين من هذا الإقطاع هو تأليف قبيلة أولاد حسين التي ظلت تشغب على الدولة بالمنطقة لمدة قرن تقريبا.

وباستثناء إشارة ابن خلدون لا نعرف أي شيء عن إقطاعات الدولة لبعض القبائل بدرعة على عهد المرينيين والوطاسين.

ولم تشذ الدولة السعدية عن باقي الدول الأخرى التي حكمت المغرب في العمل بالإقطاع[12] فقد كان سلاطين هذه الدولة يقطعون بعض الأراضي للقبائل التي كانت تؤدي خدمة ما للدولة. وبالرغم من كوننا لا نتوفر على أي دليل ملموس يسمح لنا بتحديد أراضي الاقطاع بدرعة على عهد الدولة السعدية، فإن إشارة وردت عن قبائل الروحة في كتابات سبلمان تجعلنا نعتقد أن السعديين قد أقطعوا بعض الأراضي لهذه القبائل مقابل خدمتها في عسكر الدولة. فقد ذكر سبلمان، أن قبائل الروحة كانت تعد من قبائل المخزن منذ بداية عهد السعديين، لدورها في مساعدتهم للوصول إلى الحكم[13]، وتجد هذه الإشارة ما يدعمها في كون قبائل الروحة كانت تتصرف في بعض الأراضي بترناتة وتعرف بأراضي المخزن بالمنطقة المعروفة «بالمعدر» وقد ظلت هذه القبائل تتصرف في هذه الأرض تصرفا جماعيا إلى بداية عهد الاستقلال، ثم اقتسمتها على الفرق، ثم فوتت بالبيع لبعض الخواص، أما الدليل الثاني على احتمال وجود بعض الاقطاع منذ عهد الدولة السعدية فيتجلى في طريقة توزيع ماء ساقية تَمَزيرْت بواحة ترناتة أيضا ذلك أن وحدة توزيع ماء هذه الساقية هو «الرَّجُل» فنقول مثلا بأن نوبة يوم الأحد فيها «ثمانية رجال» ونوبة يوم الاثنين «عشر رجال» وهكذا. فلما استفسرنا بعض العارفين من مُسنى سكان المنطقة ذكر بأن البلاد التي تسقيها ساقية تَمَزيرْت كانت بلاد المخزن، فقسموا ماء الساقية على عدد الرجال الذين

(10) عز الدين أحمد موسى : النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي خلال القرن 6هـ ــ 1983 ص 142 ــ 343.

(11) ابن خلدون : العبر ج 6 ص 89.

(12) — Paul Pascon : Le Haouz de Marrakech, Tome I, p. 276.

(13) — G. Spillmann : Les pays inaccessibles du Haut Draa. R.G.M., 1929, p. 17.

يتصرفون في هذه الجهة أو تلك. ولاتزال إلى اليوم بعض القطع الأرضية في بلاد بوخلال، التي تسقى بماء تمزيرت تعرف ببلاد المخزن.

فإذا لم تكن الدولة السعدية هي التي اقتطعت قبائل الروحة هذه الأراضي فلاشك أن الاقطاع قد تم على عهد العلويين، خاصة أن كل القرائن تؤكد على أن العلاقة كانت وطيدة بين قبائل الروحة والعلويين[14] ولاتزال بعض الأراضي بدرعة تحسب على المخزن إلى اليوم بمنطقة تزْناخْت شمال قصر بني صولي وبالقرب من قصر الرباط بواحة تينزولين، وقد ضمها الباشا التهامي الجلاوي إلى أملاكه الخاصة في بداية عهد الاستعمار[15]، إلا أن هذا الضم لم يمح من ذاكرة سكان المنطقة نسبتها إلى المخزن. ومن يدري فقد تكون هذه الأراضي من الاقطاع فلما انقطع المتصرفون فيها عادت إلى المخزن.

2 ـــ إقطاع السلطان لبعض الزوايا.

ويسمى هذا النوع من الاقطاع الهبة، حيث كان السلطان يهب لصاحب الزاوية أرضا زراعية هبة إقطاع وتمليك ليستعين بريعها على نفقات زاويته، ومساعدتها للقيام بوظائفها الدينية والاجتماعية. وقد كان هذا النوع من الاقطاع لأصحاب الزوايا سائدا بالمغرب منذ عهد السعديين[16] ثم سار سلاطين الدولة العلوية على نهجهم في ذلك.

وإذا كنا لم نتمكن من العثور على ما يساعدنا في الكشف عن بعض أراضي الاقطاع في عهد الدولة السعدية لاصحاب الزوايا بدرعة فإن بعض الظهائر السلطانية على عهد العلويين قد سمحت لنا بالتعرف على بعض أراضي الاقطاع لزاوية سيدي صالح بن ابراهيم لكتاوي بواحة لكتاوة[17] فقد أقطع السلطان مولاي اسماعيل سنة 1986/1098م، أرضا زراعية تعرف بالغابة بلكتاوة لأولاد سيدي صالح بن ابراهيم لكتاوي، ومما جاء في هذا الظهير على الخصوص «بيد أولاد الوالي الصالح الخير الدين الناسك الورع المتبرك به حيا وميتا سيدي صالح بن ابراهيم بن عبد المومن الدرعي لكتاوي الصبكَي، يتعرف من يقف عليه أننا تفضلنا (...)[18] على إقطاع جميع الغابة الكائنة بحيز لكتاوة بوادي درعة التي على شاطىء الوادي، قِبْلتهما سيل الوادي، وجوفها الحدب المقابل لبلد خَسوان وتيكَت ويني صبيح على نحو سبعة أميال من العمران، وحدها طولا من مقطع الوادي لقطر القصر الكبير الى ريش ثنية العجائز، بجميع مالها من الحرم والمرافق والطرق الموصلة إليها، إقطاعا تاما صحيحا عاما بحيث ميزنا لهم سائرا ما حَدَّ مالا من مالهم وملكا خالصا من جملة أملاكهم، إعانة لهم بذلك على القيام بوظائف الزاوية التي هي مأوى الضعفاء والفقراء والمساكين وأبناء السبيل، وأذنا لهم أن يحوزوها ويرفعوا ساقيتها حيثما تمكن لهم وتيسر».

(14) الضعيف الرباطي : تاريخ الضعيف مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم د. 758 ص 208 و268.

(15) إلى هذه الأراضي أشار بول باسكون في كتابه Le Haouz de Marrakech, Tome I, p. 299

(16) — Paul Pascon : Le Haouz de Marrakech, Tome I, p. 276

(17) انظر ترجمته مطولة عند : المهدي الصالحي : أعلام درعة من ص. 8 الى 17.

(18) كلمة غير مقروءة من الظهير.

ويتضح من خلال تاريخ هذا الظهير أن السلطان، قد اقطع هذه الأراضي لأولاد سيدي صالح بن ابراهيم بعد وفاة أبيهم بسنتين. (توفي سيدي صالح عان 1096هـ/1684م). وفي وقت كان السلطان يعاني فيه من تشغيب ابن أخيه أحمد بن محرز بمنطقتي درعة وسوس، وكانت فيه العلاقة بين مولاي اسماعيل وزاوية تامكروت الناصرية يشوبها نوع من الفتور. ولاشك أن هذا الاقطاع يدخل في إطار تشجيع بعض الزوايا لتنافس زاوية تامكَروت.

حدد الظهير أرض الإقطاع بحدودها ومواصفاتها، ويستفاد من لفظ «الغابة» التي وردت في الظهير أن هذه الأراضي، مزروعة بأشجار النخيل، حيث لايزال سكان لكتاوة يطلقون إسم الغابة على حقول النخيل.

وبالرغم من أننا لم نتمكن لحد الآن، من العثور على ظهائر أخرى تُثبت استفادة بعض الزوايا الأخرى من إقطاعات السلطان مولاي اسماعيل أو بعض السلاطين الاخرين من بعده، فإننا لا نستبعد وجود مثل هذه الاقطاعات بالمنطقة نظرا للعلاقة الوطيدة التي كانت تربط جل شيوخ زوايا وادي درعة، بسلاطين الدولة العلوية.

ب ـــ الملكية الخاصة

تشكل الملكية الخاصة بنوعيها (الملكية الجماعية والملكية الفردية) الجزء الأكبر من الأراضي الزراعية والرعوية بواحات درعة. وتتميز الملكية الفردية على الخصوص، ببنيتها المعقدة، وصغر مساحات قطعها التي لا تتجاوز في الكثير من الحالات بضعة أمتار مربعة، ويرجع ذلك إلى تكرار عمليات التوزيع الناتج عن الإرث، وتنازل بعض قبائل المستقرين عن أراضيهم مقابل حمايتهم لقبيلة قوية من قبائل الرحل، وقد كان أفراد القبيلة الحامية توزع نصيبها من الأرض على عدد رجالها. يضاف إلى ذلك جمود في عقلية السكان الذين يتشبثون بالأرض، إذ كان كل واحد من الأسرة مهما تعدد أفرادها يرغب في الاحتفاظ بنصيبه من الأرض مهما صغر حجمه لأنه في نظره يمثل «بركة الأسلاف» التي لا يجيب التفريط بها بأي حال من الأحوال. وقد كان هذا التشبث المفرط بالأرض وراء جملة من المشاكل المعقدة سواء على مستوى الأسر والعظام أو على مستوى قبائل القصور، ولا مجال هنا لتتبع تلك المشاكل وما خلفته من مآسي وأحزان.

يتم تمليك الأرض في إطار الملكية الخاصة بعدة طرق أهمها : طريق الارث، وطريق الشراء، أو عن طريق التنازل، حيث كانت بعض القبائل تتنازل عن أرضها لقبيلة أخرى مقابل حمايتها[19]، أو عن طريق الاغتصاب ابان الأزمات الاجتماعية والسياسية حيث كانت قبائل الرحل عامة، وقبائل أيت عطا خاصة تستغل أوقات الفراغ السلطوي الذي كانت تعاني منه بلاد درعة في بعض الأحيان، لتقوم بعمليات الهجوم على المستقرين وإغتصاب قصورهم، وتستولي على أراضيهم الزراعية والرعوية بالقوة، الأمر الذي

(19) سبق لنا أن تعرضنا لهذه الظاهرة في الاتفاقيات التكفلية في فصل سابق من هذا البحث.

كان يجعل المخزن يرسل حَرْكات قوية الى درعة لطرد المغتصبين وإعادة القصور والأراضي الى أصحابها[20]، ولم تكن هذه الحركات القوية تمنع بعض قبائل الرحل من إحكام قبضتها على بعض المناطق من درعة واغتصابها بالقوة للأراضي الزراعية وتحويلها الى ملك خاص. وقد أثارت هذه الظاهرة تعجب الفقيه محمد بن الحبيب التمنوكالي الذي كان يستغرب لتحويل الملك المغتصب الى ملك خاص، وذلك من خلال قوله عن بعض الذين يمارسون الغصب بدرعة «والعجب العجاب إقدامهم على الاغتصاب، وأعجب منه حلولهم في كل ما نهبوا قديما وحديثا وجعله لهم... حلالا ميراثا»[21] ولا تقتصر عملية الغصب على قبائل الرحل فحسب، بل كان بعض ذوي النفوذ من عمال مخزنيين وغيرهم يمارسونها بشكل مقنّع أحيانا وبشكل مكشوف أحيانا أخرى. فقد ذكر الإفراني : أن محمد الكبير خال السلطان أحمد المنصور الذهبي «عدا على رجل بدرعة في ضيعة له فشكاه الى المنصور»[22] وتكشف لنا بعض الوثائق المحلية أن بعض العمال المخزنيين وبعض ذوي النفوذ كانوا يسلكون طرقا مختلفة للاستيلاء على أراض الفلاحين أما عن طريق البيع أو عن طريق التنازل حتى إذا أبوا اغتصبوها منهم بالقوة، وأرغموهم على الاعتراف ببيعها، وكان آخر عملية معروفة لدينا بدرعة هي التي قام بها القايد حمو الجلاوي عندما استولى على أراضي بعض الأشراف بواحة تينزولين. ويظهر أن استيلاء القايد حمو على هذه الأملاك قد أثار بعض سكان تينزولين، فلم يرق ذلك للقايد حمو فوجه رسالة الى الخليفة محمد بن الفاطمي يذكره فيها بأن «كلام دار أولاد مولاي المصطفى وأملاكه فقد مضى الامر فيهم... ولا تبقي تراجع كلامهم، ولا تقبل لأحد التصرف فيهم فإنهم في ملكيتنا وإياك تسمع كلاما من أحد أيا كان»[23].

وإذا كانت الملكية الخاصة الثابتة لأصحابها عن طريق الإرث والشراء لم تثر أي مشكل شرعي بالنسبة لفقهاء وادي درعة فإن أراضي الغصب كانت محور عدد من الأسئلة التي كانت تطرح على فقهاء المنطقة، خاصة فيما يتعلق بالتعامل مع أهل الغصب وشراء المغصوب، وأكل ما ينبت في الفدادين المغصوبة، وغيرها من الأسئلة التي تكشف إلى أي حد انتشرت عمليات اغتصاب الأراضي وما نتج عنها من تأزم في الأوضاع الاقتصادية بدرعة. وقد تصدى للإجابة على هذه الأسئلة وما شاكلها، فقيه درعة في وقته محمد بن محمد بن عبد الله الدليمي[24] الذي كان شاهد عيان لكثير من عمليات الغصب التي كانت تقوم بها قبائل الرحل عامة، وقبائل أيت عطا، خاصة في الواحات الجنوبية بالوادي ابتداء من العقود الأولى من القرن الثاني عشر الهجري/18م. وقد كان هذا الفقيه صريحا في تجريمه للتعامل مع أهل الغصب، حيث أكد «بأنه لا يحل مبايعة أهل الغصب ولا مواكلتهم ولا الإستظلال بظلمهم»[25] ولعل

---

(20) نذكر هنا بجملة من الحركات التي كان سلاطين الدولة العلوية يرسلونها الى درعة لطرد قبائل الرحل من القصور التي اغتصبوها في أعوام 1183هـ/1769 و1191هـ/1777م و1216هـ/1801 و1218هـ/1803م (انظر الضعيف الرباط مخطوط خ.ع. حرف د 660 صص. 173 و181 والاستقصاء ج 8 107 و108).

(21) محمد لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية مخطوط ص 62.

(22) اليفرني : نزهة الحادي ص 158.

(23) يعود تاريخ الرسالة الى سنة 1352هـ بحوزتنا النسخة الأصلية للرسالة.

(24) توفي محمد بن محمد بن عبد الله الدليمي بمكة سنة 1166هـ/1752م (طلعة المشتر ج. 2 ص. 15).

(25) محمد بن محمد بن عبد الله الدليمي : النوازل، مخطوط خاص — ص. 11 — 12.

ما يؤكد خطورة هذه الظاهرة في التاريخ الاجتماعي للمنطقة، أن السكان كانوا يعتقدون أن انتشار عمليات الغصب ببلادهم وما كان ينتج عنها من إنغماس الناس في أكل الحرام والتعامل به هو الذي كان وراء القحوط والمجاعات التي تحل بواحات درعة من حين لآخر[26]. والملكية الخاصة نوعان :

1 ـــ الملكية الجماعية :

تتكون الملكية الجماعية من الأراضي المشاعة بين أفراد قبيلة ـــ القصر وتختلف أهميتها من واحة إلى أخرى، فهي مثلا في واحتي مزجيطة وتينزولين عبارة عن تلال ومرتفعات لايمكن استغلالها بأي حال من الأحوال لأغراض زراعية، وتتميز بالانبساط في واحتي ترناتة وفزواطة إلا أنها لا تصلح للزراعة إلا في نقط معينة من الواحتين، في حين أنها تشكل مجالا زراعيا ممتازا بواحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان، ومشكلة هذه الأراضي بالواحتين الاخيرتين هي قلة الماء وزحف عوامل التصحر. وبشكل عام فإن الأراضي الجماعية تعتبر عند مختلف قبائل القصور المجال الخاص للرعي لموقعها في أطراف الواحات. ولما بدأت هجومات قبائل الرحل على المستقرين، وما كان يصحب هذه الهجومات من كسر للسواقي، التجأت قبائل القصور بترناتة وفزواطة على الخصوص باستصلاح بعض الأراضي الجماعية وتحويلها إلى ملك خاص لأفراد القبيلة، حيث كانت الأسر تتعاون في حفر الآبار أو الخطارات[27] للاستفادة بواسطتها من المياه الجوفية في سقي الأراضي المستصلحة.

أما في واحتي محاميد الغزلان ولكتاوة، فإن الأراضي الجماعية تمتاز بخصوبتها وقابليتها للزراعة، وأهمها الأراضي المعروفة بالضَّبْعِيَّة، والخَلَّة، وزْعِيرْ والمَعْذَر، وقد كانت قبائل المنطقة تحرص على الاستفادة منها بشكل جماعي، باستغلالها في انتاج الحبوب، إلا أن مشكل هذه الأراضي أنها لا تزرع إلا في السنوات التي يسقط فيها المطر بشكل كاف أو يفيض فيها نهر درعة فيضانا كبيرا حتى تغمر مياهه الأراضي المذكورة. إذ لا تكاد مياه النهر تتراجع وتجف حتى تهب القبائل عن بكرة أبيها لتهيئها وزرعها بعد ذلك. وتمتاز هذه الأراضي بمردودها المرتفع الذي يكفي حاجات السكان بالواحتين لعدة سنوات، والى أراضي الضبيعية والخلة أشار الشيخ محمد بن ناصر : ت 1082/1672) بقوله على لسان العامة «لو كان في المغرب خلتان ما انباع الزرع بدرهمين»[28] وبالرغم من أن الأراضي الجماعية بواحات درعة شاسعة جدا وتتجاوز مساحتها عشرات المرات مساحة أراضي الملكية الفردية، وأراضي الأحباس فإن مشاكلها لا تقل خطورة في تفجير التناقضات الاجتماعية، عن المشاكل التي كانت تطرأ في قطاع أراض الملكية الفردية، ذلك أن بعض قبائل القصور قد تظهر رغبة في توسيع مجال قطتها على حساب جيرانها من القبائل

---

(26) كثيرا ما كان بعض المتفقهة بدرعة يرددون هذين البيتين الشهيرين.

تطـــوف السحـــــاب بدرعـــــة كما   يطـــوف الحجيـــج بالبـــيت الحرام
تريـــد النـــزول فلـــم تستطـــع   لسفك الدمــــــــاء وأكل الحرام

(27) لا تنتشر الخطارات بدرعة بكثرة كما هو الحال بمنطقة فكيك وتافيلالت مثلا وكل ما نعرفه عن الخطارات بدرعة هي بعض البقايا بترناتة وفزواطة.

(28) أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري في النسب الجعفري ج. 1 ص. 171.

الاخرى التي كانت لا تتردد في مواجهة هذا التوسع بحمل السلاح والاستعداد للدفاع عن الأرض حتى الموت.

2 ــ أراضي الملكية الفردية

أراضي الملكية الفردية هي الأراضي التي يملكها فرد بعينه ويتمتع بحق التصرف المطلق فيها بالبيع أو الكراء أو الرهن ويستغلها بنفسه أو بواسطة، وتمتاز أراضي الملكية الفردية عن أراضي الملكية الجماعية بعدة أشياء أهمها :

أ ــ أنها تقع ضمن المجال المسقي داخل الواحات وتستفيد من مياه نهر درعة.

ب ــ أن البقع الأرضية في إطار الملكية الفردية صغيرة وقد لا تتجاوز بضعة أمتار مربعة في كثير من الحالات، وأن لكل بقعة إسما خاصا، ينطوي على ماضي تاريخي ويذكر بالمالكين الذين تعاقبوا على ملكية هذه الأراضي، من ذلك مثلا جنان إكَرنواضيل، وجنان إكَرنيزيري وغيرها من الأسماء التي تجمع ما بين الصيغة العربية والصيغة الأمازيغية. كما تنطوي هذه الأسماء من جهة ثانية على تحديد طبيعة هذه الأراضي هل هي سقوية أم بورية. فقد كانت القبائل الأمازيغية تطلق كلمة «إكَر» على الفدادين السقوية، ولايزال الكثير من أسماء الفدادين بدرعة تعرف بصيغتها الأمازيغية الدالة على طبيعتها السقوية منذ عشرات السنين مثل إكَرنوزكَاغ وإكَرنوكَرام، وإكَرنواضيل وغيرها(29).

ج ــ أن غالبية البقع الأرضية في إطار الملكية الفردية بواحات درعة يحيط بها سور من الطابية (خيط من اللوح أو خيطين أو ثلاثة حسب التعبير المحلي)(30) لحماية هذه الأراضي من زحف الرمال الصحراوية ولحماية المنتوجات من الماشية.

وتتجمع الأراضي في إطار الملكية الفردية بيد بعض الأسر مثل أسرتي المزواريين بواحة تينزولين، وأسرة القايد التمنوكَالي بواحة مزجيطة وأسرة القايد اليحياوي بتنزولين ومزجيطة، أما في الواحات الجنوبية، فتتجمع هذه الأراضي بيد شيوخ القبائل.

ج : أراضي الأحبــاس

تحتل أراضي الأحباس بدرعة حيزا هاما في نظام الأراضي الزراعية. وقد قدرت في بداية عهد الحماية بثلثي الأراضي المزروعة بكل واحات الوادي(31) في حين أن بعض الإحصائيات المتأخرة قد حددت هذه النسبة في خمس الأراضي المزروعة(32).

(29) تطلق كلمة «إكَر» وتجمع على «إكَران» بالأطلس الكبير على الأراضي الزراعية السقوية. انظر : ذ. التوفيق أحمد : اينولتان طبعة أولى ج. 1 ص. 214.

(30) تطلق كلمتي «خيط من اللوح» على مادة الطابية التي يبلغ طولها حوالي مترين وعلوها ما يقرب من متر واحد، وسمكها نصف متر وأكثر.

(31) L. TRANIER : Aperçu économique sur la vallée du Draa, R.G.M. N° 3 et 4, 1935, p. 257.

(32) ذلك ما ورد في النشرة الاحصائية للمكتب الجهوي للاستثمار الفلاحي بورزازات لسنة 1981م.

وكيفما كان الأمر فإن النسبتين تؤكدان معا أهمية أراضي الحبس بالمنطقة وأراضي الأحباس نوعان :

1 ــ أراضي الأحباس العامة :

وتشمل أراضي أحباس المساجد، وأراضي أحباس الزوايا.

أ ــ أراضي أحباس المساجد

لا يكاد يخلو أي قصر من قصور وادي درعة من أحباس خاصة بمسجد القبيلة. ويخصص ربع هذه الأحباس للإنفاق على لوازم المسجد كالحصر والدلاء وزيت الانارة وغيرها. أو للإنفاق منها على الفقيه المشارط بمسجد القصر، وكثيرا ما كانت قبائل القصور تسلم أملاك أحباس المسجد للفقيه المشارط يستغلها بنفسه ويتصرف فيها مدة مشارطته بالقصر. وإذا لم تكن هذه الأملاك كافية لتغطية كل المصارف التي تتطلبها نفقات المسجد وشرط فقيه القبيلة، فإن هذه الأخيرة، تقوم بكراء هذه الأملاك.

وقد عثرنا على اتفاقية بزاوية سيدي أحمد بن اعلي جبار المنكسرين[33] بواحة ترناتة. وتكشف لنا هذه الوثيقة الطرق المتبعة في تنظيم كراء أحباس المسجد، حيث عمدت قبيلة زاوية سيدي أحمد بن علي، بحضور أعيان قبيلة أولاد الحاج[34] إلى القيام بتدليل أراضي أحباس المسجد في مسجد الزاوية لثلاث جمع متوالية حتى يتمكن كل سكان قصور أولاد الحاج من الاطلاع على طريقة الكراء، وقيمته.

ويعود تاريخ هذه الاتفاقية الى سنة 1322هـ/1904، وهي بحوزة ورثة السيد الحسن بن المدني، وقد سمحوا لنا بتصويرها مشكورين، ونحبذ نقل الاتفاقية بأخطائها الإملائية واللغوية حفاظا على طبيعة نصها :

الحمد لله

اكتروا بحول الله وقوته جماعة المرابطين ءال سيدي أحمد بن علي جبار المنكسرين نفعنا الله ببركته ءامين. ملك المسجد بعد تدليل ثلاثة جمعات متواليات بالتدليل والتبريح في كل جمعات، على أعيان أهل البلاد كلها من أعرب[1] وضراوة[2] حتى نزل على من نزل عليه سنذكره. واشترط عشرة أعوام والثمن يؤدي من اكتبر القابل من تاريخه في خمسة عشر يوما منه هاكذا يودي في رأس السنة الى اختتام العشرة المذكورة بعد الأداء والتودية من المكترين :

ــ فعند السيد اعمر بن الغازي حْبَلْ[3] من التراب في المعادير لثلاثة ريال وبسيطة.

ــ وعند أيت السيد الاحساين حبل السيد محماد واخوانه حبل بثلاثة ريال.

---

(33) انظر ترجمته عند محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة مخطوط خاص ص. 8.

(34) سبق لنا أن عرفنا بقبيلة أولاد الحاج في الفصل الذي خصصنا للاتفاقيات الصنحية واتفاقيات تيسي.

ـ وعند السيد العراب بن الهشام ريالتين وربعين سوى كرش[4] في جُرُورة الاحفرة[5].

ـ وعند السيد محماد بن اليمان جرورة ريالتين وبسيطة سوى كرش.

ـ وعند الصديق بن الساهل اثنين وكرش.

ـ وعند السيد عبد الله بن التهام ثلاثة.

ـ وعند السيد الهاشم بن ابراهيم ثلاثة أرباع ونصف.

ـ وعند السيد محمد بن أحمد أربعة أرباع ونصف.

فمن اتفق على الكراء من الجماعة المذكورة السيد المدني ابن الصديق وكافة المرابطين وجماعة الاعرب التهامي ابن سليمان واخاه الشيخ عبد الدايم.

واتفقوا الجماعة المذكورة حيث يبلغ الأجل المقيد ولم يمكّن الثمن المذكور يبيعون الجماعة قدر ذلك ويودي للمسجد حظه. وفي تاريخ شهر جاد الأول عام 1322 عبد ربه تعالى عمر ابن الجيلاني الحاجي ستره الله في الدارين ءامين.

نعم صح به والمكترين هم الذين وفقوا في بيع متاعهم.

توضيح لبعض أعلام الاتفاقية

(1) اغربُ : العرب، ويقصد الكاتب جماعة قبيلة قصبة أولاد لعكيد وهم من فرقة أولاد فاضل من قبائل الروحة الوسطانيين.

(2) ضراوة : صحيحه «دراوة» ويقصد جماعة الحراطين من قبيلة قصبة أولاد الباشا.

(3) حَبلُ : الحبْل في اللغة هو الرباط كما في لسان العرب. وهو في هذه الاتفاقية اسم بقعة أرضية، والحبل قياس طولي كان العرب يستعملونه منذ القديم (انظر مجلة الفيصل السعودية العدد الرابع ـ سنة 1977 ـ ص 17).
ولا نستبعد أن يكون أصل اطلاقه بدرعة على البقع الأرضية، يرجع إلى طريقة اقتسام الأراضي بالحبال، وكثيرا ما نصادف كلمة الحبل من الأرض في رسوم الأملاك العقارية التي اطلعنا عليها بواحة ترناتة من ذلك حبل المنشار، وحبل بن صفّار الخ..

(4) كرش : عملة نقدية كانت سائدة بدرعة خلال القرن الثالث عشر الهجري/19م. ويساوي الكرش موزونة واحدة ويصرف الريال الحسني في نفس الحقبة بعشرين كرشا.

(5) جرورة : هي الحوض الصغير، والمقصود بها هنا قطعة أرضية اصغر من الحبل واصغر من الفدان والجنان.

التعليق على هذه الاتفاقية

تقدم لنا الوثيقة فكرة واضحة عن أراضي الأحباس الخاصة بالمساجد بدرعة وطريقة ادارتها واستغلالها وذلك بإشراف جماعة القبيلة على كرائها بمقتضى اتفاق جماعي حضره أعيان قبائل قصور أولاد الحاج الثلاثة (زاوية سيدي أحمد بن علي جبار المكسور، وقصبة أولاد الباشا، وقصبة أولاد لعكَيد). وتدخل قبيلة قصبة أولاد لعكَيد في شؤون أملاك أحباس زاوية سيدي أحمد بن علي له أكثر من دلالة، ذلك أن المنطقة كانت تعيش أنذاك حالة من الغليان الاجتماعي لما تعرفه من فراغ سلطوي، لانشغال

المخزن العزيزي في مواجهة الثوار بالمناطق الشمالية، وأمام هذا الفراغ السلطوي كانت زوايا وادي درعة تلجأ الى طلب حماية بعض القبائل القوية المجاورة لها، وفي هذا الإطار كان حضور قبيلة أولاد لعكَيد في عملية كراء أملاك أحباس مسجد زاوية سيدي احمد بن علي جبار المكسور.

ونظرا لتعاقب دورات الجفاف الحادة على المنطقة، وعدم ضمان قبيلة زاوية سيدي احمد بن علي الحصول على واجبات الكراء من الحبوب، فإن القبيلة اتفقت على كراء أملاك المسجد على أساس النقود. إلا أن أهم ما تكشفه لنا هذه الوثيقة وهو وجود عدد من الفلاحين بدرعة لا يملكون أراض زراعية على الإطلاق، فكانوا يضطرون إلى كراء بعض الأراضي كما هو الحال بزاوية سيدي أحمد بن علي. ومن الصعب بمكان أن نحدد، خلال الفترة التي تناولها البحث، نسب الأسر المالكة، وغير المالكة للأرض بالمنطقة نظرا للتقلبات الاجتماعية السريعة، وقد كانت هذه التقلبات تؤدي بالعديد من الأسر الى بيع بعض ممتلكاتها والعمل كخماسة فيها أو الى الهجرة بصفة نهائية. وقد كانت دورات الجفاف الحادة وما يصحبها من قحوط ومجاعات تزيد من تعقيد هذه التقلبات حيث كان السكان يضطرون الى رهن أراضيهم أو بيعها مقابل الحصول على القليل من القوت.

ب : أراضي احباس الزوايا

غالبا ما كان المؤسسون الأوائل للزوايا بدرعة ما يقومون بتحبيس بعض الأراضي والعبيد على زواياهم لضمان بقائها واستمرارها. ويخصص ريعُ هذه الأراضي للإنفاق على ابناء السبيل، وطلاب العلم، والغرباء والخدمة الذين يعملون في المصالح العامة للزاوية[35].

وقد حبست هذه الأراضي على الزوايا، حتى يتأتى لها القيام بوظائفها الاجتماعية والدينية كاملة، ولعل ما يؤكد على هذا الدور الاجتماعي والديني لأراضي الأحباس أن شيخ الزاوية نفسه — في أي زاوية كان — لا يحق له أن يتوسع في أحباس الزاوية، ويصرف بعض ريعها في أموره الخاصة[36] وإذا ما حاول ذلك فإنه يواجه بالاستنكار والاستهجان[37] ونستفيد من بعض الوثائق الخاصة أن هذه الاراضي الحبسية كانت مثار نزاع بين أبناء الزاوية، خاصة في الوقت الذي أصبح الشيوخ يتصرفون في الأحباس كأنها ملك خاص بهم. وهكذا نقرأ في وثيقة من زاوية تينمسلا القادرية ما يلي :

الحمد لله لما أمر الله بموت البركة السيد محمد بن عبد السلام ووليت الخلافة بعده في الزاوية وقام علينا أخينا سيدي الحسن بن ادريس مع بعض الشياطين من أبناء عمنا...».

والوثيقة بتوقيع شيخ زاوية تينمسلا القادرية في مطلع القرن الرابع عشر الهجري/نهاية القرن 19م. ويعود تاريخها إلى سنة 1303هـ/1885م[38].

---

(35) محمد بن عبد السلام الناصري : المزايا فيما أحدث بأم الزوايا مخطوط خاص ص. 69.

(36) أحمد بن خالد الناصري : طلعة المشتري ج. 1 ص. 170.

(37) — محمد بن عبد السلام الناصري : المرجع السابق ص. 72.

— محمد المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة مخطوط خاص ص. 19.

(38) نتوفر على نسخة مصورة من مقيد السيد عبد العزيز بن ادريس الذي بحوزة مالكه السيد عبد الرحمان القادري.

أما شيخ زاوية تامكروت الناصرية السيد الحنفي، فقد اضطر سنة 1316هـ/1898 إلى الاستعانة بالمخزن على منافسه القوي سيدي أحمد بن بوبكر، الذي حاول الاستيلاء على الزاوية بالقوة، فأصدر السلطان مولاي عبد العزيز (1312—1326هـ/1894—1908) أمره الى القايد محمد بن العربي اليحياوي بأن يضرب على يد سيدي أحمد ويمنعه عما يريد ويكف ضرره عن الزاوية : «وأن يشد عضد المقدم السيد الحنفي»(39).

وتعتبر هاتان الزاويتان من أبرز الزوايا بوادي درعة وتوجد لكل منهما أحباس عريضة في مختلف الواحات ويستغلونها بواسطة عبيدهم أو بواسطة الحراطين الذين يخدمون في أراضي الأحباس تحت نظر شيوخ الزاوية.

2 — أراضي الأحباس الخاصة

وتشمل الأراضي التي قام بتحبيسها أشخاص معينون على أبنائهم وحفدتهم من الذكور ما تناسلوا، ويتم هذا التحبيس عادة بمقتضى رسم عقاري يحدد الأرض المحبسة والمحبس عليهم. وإذا كان من حق المحبس عليهم أن يتصرفوا في هذه الأملاك تصرفا مطلقا بالاستغلال والكراء والرهن، إلا البيع فإنه لا يحق لهم ذلك، لأن لفظ المحبس يقتضي انتقال هذه الأحباس على الأعقاب فالأعقاب ما تناسلوا.

والواقع أن انتشار هذه الأحباس بدرعة يكشف لنا عن رغبة سكان المنطقة في الاحتفاظ بالأرض في أعقابهم.

لم يكن بالامكان ضبط المساحات المنزرعة بواحات درعة سواء بكيفية دقيقة أو بكيفية تقريبية وذلك لعدة أسباب، يمكن حصر أهمها في النقط التالية :

1 — أن المساحات المنزرعة بالمنطقة، ظلت تعاني من التقلص بصفة مستمرة نتيجة زحف عوامل التصحر، ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه، أن الزائر للواحات الجنوبية (فزواطة ولكتاوة ومحاميد الغزلان، كثيرا ما يلاحظ أن كثبان الرمال قد زحفت على مساحات كبيرة من الأراضي الزراعية، وأن زحف هذه الكثبان قد امتد الى أسوار القصور.

ومن جهة أخرى فإن نهر درعة في أوقات الفياضانات الكبرى كثيرا ما كان يغير مجراه، الأمر الذي كان يؤدي الى جرف الأراضي الزراعية وتحويلها الى أرض بلا قع لا تصلح للزراعة إطلاقا، ولا تزال آثار هذه الفيضانات واضحة المعالم في غير ما منطقة من واحات الوادي.

2 — نلاحظ من خلال ما أطلعنا عليه من رسوم الأملاك العقارية أن كتاب هذه الرسوم لم يكونوا يهتمون اطلاقا بتحديد مساحات البقع الأرضية التي يوثقونها، وكانوا يكتفون بضبط حدود البقعة بذكر جيرانها من جميع الجهات مع التأكيد على عدد ما فيها من النخيل وأنواعه، ليختموا بعد ذلك مواصفات

(39) من رسالة من السلطان مولاي عبد العزيز الى القايد محمد بن العربي اليحياوي.

البقعة بالعبارة التوثيقية الشهيرة «والاضافة تغني عن باقي الحدود والأوصاف» أو بعبارة «وشهرتها تغني عن الوصف».

3 ــ أننا لم نتمكن خلال جولاتنا المتكررة بقصور وادي درعة، ولو على نموذج واحد من لوائح تسجيلات المنتوجات الفلاحية لأغراض جبائية، حتى يتأتى لنا الاعتماد عليها لأخذ فكرة تقريبية عن المساحات المنزرعة بالمنطقة.

وهكذا يتضح مما سبق أن مشكل التعددية التي يتسم بها نظام الأراضي العقارية بدرعة، وما تتعرض له الملكية الخاصة من تفتت عن طريق الإرث، ورغبة المالكين من الورثة في الاحتفاظ بقطعهم الأرضية وعدم التنازل عنها مهما بلغ صغر حجمها، يُعتبر من أهم العوامل التي كانت تعرقل الأنشطة الاقتصادية بالمنطقة خاصة أن هذه الأنشطة تقوم بالأساس على الاعمال الزراعية وما ينتجه الفلاحون، ناهيك عن اعتماد هؤلاء الفلاحين في تفليح الأرض على تقنيات تقليدية وطرق استغلال أقل ما يقال عنها أنها ترجع للعصور المتوسطة.

II ــ أنماط الاستغلال وأنواع المنتوجات الزارعية

1 ــ طرق الاستغلال

تتنوع طرق الاستغلال بوادي درعة، ولا تقل تعقيدا عن نظام البنية العقارية. وقد سمحت لنا الوثائق التي عثرنا عليها بقصور المنطقة التي لها علاقة بالنشاط الزراعي، ملاحظة عدة أنماط لإستغلال الأراضي، يمكن إجمالها كما يلي :

أ ــ الاستغلال المباشر

وهو الأكثر انتشارا بين المستقرين من سكان القصور، ويتجاوب مع حجم البقع الأرضية الصغيرة وقلة الماء حيث يقوم الفلاح باستغلال أراضيه بنفسه، والاستعانة في ذلك بأفراد أسرته.

ب ــ الاستغلال بواسطة الخماس

ونستفيد من كتب النوازل أن الاستغلال بواسطة الخماس كان سائدا بدرعة منذ قرون، وهي طريقة تقليدية تسود في مجموع أنحاء المغرب، وقد كانت هذه الطريقة مثار نقاش بين الفقهاء، وهل يمكن إدراج «تَخَمَّاسْت» ضمن إطار العمل بالاجارة ؟ أم يمكن إدراجها ضمن إطار العمل بالشركة ؟ إلى غير ذلك من التساؤلات النظرية أو العملية التي كانت تطرحها طريقة الاستغلال بواسطة الخماس في المجتمعات الزراعية. وقد قام الفقيه أبو الحسن علي بن رحال المعداني (من رجال القرن 12هـ/18م)[40]

(40) انظر ترجمة المعداني عند : د. محمد الأخضر : الحياة الأدبية على عهد الدولة العلوية ــ ص. 205.

بتلخيص أراء الفقهاء حول هذه المسألة في مؤلفه الموسوم بـ «**رفع الإلتباس عن شركة الخماس**»[41]. ويستفاد من جملة الأسئلة والأجوبة التي ساقها المعداني في كتابه أن الاستغلال بواسطة الخماس يندرج ضمن العمل بالشركة.

ويتم عقد «تَخَمَّاست» بواحات درعة بطريقة شفوية بين شخصين، أحدهما يملك الأرض ويقدم البذور وكل الأدوات الضرورية للقيام بتفليح الأرض، وثانيهما يقوم بالشغل فقط ويستفيد بجزء من الانتاج، يحدد عمليا في الخمس[42] ويتم التعاقد عادة في شهر أكتوبر أي في بداية الموسم الفلاحي ويتعاطى «لتَخَمَّاست» الفلاحون المستقرون الذين لا يملكون أراضي، أو يملكون أراضي لا يفي مردودها بمتطلباتهم الغذائية.

ج ــ الاستغلال بالشركة

يتم عقد طريقة الاستغلال بالشركة بين مالك الأرض والفلاح بمقتضى عقد شفوي، إذا كانت مدة الاستغلال قصيرة (سنة أو سنتين)، وبمقتضى عقد مكتوب إذا كانت المدة طويلة (عشر سنوات فما فوق). وتتنوع طرق الاستغلال بالشركة تبعا لرغبة المتعاقدين. وتختلف هذه الطريقة عن «تَخَمَّاست» بكون صاحب الأرض هو الذي يأخذ الخمس، أو الربع، أو السدس من المنتوج الزراعي وحسب مقتضيات العقد المتفق عليه. وتعرف هذه الطريقة في بعض واحات درعة بـ «تَشَرَّعْت» فقد جاء في عقد استغلال بالشركة ما يلي :

الحمد لله

لما اتفقا وتعاقدا محمد بن اتهام مع حموا بن حدَّ بن يوسف البخلاليين على الشركة، أن يخدم الثاني للأول في الأرض المعروفة له والمنسوبة إليه في حومة السَّفَرْ أن يخدم فيها بِتَشَرَّعْتُ، أن يقبض الأول الخمسة في الأرض المذكورة من الغلة أو الحنة إن وجدت وغير ذلك مما ينبت في الأرض المذكور، ويحفر الثاني العين لتلك الأرض. وجعلا بينهما ثلاثة أعوام أجلا من تاريخه ويخدم خدمة كده ولم يعجز، وإن عجز ولم يخدم قبل الأجال المذكور يخرج ولم يقبض مّا فوّت على العين المذكورة. وإن أراد محمد المذكور أن يخرج شاركه المذكور قبل الأجال أن يعطيه يعني لمحمد المذكور ثلاثة عشر مثقالا دراهيم وخمسة امدود شعير وخمسة أصحاف تمارا ويعطيه قيمة عروق الحنة إن وجدت في الأرض. وإن جلس الثاني حتى يكمل الأجال المذكور لم تكن له اقامة في العين ولا غيرها سوى عروق الحنة إن وجدت» اتفاقا صحيحا تاما وبه شهد (عليهم) بما فيه وهما بحال كمال بتاريخ ذو حجة عام 1291 (عبيد ربه) سبحانه محمد العربي بن محمد بن ابراهيم بالزاوية العمرانية السفلى أصلا وقته بقصر ابو خلال (ستره) الله في الدارين ءامين.

---

(41) الكتاب مطبوع على الحجر بفاس وقد اغفل من تاريخ الطبع.

(42) ليست هناك قاعدة واحدة متبعة في تخمَّاست وإنما تخضع لرغبة وإرادة المتعاقدين، إلا أن الغالب هو التعامل بالخمس.

(43) تشرَّعت : تعني الاتفاق على الشركة بالربع أو بالخمس كما هو الحال في هذه الاتفاقية.

التعليق على هذه الوثيقة

هذه الوثيقة عبارة عن اتفاقية لعقد الشركة (تَشْرَّغْت) بين صاحب الأرض وهو محمد بن التهامي، وفلاح هو حَمُّ ابن حَدَّ بن يوسف. وكلاهما من قصر بوخلال بواحة ترناتة ويعود تاريخ هذه الاتفاقية إلى ذي حجة من عام 1291 موافق دجنبر 1874م.

وتتناول الاتفاقية الجوانب الآتية :

1 ــ تحديد القدر الذي يأخذه صاحب الأرض وهو الخمس (الخَمْسَة حسب تعبير الوثيقة) من كل منتوج (الغلة أي الحبوب وكل ما تغله الأرض من خضر وغيرها بما في ذلك الحناء).

2 ــ حفر البير (العين في الوثيقة) مما يوحي بأن الأرض تقع خارج المجال الذي يسقى عن طريق الساقية.

3 ــ مدة الشركة وهي ثلاثة عشر سنة.

4 ــ حالة عجز الشريك عن العمل ورغب في فك العقد قبل اتمام الأجل المتفق عليه، فإنه يتخلى دون أن يأخذ أي تعويض عن حفر البئر.

5 ــ حالة رغبة صاحب الأرض في فك العقد قبل اتمام الأجل الذي حددته الاتفاقية، فإنه يؤدي لشريكه تعويضا نقديا يقدر بنحو ثلاثة عشر مثقالا، بمعدل مثقال عن كل سنة، وتعويضا عينيا يقدر بخمسة امدود من الشعير وخمسة أصحاف من التمر كما يؤدي ثمن (قيمة) عروق الحنا إذا كانت مغروسة في الأرض.

6 ــ حالة بقاء الشريك في الأرض إلى غاية إتمام الأجل المتفق عليه، فإن صاحب الأرض لا يؤدي أي تعويض لشريكه عن البئر الذي حفره.

ويتضح أن هذه الشركة في مصلحة صاحب الأرض اكثر ما هي في مصلحة الفلاح، الذي يجد نفسه وبعد ثلاثة عشر سنة من العمل دون أي تعويض يذكر عن المجهود الذي بدله لإصلاح الأرض وإحيائها.

د ــ الاستغلال بالكراء

أما النوع الرابع من طرق الاستغلال السائد بدرعة فهو الاستغلال بالكراء وقد كشفت لنا هذه الطريقة عن وجود عدد من الفلاحين لا يملكون أرض زراعية أو أن ما يملكونه لا يسمح لهم بالحصول على الكفاية من الانتاج لمواجهة الحاجيات اليومية، ولتغطية هذا النقص كانوا يضطرون الى كراء بعض الأراضي الزراعية من أحباس المساجد أو أحباس بعض الزوايا وقد سمحت لنا بعض الوثائق الخاصة بملاحظة طريقتين للتعامل بين الفلاحين ونظرائهم، هذه الأحباس أو من يقوم مقامهم :[44]

(44) يعين ناظر الأحباس بدرعة من لدن القاضي أو نائبه بالمنطقة. وفي حالة عدم وجود ناظر فإن جماعة القبيلة هي التي تقوم مقامه.

1 ــــ يتم التعاقد لمدة قصيرة، لاتتجاوز سنة أو سنتين على أساس الحبوب (الشعير على الخصوص باعتباره المنتوج الأساسي في الاستهلاك اليومي بعد التمور في المنطقة)[45].

2 ــــ التعاقد لمدة طويلة على أساس النقود، وقد كانت هذه الطريقة أكثر شيوعا بالمنطقة.

2 ــــ التقنيات الزراعية وأهم المنتوجات بدرعة

أ ــــ التقنيات الزراعية

من الملاحظ في الأعمال الزراعية بواحات وادي درعة أن التقنيات الزراعية وأساليب الإنتاج، ظلت كما هي عليه منذ قرون ولم يطرأ عليها أي تغيير يذكر، ونعتقد أن هذا الجمود، الذي ظل يطبع الأنماط التقليدية الزراعية بدرعة يرجع بالأساس إلى مجموعة من العوامل التي ظلت تعرقل الاعمال الزراعية بشكل عام، وأهم هذه العوامل دورات الجفاف الحادة، وكانت هذه الدورات تأتي على ما خلفته سنوات الخصب وتدفع بالسكان الى الهجرة. ومنها البنية العقارية المعقدة، بالاضافة الى عقلية الفلاحين الذين لا يرون بديلا بقطعهم الأرضية مهما صغر حجمها.

فإذا كانت دورات الجفاف المتعاقبة، كثيرا ما كانت ترغم الفلاح على توقيف أعماله الزراعية في انتظار فيضان نهر درعة، فإن البقع الأرضية المتميزة بصغر مساحاتها لا تتطلب منه وقتا طويلا لقلب أرضها وحرثها، وهكذا ظل الفأس هو الأداة الفعالة لحرث هذه المساحات الصغيرة من الأرض، ويستورد الفأس الخاص بقلب الأرض وحرثها من دادس وتودغة.

أما ملكية المحراث الخشبي فتعتبر من مظاهر الغنى بالمنطقة ولن نبالغ في شيء إذا قلنا إن عدد الذين لهم القدرة على امتلاك هذه الأداة الزراعية، لا تتجاوز بضعة أسر في كل قصر من قصور الوادي، ومن مظاهر التكافل الاجتماعي أن هذه الأسر لا تتردد في إعارة المحراث الخشبي وتوابعه لكل من يرغب في الاستعانة به في حرث أرضه من أفراد القبيلة.

ومن الأدوات الزراعية الأخرى التي كانت سائدة بالمنطقة «العَتْلَةُ» أو «أمادير»[46] وهي أصغر حجما وأخف وزنا من الفأس، وتستعمل في تنظيم السقي، وفي كنس السواقي ومصاريف الماء. أما «الشَّاقُورة» وهي أصغر حجما من العتلة، فتستعمل على الخصوص في زراعة الحنا ونقش أحواضها، وفي زراعة البقول والخضر بصفة عامة. وقد تطورت أشكال المناجل بطريقة خاصة حتى يكون بإمكانها أن تستجيب لمتطلبات عمليات حصاد الحنا التي يتميز عودها «أصاغَرْ» بنوع من الصلابة، ولحشِّ الفصة.

---

(45) كان الشعير يعتبر من المواد الاستهلاكية الأساسية بدرعة منذ القرن العاشر الهجري/16م انظر : الحسن الوزان : وصف افريقيا ج. 2 ص. 119.

(46) العتلة : لفظ عربي كما ورد في لسان العرب (مادة عتل) ولازالت الكلمة متداولة عند قبائل الروحة وأولاد يحيى، ويقابلها «أمادير» في اللهجة الأمازيغية.

وعلى كل فإن الأدوات الزراعية التي كانت سائدة بوادي درعة تعود في مجملها الى العصور الوسطى، ولا تختلف في شيء عن باقي الأدوات الزراعية السائدة في البوادي المغربية الأخرى.

ب ـ المنتوجات الزراعية

تخضع المنتوجات الزراعية بواحات وادي درعة لمؤثرات طبيعية (دورات الجفاف الحادة، قلة الماء، الحرارة الخ) كما تعاني من جملة من المشاكل التي لها علاقة بملكية الأرض وملكية الماء والتنظيم العقاري وغيره. وبالرغم من هذه المشاكل التي كانت تعرقل السير الطبيعي للانتاج الفلاحي بالمنطقة، فواحات وادي درعة كانت مشهورة بمنتوجاتها الفلاحية المتنوعة منذ العصور الوسطى مثل التمور والحنا والكرويا والكامون والنيلج والتاكوت وغيرها[47] وتنبت في المنطقة كل أنواع النباتات وأشجار الفواكه بمختلف أنواعها[48].

أما المنتوجات الاستهلاكية، فتفيدنا كتب الرحلات باعتماد أهل درعة في قوتهم اليومي على التمور والشعير[49] بالاضافة إلى الذرة والفول والعدس والكيكر[50].

1 ـ زراعة النخيل وانتاج التمور.

النخيل شجر صحراوي بالاصالة، ويسود الاعتقاد أن زراعة النخيل قد وصلت الى الجنوب المغربي من المشرق عبر طرق العربات وذلك منذ الألف الاول قبل الميلاد[51] وسواء صح هذا الاعتقاد أم لا، فإن زراعة النخيل قديمة جدا بواحات وادي درعة.

ويستنبت النخيل بطريقتين أساسيتين :

ـ طريقة الغرس : ولفظ الغرس علم على فسائل النخيل، التي تنزع بطريقة خاصة من النخلة الام، ثم توضع بعناية في حفرة مسمدة، ويعتني بسقيها الى حين التأكد من نباتها.

وهذه الطريقة اكثر انتشارا في زراعة النخيل لكون تمرها لا يتغير عن تمر النخلة الأصل.

ـ طريقة الزرع بالنواة : ولا يلجأ إليها إلا في النادر، وتعطى زراعة النواة نخلة مخالفة عن النخلة الأصل، وللسكان طرقا مختلفة في نقع/نوايات التمور في الماء أو غيره لاستخراج تمر معين، وقد فصّل طريقة زرع النخيل بالنواة محمد المكي بن موسى الناصري في كتابه **طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة**[52]

---

(47) الشريف الادريسي : نزهة المشتاق في اختراق الافاق ـ الجزائر ـ 1957 ـ ص. 38.

(48) محمد بن لحبيب التمنوكالي : العقود الجوهرية ـ مخطوط خاص ـ ص. 2 ـ 3.

(49) الحسن الوزان : وصف افريقيا ج. 2 ـ ص. 118 ـ 119.

(50) الكيكر : نوع من القطاني من فصيلة الجلبان، ويختلف في حجمه وشكله عن الجلبان الأخضر، كما يختلف عن كرسانة.

(51) — Abdelkader Otmani : Entreprise dattière au Maroc, Institut de Commerce Casablanca, 1982, p. 7.

(52) محمد المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة : مخطوط خاص ف 22 ـ 43.

ويزرع النخيل في نفس الوقت مع باقي المزروعات الأخرى، ويوفر حماية خاصة للمزروعات التي لا تتحمل حمارة القيظ وصبارة البرد. وقد برع سكان الوادي عامة والحراطين خاصة في طرق في رعاية النخيل والاعتناء به.

وتدل كل القرائن على التمر كان ولا يزال أهم منتوج فلاحي بالمنطقة وقد لاحظ الحسن الوزان اثناء زيارته لبلاد درعة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م، أن بساتين النخيل تمتد على مسافة عدد أميال بجوار درعة، وأن هذا النخيل ينتج «تمرا غليظا من النوع الممتاز»(53) وإن دلت هذه الملاحظة على شيء فإنما تدل على أهمية زراعة النخيل وأهمية التمور في الحياة اليومية لسكان وادي درعة، وهذا ما عبر عنه محمد المكي بن موسى الناصري بقوله : «كان التمر عمدة أهل درعة في قوتهم ومهماتهم وملماتهم، ومنه حوائجهم، وكل نفقاتهم في سائر معاشهم وإذا فقدوه حل بهم الدمار ووجب عليهم الفرار من الديار، وقد شاهدنا ذلك بالعيان لا بالأخبار»(54).

ويتضح من خلال هذه الملاحظة أن التمر يعتبر أساس الحياة الاجتماعية والاقتصادية لسكان الوادي وعليه مدار الاستقرار.

وتنتج بلاد درعة عدة أنواع من التمور يمكن تصنيفها كما يلي :

1 ــ الأنواع الممتازة وأهمها : بُوسَكْرِي، والجِيهَل، وبورار وأَحَرْضان، والفكَوسْ، وبوسَتَحّمي. وتقدم هذه الأنواع في الهدايا لرجال المخزن والقواد. كما تشكل مادة اقتصادية هامة لقيمتها التجارية العالية، فتصدر للأسواق بشمال البلاد والى أسواق بلاد السودان. كما كانت تصدر الى أوربا منذ القرن العاشر الهجري/16م(55).

2 ــ الأنواع المتوسطة الجودة وأهمها : أَكَلِّيدْ، والجَعْفري، وإكْلان ومَكَّتْ وسبَع سَلْطَانْ والخُضيري، وكل أنواع الخلط أو الساير. وجل هذه الأنواع تستعمل للاستهلاك اليومي.

3 ــ الأنواع الرديئة : وتتشكل من التمور التي لم يتم نضجها (الحشف) ولا تستهلك إلا في حالة الضرورة القصوى، وإلا فإنها تقدم كعلف للدواب بعد هرسها وخلطها بالنخال.

ولأهل درعة طرق خاصة في اختزان التمور وحفظها من التآكل، فقد كانوا يقومون بكبسها في خَوابي فخارية كبيرة أشبه ما تكون بـ «تَخَابَيْت» بمنطقة فكَيكَ(56)، كما يكبس في بناء صغير مجصص يعرف بـ «الدُّكْس»، وهذه الطريقة في اختزان التمور، قديمة جدا بدرعة وقد أشار إليها الوزان أثناء زيارته للمنطقة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م(57).

---

(53) الحسن الوزان : المرجع السابق ــ نفس الصفحة.

(54) محمد المكي بن موسى الناصري : طليعة الدعة. مخطوط خاص ص. 22.

(55) — Marmol : L'Afrique, Tome II, p. 125,

(56) بنعلي بوزيان : واحة فكَيكَ تاريخ وأعلام ــ البيضاء 1987 ص. 113 هامش 4.

(57) الحسن الوزان : وصف افريقيا ج. 2 ــ ص. 119.

لم يكن بالامكان ضبط أعداد النخيل بواحات وادي درعة خلال الفترة التي حددها البحث، ذلك أن كل القرائن توحي بتراجع زراعة النخيل في القرون الأخيرة نتيجة زحف عوامل التصحر وتعاقب دورات الجفاف الحادة، بالاضافة إلى تعرض النخيل للقطع إبان الحوادث التي عرفتها واحات الوادي طيلة النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م. وأثناء حوادث واحة محاميد الغزلان في أواسط العقد الرابع من القرن الثاني عشر الهجري/18م، فقد كان المتحاربون، والقواد المخزنيون يعمدون إلى اتلاف نخيل القبائل الثائرة لارهابها وارغامها على الخضوع[58].

إلا أن أهم خطر على النخيل خلال القرنين الأخيرين فيتجلى في مرض «بَايُّوض» فقد كان هذا المرض يفتك بعشرات من النخيل كل سنة[59]. وتذهب بعض الدراسات إلى القول بأن مرض «بايوض» قد فتك بثلثي نخيل وادي درعة خلال القرن الماضي[60] وسواء صح هذا الرقم أم لا، فإن الشيء الأكيد أن مرض «بايوض» بالنسبة للنخيل لا يقل خطورة عن وباء الطاعون بالنسبة للإنسان.

وفي بداية عهد الاحتلال، قدرت بعض الإحصائيات أعداد نخيل واحات درعة بما يقرب من مليون نخلة[61] وهو إحصاء أقل مما هو موجود في واقع الأمر، لأن السكان، كانوا يخفون العدد الحقيقي لما يملكونه من نخيل تجنبا لتأدية مبالغ مالية كبيرة عن ممتلكاتهم أثناء عمليات «الترتيب». ولعل ما يؤكد هذا أن ضباط الشئون الأهلية كانوا يبعثون برسائل إلى شيوخ القبائل يحذرونهم فيها من الكذب في إحصاء أعداد نخيل القبائل الخاضعة لنفوذهم، فلما أعياهم الأمر في ضبط الأعداد الحقيقية للنخيل عادوا إلى ترغيب السكان في التصريح بالعدد الحقيقي مقابل التخفيض في أداء واجب الترتيب وقد جاء في إحدى الرسائل إلى شيخ بوخلال «وإذا لم تكذبوا فإن هذا يعينكم على النقض في أداء واجب الترتيب». وإذا ما قبلنا جدلا القول بأن عدد النخيل بدرعة في بداية عهد الاحتلال يقدر بمليون نخلة، وأضفنا اليه ضعفيه على اعتبار أنه الرقم الذي قتله مرض «بايُوضْ» فهل يمكن القول بأن عدد نخيل واحات وادي درعة خلال القرن الماضي يزيد على ثلاثة ملايين نخلة ؟.

2 ــ منتوجات أخرى :

سبق لنا أن أشرنا إلى القول بأن بلاد درعة تنتج مزروعات أخرى إلى جانب انتاج التمور مثل النيلج والكمون والكروية والحنا وغيرها، وقد تراجعت هذه المزروعات باستثناء زراعة الحناء التي لا تزال تزرع بكثافة في مختلف واحات الوادي لأهميتها الاقتصادية والتجارية ومردودها المرتفع، وتتطلب زراعة الحناء عناية خاصة وبصفة شبه مستمرة سواء من حيث السقي والتسميد واقتلاع الأعشاب الضارة مثل أعشاب النجم والسَّعد، التي كانت تلحق أضرارا فادحة بعروق الحناء.

---

(58) Thomas Pellow : Relation de Thomas Pellow, p. 119.

(59) ينتشر مرض البايوض في جهات اخرى من مناطق الواحات انظر : بنعلي محمد بوزيان : واحة فكيك ص. 113.

(60) Abdelkader El Otmani : op. cité, p. 1.

(61) L. Tranier : Aperçu économique sur la vallée du Draa,E.G.M. n° 3 et 4, 1935, p. 266.

والحناء زراعة صيفية بالدرجة الأولى وتسقى مرة أو مرتين في الأسبوع حسب نوعية التربية وقدرتها على الاحتفاظ بالرطوبة. وبإمكان عروق الحناء أن تبقى في الأرض لمدة قد تزيد على عشر سنوات، لا تشارك في تلك الأرض أية زراعة أخرى إلا النخيل. وتحصد الحناء مرتين إلى ثلاث في كل موسم. وتصدر الحنا منذ القديم إلى جهات اخرى من إفريقيا.

أما المزروعات الأخرى السائدة بوادي درعة فهي الحبوب مثل الشعير والقمح وأنواع القطاني وأنواع الخضر خاصة اللفت والجزر واليقطين والفلفل والبقول وغيرها. ونظرا لقلة الأراضي الزراعية فإن هذه الزراعات تتم بالتناوب الأمر الذي يضعف من خصوبة الأرض ويؤثر على المردودية في الانتاج وهو إنتاج استهلاكي ومعاشي على كل حال.

وبشكل عام فإن الزراعة بوادي درعة ظلت تعاني من عدة مشاكل أهمها مشكل قلة الماء الذي لا يمكن الاستغناء عنه في أي نشاط زراعي على طول واحات الوادي.

III ـــ ملكية الماء وطرق توزيعه

نستفيد من كتب الرحلات(62) ومن الوثائق المحلية وكتب المناقب وكتب النوازل أن مشكلة الماء كانت ولاتزال من أهم المشاكل التي تعرقل السير الطبيعي للنشاط الزراعي بدرعة كما كان الماء ولايزال وارء جملة من المشاكل التي كانت تطرأ بين قبائل القصور، خاصة عندما ينضب الماء في النهر وترغب كل قبيلة في تجميع الماء لضمان سقي مزروعاتها. فقد سئل فقيه درعة محمد بن عبد الله الدليمي(63) عن أهل ساقية بنواها سدا في الواد (...) هل لأهل السد الذي تحتهم منعهم أم لا ؟ كما سئل عن قوم اشتركوا في ساقية بعضهم أعلاها وبعضهم في أسفلها، وكان بعض الأعلين يضر بالأسفلين عند أخذ مائه هل يمنع من أخذه بالوجه الذي يضر به بشركائه أم لا ؟(64).

وتكشف لنا مثل هذه الأسئلة وغيرها إلى أي حد كان الماء ولايزال وراء جملة من المشاكل بواحات الوادي. إذن فما هي الانماط التقليدية للري بدرعة ؟

1 ـــ الأنماط التقليدية للري

من الأمور التي أثارت انتباه الحسن الوزان أثناء زيارته لبلاد درعة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م هو عدم الانتظام في جريان مياه نهر درعة، حيث كان النهر يفيض في الشتاء حتى كأنه بحر، ثم يجف طورا آخر في الصف حتى يمكن عبوره على الأقدام»(65) وهذه الظاهرة لم يطرأ عليها أي

(62) انظر مثلا : الحسن الوزان : وصف افريقيا ج. 2 ص. 119.
(63) سبق لنا أن عرفنا بهذا الفقيه في مكان سابق من هذا البحث.
(64) محمد بن عبد الله الدليمي : النوازل خاص ص. 60.
(65) الحسن الوزان : وصف افريقيا : ج. 2 ص. 119.

تغيير يذكر منذ ذلك التاريخ إلى اليوم، وقد تكررت الاشارات إلى الفيضانات الكبرى لنهر درعة في المصادر التاريخية للمنطقة. فكيف إذن حاول سكان الوادي الاستفادة من هذا المورد الطبيعي والحيوي في اقامة نشاط زراعي مسترسل على طول الشريط الرسوبي الذي تتشكل منه الواحات ؟

أ ــ شبكة السواقي التقليدية

فقد حاول السكان الاستفادة من مياه نهر درعة منذ تاريخ غير معروف، وذلك بإقامة شبكة من السواقي في ضفتي النهر، ويزيد عدد السواقي الرئيسية المقامة على ضفتي النهر من إيمي نَدْري (فم درعة) بواحة مزجيطة إلى محاميد الغزلان على ثمانين ساقية. وتختلف هذه السواقي التقليدية من حيث الاهمية من واحة إلى أخرى. ففي واحتي مزجيطة وتينزولين حيث الشريط الرسوبي ضيق نسبيا فإن السواقي تتميز بصغر حجمها، وفي الواحات الجنوبيةَ حيث يتسع الشريط الرسوبي، فإن حجم السواقي الرئيسية كبير جدا إلى درجة أن السكان يطلقون على بعضها إسم الواد (واد إفلي) (واد تيراف)الخ.

ويظهر من خلال أسماء هذه السواقي أنها قديمة جدا، اذ تنطوي على بعض الأسماء التي قد تعود الى مرحلة هيمنة القبائل الزناتية على بلاد درعة وخاصة في واحتي مزجيطة وتينزولين حيث لايزال اسم الساقية في هاتين الواحتين يعرف باسمه الأمازيغي «تَارْكَا» مثل «تَارْكَانِسْفَالَنْ» «تَارْكَا نْتَنَمْرُوت». تارْكَا نَتَنَسَّيخْت... الخ... في حين أن أسماء السواقي في الواحات الجنوبية تحمل أسماء عربية «ساقية أولاد ادريس» وقد تحمل بعض السواقي اسمين مزدوجين مثل بُوكَانْ وتعرف أيضا بساقية نصراط بواحة لكتاوة.

وتعتبر الساقية بوادي درعة نموذجا حياً للتكافل الجماعي الذي كان سائدا بين قبائل القصور بالمنطقة. ذلك أن الاشغال التي يتطلبها حفر الساقية واجراؤها تتجاوز طاقة القبيلة الواحدة ولهذا نلاحظ أن قبائل القصور تتشارك في ملكية الساقية الواحدة والاستفادة من مائها، ومن النادر جدا أن نجد قبيلة قصر واحد تملك ساقية خاصة بها. وتتكون الساقية من قطاعين :

أ ــ **أَكَوُك** : وهو عبارة عن سد ترابي تقيمه القبائل في عرض النهر للرفع من منسوب الماء حتى يمكنه أن بنساب عبر الساقية التي يتجاوز طولها في غالب الأحيان عدة كيلومترات(66) ويتم بناء «أكوكْ» بطريقة جماعية (حَدْ الصَّايَمْ)(67) وغالبا ما تجرف الفيضانات الكبرى هذه «الاكَوكات». الاعتراضية، وتهدم معها فم الساقية (إيمي نْتَارْكَا).

ب ــ **الساقية** : وهو المجرى الرئيسي الذي ينساب منه الماء الذي تجمع في اكوكْ قبل توزيعه على مجموعة من المصارف الثانوية التي يجلب منها الماء الى البساتين.

---

(66) D. Jacques - Meunié : Maghreb et Sahara, Paris 1973, p. 180.

(67) حدْ الصّايم : معناه كل الرجال البالغين ولا يلجأ الى «حد الصايم» إلا في الحالات القصوى التي تستدعي عن حضور مكثفا لقبائل القصور.

وتعهد قبائل القصور الى خبير خاص بالاشراف على تنظيم شؤون الساقية وأكوك. ويعرف هذا الخبير بـ«عامل الساقية» وهو أشبه الى حد كبير بأمْزال، أو الفصَّال، وشيخ الما في جهات أخرى من المغرب(68) مع اختلافات طفيفة في بعض المهام البسيطة وهو غير «السَّرايْفي» الذي يشرف على توزيع الماء مثلا بمنطقة فكَيكَ(69) وتنحصر مهمة «عامل الساقية» بوادي درعة في الاشراف على إعادة بناء أكوكَ إذا جرفته الفيضانات، وترميمه والزيادة في علوه عندما يقل ماء النهر مع بداية فصل الربيع. كما يقوم بالاشراف على كنس المجرى الرئيسي للساقية، حيث كان الطمي يترسب في قعرها إبان فصل الفيضانات.

ويشترط في عامل الساقية أن يكون مطلعا إطلاعا دقيقا على كيفية توزيع «خدَّام الساقية» بين قبائل القصور المتشاركة في الساقية. ومن الصعب جدا الخروج بطرح عام للطريقة التي يتم بها تنظيم أشغال السواقي بوادي درعة، ذلك أن طريقة تنظيم هذه الأشغال تختلف من ساقية الى أخرى وتخضع لمقاييس ترتبط بالأساس بطريقة توزيع الماء على المستفيدين (انظر طريقة توزيع الماء فيما بعد).

ب ــ الآبــار :

يعتمد سكان واحات وادي درعة في سقي الأراضي الزراعية على مجموعة كبيرة من الآبار. حيث يستغلون بواسطتها المياه الجوفية. وقد وجدت هذه الآبار لمواجهة ظروف الجفاف ولتعوض السواقي في فصل االصيف حيث يقل الماء في النهر، وتنتشر هذه الآبار على الخصوص في الواحات الجنوبية التي كانت تعاني أكثر من قلة الماء.

ويتم الاستفادة من مياه الآبار لأغراض زراعية بطريقتين تقليديتين :

أ ــ **أغْرُورْ** : وهي طريقة منتشرة في غير ما منطقة من المغرب وشمال افريقيا(70) ويتم سحب الماء من البير في هذه الطريقة بواسطة دلو كبير مصنوع بطريقة خاصة، وتتراوح سعة هذا الدلو ما بين ثلاثين وخمسين ليترا من الماء. ويتكون الدلو في العادة من «تَاكرًا» وهي الجزء العلوي الذي يملأ بالماء، ومن الجزء السفلي (البُوطْ) ينتهي بمخرج صغير يفرغ منه حمولة «تاكرا»، ويرفع الدلو من البير إما بواسطة قوة جر حيوانية كالجمال أو الثور أو البغل وغيره، أو بواسطة جر بشرية.

وتنتشر طريقة السقي بأغرور بشكل خاص في الواحات الوسطى الثلاث (تينزولين وترناتة وفزواطة)، ولا يلجأ إليه سكان واحة مزجيطة إلا في حالات نادرة جدا، لكون هذه الواحة تتمتع بوفرة الماء الجاري في النهر لموقعها في عالية الوادي.

---

(68) Paul Roché : L'irrigation dans le sud de Maroc, C.H.E.A.M., Paris 1946, p. 7.

(69) أحمد مزيان : مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي خلال ق. 19 فكَيك ما بين 1845 ــ 1903 رسالة دبلوم الدراسات العليا ــ الرباط 1986 ص. 149.

(70) — Paul Pascon : Le Haouz de Marrakech, Tome I, p. 114.

— Emil Laoust : Mots et choses berbères, p. 436.

ب ــ الكَنْينَة : وتعرف أيضا بـ «تِكَجْدِيتْ»[71] وتنتشر طريقة رفع الماء بالكَنينة بواحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان. ترتكز هذه الطريقة على مبدإ الرافعة، وتتسم بالبساطة على عكس طريقة أغرور المعقدة، ولا تتطلب أكثر من عامل واحد يقف أمام البئر ليرفع «الكَنينة» ويفرغها في الجابية المعدة لتجميع الماء، وصرفه الى حيث المزروعات. وسعة الكنينة أقل بكثير من سعة دلو اغرور.

ج ــ طريقة الخطارات : وتعرف في جهات أخرى من المغرب بالفجارات[72]. وتكاد الخطارات تنعدم بمنطقة درعة ولم يبق منها إلا بعض الآثار بواحة ترناتة بقصري بوخلال وزاوية الشيخ سيدي مَحمد بن مهدي الجراري، ولا نعلم وجود غيرها في الواحات الأخرى.

2 ــ طرق تنظيم السقي وتوزيع الماء

أ ــ ملكية الماء :

تختلف ملكية الماء بوادي درعة من ساقية الى أخرى، كما كانت هذه الملكية تخضع للظروف الاجتماعية والسياسية التي عرفتها المنطقة خلال تاريخها الطويل، ولا مشاحة إذا قلنا إنه من الصعب جدا رصد جميع أشكال ملكية الماء بمختلف الواحات، لأن ذلك يستدعي العودة الى البدايات الأولى لظهور ما يزيد على ثمانين ساقية تمتد على طول نهر درعة من مزجيطة شمالا الى محاميد الغزلان جنوبا، كما يستدعي ذلك الكشف عن جملة من الملابسات التاريخية التي كانت وراء أشكال التمليك، وهذه أمور قد تتحقق في بعض السواقي ولكنها لن تتحقق على كل حال في الكثير من سواقي الوادي، لقدمها قدم الاستقرار بالمنطقة.

وبالرغم من هذه الصعوبات الأولية التي واجهتنا في تحديد أشكال ملكية الماء بدرعة، فإننا نستفيد من بعض الوثائق المحلية الخاصة بالماء، ومن الواقع الملاحظ المتوارث عن الأجيال السابقة، أن ملكية الماء عند قبائل القصور، لا تقل أهمية عن ملكية الأرض وباقي الأملاك العقارية الأخرى. وقد أمكننا تحديد عدة أشكال للملكية الماء يمكن إجمالها كما يلي :

1 ــ **الملكية الفردية** : وهي أكثر شيوعا وأكثر انتشارا في كل واحات الوادي، وتخضع هذه الملكية لكل الإجراءات الشرعية والقانونية التي تخضع لها الممتلكات الأخرى، من حيث التوريث والبيع والشراء والرهن والكراء، وكل ما تستدعيه طرق المعاملات بين المتساكنين في القصور، ومن هذا المنطلق، فإن مالك الماء، يتصرف فيه تصرفا مطلقا لا يعترض عليه فيه أحد.

2 ــ **الملكية الجماعية** : بمعنى أن الساقية ملك للقبيلة بكامل أفرادها، ويتم توزيع الماء حسب الدور، ويبدأ السقي من عالية الساقية «الرَّبْطَة فالرَّبْطَة»[73] إلى سافلة الساقية حيث يتم سقي كل

(71) سميت بالكنينة أو تكجديت نسبة الى الدْلو المصنوع من القصب او من سعف النخيل.

(72) ــ د. أحمد مزيان : المرجع السابق ص. 142.

ــ محمد اعفيف : ثوات في القرن 19 ــ رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا الرباط 1982 ــ ض. 112.

(73) الرَّبْطَة : تطلق كلمة «الرَّبْطة» على مدخل الماء في المصرف أو في الحوض الصغير «الجْرْورَة»، وتطلق عامة على ما يسد به مدخل الماء.

الأراضي. وفي هذه الحال فإن أشغال بناء أكوك وكنس الساقية والمصاريف يتم أيضا بطريقة جماعية بقطع النظر عن ملكية الأرض.

3 ــ **حق المرور** : قد يحدث أن يخرب نهر درعة أثناء فيضاناته الكبرى، بعض السواقي، فتضطر القبائل المشاركة في السواقي المنجرفة الى شق مجاري جديدة في أراض قبائل أخرى مقابل قدر معين من الماء يعرف بـ «القادوس»[74]. وتتعدد مثل هذه الحالة في غير ما ساقية بواحات الوادي من ذلك قادوس قبيلة أدَرْبَاز، وقادوس قبيلة أسْبتور على ساقية سيدي بلال وقادوس أمزور بساقية تاكمادرات بواحة ترناتة. وكثيرا ما كانت قبائل عالية الساقية تشتط في استعمال قادوسها في غير أوقاته المتفق عليها،فيؤدي ذلك الى صدام مسلح بين القبائل.

4 ــ **ماء المخزن** : هذا الماء يخصص لسقي بعض الأراض التابعة للمخزن، كما هو الحال بالنسبة لأراضي المخزن بتزناخت بالقرب من قصر بني صولي، وأراضي المعدر بترناتة بالاضافة الى أراضي المخزن بتينزولين. وقد كان المخزن يصرف قدرا من الماء هذه الأراضي من سواقي القبائل عبر مصاريف كبرى تعرف بمصرف المخزن أو ساقية المخزن (فرع إفلي بترناتة) وهذا الماء يعتبر من حيث المبدإ في ملكية المخزن ويتصرف فيه العامل المخزني بالمنطقة، ولا يؤدى عنه أي عمل كيفما كان نوعه في الساقية.

وإذا كان ماء المخزن قد احتفظ بوضعيته الطبيعية في ساقية إفلي، فعلى العكس من ذلك فإن ماء المخزن بساقية سيدي بلال (الساقية البغدادية) قد اختفى وتحول الى ملك خاص تتصرف فيه قبائل الروحة التي كانت تتصرف في أراضي المعدر.

وكما كانت ملكية الأراضي تتعرض للاضطراب نتيجة هجوم القبائل الصحراوية على قصور المستقرين، فإن ملكية الماء كانت بدورها تتعرض للاضطراب خاصة في الوقت الذي يتم فيه اغتصاب بعض القصور وأراضيها من لدن قبائل الرحل.

ب ــ تنظيم السقي وتوزيع الماء بسواقي درعة

فإذا كانت ملكية الأراضي واضحة المعالم في بعض الأحيان وغامضة أحيانا أخرى، فإن طرق تنظيم السقي وتوزيع الماء يزداد غموضا وتعقيدا عن أشكال ملكية الماء، ذلك أن طرق تنظيم السقي وتوزيع الماء، تعتبر في الواقع نتيجة تجارب المجموعات البشرية المتعددة، المتعاقبة على بلاد درعة، ولعل ما يؤكد ما ذهبنا إليه هو هذا الاختلاف الكبير في طرق توزيع الماء من واحة ألى أخرى بل من ساقية الى أخرى، بالاضافة الى تعدد المصطلحات المعيارية المتداولة في هذه الساقية أو تلك[75].

(74) القادوس : عبارة عن انبوب كبير من الفخار، ذو مخرجين كان يوضع في جانب من الساقية لضبط القدر المائي الذي توفيه القبائل المالكة للساقية كحق للمرور في أراضي قبائل أخرى.

(75) تتشابه المصطلحات الخاصة بالماء بوادي درعة بالمصطلحات المائية في جهات أخرى من المغرب انظر على سبيل المثال :

ــ أحمد مزيان : مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي فكيك ما بين 1845 ــ 1903 ــ رسالة دبلوم الدراسات العليا نوقشت بالرباط ــ سنة 1986م.

ويتم توزيع الماء في سواقي وادي درعة على عدة متسويات تختلف فيما بينها من حيث الوضوح والتعقيد :

أ ــ المستوى الأول :

سبق لنا أن أشرنا الى مشاركة مجموعة من قبائل القصور في ساقية واحدة، وهي مشاركة فرضتها ظروف تاريخية واجتماعية وطبيعية لا مجال لاستقصائها هنا. وتتعاون هذه القبائل في الأعمال الأساسية للساقية كبناء أكوك، وكنس المجرى الرئيسي للساقية. وتختلف مشاركة القبائل في هذه الأعمال الأساسية من ساقية إلى أخرى تبعا لطرق توزيع الماء وللاتفاقيات المتوارثة عن الأجيال السابقة في استغلال مياه هذه الساقية أو تلك. إلا أن الحالة الأكثر شيوعا والأكثر انتشارا في غير ما ساقية بالوادي، أن مشاركة كل قبيلة تخضع في واقع الامر لما تملكه من ماء في الساقية ولما تملكه من أراض. وهكذا يشرع في توزيع ماء الساقية عند نهاية المجرى الرئيسي (الساقية أو تاركا) وعند بداية المجاري الثانوية (المصاريف ومفردها مصرف، إغْلان ومفردها أغلان. وقد تعرف أيضا بإسُورا ومفردها أسارو). ولتوضيح ذلك نسوق نموذجين اثنين لمعرفتنا الجيدة بهما، وهما نموذج ساقية سيدي بلال وساقية تمزيْرت بواحة ترناتة.

1 ــ ساقية سيدي بلال (تعرف أيضا بالساقية البغدادية) : تشارك في هذه الساقية تسعة من قبائل القصور من فرقتي أولاد بوزيد وأولاد صالح من قبائل الروحة الوسطانيين. تتفرع هذه الساقية بعد نهاية المجرى الرئيسي الى أربعة مصاريف كل مصرف يحمل اسما خاصا به وهي على التوالي : مصرف برّا. ومصرف تِيلوى، والمصرف الوسطاني، ومصرف قشقورا. وهكذا نلاحظ أن ماء ساقية سيدي بلال سيوزع في المستوى الأول على أربعة مصاريف.

2 ــ ساقية تَمَزيْرت : تتشارك هذه الساقية مجموعة من قبائل القصور من فرقة أولاد فاضل، وبعض قبائل أولاد صالح من قبائل الروحة الوسطانيين بترناتة.

تتفرع ساقية تمزيرت بعد نهاية المجرى الرئيسي الى مصرفين كبيرين : مصرف تَيْرفتْ، ومصرف أولاد فاضل.

ويبقى التساؤل المطروح كيف يتم توزيع ماء الساقية في هذا المستوى الاول ؟ وما هي أسس التوزيع ؟

وللاجابة على هذين السؤالين سنأخذ نموذج ساقية سيدي بلال، نستفيد من الرواية الشفوية أن طريقة توزيع الماء في هذا المستوى تتطلب خبرة عالية ومعرفة تامة بأسرار توزيع الماء المتوارثة عن الأجيال السابقة، وهكذا يستدعى اهل الخبرة والمعرفة وهم عادة من الشيوخ المسنين الممثلين لقبائل القصور إلى حيث ينتهي المجرى الرئيسي للساقية، ويستدعى البنائون فيبنون بالجير المكان الذي يوزع فيه الماء على المصاريف الثانوية ويكون خط البناء متساويا بحيث يسمح بدخول الماء في وقت واحد في المصاريف الأربعة الثانوية، وإذا تأخر دخول الماء الى واحد من المصاريف فإنهم يعالجون المدخل حتى يتم دخول الماء في وقت واحد.

بعد عملية البناء تأتي عملية التقسيم، فيحددون في كل مصرف مقدرا ما يصرف فيه من ماء، ويعرف هذا التقسيم بـ أزاكَلو» أو «زوكَلا» أما وحدة التقسيم فهي غير محددة، فقد تكون كف اليد، وقد يكون أصبعا واحدا وهكذا. فيتفق الجميع مثلا على تمثيل النوبة من الماء بيد واحدة، أو بثلاثة أيدي... الخ. وبعد الاتفاق على توزيع زوكَلا أو أزاكَلو يقوم البنائون بوضع اللمسات الأخيرة على التقسيم وتجييره بدقة تجنبا لتكسيره أو تخريبه، وبعد تحديد نصيب كل مصرف من الماء في المصاريف الثانوية ياتي المتسوى الثاني من التوزيع.

ب ـ المستوى الثاني :

تتشارك في كل مصرف من المصاريف الثانوية التي رأيناها مثلا في ساقية سيدي بلال مجموعة من قبائل القصور. فمصرف قشقورة تتشارك فيه قبائل : القصر الجديد، والبرشات، وبوخلال. وكل قبيلة من هذه القبائل الثلاث تملك عددا من نوبات الماء في هذا المصرف، ويتم بناء «زوكَلا» في هذا المستوى أيضا بنفس الطريقة التي تم بها بناء «زوكَلا» في المستوى الاول وبحضور أهل الخبرة والمعرفة وطبقا لمقاييس يتفق عليها الجميع وتضمن لكل قبيلة حقها كاملا من الماء.

ج ـ المستوى الثالث :

وهو أكثر تعقيدا من سابقيه لأن عملية توزيع الماء في هذا المستوى تنتقل من المرحلة النظرية الحسابية الى المرحلة العملية الفعلية لتوزيع الماء على أفراد القبيلة داخل القطة.

يتم توزيع الماء في مصاريف قطة القبيلة تبعا لأشكال الملكية السائدة عند القبيلة، فإذا كانت ملكية الماء جماعية، فتبدأ عملية السقي «بالربطة» بمعنى أن عملية السقي تبدأ بأول «ربطة» في عالية المصرف، ثم الربطة التي تليها ثم التي تليها وهكذا الى سافلة المصرف.

وإذا كانت ملكية الماء فردية، فإن التوزيع يكون أكثر تعقيدا ذلك أن عملية التوزيع تبدأ بحساب الماء في المصرف الكبير في القُطة وتحديد المقادير التي ستجلب الى هذا المصرف أو ذاك، وهل سيشارك عدد من المالكين في مصرف واحد أم لا ؟ فإذا اضبطت المقادير النظرية عهد الى خبير من قبيلة القصر «الحسَّاب»[76] إلى توزيع الماء وتحديد أوقات انتقال الماء من فلان الى فلان. وإذا لم يتم الاتفاق على تحديد أوقات انتقال الماء بين المتشاركين يضطر الحساب الى استحداث زوكَلا يحدد فيها نصيب كل مالك من المستفيدين.

يرتكز مبدأ توزيع الماء بمختلف سواقي وادي درعة على النوبة ونوبة الماء هي الفترة الزمنية التي تستفيد فيها قبيلة أو مجموعة قبائل من ماء الساقية. وفي الكثير من السواقي تختص عائلة بعينها بنوبة الماء (عائلات القواد المحليين وأصحاب الزوايا... الخ).

(76) الحسَّاب : هو الذي يتقن طرق حساب الماء، ويشبه في بعض الجهات الفصّال، وهو يشبه السرايفي بفكيك،
Paul Roché : L'Irrigation dans le Sud du Maroc, p. 22.

وتتعدد أشكال نوبات الماء بواحات الوادي، ولن نبالغ في شيء إذا قلنا إن لكل ساقية نظامها في تحديد أشكال نوبة الماء بها. وتنطوي أسماء نوبات الماء على الأسس القديمة التي كانت وراء استحداث هذه الساقية أو تلك، كما تنطوي على المالكين الاصليين للماء. ولا مشاحة إذا قلنا إن الكثير من نوبات الماء لم يبق من آثار مالكيها إلا أسماءهم.

تحدد النوبة بغروب الشمس وشروقها في النوبات الليلية وبشروقها وغروبها في النوبات النهارية. ومن شروق الشمس الى شروقها في النوبات التي تجمع بين الليل والنهار كما هو الحال مثلا في ساقية تمزيرت بترناتة وفي ساقية ابني علي بواحة فزواطة.

ـ طريقة توزيع الماء داخل النوبة

تتعدد طرق التوزيع بسواقي وادي درعة داخل نوبات الماء ومن الصعب جدا تتبع هذه الطرق أو ضبط عددها لانها تختلف من ساقية الى أخرى، بل من مصرف الى آخر كما تختلف من الملكية الجماعية للماء الى الملكية الفردية.

وإذا كانت طرق توزيع الماء في الملكية الجماعية لا تخضع لأي قاعدة سوى قاعدة سقي الأرض بقطع النظر عن الوضعية الاجتماعية للمستفيد، فإن طرق التوزيع في الملكية الفردية تخضع لأساس الشغل في الساقية، ولنأخذ مثالا على ذلك في ساقية سيدي بلال بواحة ترناتة :

يوزع الماء في هذه الساقية على ثلاثة وعشرين نوبة متداولة بين الليل والنهار بمعنى أن النوبة النهارية تبتدىء بشروق الشمس وتنتهي بغروبها في حين أن الليلية تبتدىء مع غروب الشمس وتنتهي بشروقها، ومتى انتهت الدورة التي تستغرق إحدى عشر يوما واثنى عشرة ليلة شرع في دورة أخرى وهكذا، الأمر الذي كان يسمح لأصحاب كل نوبة أن يستفيدوا من الماء في النهار وفي الليل، وأن تمر نوبتهم بكل فصول السنة خاصة أن الجريان في نهر درعة غير منتظم. وتنقسم النوبة المائية الى ستة عشر خروبة(77) وكل خروبة الى خمسة دراهيم.

والخروبة وحدة قياسية معيارية تقديرية، وهي في إطارها العام لا تختلف بسواقي وادي درعة، عن شبيهاتها في جهات أخرى من المغرب مثل منطقة الحوز(78) وفكيك(79) بل وفي جهات أخرى من شمال إفريقيا(80).

---

(77) الخروبة وحدة قياسية تستعمل في الماء، كما تستعمل في الموازين والمكاييل في غير ما منطقة من المغرب انظر مثلا : ذ. احمد التوفيق : اينولتان : ج. 1 ص. 222 الطبعة الأولى.

(78) Paul Roché : L'Irrigation dans le Sud du Maroc, p. 22, C.H.E.A.M, Paris, 1946, p. 22.

(79) أحمد مزيان : مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي خلال القرن 19. فجيج ما بين 1845 ـ 1903 ـ رسالة جامعية كلية الآداب الرباط 1986، ص. 145.

(80) أحمد مزيان : المرجع السابق ص. 146 ـ 147.

وكان توزيع الماء داخل كل خروبة يتم بطرق تقليدية يعتمد فيها على أوقات الصلاة، كصلاة الفجر أو الظهر أو العصر وهكذا بالاعتماد على الظل في النهار، حيث كانوا يتوصلون الى معرفة أوقات الصلاة بعدد معين من الأقدام في كل شهر من شهور السنة بالنسبة لصلاة الظهر، ويضيفون إلى عدد أقدام صلاة الظهر تسعة أقدام في كل شهر ليكون وقت صلاة العصر، وقاعدتهم في ذلك جهود الموقتين بالمنطقة وقد حدد هؤلاء وقت الظهر من كل شهر كما يلي :

9 8 6 4 3 2 1 2 3 5 7 9

طَـــزَهْـــجَـــبَـــا بَـــجَـــدْ وُ حُـــطً لِلـــزَّوَالْ

31 12 11 10 9 8 7 6 5 4 3 2 1

بـــدرعـــة وشـــبـــهـــهـــا فـــي الـــعـــرض الـــ(81)

فالأرقام العليا تجدد عدم أقدام وقت صلاة الظهر في كل شهر من شهور السنة، فهي في شهر يناير تسعة أقدام، وفي شهر فبراير سبعة أقدام وهكذا.

أما الأرقام السفلية فهي تشير الى شهور السنة حسب ترتيبها المعهود.

أما الأوقات الليلية، فد كانوا يعتمدون على حركة النجوم وقسموا الليل الى العشاء، الأولى، والعشاء الثانية والربع الأول من الليل، والثلث الأول من الليل، ونصف الليل والثلث الآخر من الليل والربع الآخر وهكذا، وكانوا يستعينون إبان إنقراض رجال التوقيت المحققين(82) على أصوات بعض الطيور. وقد اكتسب عرفاء الماء خبرة دقيقة في ضبط هذه الأوقات وتحديدها على مدار شهور السنة.

وبعد ظهور السّاعة الحديثة وجدوا أن الخروبة المائية كانت تستغرق مدة زمنية، سواء في الليل أو في النهار، تقدر بحوالي خمسة وأربعين دقيقة(83) وهي المدة الزمنية التي كانت تستغرقها الخروبة المائية في جهات أخرى من المغرب(84).

أشرنا الى القول بأن كل خروبة في ساقية سيدي بلال توزع إلى خمسة دراهم، فيكون عدد الدراهم في كل نوبة ماء لهذه الساقية كما يلي :

16 خروبة × 5 = 80 درهما

---

(81) انظر تتمة هذه القاعدة التوقيتية بالنسبة لواحات درعة في نوازل الديمي ص. 10 فما بعد — مخطوط خاص.

(82) كان اخر هؤلاء الموقتين الفقيه أحمد بن المبارك التيرسوتي وقد توفي في بداية عهد الاحتلال.

(83) D.J. Meunié : Maghreb et Sahara, p. 188.

(84) — أحمد مزيان : مصدر سابق ص. 146.

Paul Roché : op. cité, p. 22.

وحسب المعلومات المتوارثة عن الأجيال السابقة فإن عدد عمال كل نوبة ماء هو ثمانية عمّال، على اعتبار أن الخدام أو العامل يمثل بعشرة دراهيم من الماء وإذا ما ضربنا عدد نوبات الماء في هذه الساقية على عدد عمال كل نوبة فسيكون العدد الكلي لعمال الساقية كما يلي 23 × 8 عمال = 184 عامل.

إلا أن العدد الفعلي الذي تتعامل على أساسه القبائل المشاركة في الساقية هو 150 عامل. أما العدد الباقي وهو 34 عامل فيمثل الماء المحرر. أي الماء الذي لا يؤدي عنه مالكه أي شغل من أشغال الساقية وكيفما كان نوع هذا الشغل، ومن الصعب جدا الوصول الى أسس مشكل الماء المحرر.

وتسود بواحات وادي درعة طرق أخرى لتوزيع الماء أهمها طريقة «الرَّجل» وهو وحدة قياسية أيضا ساقية تمزيرت بترناتة.

وطريقة «الماديرة» كوحدة قياسية بواحة محاميد الغزلان.

وطريقة الزْلافةُ بواحة فزواطة (ساقية تاكَمّادارت).

والزلافة هي «تَنَاسَا» وهي عبارة عن قدح نحاسي مصنوع بطريقة خاصة، فيه ثقب صغيرة في أسفله. ويوضح القدح في حلاب كبير أو في سطل مملوء بالماء تحت نظر أمين معروف بصدقه ونزاهته، وبعدما يملأ القدح من ثقبه الأسفل تكون حصة مائية قد انتهت وقد وسم داخل الطاسة بخطوط مستديرة محبوكة الصنع فحدد نصفها وربعها(85). وقد كانت طريقة توزيع الماء بالطاسة بواحتي فزواطة ولكتاوة وفي بعض قصور ترناتة.

وعلى كل فإن طرق توزيع الماء بواحات وادي درعة والمقاييس المعتمدة، وهي مقاييس قديمة على كل حال، لا تختلف في جوهرها وفي إطارها العام عن الطرق التي كانت سائدة بجهات أخرى من المغرب مثل سوس وفجيج والحوز وغيرها.

2 ــ الــرعــي

تختلف أهمية تربية الماشية عامة وممارسة الرعي بصفة خاصة من قبيلة الى أخرى بواحات وادي درعة، وتبعا لانماط العيش السائدة عند قبائل القصور من المستقرين، وقبائل الرحل التي تجوب هوامش المنطقة.

بالنسبة لقبائل القصور من المزارعين المستقرين، فإن تربية الماشية تعتبر نشاطا اقتصاديا تكميليا، إذ لا يتجاوز القطيع بضعة رؤوس من المعز والأغنام عند كل أسرة لمواجهات بعض الحاجيات اليومية من المواد الصوفية والدهنية.

(85) انظر ما كتبه عن تناسا بسوس كل من :
ــ المختار السوسي : المعسول ج. 20 ص. 152.
— Paul Pascon : La Maison d'Iligh et l'histoire sociale de Tazer Walt, Rabat 1983, p. 31-32.

أما بالنسبة لقبائل الرحل سواء منها التي تحولت الى الاستقرار والارتباط بالأرض، أو التي ظلت تحافظ على طبيعتها في الظعن والانتجاع، فإن الرعي يعتبر نشاطا أساسيا.

وقد كان الرعي يسود على الخصوص في بلاد درعة في منطقة الفايجة غرب درعة، وتشكل الفايجة مسرحا أساسيا لقطعان قبيلة أولاد يحيى وقبيلة مسوفة، وقد أشار الهشتوكي في رحلته سنة 1119هـ/1707م إلى انتشار قبيلة أولاد يحيى بمنطقة الفايجة حول شبكة الطرق التي تربط بين درعة وبلاد الأطلس الصغير[86].

أما بالنسبة لقبائل عريب وقبائل أيت علوان، وبعض القبائل الأخرى مثل الغنائمة وغيرها فقد كانت تمارس الرعي في المناطق الجنوبية الغربية لدرعة، في حين أن جل قبائل أيت عطا كانت تمارس الرعي في مثلث من الأرض يمتد من درعة الى تافيلالت ومن تافيلالت الى دادس ثم من دادس الى درعة. ويعتبر هذا المثلث مركز ثقل قبائل أيت عطا حيث كان يسهل عليهم القيام بالانتجاع خلال فصل الصيف في اتجاه أعالي جبال الأطلس والعودة الى مناطق الواحات في فصل الشتاء.

ويربي هؤلاء الرعاة الإبل (قبائل عريب والغنائمة وبعض قبائل أيت عطا) والمعز بشكل خاص (بالنسبة لقبائل أولاد يحيى وجل قبائل أيت عطا.

ونستفيد من كتب الرحلات أن طبيعة جل هذه القبائل، خاصة في المناطق الممتدة ما بين درعة وتافيلالت، وما بين درعة ودادس، لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر. حيث لا يزال الرعي يشكل المورد الاقتصادي الأساسي لهذه القبائل رغم تحول بعضها الى الاستقرار والارتباط بالأرض.

II ــ التجارة والصناعة

1 ــ الحركة التجارية بين وادي درعة وبلاد السودان

بالرغم من أن النشاط التجاري وتبادل البضائع بين الجنوب المغربي وبلاد افريقيا جنوبي الصحراء يضرب بجذوره في عمق التاريخ، فإن هذه الحركة التجارية، كانت تتعرض لمجموعة من العراقيل منها ما هو طبيعي ومنها ما هو بشري، فإذا عم الخصب المناطق الصحراوية واستتب الأمن في ارجائها انتعش الاقتصاد واتسعت حركة التجارة، وإذا عم الجفاف وانتشرت الأمراض والأوبئة الفتاكة واضطراب أمر قبائل الرحل الصحراوية تعثر النشاط الاقتصادي وفترت الحركة التجارية سواء على مستوى الأسواق المحلية أو على مستوى حركة القوافل بين بلاد درعة وبلاد السودان.

(86) احمد بن داوود الهشتوكي : هداية الملك العلام ص. 42.

سبق لنا أن ذكرنا في الفصل الأول من هذا البحث، أن بلاد درعة كانت خلال تاريخها الطويل أكثر تفتحا على المناطق الافريقية والصحراوية، ولاتزال آثار هذا التفتح بادية في النسيج العام لسكان الوادي، وفي العادات والتقاليد التي تضرب بجذورها في عمق القارة الافريقية.

إن أن أهم ما يميز هذا التوجه الافريقي لأهل درعة هي تلك الروابط التجارية، التي ظلت قائمة بين المنطقة وبلاد افريقيا جنوبي الصحراء منذ عشرات القرون.

أ ــ تجارة الذهب والرقيق

يرتكز التبادل التجاري بين وادي درعة وبلاد السودان على تبادل البضائع، فقد كانت القوافل من بلاد درعة تذهب محملة الى بلاد السودان بالتمور والحنا والملح الصحراوي لتعود محملة بالذهب وأعداد كبيرة من الرقيق.

ونستشف من بعض الإشارات التاريخية أن تجارة الذهب بين الجنوب المغربي وبلاد السودان قد بدأت منذ قرون قبل الميلاد حيث كان المغاربة يستبدلون معدني النحاس والحديد ودواب الركوب بالذهب الافريقي[87].

وفي القرن الثالث الميلادي عرفت الحركة التجارية بين الجنوب المغربي وبلاد السودان قفزة نوعية بدخول الجمل الى الصحراء[88] وقد ساهم هذا الحيوان في تعزيز التبادل التجاري وتكثيف الاتصالات بين المنطقتين، لقدرته الفائقة على التكيف مع الظروف المناخية بالصحراء.

وتدل كل القرائن والمعطيات على أن الحركة التجارية بين الجنوب المغربي وبلاد السودان، كانت قوية ونشيطة طيلة العهود الاسلامية الى حدود القرن الثامن الهجري/14م. وظهرت مجموعة من المراكز التجارية على طول الطرق الصحراوية بمناطق الواحات من وادي نون غربا الى توات شرقا، وكانت أهمية المراكز تتفاوت من مركز الى آخر، حسب موقعها وتوفر شروط الأمن في المسالك التي تربطها ببلاد السودان.

أكد المغرب خلال العصور الاسلامية دوره كوسيط تجاري بين افريقيا في الجنوب وأوربا في الشمال وكانت الدول التي تعاقبت على حكم المغرب تحرص أشد الحرص على توفير ظروف الامن للقوافل التجارية بالصحراء حيث كانت التجارة الصحراوية تعتبر في الواقع دعامة من دعائم الحكم ومصدرا من مصادر قوته. إلا أن هذا الدور بدأ في التراجع منذ القرن الثامن الهجري/14م نتيجة اتصال المصريين بأسواق الذهب في افريقيا[89] وانحراف ما تبقى من نشاط تجاري بالصحراء نحو تونس والجزائر[90] لخوف أصحاب القوافل على تجارته من هجومات قبائل بني معقل التي أثارت الفتن والاضطرابات في منطقة تافيلالت.

---

(87) د. محمد الغربي : بداية الحكم المغربي في السودان الغربي الكويت ــ 1982 ص. 26.

(88) د. محمد الغربي : المرجع السابق ص. 28.

(89) ايف لاكوست : العلامة ابن خلدون (الترجمة العربية) ص. 101.

(90) Jean Brignon et ses collaborateurs : Histoire du Maroc, p. 169

كان من نتائج هذه الفتن التي اندلعت بتافيلالت في نهاية القرن الثامن الهجري/14م وحقبة كبيرة من القرن التاسع الهجري/15م، انتقال جزء من النشاط التجاري الصحراوي الى محور وادي درعة، فانتعشت الحركة الاقتصادية بقصور واحات الوادي. ويبدو من خلال إشارات الحسن الوزان، أن هذا الانتعاش الاقتصادي بدرعة ظل قائما إلى غاية مطلع القرن العاشر الهجري/16م(91)، وساهم في تحولات اجتماعية وسياسية مهمة بالوادي، ذلك أن قبيلة أولاد حسين التي كانت تسيطر على المنطقة أنذاك قد تحولت من الاعتماد على الرعي الى الاهتمام بالنشاط التجاري، فكان شيوخها يقومون بحراسة القوافل بين وادي درعة وتينبوكتو، كما كانوا يستبدلون بضائع الوادي، خاصة التمور ببلاد السودان، ويذكر الحسن الوزان أن شيوخ هذه القبيلة قد استفادوا من الاعمال التجارية وأصبحوا يعيشون وكأنهم أمراء(92) كما أصبحت لهم ممتلكات من الأراضي والنخيل بدرعة والواحات المجاورة. وهذا يعني أن قبائل بني معقل بوادي درعة قد باتت تميل الى الاستقرار والارتباط بالارض. ويمكن أن نتصور أن هذا التحول الذي طرأ على حياة هذه القبائل قد صحبه اقبال كبير على جلب المزيد من الرقيق إلى بلاد درعة لتشغيله في الاعمال الزراعية والتجارية ولعل ما يدعم هذا الطرح أن الحسن الوزان نفسه عندما زار بلاد درعة في مطلع القرن العاشر الهجري/16م قد لاحظ أن سكان درعة يملكون الكثير من العبيد السود من الجنسين(93) وهي نفس الملاحظة التي أكدها مارمول اثناء زيارته للمنطقة في السبعينات من نفس القرن(94).

ساهم انتقال النشاط التجاري الى درعة أيضا في تعزيز مكانة المشيخات الكبرى المحلية، وتحول زعماؤها بفضل ما تراكم بأيديهم من أموال إلى أمراء حقيقيين يحرصون على تشكيل الجيوش وامتلاك العبيد، وربط اتصالات سياسية بسلاطين الدولة الوطاسية بفاس كما هو الحال بالنسبة لامارتي تنسيطة وتين واواز المزواريتين(95) ونلاحظ من خلال الهدية التي أرسلها امير تنسيطة الى سلطان فاس في مطلع القرن العاشر الهجري/16م، أن المواد المجلوبة من السودان، لم تبق محصورة في الذهب والرقيق فقط بل كانت تشمل كل المواد الصحراوية المعروفة أنذاك مثل المسك والعنبر، وسنانير الزباد وغيرها(96) إلا أن أهم ما كشفته لنا هذه الهدية، هو الثراء الكبير الذي كان يتمتع به أهل درعة أنذاك. فقد حدد الحسن الوزان قيمة بعض مواد الهدية يمكن إجمالها كما يلي(97).

---

(91) الحسن الوزان : وصف افريقيا ج 1 ـ ص. 136 ـ 137.
(92) الحسن الوزان : المرجع السابق : ج. 1 ص. 44 ـ 45.
(93) الحسن الوزان : المرجع السابق ج. 2 ـ ص. 118 ـ 119.
(94) Marmol : L'Afrique, Tome 3, p. 11.
(95) انظر ما كتبناه عن هاتين الامارتين في فصل سابق من هذا البحث.
(96) الحسن الوزان : المرجع السابق ج. 1 ـ ص. 137.
(97) الحسن الوزان : المرجع السابق ج. 1 ص. 137.

المادة	قيمة الوحدة	القيمة الاجمالية
1ـ50 عبدا	20 مثقال	1000 مثقال
2ـ50 أمة	15 مثقال	750 ،،
3ـ10 خصيان	40 ،،	400 ،،
4ـ12 جملا	50 ،،	600 ،،
5ـ16 سنور	200 ،،	3200 ،،
6ـ رطل مسك	60 ،،	0060 ،،
7ـ رطل غالية	60 ،،	0060 ،،
8ـ رطل عنبر	60 ،،	0060 ،،
9 60 جلد اللمط	08 ،،	4800 ،،
فيكون مجموع قيمة الهدية		10930 مثقال

وطبعا فإن الوزان لم يحدد قيمة كل ما ذكره من مواد الهدية بما في ذلك زرافة و10 نعامات وتوابل افريقيا وتمور الوادي.

ويتضح لنا من خلال هذه الهدية مدى ما وصلت إليه الحركة الاقتصادية من ازدهار بوادي درعة في العقود الأولى من القرن العاشر الهجري/16م. كما تكشف لنا من جهة ثانية عن المواد التي كانت تجلب من بلاد السودان وقيمتها التجارية العالية.

وبعد قيام الدولة السعدية حرص سلاطينها على توفير ظروف الأمن بوادي درعة خاصة وحول الطرق التجارية الصحراوية بصفة عامة. وقد تحولت بلاد درعة الى أكبر محطة تجارية على الاطلاق فالجنوب المغربي في العقود الأخيرة من القرن العاشر الهجري/16م والعقد الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م، وتحولت قصبة العلوج بواحة محاميد الغزلان الى مركز جمركي لاستخلاص واجبات بيت المال من التجارة الصحراوية بعد فتح السودان سنة 999هـ/1590م[98] كما أقيمت في بعض قصور محاميد الغزلان وواحة لكتاوة، وواحة ترناتة معامل صغيرة لتصفية الذهب وتنقيته ووزنه والتأشير عليه قبل أرساله إلى مدينة مراكش[99].

وبالرغم من أننا لا نتوفر على ما يسمح لنا بتقدير كمية الذهب، ولا تحديد أعداد العبيد بواحات الوادي خلال هذه الحقبة التي ازدهرت فيها الحركة التجارية الصحراوية، فإن الشيء الأكيد أن سكان

(98) Pierre Azam : Structures politiques et sociales de Oued Draa, C.H.E.M., Paris 1947, p. 6.

(99) Marmol : L'Afrique, Tome III, p. 15.

الوادي قد حرصوا على تجميع الذهب وخزنه، فقد ذكر السعدي، أن حمو بن علي قد أخفى بإحدى قرى وادي درعة حوالي عشرين الف قطعة من الذهب[100] أما أحد مرابطي واحة فزواطة فقد توجه الى الحج في احدى سنوات العقد الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/17م ومعه ثلاثون قنطارا من الذهب لانفاقها في أغراضه الشخصية[101]. وقد أكثر سكان الوادي من العبيد، لأن التجارة في الرقيق باتت مربحة نظرا للفارق الكبير بين قيمة الشراء في أسواق بلاد السودان وقيمة البيع في أسواق المغرب، وقد ادمجت اعداد كبيرة من العبيد في الحياة العامة وانصهروا كلية في تجمعات الحراطين بواحتي لكتاوة وفزواطة.

وبعد وفاة السلطان أحمد المنصور (1012هـ/1603م) انهارت التنظيمات التجارية التي أقامتها الدولة على طول الطرق التجارية بين الجنوب المغربي وبلاد السودان[102] وانتقلت السيطرة على الحركة التجارية الى قبائل الرحل وأصحاب الزوايا.

ب ــ دور أصحاب الزوايا وقبائل الرحل في استمرار التجارة الصحراوية

انكشفت الأحداث التي عرفتها بلاد درعة طيلة النصف الأول من القرن الحادي عشر الهجري/17م[103] عن انتقال النشاط التجاري الصحراوي الى محور سوس ومحور سجلماسة حيث كانت كل من الامارة السملالية بايليغ، والامارة العلوية بسجلماسة ترغب في السيطرة على النشاط التجاري الصحراوي. وبالرغم من أن هاتين الامارتين قد نجحتا في تحويل جزء من النشاط التجاري الى مناطق نفوذهما، فإن بلاد درعة ظلت تستقبل قوافل التجار من المناطق الصحراوية، كما ظلت تصدر بضائع الوادي ومنتوجاته الفلاحية خاصة الحنا والتمور الى بلاد السودان.

وتعتبر الزوايا أول من استفاد من الأحداث التي عرفتها المنطقة طيلة النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري/17م فقد طرح شيوخ هذه الزوايا أنفسهم، كبديل لسلطة المخزن، ليس فقط في فض النزاعات القبيلية والاشراف على الأتفاقيات الصلحية أو كل ما من شأنه توفير ظروف الأمن والاستقرار، ولكن أيضا في حماية النشاط التجاري بين البوادي والمناطق الصحراوية، ويتجلى ذلك في قيادتهم الفعلية للقوافل التجارية، أو بحضورهم المعنوي على رأس هذه القوافل. فقد ذكر ابن مليح السراج اثناء مروره ببلاد درعة عام 1030هـ/1640م أن المرابط سيدي عبد العالي : شيخ زاوية ابني علي بفزواطة «ركب بغلته وشد حزامه وعصابته مع نفر من أهل تامكَروت فسلكوا بالركب في وعر بين جبلين يقال له خنكَ لكَتاوة حرصا عليه واتقاء أن يصيبه مكروه من طائفة من اللصوص تجتمع فيه غالبا إلى أن قطعوا الوعر»[104].

---

(100) عبد الرحمان السعدي : تاريخ السودان ــ نشر هوداس 1898 ص. 174.

(101) محمد المكي بن موسى الناصري : الدرر المرصعة مخطوط ص. 261.

(102) د. محمد الغربي : بداية الحكم المغربي بالسودان الغربي صص. 462 الى 465.

(103) انظر تفصيل هذه الاحداث في الفصل الثالث من هذا البحث.

(104) ابن مليح السراج : انس الساري والسارب ص. 27.

أما الشيخ سيدي أحمد بن ابراهيم (ت 1052هـ/1642) فقد أمر تاجرا من ناحية فاس بالسفر الى بلاده، فخرج عليه قطاع الطرق بالقرب من تثنية تافيلالت التي تربط بين ترناتة وتازرين فهاجمهم أسد كبير، ولا يعرف وجود أسد بالمنطقة، فعرف أن الشيخ حاضر معه(105).

وقد تحولت زاوية تامكَروت الناصرية، منذ بداية النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري/17م، الى أكبر محطة تجارية على أبواب الصحراء تلتقي فيها القوافل التجارية الوافدة من بلاد السودان والصحراء بقوافل مختلف جهات المغرب، وقد ساهم هذا الدور التجاري لهذه الزاوية وشيوخها من الانتقال وبسرعة كبيرة من الفقر المذقع الى الثراء والغنى والتوسع في الأملاك(106).

ونستفيد من كتب الرحلات الحجية أن الدور التجاري لزاوية تامكَروت قد تزايد بشكل كبير منذ العقود الاولى من القرن الثاني عشر الهجري/18م على عهد الشيخ احمد بن ناصر (ت 1129هـ/1717م) وكان التجار يقصدونها، خاصة قبل موسم الحج بقليل، من مختلف مناطق المغرب مثل فاس وتطوان وسلا، وتادلا ودكالة وغيرها(107) بالاضافة الى تجار المناطق الصحراوية وسوس وواحات الوادي.

كان شيوخ الزاوية الناصرية يدركون أهمية هذا الدور التجاري المتزايد لزاويتهم، لذلك كانوا يحرصون على توفير كل اللوازم الضرورية لاقامة التجار بين ظهرانهم وتوفير ظروف الأمن لحمايتهم في الطرق سواء داخل الوادي أو خارجه، وظل ذلك دأبهم مع التجار منذ عهد الشيخ محمد بن ناصر (ت1085هـ/1675م) الى عهد الشيخ أحمد بن بوبكر (قتل سنة 1337هـ/1917م). وقد كانت جل قبائل الرحل الصحراوية تحترم قوافل تجار زاوية تامكروت ولا تتعرض لها بسوء احتراما لشيخ الزاوية ورغبة في الاستفادة من ضيافتها.

أما الزوايا الأخرى، التي لم تستطع استقطاب قوافل التجار، أمام الدور المتعاظم لزواية تامكروت، فقد كان شيوخها يكتفون باستحداث أسواق محلية بزواياهم أو بالقرب منها. وظل دروهم محصورا في عقد سلسلة من الاتفاقيات التكفلية مع قبائل الرحل، تلتزم بمقتضاها هذه القبائل باحترام كل القوافل المحسوبة على شيخ الزاوية سواء داخل الوادي أو في المناطق المجاورة له مثل تازرين ودادس وهسكورة وبلاد أيت واوزكَيت وغيرها(108) وبالرغم من أن قبائل الرحل الصحراوية، تبدو من خلال تشغيبها على المخزن بالمناطق الصحراوية، وكأنها عاملا معوقا للنشاط التجاري الصحراوي، فإن الشيء الأكيد أن هذه القبائل كانت وراء جل العمليات التجارية الناجحة بين الجنوب المغربي وبلاد السودان سواء بمعرفتها التامة بالمسالك الصحراوية وارشادها للقوافل أو بتوفير ظروف الامن والحماية لها.

---

(105) محمد المكي الناصري : الدرر المرصعة مخطوط ص. 13.

(106) قارن بين حياة الشيخ محمد بن ناصر الذي كان في بداية أمره يفترش الحصا (الدرر المرصعة من ص. 267 الى 3560) وبين حياة شيوخ الزاوية من بعده.

(107) احمد بن داود المشتوكي : هداية الملك العلام مخطوط خ.ع. ق. 147 ص. 42.

(108) انظر الفصل الذي خصصناه للاتفاقيات التكفلية.

وعلى كل فإن النشاط التجاري بين وادي درعة وبلاد السودان ظل قائما ولقرون ــ رغم أوقات الفتور ــ الى حين احتلال الأوربيين للمناطق الصحراوية وتحويلهم للمحاور التجارية الى حيث كانوا يسيطرون.

2 ــ الحركة التجارية داخل الوادي

ترتكز الحركة التجارية داخل واحات وادي درعة على عدد كبير من الأسواق، وتتبادل المنتوجات الفلاحية للاستهلاك اليومي.

1 ــ شبكة الأسواق بواحات وادي درعة.

تنقسم الأسواق بواحات الوادي الى ثلاثة أنواع :

أ ــ **الأسواق الأسبوعية** : تعتبر هذه الأسواق أكثر انتشارا على طول واحات الوادي، وتعرف باسم اليوم الذي تعقد فيه (سوق الخميس، سوق السبت، سوق الأحد). وتعقد على مدار الأسبوع، وقد لاحظ رحالة العصور الوسطى تعدد أسواق وادي درعة[109] وإقبال التجار عليها.

وبالرغم من أننا لا نعرف شيئا عن أماكن إقامة هذه الأسواق في العصور الوسطى، فإن مجموعة من الاشارات قد سمحت لنا بالتعرف على أماكن انعقاد الأسواق خلال القرون الثلاثة الأخيرة، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر سوق قصر تبرنوست في المدخل الجنوبي، لواحة مزجيطة[110] وسوق تينزولين، وسوق أستور، وسوق تامكَروت، وسوق بني صبيح وغيرها[111]. وقد كانت أماكن هذه الأسواق تتغير تبعا لظروف الامن وتوفير الحماية للمتاجرين، ورغبة بعض القبائل من سكان القصور القوية في تحسين أوضاعها الاقتصادية.

ويوجد بكل واحة عدد من الأسواق توزع على أيام الاسبوع بشكل يسمح للفلاحين بالتزود بما هم في حاجة إليه وتصريف الفائض من منتوجاتهم الفلاحية. ونستشف من بعض الوثائق المحلية أن هذه الأسواق كثيرا ما كانت تتعرض «للكسر»، حيث كانت قبائل الرحل تباغتها، ولتجاوز هذه الهجومات المباغتة على الأسواق المحلية. فإن قبائل القصور قد استحدثت اتفاقيات خاصة بتنظيم هذه الأسواق وضمان شروط استمرارها.

---

(109) ــ انظر مثلا :

ــ أبو عبيد البكري : المغرب في ذاكر افريقيا والمغرب ص. 15.

ــ الشريف الادريسي : نزهة المشتاق (الجزء المطبوع) ص. 38.

ــ مجهول : الاستبصار ــ نشر سعد زغلول عبد الحميد ص. 206 ــ 207.

(110) ابن مليح السراج : مرجع سابق ص. 26.

(111) جل هذه الأسواق قديمة وتعود الى ما قبل القرن الحادي عشر/17 م انظر

.Marmol : L'Afrique, Tome III, pp. 11, 12, 13, 14, 15, ect...

ب ــ **الأسواق اليومية** : تعقد هذه الأسواق اليومية في أبواب القصور الكبرى. وتعرف عند قبائل القصور بـ«السويقة» تمييزا لها عن السوق الأسبوعي، وقد استمر العمل بهذه الأسواق الى وقت متأخر. وقد تمكنا من خلال التحري الميداني من التعرف على بعض القصور التي كانت تعقد فيها هذه الأسواق منها قصر تامنوكَالت بواحة مزجيطة وسوق رباط المخزن بواحة تينزولين، وسوق قصر استور بواحة ترناتة وسوق بني صبيح، وسوق خسوان بواحة لكتاوة.

ج ــ **الأسواق الموسمية** : وهي أسواق تعقد عادة بمناسبة موسم أحد الأوليا. وتتجلى أهمية الأسواق الموسمية باعتبارها ملتقى بين قبائل الرحل وقبائل المستقرين فتكون مناسبة لتبادل البضائع. ومن أشهر هذه الأسواق الموسمية بوادي درعة سوق تامكَروت الذي يعقد بمناسبة الاحتفال بمناسبة ختم صحيح البخاري بالزاوية الناصرية في العشر الأوائل من شهر محرم كل سنة. وتعقد أسواق موسمية أخرى في جل زوايا الوادي خلال فصل الصيف وفي فصول أخرى من السنة وأشهرها بعد سوق زاوية تامكَروت سوق زاوية تينمسلا وسوق زاوية سيدي صالح.

2 ــ طرق المعاملات التجارية

نلاحظ من خلال بطائق المعاملات التجارية التي عثرنا عليها بقصور واحات وادي درعة أن طوائف اليهود كانت تسيطر على النشاط التجاري بمختلف واحات وادي درعة، ويشاركهم في هذا النشاط بعض رجال الزوايا وقلة قليلة من رجال القبائل ويستشف من خلال هذه البطائق تنوع طرق المعاملات التجارية بالوادي وأهم هذه الطرق هي :

أ ــ **التعامل المباشر** : وتتم فيه عملية البيع والشراء تبعا لعمليتي العرض والطلب، سواء في الأسواق الأسبوعية أو في الأسواق اليومية أو الموسمية، ويتم البيع والشراء بين البائع والمشتري دون واسطة.

ب ــ **التعامل بطريقة غير مباشرة** : يعهد فيها التاجر الى وسيط تجاري، يحدد مظان البضاعة، ويتفق مع صاحبها على الثمن، ويدفع له «العربون» في انتظار تتميم عملية البيع، ويكون صاحب البضاعة ملزما بعدم بيع بضاعته لتاجر آخر حتى وإن ارتفع ثمنها.

ج ــ بيع السلم : هي أن يبيع الفلاح منتوجاته الفلاحية قبل نضجها فيأخذ ثمنها مسبقا. وتعتبر هذه الطريقة في التعامل التجاري أكثر شيوعا بين السكان. فإذا تراضى الفلاح مع المشتري عن الثمن تسلم النقود وشهد على نفسه بذلك أمام فقيه القبيلة الذي كان يسجل ذلك في بطاقة خاصة يحدد فيها مقدار الدراهم التي تسلمها الفلاح ومواصفات البضاعة «السالمة من العيوب» وأجل تسليمها.

وبالرغم من أن هذه الحركة التجارية كانت تظهر وكأنها محصورة في واحات الوادي، فإن شبكة الطرق التي تربط بين الوادي والمناطق المجاورة مثل تازرين ودادس وفركلة وهسكورة وتازناخت وسوس، تكشف الى حد كانت هذه الحركة تتجاوز بنشاطها الاطار المحلي إلى الاطار الجهوي كما كانت في سنوات الخصب تمتد الى مناطق تافيلالت شرقا ودمنات ومراكش وتادلا شمالا.

وأمام قلة النقود فإن المعاملات التجارية كانت تتم في غالب الأحيان عن طريق المقايضة، وقد وجد اليهود في هذه الطريقة أداة فعالة في تنمية أموالهم والتحكم في الأنشطة الاقتصادية بقصور الوادي، ذلك أن جل يهود الوادي كانوا يحترفون «تعطارت» فيذهبون ببضاعتهم الى مختلف القصور لاستبدالها بالمنتوجات الفلاحية كالحنا والشعير والقمح والصوف وغيرها.

3 ــ النقود والمكاييل والأوزان

أ ــ **النقود** : تكشف لنا بطائق المداينة وبيع السلم ورسوم الأملاك العقارية أن سكان درعة كانوا يتعاملون بنفس النقود التي كانت رائجة في مختلف أنحاء المغرب وأساس التعامل هو المثقال ووحداته الصرفية الأخرى مثل الأوقية، والموزونة، والفلس، والكَرش.

وقد ظل سكان الوادي يتعاملون بالمثقال منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م الى غاية العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجري/19م، حيث استبدال المثقال بالريال الحسني. وبالرغم من أننا لن ندخل في محاولة تتبع مشاكل التقلبات النقدية وتعقيدها، فإننا نلاحظ أن سكان درعة لم يكونوا في عزلة عن المشاكل التي طرأت على النقود نتيجة تفتح المغرب على الاقتصاد الأوربي، ولهذا كان كتاب العقود الرسمية وبطائق المداينة ينبهون على عملة الوقت وسكة تاريخه.

وبعد ظهور الريال الحسني، ظهرت معه وحدات نقدية أخرى مثل نصف ريال وربع ريال. والوجه، والبسيطة ويحدد الصرف كما يلي.

1 ــ المثقـــال = 10 أواق = 10 دراهم

1 = الأوقيـــــة = درهـم واحد = اربع مزونات

2 = الموزونــة = 6 أفلـوس صغيـرة.

ونستشف من سجلات زاوية تينمسلا القادرية أن ظهور الريال في أواخر القرن الثالث عشر الهجري/19م، قد أحدث نوعا من البلبلة لسكان وادي درعة في طرق معاملتهم التجارية حيث كانوا يضطرون في كتاباتهم الى تحويل الريال الى مثقال وهكذا صرف الريال سنة 1288هـ/1871 بعشرة مثاقيل وستة أواق. وفي سنة 1290هـ/1873 صرف بثلاثة عشر مثقالا، وفي سنة 1308هـ/1890 صرف الريال بإحدى عشر مثقالا وعشر موزونات بسكة السلطان مولاي الحسن[113].

وعلى كل فإن هذه التقلبات النقدية لم تحل إطلاقا دون المعاملات التجارية بالوادي بل كانت في بعض الأحيان تشجع المتاجرين على المضاربات التي تزيد في إضعاف الفلاح المنتج وإرهاقه.

---

(112) تتكون هذه السجلات من اثنين وثلاثين صفحة، وقد سمح لنا مالكها السيد عبد الرحمان القادري بتصويرها مشكورا.

(113) سجلات الزاوية القادرية صص، 1، 2، 24.

ب ــ **المكاييل والأوزان** : تتسم المكاييل بواحات وادي درعة بالفوضى وعدم الدقة والضبط في تحديد سعتها بالاضافة الى الاختلافات الكبيرة في تحديد مقاديرها من واحة إلى أخرى، ولا تتوحد إلا في الأسماء. وأهم وحدات الكيل التي كانت سائدة بالوادي منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م وإلى غاية بداية عهد الاحتلال هي كالتالي :

1 ــ لَمْــدِي : وهو أكبر وحدة للكيل بالوادي، ويقدر بواحة ترناتة باثني عشر صحفة، وفي فزواطة بعشر صحفات(114).

2 ــ الصَّحْفَةُ : تختلف الصحفة بواحات درعة من واحة الى أخرى. وهي أقل بكثير من المدي، وتختلف صحفة الحبوب عن صحفة التمر. وقد حددت سعتها في اثنى عشر مدا.

3 ــ الْمُــدْ : ثالث مكيال يستعمل بدرعة، ولا يقل اختلافا عن المكيالين السابقين، فهناك المد الترناتي، والمد المزجيطي والمد الفزواطي... الخ.

ففي مزجيطة مثلا هناك المد الكبير ويساوي 1/3 عبرة والمد الصغير يساوي اربع فطرات.

أما في واحة ترناتة فالمد يساوي ست عبرات في حين انه يساوي بواحة فزواطة عبرة واحدة(115).

وإلى جانب هذه المكاييل نجد مكاييل أخرى ظرفية مثل «القُفَّةُ» و«السلة» و«الحلاب» وقد تستعمل لحل مشاكل عاجلة.

ومن الصعب جدا ضبط هذه المكاييل أو تحديد سعتها بكيفية مدققة. ومع بداية عهد الاحتلال ظهرت مكاييل جديدة ومضبوطة مثل العبرة، ونصف عبرة، وربع عبرة(116). ويبدو واضحا من خلال الاختلافات الكبيرة في المكاييل، أن الفلاح المنتج هو الخاسر الأكبر، ذلك أن بطائق بيع السلم ورسوم المعاملات التجارية كانت تسكت عن التحديد الدقيق للمكاييل ولكنها في نفس الوقت تؤكد على سلامة البضاعة من العيوب خدمة للتاجر والمضارب على حساب الفلاح المنتج.

أما الأوزان فهي أكثر ضبطا من المكاييل رغم أنها تتميز ببعض الاختلافات الطفيفة وأهم الأوزان التي كانت سائدة بالوادي هي :

1 ــ القنطــار : وقد حدد وزنه في بداية عهد الاستعمار فلوحظ أنه يتراوح ما بين ستة وخمسين كيلوغراما، وثمانية وستين كيلوغراما، ويبدو أن القنطار كان سائدا بدرعة منذ عهد قديم اذ لا يختلف وزنه بالمنطقة عن وزن القنطار الافريقي(117).

2 ــ الرطــل : حدد وزنه في حوالي نصف كيلوغرام

---

(114) L. TRANIER : op. cité, p. 272.

(115) العبرة ظهرت مع عهد الاحتلال وقد فضلنا استعمالها لتقريب الفهم الى الأذهان.

(116) تساوي العبرة (دُوبَل ديكالتر) ونصف عبرة (ديكالتر)... الخ.

(117) ــ عبد العزيز بن عبد الله : معلمة الفقه المالكي ص. 290.

ــ الحسن الوزان : وصف افريقيا ج. 1 ص. 22.

3 ــ نصف الرطل : حوالي مائتين وخمسين غراما.

4 ــ الأوقية : وقد حدد وزنها في ثلاثة وثلاثين غراما.

أما مكاييل المواد السائلة فهي أكثر غموضا ويستعملون مكاييل ظرفية، ونستشف من بعض الوثائق أنهم كانوا يستعملون «الصاع» و«الكدح» و«الجرة» و«الأوقية» لكيل الزيت وكلها مكاييل غير محددة ولا يمكن ضبطها على كل حال.

وفي قياس الأثواب يستعملون الشبر وهي المسافة بين الابهام والخنصر، والقالة وهي الذراع. وكانت تعادل حوالي خمسين سنتيمترا.

وعلى كل فإن هذه الأوزان والمكاييل والمقاييس قد استبدلت بأوزان ومكاييل أخرى اكثر ضبطا مع عهد الاستعمار، وقد بدأت تندثر ولم يبق منها إلا ذكريات باهتة في عمق ذاكرة المسنين.

2 ــ النشاط الصناعي

تأتي الأنشطة الصناعية بواحات وادي درعة في آخر سلم الترتيب في الأنشطة الاقتصادية، ويرجع ذلك بالأساس الى كون الصناعات التقليدية بالوادي ظهرت لتلبي رغبة المستهلكين ولم يكن لأصحابها أي توجه تجاري، وهكذا يمكن القول أن الصناعة بالمنطقة صناعة بدائية، وتعتمد على تقنيات تعود الى غابر العصور، وأهم هذه الصناعات، صناعة الفخار، وتنتشر في غيرما قصر بالوادي وأهم مراكز لصناعة الفخار هو قصر تامكَروت. أما الصناعات الأخرى فأهمها صناعة الجلود (ترغليل بواحة ترناتة وبني صبيح وبني حيون بواحة لكتاوة) وصناعة الحلي التي كانت من اختصاص اليهود (بقصر بني صبيح بواحة لكتاوة وأمزرو بواحة فزواطة)، وتنتشر صناعة النسيج، وصناعة الحصر بكل قصور الوادي.

وهذه الصناعات لا تتطلب جهدا كبيرا وتعتمد بالأساس على مواد أولية موجودة بالمنطقة. وقد تراجعت هذه الصناعات بشكل كبير أمام زحف المصنوعات الحديثة التي طرأت مع الاستعمار. وهكذا يتضح مما سبق أن الأنشطة الاقتصادية بواحات وادي درعة ظلت تعاني من عدة مشاكل (دورات الجفاف، تعدد الأنظمة العقارية بالقطاع الزراعي) وتعدد أنواع المعاملات والمكاييل والأوزان في المجال التجاري، في حين أن الأنشطة الاقتصادية ظلت بدائية في جل مظاهرها.

استنتاجات عامة

لقد كان هاجسنا الأول أثناء مراحل هذا البحث هو محاولة الكشف عن الملامح العامة للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عرفتها واحات وادي درعة خلال الفترة التي تمتد من العقود الأولى من القرن الحادي عشر الهجري/17م الى غاية العقود الأولى من القرن الرابع عشر الهجري/20م.

ومن خلال قراءتنا الأولية للمصادر التاريخية العامة، لاحظنا أن مؤليفي هذه الكتب لم يكونوا يركزون في كتاباتهم على التطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للمناطق البعيدة عن مركز الدولة مثل واحات وادي درعة، وكان تعاملهم مع أخبار وأحداث هذه المنطقة يقتصر على تتبع العمليات الحربية التي كان يقوم بها سلاطين الدول التي تعاقبت على حكم المغرب، أو بعض قوادهم لتأديب الثوار الخارجين عن نفوذ السلطة المركزية وردع قبائل الرحل الصحراوية التي ما فتئت تشغب على الدولة.

وانطلاقا من هذه الملاحظة، تأكد لنا أن إشارات الإخباريين رغم أهميتها في تأطير الحدث التاريخي، ما كانت تمدنا بكل المعطيات اللازمة لانجاز بحثنا عن واحات وادي درعة طبقا لما تصورناه، فكان من الضروري والحالة هذه أن نعتمد على الوثائق المحلية، التي اثبتت الأبحاث التاريخية، أهميتها وجدواها، في الكشف عن مكونات وخبايا التاريخ الاجتماعية للمناطق النائية عن عاصمة الدولة المركزية.

حاولنا في المدخل الذي خصصناه للامكانات المصدرية، التعريف بالوثائق المحلية التي تمكنا من الحصول عليها بقصور وزوايا وادي درعة، وقد توخينا أن تكون وثائقنا متنوعة، حيث كانت تشمل بالاضافة الى الاتفاقيات بكل أنواعها، جملة وفيرة من الظهائر السلطانية والرسائل الرسمية، وأنواع الرسوم الخاصة بالأملاك العقارية وبطائق المداينة والرهن ولوائح تسجيلات النخيل لاغراض جبائية. ولا مشاحة إذا قلنا إن هذه الوثائق كانت الدعامة الأساسية لبحثنا، خاصة أنها كانت تعكس الكثير من عادات وتقاليد مجتمع الجنوب المغربي عامة ومجتمع الواحات على وجه الخصوص كما كانت تنطوي في الكثير من مضامينها ومصطلحاتها على السمات العامة للمجموعات البشرية التي تعاقبت على تعمير واحات وادي درعة.

وبعد تحديدنا للمواصفات العامة لبلاد درعة من حيث موقعها الجغرافي على مشارف الصحراء، وكممر تاريخي للهجرات البشرية المتعاقبة من المناطق الصحراوية إلى شمال البلاد وعلاقة ذلك بالجذور البشرية لسكان وادي درعة، حيث يغلب على النسيج العام لهؤلاء السكان طابع التنوع العرقي، هذا التنوع الذي لاتزال بصماته قوية في تنوع العادات والتقاليد، حاولنا الكشف عن المراحل التاريخية لتعمير بلاد درعة، وقد أسهبنا في الحديث عن المجموعات الصنهاجية والزناتية التي كانت تتغالب على المنطقة منذ القديم الى حدود القرن السابع الهجري/13م. وبوصول قبائل بني معقل الى واحات وادي درعة مع بداية النصف الثاني من نفس القرن أحوال وادي درعة رأسا على عقب، ذلك أن هذه القبائل ظلت والى غاية مطلع القرن العاشر الهجري/16م مصدر تشغيب على الدولة ومصدر تعب ومشقة بالنسبة لسكان

القصور من المستقرين. وكان من أبرز نتائج هذه المرحلة ظهور المشيخات المحلية القوية بواحات الوادي، وقد ظلت هذه المشيخات تتغالب على الأرض والماء، أهم مصدر من مصادر الثروة بالمنطقة بعد تراجع التجارة الصحراوية الى حين قيام الدولة السعدية التي وضعت حدا للصراع بين مشيخة القصور وأعادت الأمن والاستقرار الى الوادي.

استعادت المنطقة نشاطها الاقتصادي والزراعي وتحولت واحات محاميد الغزلان ولكتاوة وفزواطة الى أكبر محطة تجارية في الجنوب المغربي على الاطلاق وذلك في العقد الأخير من القرن العاشر الهجري/16م، والعقدين الأولين من القرن الحادي عشر الهجري/17م، وقد تعرضت المنطقة لانتكاسة خطيرة خلال النصف الأول من نفس القرن، كان من نتائجها عودة الغليان الاجتماعي على قصور وادي درعة وظهور قبائل أيت عطا على مسرح الأحداث.

يعتبر تشكيل اتحادية أيت عطا في واقع الأمر انبعاثا حقيقيا لقبائل صنهاجة، التي استغلت تراجع بني معقل في المناطق الصحراوية فتشكلت في اتحادية قوية اخذت شكلها النهائي منذ أواسط القرن الحادي عشر الهجري/17م.

استغلت اتحادية أيت عطا انشغال سلاطين الدولة العلوية الوليدة في توطيد دعائم ملكهم واعادة توحيد المغرب، فانطلقت في عمليات غزو واسعة لواحات وادي درعة وتافيلالت وكل المناطق المجاورة لمجالات انتشارها، فكانت تهاجم حينا قوافل التجار في الطرق وأحيانا أخرى قصور المستقرين ومنتوجاتهم الزراعية، وقد ترتب عن هذه الهجومات المتكررة التي كانت تقوم بها هذه القبائل حالة من عدم الاستقرار بين سكان وادي درعة.

وفي مطلع القرن الثاني عشر الهجري/18م استحدث السلطان عمالة وادي درعة وعين على رأسها ولده مولاي الشريف. وبالرغم من أن مولاي الشريف قد نجح، خلال مدة ولايته التي استمرت إلى حدود أواسط العقد الرابع من نفس القرن، في إعادة الأمن الى الوادي حمايته من غَثْي قبائل أيت عطا، فإنه ما كاد مولاي الشريف يلفظ انفاسه حتى عادت قبائل أيت عطا الى عمليات غزوها لبلاد درعة فبدأت تتمركز بشكل قوي في واحات محاميد الغزلان ولكتاوة، وفزواطة.

وأمام عجز المخزن والقواد المحليين عن ردع قبائل أيت عطا، حاول سكان القصور تنظيم علاقاتهم بهذه القبائل وذلك باللجوء الى عقد سلسلة من الاتفاقيات معها.

وأرجأنا الكلام عن هذه الاتفاقيات وما صاحبها من تطور عام من مناحي الحياة العامة بالمنطقة، فتطرقنا الى مسألة التراتب الاجتماعي، على اعتبار أن هذه المسألة تعتبر من أبرز خصوصيات المنطقة بالخصوص، والواحات الجنوبية على وجه العموم، وقد ركزنا على إبراز مختلف التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي جعلت أصحاب الزوايا من الأشراف والمرابطين يتربعون على قمة سلم التراتب الاجتماعي، وفي نفس الوقت عرفنا بفئات العوام والحراطين الذين يشكلون القاعدة العريضة لهرم التراتب الاجتماعي. ولم يفتنا أن نذكر بدور المخزن في تكريس هذا الواقع الاجتماعي بتأكيده على المكانة

المميزة لأصحاب الزوايا، بإعفائهم من كل التكاليف المخزنية وتسليمهم ظهائر التوقير والاحترام التي تسدل عليهم أردية المبرة والإكرام ومحاشاتهم مما يكلف به العوام. وقد كشف لنا البحث، كيف كان أصحاب الزوايا يستغلون هذه الوضعية الاجتماعية المتميزة لتأثيل الأموال وتكديس الثروات، وكيف تحولت فئة الحراطين الى فئة فقيرة تعاني من استغلال أصحاب الزوايا ومضايقة قبائل أيت عطا. الأمر الذي جعل هؤلاء الحراطين يعقدون سلسلة من الاتفاقيات التكفلية مع قبائل أيت عطا مقابل حمايتهم على أساس تفويت الأرض، في وقت كان المخزن في حالة عجز تام، لم يستطع معها القواد المحايون ردع قبائل أيت عطا وتوفير ظروف الأمن والاستقرار لحماية سكان قصور الوادي عامة ولقصور الحراطين بصفة خاصة. وقد لعب أصحاب الزوايا دورا أساسيا في الاشراف على عقد هذه الاتفاقيات وضبط شروطها في ضوء مصلحة المعاقدين.

كانت الاتفاقيات في بداية أمرها بسيطة لا من حيث المبنى ولا من حيث المضمون، ثم ما لبثت أن تطورت بشكل كبير في ضوء التطورات العامة التي عرفتها واحات وادي درعة منذ أواسط القرن الثاني عشر الهجري/18م الى غاية مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م، فقد تأكدت سيطرة قبائل أيت عطا على المنطقة، وعادت الروح القبلية لتطفو على سطح الحياة العامة، وصار كل قصر يدير شؤونه الخاصة بواسطة جماعة قبيلة القصر. وقد حاولنا من خلال نماذج متنوعة للاتفاقيات إبراز التنظيمات السياسية والاجتماعية لقبائل القصور وأهمية دور الجماعة في إطار مؤسسة القصر في الحفاظ على التوازنات الداخلية. ولم يفتنا أن نثير مسألة موقف الفقهاء من هذه الاتفاقيات خاصة وأن المخزن، وهو في غمرة انشغاله في شمال البلاد، بمشاكل الأطماع الأوربية، كان يترك لقبائل القصور الحرية الكاملة في التعامل بهذه الاتفاقية مادامت لا تتعارض مع الأوامر المخزنية وتساعد على استقرار الأوضاع.

وقد كشفت لنا هذه الاتفاقيات عن الطريقة «الدمقراطية» التي كانت قبائل القصور تسير بها الشؤون الداخلية للقصر سواء فيما يتعلق باختيار شيخ القبيلة والجماعة أو فيما يتعلق بتنظيم دار القبيلة، كمؤسسة اقتصادية ــ اجتماعية لمواجهة ضيافات القبيلة وإكرام أبناء السبيل، وقد ظلت قبائل القصور تتعامل بهذه الاتفاقيات الى حين بداية عهد الاحتلال.

وبالاعتماد على بعض الوثائق الخاصة بالجانب الاقتصادي حاولنا القاء بعض الأضواء على الأوضاع الاقتصادية لسكان القصور بواحات درعة.

وقد لاحظنا أن الحياة الاقتصادية بالمنطقة كانت تقوم على الزراعة والرعي والتبادل التجاري. وقد تبين لنا من خلال البحث ان النشاط الزراعي بواحات درعة لم يستطع تجاوز طور الانتاج المعاشي، ولم يعرف أي تطور يذكر خلال الفترة التي حددها البحث، بل إن هذا النشاط الزراعي قد عرف تدهورا خطيرا عما كان عليه في العصور الوسطى، حيث لاحظنا ان بعض المزروعات التجارية مثل النيلج والزيتون وغيرهما قد انقرضت بصفة نهائية. وقد حاولنا الكشف عن عوامل هذا التقهقر، وهي عوامل متعددة على كل حال أهمها دورات الجفا الحادة وزحف عوامل التصحر بالاضافة الى نظام البنية العقارية

وتفتت ملكية الارض، والجمود الذي ظل يطبع عقلية سكان المنطقة، الذين لم يستطيعوا تطوير أدواتهم الانتاجية.

وبالرغم من أن المبادلات التجارية، قد عرفت أيضا نوعا من التراجع عما كانت عليه في العصور الوسطى، فقد كانت تعرف فترات من الازدهار خاصة في الأوقات التي كان يسود فيها الأمن والاستقرار على طول المسالك الصحراوية، وقد ظل التبادل التجاري قائما بين واحات الوادي وبلاد السودان، وبينها وبين المناطق المجاورة كسوس وتافيلالت ودادس الى حين عهد الاحتلال.

أما الصناعة فقد ظلت جامدة على ما هي عليه لعشرات السنين ذلك أن الصناع التقليديون لم يحاولوا تطوير أساليبهم التقليدية حيث ظلت هذه الأساليب بدائية في جل مظاهرها.

وهكذا نلاحظ أن تنوع الوثائق التي اعتمدنا عليها، قد سمح لنا في إبراز ملامح التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي عرفتها بلاد درعة منذ القرن الحادي عشر الهجري/17م إلى غاية مطلع القرن الرابع عشر الهجري/20م. وقد انهارت مختلف التنظيمات الاجتماعية والسياسية التي أقامتها قبائل القصور مع بداية عهد الاحتلال.

معجم بعض المصطلحات الخاصة بدرعة

أزْوَازِي مفرده زازي وهو ممثل العظم في جماعة قبيلة القصري.

أمادِيرْ لفظ أمازيغي ويطلق على الفأس العريضة التي تستعمل في أغراض السقي وفي الأعمال الزراعية بصفة عامة.

أغْـرُورْ طريقة سحب الماء من الآبار بالدلو، ويعتمد في ذلك على قوة الدواب مثل الجمل والثور وغيرهما.

أسْـرَاكْ هو الممر الطويل بين جِدارين.

بَرَّاحْ القبيلة هو الشخص الذي يقوم بإعلام القبيلة بأي حدث مهم انطلاقا من المسجد. ويبدأ البراح الاعلان عن الخبر بالصلاة على النبي بأعلى صوته ثم يقول : الله يَنْصرْ السُّلْطان وَيَهَدَنْ الأوْطانْ وَيكَسَّرْ مُدْ الغَلا، ثم يتبع ذلك بقوله لا تسمعون إلا الخير إن شاء الله، ثم يدعو للقبيلة بالصلاح ويعلن الخبر.

تَيـسَّى لفظ أمازيغي ويعني في الأصل الحماية والرَّعية ثم تطور معنى اللفظ فصار يطلق على فترة الهدنة والراحة التي تضع حدا لحالة من الفتن والصراعات القبلية. وتحدد تَّيسَّى في المكان والزمان.

تَخَمَّاسْـتْ هي طريقة التعامل بالخمس من كل منتوج بين الفلاح والملاكين للاراضي.

تَشَرَّاعْت هي الطريقة التي يتم على أساسها الاتفاق بين الفلاح والملاك لاستغلال الأراضي الزراعية.

الجُـرُورة : الحوض الصغير وتطلق بصفة خاصة على القطع الأرضية التي تتميز بصغر مساحتها الزراعية.

دار القبيلة (تِكمِّي نْتَاقْبِيلْتْ) مؤسسة اجتماعية تقوم بعدة أدوار متداخلة في آن واحد بالنسبة لقبيلة القصر. وتوجد بكل قصر من قصور وادي درعة «دار القبيلة» حيث تجمع فيها الزكوات والأعشار، لتصرف بعد ذلك على ضيوف القبيلة، وعلى أبناء السبيل. ويعين على دار القبيلة أمين خاص ويتولى جمع الأعشار وصرفها في المهام المحددة لها.

دُوَّابُ القصر هو الذي يسهر على فتح أبواب القصر وإغلاقها، ويعهد إليه بمراقبة حركة الدخول الى القصر والخروج منه، ويتولى مهام الإخبار بضيوف القبيلة وأبناء السبيل حتى تتمكن القبيلة من القيام بواجب الضيافة.

حَـدُّ الصَّايم : يقصد به عدد أفراد القبيلة البالغين ويعلن براح القبيلة عن «حد الصايم» في حالة التعبئة العامة للقيام بعمل مَّا يستدعي قوة بشرية كثيرة العدد.

حسَّابُ الماء هو الخبير بشؤون الماء والأوقات الليلية والنهارية لنوبات الماء.

مْـزَاوَكْ تطلق كلمة «المْزَاوَكْ» على قاتل الروح خطأ أو غيلة، فالتجأ الى زاوية من زوايا المنطقة يستحرم بها. ومادام المزاوك في الزاوية فإنه لن يتعرض للانتقام. وقد يقضي سنوات بالزاوية حتى يحل مشكله ليلتحق بعد ذلك بأهله.

مَزْرَاك	لهذه الكلمة بدرعة عدة معاني تفهم من سياق الحديث، فلها معنى العهد فتقول «أعطاه المزراك» ولها معنى النصيب «مزراكَ كل قبيلة من الماء» اي نصيبها، ولها معنى الممثل في الجماعة «مزراك عظم أيت حمو».
النّصَاف	هي الذعيرة المالية التي كانت قبائل القصور تحددها في شروط الاتفاقيات التنظيمية، والهدف من النصاف هو ردع مرتكبي المخالفات اليومية من سكان القصر.
صاحب السّاروت :	هو الأمين الخاص الذي تختاره قبيلة القصر للسهر على دار القبيلة، حيث يحمل معه دائما مفتاح (ساروت) دار القبيلة.
قَبيلة القصْر	هي مجموعة العناصر البشرية التي تتساكن في قصر واحد من قصور وادي درعة، وهي العناصر عبارة عن خليط من بقايا المجموعات التي تعاقبت على تعمير واحات الوادي. ولاشيء يجمع بين هذه العناصر الا المصالح المشتركة كالدفاع عن القصر، والماء والأرض.
القُـطـَـةُ	بضم وشد هي المجال الجغرافي الذي تتصرف فيه قبيلة القصر، ويضم هذا المجال المحاط الزراعي والأراضي الرعوية، وغالبا ما يبنى القصر في نقطة وسطى من القطة.

المصادر والمراجع

I ـــ الوثائق

1ـــ الظهائر السلطانية والرسائل الرسمية

1. ـــ مجموعة زاوية تامكَروت الناصرية
2. ـــ مجموعة زاوية تينمسلا القادرية
3. ـــ مجموعة الزاوية الصالحية بلكتاوة
4. ـــ مجموعة زاوية سيدي عمرو بترناتة
5. ـــ مجموعة دار القايد التمنوكَالي
6. ـــ مجموعة دار القايد اليحياوي
7. ـــ مجموعة رباط المزاور بواحة تينزولين
8. ـــ مجموعة قصبة المخزن بتينزولين
9. ـــ مجموعة زاوية البركة الناصرية

2ـــ الاتفاقيات ووثائق أخرى

10. ـــ مجموعة زاوية بن عبد المولى اليعقوبية
11. ـــ مجموعة زاوية تينمسلا القادرية
12. ـــ مجموعة فزواطة
13. ـــ مجموعة قصر بوخلال
14. ـــ مجموعة محاميد الغزلان
15. ـــ مجموعة تكيت أولاد شعوف
16. ـــ مجموعة الشيخ مسعود اليحياوي

II ـــ المخطوطات

ـــ ابن لحبيب التمنوكالي (محمد)

17. ـــ العقود الجوهرية في الأنباء الدرعية ـــ مخطوط خاص

ـــ ابن لحبيب الملولي (الطيب).

18. ـــ كتب في تاريخ وادي درعة مخطوط خاص.

ـــ ابو زيد التمنارتي (عبد الرحمان).

19. ـــ **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة ـــ مخطوط مصور ـــ خ.ع ـــ الرباط د : 1420.**

ـــ أبو مدين الدرعي (محمد بن أحمد الروداني).

20. ـــ رحلة أبي مدين الدرعي ـــ مخطوط خ.ع ـــ الرباط ق : 237.

ـــ أبو الحسن (علي بن محمد الجزولي البكري).

21. ـــ النفحة المسكية في السفارة التركية ـــ مخطوط خاص
ـــ أبو العباس (احمد بن صالح لكتاوي).
22. تجديد المراسم البالية في السيرة الحسنية العالية ـــ مخطوط خاص.
ـــ أبو القاسم الزياني.
23. ـــ الترجمان المعرب على دول المشرق والمغرب ـــ مخطوط خ. ع ـــ الرباط د : 658.
ـــ أبو الربيع (سليمان الحوات).
24. الروضة المقصودة في مآثر بني سودة. مخطوط خاص
ـــ ابو سالم العياشي.
25. ـــ اقتفاء الأثر ـــ مخطوط خ.ع د 1427.
ـــ الدرعي (محمد بن محمد بن عبد الله الدليمي).
26. نوازل الدرعي ـــ مخطوط خاص
ـــ أحوزي (احمد بن داوود الهشتوكي).
27. هدية الملك العلام الى بيت الله الحرام ـــ مخطوط خ.ع ـــ ق : 190.
28. قرى العجلان ـــ مخطوط خ.ع ـــ ق : 147.
ـــ الزرهوني (محمد بن ابراهيم).
29. رحلة الوافد في أخبار هجرة الوالد ـــ مخطوط خ.ع ـــ د : 1607.
ـــ المشرفي
30. الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية ـــ مخطوط خ.ع ـــ د : 1463.
ـــ مجهـول.
31. ـــ هداية السرور من الملك الخلاق في كرامة ولي الله أبي القاسم بن عبد الرزاق ـــ مخطوط خاص
ـــ الرباطي (الضعيف الرباطي).
32. تاريخ الضعيف : مخطوط خ.ع ـــ د : 660.
ـــ الناصري (الشيخ محمد بن ناصر).
33. أجوبة الناصري : مخطوط : خاص
ـــ الناصري : (محمد المكي بن موسى).
34. الدرر المرصعة بأخبار أعيان درعة ـــ مخطوط خاص.
35. ـــ طليعة الدعة في تاريخ وادي درعة ـــ مخطوط خاص.
36. الرياحين الوردية في الرحلة المراكشية ـــ مخطوط خ.ع ـــ د : 1864.
37. ـــ فتح الملك الناصر في إجازات ومرويات بني ناصر ـــ مخطوط خ.ع ـــ د : 88.
38. ـــ الروض الزاهر في التعريف بالشيخ ابن حساين واتباعه الاكابر ـــ مخطوط خ.ع ـــ د : 2261.
ـــ الناصري (الحسين بن محمد) شيخ زاوية أغلان.
39. ـــ فهرست الحسن بن ناصر ـــ مخطوط خ.ع ـــ ج : 506.
ـــ الناصري (محمد بن بوبكر).
40. ـــ فهرست سيدي محمد بن بوبكر الناصري ـــ مخطوط خ.ع ـــ ك : 1443
ـــ الناصري (مَحمد بن عبد السلام)
41. ـــ الرحلة الناصرية الكبرى ـــ مخطوط خ.ع ـــ د : 2327.

42. ــ المزايا فيما أحدث من البدع بأم الزوايا ــ مخطوط خاص
ــ الناصري (المهدي الناصري).
43. ــ الرحلة الزاهرة الى درعة العامرة ــ مخطوط خاص ــ

الكتب التي طبعت على الحجر بفاس

ــ الناصري (الشيخ أحمد بن ناصر).
44. ــ الرحلة الناصرية جزءان.
ــ الناصري (أحمد بن خالد).
45. ــ طلعة المشتري في النسب الجعفري ــ جزءان.
ــ أبو سالم العياشي.
46. ــ رحلة ابو سالم : ماء الموائد : جزءان.
ــ ابن هلال (ابراهيم السجلماسي).
47. ــ اجوبة بن هلال

3 ــ الكتب المطبوعة

ــ ابن خلدون (عبد الرحمان).
48. ــ العبر ج : 6 و7. تحقيق د : سهيل زكار والدكتور شحاتة بيروت 1981.
ــ أبو عبيد البكري
49. ــ المغرب في ذكر افريقيا والمغرب ــ طبعة (ميزنوف) باريس 1965.
ــ ابن أبي زرع (علي).
50. ــ الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وفاس ــ دار المنصور للطباعة ــ الرباط 1973
51. ــ الدخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية دار المنصور للطباعة ــ الرباط : 1972.
ــ ابن عذاري المراكشي.
52. ــ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب تحقيق ومراجعة ج. كولان وليفي بروفنسال دار الثقافة بيروت دون تاريخ.
ــ ابن ابراهيم (عباس).
53. ــ الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام 10 أجزاء دار المنصور للطباعة ــ ما بين 1971 و1977.
ــ ابن سودة (عبد السلام بن عبد القادر).
54. ــ دليل مؤرخ المغرب الاقصى جزءان ــ الدار البيضاء 1965.
ــ أبو علي (الحسن اليوسي).
55. ــ رسائل الحسن اليوسي
تحقيق فاطمة خليل القبلي ــ الدار البيضاء 1981.
ــ ابن الموقت المراكشي (محمد بن محمد بن عبد الله)
56. ــ السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ــ الدار البيضاء ــ دون تاريخ.
ــ ابن مليح والسراج.

57. ــ انس الساري والسارب من أقطار المغارب الى منتهي الامال والمآرب سيد الاعاجم والاعارب ــ تحقيق ونشر محمد الفاسي ــ فس ــ 1968.
ــ ابن مخلوف الدمشفي (محمد).
58. ــ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ــ نشر دار الكتاب العربي ــ بيروت دون تاريخ.
ــ أبو فارس (عبد العزيز الفشتالي).
59. ــ مناهل الصفاقي مآثر موالينا الشرفا ــ دراسة وتحقيق : عبد الكريم كريم.
مطبوعات وزارة الاوقاف ــ 1972.
ــ ابو : العباس الناصري (أحمد بن خالد).
60. ــ الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصا : 9 أجزاء
دار الكتاب ــ الدار البيضاء 1956.
ــ بنمنصور (عبد الوهاب).
61. ــ قبائل المغرب : الجزء الأول ــ المطبعة الملكية ــ الرباط 1968.
ــ ابن الخطيب
62. ــ أعمال الاعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ج. 3 ــ تحقيق : أحمد مختار العبادي وابراهيم الكتاني ــ الدار البيضاء 1964.
ــ ابن صاحب الصلاة (عبد الملك).
63. ــ المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ــ تحقيق عبد الهادي التازي بيروت 1964
ــ البيدق الصنهاجي (أبو بكر).
64. ــ كتاب اخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين ــ دار المنصور للطباعة ــ الرباط 1971.
65. ــ المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب ــ تحقيق عبد الوهاب بنمنصور ــ الرباط 1971.
ــ ابن القاضي (أحمد).
66. ــ جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس : جزءان ــ مطبعة دار المنصور ــ الرباط 1973 ــ 1974.
ــ ابن زيدان (عبد الرحمان).
67. ــ إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس ج. 3 ــ الرباط 1929.
ــ ابن عسكر (الشفشاوني).
68. ــ دوحة الناشر تحقيق محمد حجي ــ الرباط 1976.
ــ ابن بطوطة.
69. ــ تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ــ تحقيق : علي المنتصر الكتاني ــ بيروت : 1971.
ــ أبو القاسم الزياني.
70. ــ الترجمانة الكبرى ــ تحقيق عبد الكريم الفيلالي ــ مطبعة فضالة 1967
ــ ابن عزوز محمد حكيم.
71. ــ السيادة المغربية في الاقاليم الصحراوية من خلال الوثائق المخزنية ــ الدار البيضاء ــ 1981.
ــ ابنعلي محمد بوزيان.
72. ــ واحة فكيك : تاريخ وأعلام ــ الدار البيضاء ــ 1987 إيف لاكوست.
ــ ايف لاكوست.

73 ــ العلامة بن خلدون ــ ترجمة ميشال سليمان ــ بيروت ــ 1974.
ــ القادري محمد بن الطيب
.74 ــ نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ــ تحقيق : د. محمد حجي ــ ذ. احمد التوفيق ــ الرباط ــ 1984.
ــ السوسي (المختار)
.75 ــ المعسول : الأجزاء : 3 ــ 5 ــ 6 ــ 7 ــ 8 ــ 10 ــ 12 ــ 13 ــ 14 ــ 16 ــ 18 ــ 19 ــ 20 ــ الدار البيضاء 1960.
.76 ــ إيليغ قديما وحديثا ــ المطبعة الملكية ــ الرباط 1966
ــ اليفرني (محمد الصغير).
.77 ــ نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ــ نشر هوداس ــ انجي ــ 1988.
ــ الناصري (محمد اليماني).
.78 ــ ضرب نطاق الحصار على أصحاب نهاية الانكسار ــ المطبعة الاهلية ــ الرباط ــ دون تاريخ.
ــ العروي (عبد الله).
.79 ــ مجمل تاريخ المغرب ــ الرباط 1984.
ــ السعدي (عبد الرحمان).
.80 ــ تاريخ السودان ــ نشر هوداس ــ باريس 1898.
ــ الادريسي (الشريف).
.81 ــ وصف افريقيا ــ جزء من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ــ نشر هـ ــ بريس ــ الجزائر.
ــ الصالحي (المهدي بن علي).

.82 ــ اعلام درعة ــ الدار البيضاء ــ 1974
ــ الغربي (محمد).
.83 ــ بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ــ الكويت 1982.
ــ الحسن الُوزان (الفاسي).
.84 ــ وصف افريقيا جزءان ــ ترجمة د : محمد حجي ــ والدكتور محمد الأخضر ــ الرباط 1980 و1982.
ــ ابن عبد الله (عبد العزيز).
.85 ــ معلمة الفقه المالكي ــ دار الغرب الاسلامي بيروت 1983.
ــ السلطان مولاي اسماعيل.
.86 ــ الى والدي المامون ــ نشر عبد الوهاب بنمنصور ــ المطبعة الملكية ــ 1967 ــ الأخضر (الدكتور محمد).
.87 ــ الحياة الأدبية في عهد الدولة العلوية ــ الدار البيضاء 1977
ــ حجي : (الدكتور محمد).
.88 ــ الحياة الفكرية في عهد السعديين ــ جزءان ــ دار المغرب للتأليف والنشر والترجمة الرباط 1979.
.89 ــ الزاوية الدلائية ــ الرباط ــ 1964.
ــ زعفراني (حاييم).
.90 ــ الف سنة من حياة اليهود بالمغرب ــ ترجمة ذ. أحمد شحلان، وذ. ابو العزم ــ الدار البيضاء ــ 1987
ــ محمود اسماعيل

91. ــ الخوارج في بلاد المغرب ــ الدار البيضاء 1976
ــ مجهول
92. ــ الحلل الموشية في الاخبار المراكشية ــ تحقيق : سهيل زكار ــ وعبد القادر زمامة ــ البيضاء 1979.
ــ مجهول.
93. ــ تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان ــ نشر هوداس ــ باريس ــ 1901.
ــ مجهول.
94. ــ الاستبصار في عجائب الامصار ــ نشر : سعد زغلول عبد الحميد ــ الدار البيضاء ــ 1985.

4 ــ الــدراســات

ــ أحمد التوفيق.
95. ــ مساهمة في دراسة المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ــ اينولتاء (1850 ــ 1912) ــ منشورات كلية الاداب بالرباط ــ الطبعة الاولى ــ 1980.
ــ أحمد بوشارب.
96. ــ دكالة والاستعمال البرتغالي : الى سنة اخلاء آسفي وأزمور ــ الدار البيضاء ــ 1984.
ــ أحمد مزيان.
97. ــ مساهمة في دراسة المجتمع الواحي بالجنوب الشرقي المغربي خلال القرن 19 ــ فجيج ما بين 1845 ــ 1903.
رسالة دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ــ مطبوع على الالة الكاتبة ــ الرباط 1986.

5ــ المقــالات باللغة العربية.

ــ التقي العلوي.
98. ــ القبائل العربية ــ بنومعقل ــ مجلة البحث العلمي ــ العدد 35 ــ 1986 ــ ابتداء من ص. 397.
99. ــ الاتحاديات الاطلسية ــ اتحادية أيت عطا ــ مجلة البحث العلمي ــ العدد 23 ــ 1974 ــ 115 ــ 129.
ــ ابراهيم الشخلي
100. ــ آل امغار : مجلة البحث العلمي ــ العدد 33 ــ 1984 ــ ص. 167 ــ 180.
ــ المنوني (محمد).
101. ــ حضارة وادي درعة من خلال الوثائق والآثار ــ مجلة دعوة الحق العدد 2 ــ 1973.

6 ـ المراجع الفرنسية

1 ـ الكتب

— AUGUSTIN (Bernard) :
1 - Le Maroc, Paris, 1922.

— BRIGNON (Jean) et ses collaborateurs :
2 - Histoire du Maroc, Casablanca, 1966.

— FOUCAULD (Ch. de) :
3 - Reconnaissances du Maroc, Paris, 1988.

— LA CHAPELLE (F. de) :
4 - Les Tekna du Sud Marocain, Paris 1930.
5 - Le Sultan Moulay Ismaîl et les Berbères Sanhaja du Maroc Central, A.M.V. 28, Paris, 1932.

— LAOUST (E) :
6 - Mots et choses berbères, Paris, 1922.
7 - Contribution à une étude de la toponomie du Haut Atlas, Paris, 1942.

— MARMOL :
8 - L'Afrique : Traduction, Sieur d'Ablancourt, Paris, 1677.

— MARTIN (A.G.P.) :
9 - Quatorze siècles d'histoire marocaine, 1923.

— MICHAUX Bellaire :
10 - Conférences sur les confréries religieuses au Maroc, A.M., Volume 27. Paris 1927.

— MEUNIE (D.J.) :
11 - Le Maroc saharien des origines au XVI^e siècle, Paris, 1982.

— MONTAGNE (Robert) :
12 - Les Berbères et le Makhzen dans le Sud du Maroc, Paris, 1932.

— PASCON (Paul) :
13 - Le Haouz de Marrakech, 2 tomes, Rabat, 1977.
14 - La maison d'Illigh et l'histoire sociale du Tazerwalt, Rabat, 1984.

— PELLOW (Thomas) :
15 - Relation de Thomas Pellow, traduit par Magali Morsy, Paris, 1983.

— SPILLMANN (Georges) :
16 - Districts et tribus de la Haute Vallée du Draa, A.M., Tome 2, volume 9, Paris, 1931.
17 - Les Aît atta du Sahara et la pacification du Haut Draa, Rabat, 1936.
18 - esquisse d'histoire religieuse du Maroc, Paris, 1951.
19 - Souvenirs d'un colonalis te, Paris, 19...

— TERRASSE (Henri) :
20 - Histoire du Maroc, 2 tomes, Casablanca, 1950.

— WEISGERBER :
21 - Au seuil du Maroc moderne, 1947.

2 ـ الدراسات

— MEZINE (Larbi) :
Contribution à l'histoire de Tafilalet : Aspects d'histoire économique et sociale du Sud-Est marocain, mémoire de D.E.S., Paris, Sorbonne, 19...

3 ـ الابحاث

— AZAM (Pierre) :
— Les cités rurales du Ktawa, mémoire dactylographié, C.H.E.A.M., Paris, 1946.
— La structure politique et sociale de l'Oued Draa, exposé C.H.E.A.M., 1947.
— Sédentaires et nomades dans le Sud marocain : Le coude du Draa, C.H.E.A.M., Paris, 1946.
— BECHARA (Charles) :
— Monographie de la vallée du Draa, inédit.
— CAMPS (G.) :
— Recherches sur les origines des cultivateurs noirs du Sahara, R.O.M.M., 1970.
— DUCLOS (Louis-Jean) :
— Note sur l'organisation judiciaire des Aït Atta dans la Vallée de l'Oued Draa, R.O.M.M. n° 3, 1967.
— DZINBINSKI (Andray) :
— L'armée et la flotte de guerre marocaine à l'époque des Sultans Saadiens Hespéris-Tamuda, Fasc. unique, 1972.
— GATTEFOSSE (J.) :
— Juis et Chrétiens du Draa avant l'Islam, B.S.P.M., 9ème année, 1935.
— HAMMOUDI (Abdellah) :
— L'évolution de l'habitat dans la vallée du Draa, R.G.M. n° 18, 1970.
— HENSENS (J.) :
— Habitat rural traditionnel des oasis présahariennes : Le Qsar, problèmes de rénovation, B.E.S.M. n° 114, 1969.
— LA CHAPELLE (F. de) :
— Esquisse d'une histoire du Sahara Occidental, Hespéris XI, 1930
— MEUNIE (D.J.) :
— Maghreb et Sahara, Société de Géographie, Paris, 1973.
— Les oasis des Lektaoua et des Mhamides, Hespéris V, 1947.
— Hiérarchie sociale au Maroc présaharien, Hespéris XLM, 1958.
— Sur le culte des Saints et les fêtes rituelles dans le Moyen Draa et la région de Tazarine, Hespéris XXXVIII, 1951.

— PELLAT (Ch.) :
— Un document sur les rapports entre Chorfa et Berbères, R.O.M.M., T. 15-16, 1973.
— ROCHE (Paul) :
— L'irrigation dans le Sud du Maroc, mémoire dactylographé, C.H.E.A.M., Paris, 1946.
— SPILLMANN (G.) :
— Les pays inaccessibles du Haut Draa, R.G.M. n° 1 et 2, 1929.
— TRÄNIER (L.) :
— Aperçu économique sur la vallée du Draa au 1er juin 1935, R.G.M. n° 3 et 4, 1935.

ملحق رقم 1
لائحة بأسماء الزوايا بوادي درعة
ملحق بأسماء الزوايا بدرعة

I ــ واحة مزجيطة

أ) الزاوية ــ القصر	الطريقة التي ينتمي إليها
1 زاوية نيكرو وْرِرِينْ	ناصرية
2 . زاوية سيدي مولود	؟
3 . زاوية السوق	ناصرية
4 . زاوية سيدي بومدين	مجهولة
5 . زاوية سيدي الشرقي	مجهولة
6 . زاوية سيدي نبونو	بونية
7 . زاوية إغرغر	مجهولة
8 . زاوية أبرنوس	مجهولة
9 . زاوية أفرا	مليانية
10 . زاوية الموضع	قادرية
11 . زاوية إفريوين	مجهولة
12 . زاوية سيدي أحمد أعبد الله	مجهولة

ب) الزاوية ــ الدار	
1 . زاوية سيدي عبد الرزاق ــ قصر تلوين	مجهولة
2 . زاوية تسركات	ناصرية
3 . زاوية أكدز	ناصرية
4 . زاوية أيت حمد وسعيد	ناصرية
5 . زاوية تمضرت	ناصرية
6 . زاوية قصر اغرغر	ناصرية

II ــ واحة تينزولي

أ) الزاوية القصر	
1 . زاوية أمداغ	مجهولة
2 . زاوية تيزكين	ناصرية
3 . زاوية بن الطالب	مجهولة

4 . زاوية الفقوس	نارية ـــ شرحبيلية
5 . زاوية أمزَاوْرُو	ناصرية
6 . زاوية تينمسلا	قادرية (الزاوية الأم).

ب) الزاوية ـــ الدار

واحدة فقط بأولاد مساعد	ناصرية

III ـــ واحة ترناتة

أ) الزاوية ـــ القصر	الطريقة التي تنتمي اليها
1 . زاوية أغْلانْ	ناصرية
2 . زاية سيدي مزلَّج	مجهولة
3 . زاوية تافرودست	مجهولة
4 . زاوية بن عبد المولى	مجهولة
5 . زاوية سيدي الحساين	ناصرية
6 . زاوية سيدي عمرو العليا	قادرية
7 . زاوية الديخل	مجهولة
8 . زاوية سيدي البغداد	مجهولة
9 . زاوية سيدي عمرو السفلى	قادرية
10 . زاوية سيدي محمد أمغري	مجهولة
11 . زاوية سيدي محمد بن المهدي	مجهولة
12 . زاوية سيدي أحمد بن اعلي	غازية
13 . زاوية سيد أحمد أحمد	مجهولة
14 . زاوية القاضي	مجهولة
15 . زاوية الصفصاف	ناصرية
16 . زاوية الفتح	ناصرية
17 . زاوية البركة	ناصرية
18 . زاوية المجذوب	صادقية ـــ صالحية

ب) الزاوية ـــ الدار

1 . زاوية بوخلال	درقاوية
2 . زاوية العروميات	ناصرية
3 . زاوية بني صولي (زولي)	ناصرية
4 . زاوية بوزركان	درقاوية ـــ ناصرية

IV ــ واحة فزواطة

الزاوية	
1 . زاوية تامكَروت	الزاوية الناصرية الأم
2 . زاوية سيدي علي بن محمد الشيخ	جزولية
3 . زاوية تاكَمادارت	جزولية
4 . زاوية ايت خدو	مجهولة
5 . زاوية امزرُو	ناصرية
6 . زاوية تمتيكَ	مجهولة
7 . زاوية سيدي الناس	جزولية
8 . زاوية الفضل	ناصرية
9 . زاوية بونو	بونية
10 . زاوية سيدي بلال	مجهولة
11 . زاوية تكَرسيفت	مليانية
12 . زاوية سيدي عبد العالي	مجهولة
13 . زاوية سيدي موسى	مجهولة
14 . الزاوية البرانية	مجهولة

ب) الزاوية ــ الدار

الزاوية	
1 . زاوية تمتيكَ	دار للتيجانيين واخرى للوزانيين
2 . زاوية أمزرو (داخل قصر امزرو)	درقاوية

V ــ واحتي لكتاوة والمحاميد

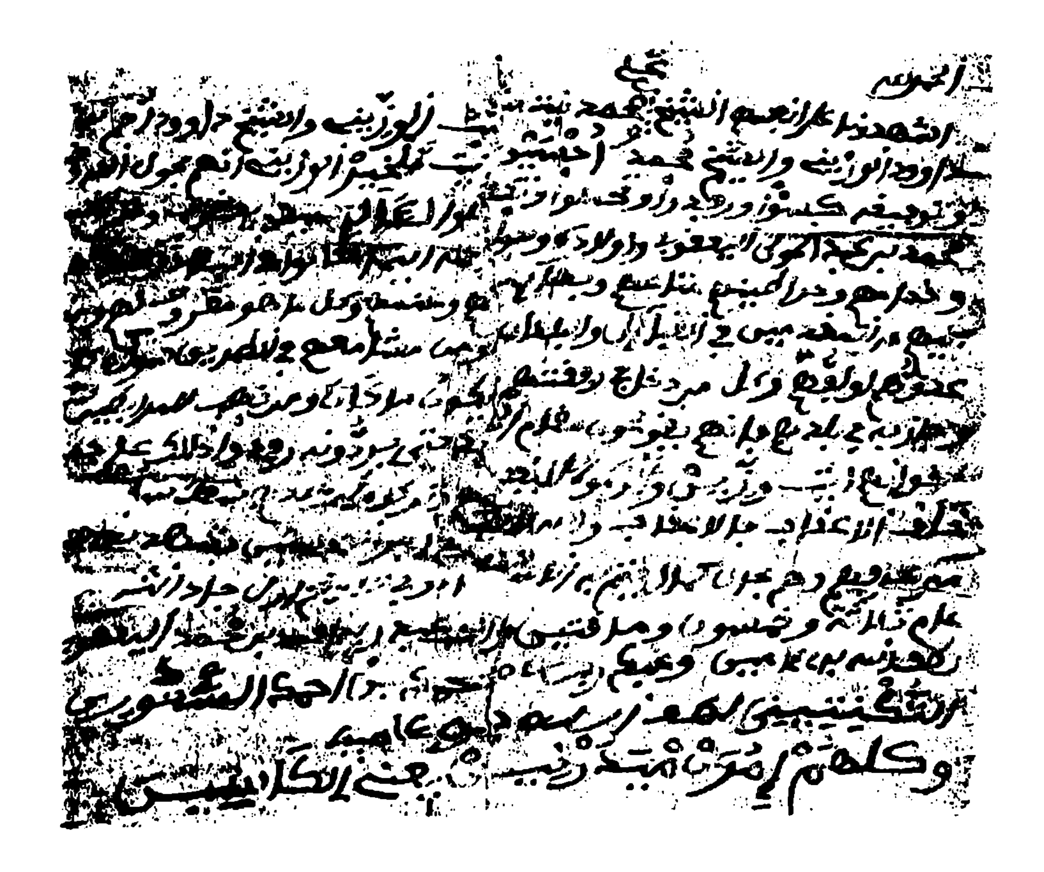
أ) الزاوية ــ القصر

الزاوية	
1 . زاوية مولاي الشريف	مجهولة
2 . زاوية الزراهنة	مجهولة
3 . زاوية امدوان	مجهولة
4 . زاوية القضية	من تأسيس عائلة ابن أبي محلي
5 . زاوية سيدي يحي	مجهولة
6 . زاوية سيدي محمد بن الطيب	مجهولة
7 . زاوية سيدي أحمد أدفال	مجهولة
8 . زاوية للاحليمة	مجهولة
9 . زاوية سيدي صالح القديمة	صادقية ــ صالحية
10 . زاوية سيدي صالح الجديدة	صادقية ــ صالحية
11 . زاوية الهنا	ناصرية

ب) الزاوية ــ الدار

لم نتمكن من الحصول على المعلومات الكافية حول الزوايا ــ الدور بواحتي لكتاوة ومحاميد الغزلان.

ملحق رقم 2
بعض النماذج من الاتفاقيات التكملية



الحمد لله وحده

أشهد ونا على أنفسهم الشيخ علي ومَحمد نايت بوداوود الوزيني، والشيخ داوود أحمُّ نايت بوداوود الوزيني والشيخ محمد أحسين نايت أم الخير الوزيني انهم بحول الله وقوته وحسن توفيقه كسوا أو رفدوا أو تحملوا وتكفلوا لآل سيدي يعقوب وهم السيد محمد بن عبد المولى اليعقوبي وأولاده وبنو عمه أينما كانوا في البلاد وعبيدهم وخدامهم وحراطينهم متاهم وبهائمهم وغنيمهم وكل ما هو معروف لهم ومنسوب اليهم من المقدمين في القبائل والبلدان ومن مشى معهم في الطرقات سواء كان عدوهم أو لفهم وكل من دخل في رفقتهم يكون ما كان. ومن نهب للمرابطين شيئا وجاز به في بلدهم فإنهم يقومون مقام الجد حتى يردونه. رفدوا ذلك على جميع إخوانهم أيت وزين والزموه لأنفسهم وتركوه لأولادهم سلف من خلف الاعقاب فالاعقاب والله لا يضيع اجر المحسنين.

شهد بذلك من عرفهم وهم بحال كمال يتم في الاشهاد وفي تاريخ أول جاد الثاني عام ثلاثة وخمسين ومائتين وألف (1253هـ/1837م).

عبد ربه احمد بن محمد الفقيه اليعقوبي لطف الله به ءامين وعبد ربه محمد بن احمد السنوري التكَنتوني لطف الله به ءامين وكلهم إمْرْنْ مْيَدَرْنِينْ يعني الكاسين.

اتفاقية تكلفة بين إزَاخنَّونْ واليعقوبيين
1814/1230

الحمد لله وحده

اشهدو ونا على أنفسهم الشيخ إبراهيم نايت الهيفالزخنوني والشيخ علي نتقروت الزخنوي، والشيخ علي نفريضي الزخنوي[1] والشيخ علي نايت خيرا، ومحمد أَيَشْ نايت بُيكَزَنْ والشيخ محمد أو تَغُيْثْ، والشيخ علي نتم غضت، والشيخ محمد نايت يوسف أسَّعيب أمْرَنْ مَيدَرْنِينْ.

أنهم بحول الله وقوته كسوا ورفدوا وتحملوا وتكفلوا للولي الصالح سيدي مَحمد بن عبد المولى اليعقوبي وأولاده وبنو عمهم وإخوانه اليعقوبيون أينا كانوا في البلاد وخدامهم وعبيدهم وحراطينهم ومقدميهم من القبائل جميع متاعهم وبهائمهم وغنمهم وكل ما هو معروف لهم ومنسوب إليهم وجميع من معهم في الطرقات من كان في رفقتهم سواء كان عدوهم أو لفهم، وإن كانوا في الرفقة دابة واحدة إلى خمسين الى مائة أو أقل أو أكثر وفيها ما يعرف وينسب لآل سيدي يعقوب المذكورين فذلك كله مكسو مرفود رفدا ذلك على جميع اخوانهم أيت وللال ومن معهم في اللف من أيت عطا وغيرهم وكذلك كل ما لهم عليه قدرة. وتركوا ذلك لأولادهم سلف عن خلف الأعقاب فالاعقاب الى أن يرث الله الأرض ومن عليها والله لا يضيع أجر المحسنين ورجين من....[2] وجهه الكريم وجبر حال المسلمين وانقاد أموالهم.

شهد عليهم من أشهدوه وهم بحال كمال يتم به الاشهاد وفي تاريخ...[3] ربيع الثاني عام ثلاثون ومائتين والف (1814/1230) عبد ربه تعالى أحمد بن محمد الفقيه اليعقوبي، وعبد ربه محمد بن أحمد الصالح اليعقوبي كان الله له عامين.

(1) الزَّخنْوي : نسبة الى قبيلة إزَخنَّوَن وهي قبيلة من أيت الربع من خمس أيت وَلَّالْ.

(2) الجملة مبتورة وحسب سياق الاتفاقيات الاخرى يمكن ان نضع على البتر «راجين من الله العظيم وجهه الكريم».

(3) تاريخ اليوم مبتور.

اتفاقية تكفلية بين قبائل ايت اونير واليعقوبيين
1220هـ/1805

نحمد لله

نسخة من أصلها من غير زياة ولا نقصان

أشهدونا على أنفسهم بعض أعيان أيت اونير[1] منهم خُيٌّ[2] سعيد نايت تمكونت به يعرف السللوي[3] وخي محمد أوصح نايت خُيٌّ مَحمد النسب، وسعيد ولد يَشُّ النسب أيضا، وخُي سعيد نده الخرازي[4] واحْد[5] وعمر الخرازي أيضا وعلى بن عمر نايت الطالب المسكوري[6] وداوود اعلي الغازي المْغَجدْني[7] ومحمد ابَّدّ به عِرِف والشيخ إبراهيم مزكّان، والشيخ أغضار به عرف، أنهم بحول الله وقوته تحملوا لعمنا البركة السيد مَحمد بن عبد المولى اليعقوبي، ورفدوا وكسوا جميع ءال سيدي يعقوب البهائم والغنم وكل ما هو معروف لهم ومعلوم، ومن مشى معهم في الطرقات اللف والعدو وكل القبائل عربيا أو عجميا أو يهوديا كائن من كان كسوا ذلك على جميع قبيلة أيت أونير وكذلك المقدمين للزاوية في البلدان، فإن كتب الله وقدر الموت لهم فأولادهم يقومون مقامهم سلف عن خلف الأعقاب فالأعقاب الى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

وكذلك كسوا للعيال والسكان والحراطين وكل من دخل في سور الزاوية اليعقوبية ومن مشى مع البهائم في الطريق وتكفل اخرزن بذلك كله وكذلك عمنا رفد لهم كثرة المال والأول والعز على القبائل وكسوا على إخواننا بهسكورة وايت ووزكيت واين كان هو من يعقوبي، وكتب في أوائل شعبان عام عشرين ومائتين والف (1805/1220م)، عبد ربه احمد بن محمد الفقيه العقوبي لطف الله به ءامين، وعبد ربه تعالى ابراهيم بن الحسين التبرسوتي لطف الله به ءامين وعبد ربه مَحمد بن ابراهيم اليعقوبي.

توضيح لبعض كلمات وأعلام الاتفاقية

(1) فيما يخص قبائل أيت أونير انظر ما سبق ان كتبناه عن هذه القبائل في الوثيقة رقم (1) من الفصل الذي خصصناه للاتفاقيات التكفلية.

(2) خي : صيغة لأخ وتستعمل في بعض مناطق درعة للتعظيم لكبير العائلة.

(3) السللوي : نسبة إلى قبيلة أيت سليلو انظر الوثيقة رقم (1) من الفصل الخاص بالاتفاقيات التكفلية.

(4) الخرازي : نسبة الى قبيلة إخرَّزَنْ من قبائل أيت أونير.

(5) حْـدْ : لغة في أحمد.

(6) المسكوري : نسبة الى أيت مسكور (G. Spilmann : les Ait Atta p. 78).

(7) المْغَجَدْني : نسبة الى قبيلة أيت أم غجدين من قبائل أيت اونير بوادي درعة.

ملحق رقم 3
بعض الظهائر السلطانية
الخاصة ببعض الزوايا بدرعة

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله

يعلم من كتابنا هذا أعلا الله مناره وأدام مجده وفخاره أننا بحول الله وقوته وشامل
إفضاله ومنته ولينا المرابط الأرضى الطالب عبد العزيز بن ادريس من ذرية السيد الشيخ
ابن احمد نفع الله به امرزاويتهم ببوادي درعة وغيرها وأسندنا اليه أمورها
الخاصة والعامة التي من جملتها قبض مستفاداتها وصرفها في مصارفها المعلومة
لها على نهجها المعروف وطريقها المألوف فنأمر الواقف عليه من عمالنا وولاة
أمرنا أن يعمل بمقتضاه ويعمل حده كلما اقتضاه والسلام صدر به أمرنا المعتز بالله
في 23 جمدى الاولى عام 1303

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وءاله

الطابع الكبير للسلطان مولاي الحسن

يعلم من كتابنا هذا أعلا الله مناره وأدام مجده وفخاره أننا بحول الله وقوته وشامل إفضاله ومنته ولينا المرابط الأرضى الطالب عبد العزيز بن ادريس من ذرية السيد الشيخ بن احمد نفع الله امرزاويتهم بوادي درعة وغيرها وأسندنا اليه أمورها الخاصة والعامة التي من جملتها قبض مستفاداتها وصرفها في مصارفها المعلومة لها على نهجها المعروف وطريقها المألوف. فنامر الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بمقتضاه ويعمل حده كلما اقتضاه والسلام. صدر به أمرنا المعتز بالله في 23 جمدى الاولى عام 1303/1885م.

الحمد لله وحده   وصلى الله على مولانا محمد وءاله وصحبه

الطابع الصغير وبداخله

عبد العزيز بن الحسن وليه الله ومولاه

المرابط الأرضى الطالب عبد العزيز بن ادريس حفيد السيد الشيخ بن أحمد بزاوية تمسلا من درعة وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وبعد وصل كتابك بأنك وجهت ولدلك نائبا عنك بما وجهته من الهدية طالبا تجديد الظهائر الشريفة التي وجهتها صحبته وصار بالبال. فأما ولدلك فقد وصل وقوبل بما ينبغي أن يقابل به وتوجه مسرورا بسلام. وأما ما وجهت من الهدية فقد وصل بارك الله وأخلف. وأما الظهائر فقد جددناها والسلام عام 1313هـ/1895.



الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله

الطابع الكبير للسلطان مولاي عبد العزيز

جددنا بحول الله وقوته وشامل يمنه وبركاته لحامله المتمسك بالله وبه المرابط الأرضى الخير البركة السيد عبد العزيز بن ادريس بن يوسف من ذرية سيدي الشيخ ابن أحمد نفه الله به ويتعرف منه أننا جددنا له على ما بيده من ظهير مولانا الوالد قدس الله روحه ونور ضريحه وظهائر أسلافنا الكرام قدس الله أرواحهم في دار السلام وأقررناه على ما عهد لاسلافه رحمهم الله من التوقير والاحترام والحمل على كاهل المبرة والاكرام وحاشيناهم عما تطالب به العوام من الوظائف المخزنية والتكاليف الامامية تجديد وإقرارا تأمين شامليين لاقاربه وأبناء عمه وزواياه التي بوادي درعة وغيرها على الرسم المعهود لهم في ذلك كله فلا سبيل لمن يخرق عليهم عادة أو يحدث في جانبهم نقصا أو زيادة وحسب الواقف عليه من عمالنا وولاة أمرنا أن يعمل بما فيه ولا يتجاوزه الى ما ينافيه والسلام.

صدر به أمرنا المعتز بالله في منتصف شوال الأبرك عام 1313هـ/1895.

الحمد لله وحده — صلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله.

محبنا الأعز الأرضى المرابط البركة الخير الدين السيد محمد بن أبي بكر الناصري ءامنك الله وسلام عليك ورحمة الله عن خير سيدنا نصره الله. وبعد وافانا كتابك فتيمنا بوروده وتنسمنا من زهوره ووروده، وفهمنا ما أشرت إليه من مواظبتكم على الدعاء لنا بكل خير كل حين ودءوبكم وعدم غفلتكم عنا في جميع أحوالكم قياما وقعودا وعلى جنوبكم وأنكم لازلتم في ضيافة سيدنا نصره الله معظمين مكرمين. وقد ولاك أيده الله نظر الزاوية وبسط لك يد التصرف في ساير احباسها القاصية والدانية وأباح لك حوز مستفادات الزاوية في جميع الأقطار من بادية وحواضر وأمصار ولم يسمع أعزه الله لمنازعيك كلاما بل أمرو بالصلح والدخول لليد انقيادا واستسلاما ففعلوا وامتثلوا ونزع ما في صدورهم من غل وقفلوا وتحققت أن ذالك من ءاثار ثنائنا على جانبك وسعينا في كل ما يجلب رضى سيدنا عنك والعناية بك فنعم الأمر كذلك بشهادة الله والمومن ينظر بنور الله على أن الكل في الحقيقة لله وبالله وما بكم من نعمة فمن الله. فلقد سرنا والله ذالكم ووقع منا بالموقع فالحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنال المتاجر الرابحات فأنتم الأهل لا... واكم أبلغ المنى من ناواكم ونحن على عهدك ومحبتك وصميم موالاتك ومودتك الى لقاء الله جعلها الله لوجهه العظيم خالصة ذات ظلال ضافية غير قالصة بمنه وطوله ولا تغفلوا بدعائكم عنا بمظانه ولا بد والسلام في 24 رجب الفرد الحرام عام 1871/1288.

الطابع الصغير وبداخله

الحسن بن أمير المومنين وفقه الله

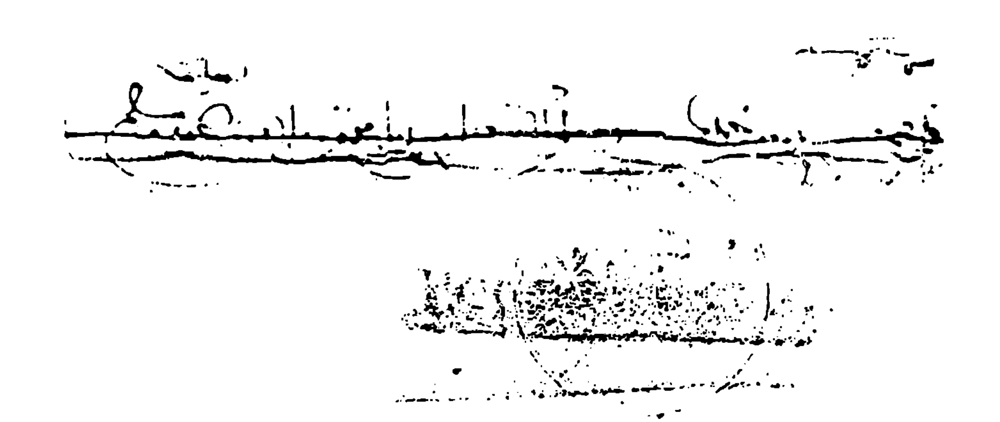


الحمد لله وحده   صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وءاله

محبنا الأرضى المرابط الخير البركة السيد محمد بن محمد بن عبد المولى الدرعي اليعقوبي سلام الله عليك ورحمة الله عن خير سيدنا نصره الله وبعد فقد وصلنا كتابك وفرحنا بوروده وتبركنا به وبقراءته وعرفنا منه ما طلبته من توجيه شيء من الخل الجيد لك مع ما تيسر من عود البخور فكلاهما يرد عليك صحبة صاحبك الوارد بكتابك وفق ما طلبت وعلى محبتكم طالبا منكم صالح الدعا والسلام. في 29 محرم عام 1870/1287.

الطابع الصغير وبداخله

الحسن بن أمير المومنين وفقه الله



الحمد لله وحده   وصلى الله على سيدنا محمد وءاله وصحبه وسلم

الطابع الكبير للسلطان مولاي اسليمان

محبنا المرابط الفقيه الارضى السيد أبي بكر بن البركة السيد علي بن يوسف الناصري سلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. أما بعد عظم الله أجرنا واجرك في والدك رحمه الله وجعل البركة فيك وأورثك سر أسلافك ءامين. ولقد وجهنا اليك كتابان بالتعزية في والدك أحدهما على يد الصريري والأخر مع رسولك فاقدم لحضرتنا بمراكشة واصحب معك أعيان قبائل درعة كلها فمرحبا بك وأهلا وبكل من أتى معك والسلام في حادي عشر شوال الأبرك عام 1235هـ/1819.

فهرس

المدخل

الفصل الأول :

المعطيات الجغرافية ومراحل التعمير الى حدود القرن السابع الهجري / 13م

الفصــل الثانــي :
هجرة القبائل الى درعة

الفصــل الثالــث :
ظهور المشيخات الكبرى بدرعة قبيل قيام الدولة السعدية / 13م

الفصــل الرابــع :
الصراع على السلطة بدرعة
خلال النصف الاول من القرن الحادي عشر الهجري / 17م

الفصـــل الخامـــس :
اتحادية أيت عطا وعلاقتها بالمخزن

الفصـــل الســـادس :
مشكل التراتب الاجتماعي

الفصـــل الســـابـــع :
الاتفاقيات التكفلية مع أصحاب الزوايا والحراطين

الفصـــل الثـامـــن :
أسس التنظيمات السياسية والاجتماعية عند قبائل القصور بدرعة

الفصـــل التـــاســـع :

تنظيم العلاقات بين قبائل وادي درعة في ضوء اتفاقيات تيسى والاتفاقيات الصلحية

الفصـــل العـــاشـــر :

الحياة الاقتصادية بواحات وادي درعة

ردمك : 9981 34 002 2